

جاك لندن

العقب الحربية

رواية عقائدية اشتراكية

مع نقف قبداة القواسم

تعريب

800 26 57 5804 E9

AXIELL
BOOK-IT



STADKHOIM9 STADSBIBLIOTEK
Magasbiblioteket Vux 6100



MAGASIN

Hsg

Ex. 2

L o n d o n

al-‘Aqib al-hadīdīyah

SSB 151
80.02 100.000

153

جاك لندن

العقب الحديدي

رواية عقائدية استراكية

مع مقدمة بقلم الكاتب الخالد أناتول فرانس

نقلها إلى العربية

منير العلي بكري

دار العلم للناشرين
بيروت

THE IRON HEEL

by
JACK LONDON

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة
شباط (فبراير) ١٩٧٩

مقدّمة

بقلم الكاتب الفرنسي الخالد
أنتاول فرانس

« العقب الحديدية » هو الاسم القوي الذي يرمز به « جاك لندن » الى البلوتوقراطية * . والكتاب الحامل هذا الاسم انما نشر عام ١٩٠٧ . وهو يصور لنا فيه الصراع الذي سينشب ذات يوم - اذا ما سمحت بذلك الالهة في لحظة من لحظات غضبها - بين البلوتوقراطية والشعب ، والاسفا ! لقد كان جاك لندن يتمتع بتلك العبقرية الفريدة التي تدرك ما هو محبوب عن سواد الناس ، ويملك معرفة خاصة تمكنه من الكشف عن ضمير المستقبل . لقد تنبأ بمجموعة الاحداث تلك التي لم تتكشف لابصارنا الا اليوم . والدراما الرهيبة التي يدعونا اليها لما تحدث ، فعلا ، حتى الان ، ولسنا ندري متى ستتحقق النبوءة الرابعة التي أطلقها هذا المريد الاميركي من مريدي ماركس . لقد كان جاك لندن اشتراكيا ، اشتراكيا ثوريا . والرجل الذي يظن - في هذا الكتاب - الى الحقيقة ، ويتنبأ بالمستقبل ، الرجل الحكيم القوي الطيب ، يدعى ارنست ايفرهارد . وكان ارنست هذا ، كالمؤلف ، من ابناء الطبقات الكادحة ، وكان يعمل بيديه الاثنتين ، ذلك بأنه يتعين عليك أن تعرف ان مؤلف هذه القصة الذي أنتج خمسين مجلدا مذهلا ، زاخرا بالحياة والذكاء ، والذي مات مع ذلك في ريعان الشباب ، كان ابن فلاح ، وقد شرع يكسب رزقه وهو بعد في العاشرة من عمره ، من طريق بيع الصحف . وارنست ايفرهارد مفعم بالشجاعة والحكمة ، مفعم بالقوة والكياسة وكلها صفات مشتركة بينه وبين المؤلف الذي خلقه . ولاتمام الشبه القائم

* Plutocracy او حكومة الاغنياء .

بينهما يهب الكاتب ، المؤلف ، بطله الذي خلقه امرأة ذات روح عالية وذكاء عظيم ، امرأة يشربها زوجها التعاليم الاشتراكية فتعتنقها ، وهو يذكرنا بما نعرفه من أن تشيرميان كيتريدج لندن ، تركت مع زوجها جاك حزب العمال بعد أن ظهرت أمارات الضعف على تلك المؤسسة مباشرة .

ان الثورتين اللتين تشكلان مادة هذا الكتاب الذي أقدمه الى القارئ دمويتان جدا ، وهما تمثلان في خطة اولئك الذين اثاروهما كثيرا من الغدر وفي طريقة تنفيذهما كثيرا من الوحشية ، الى حد يجعل المرء يتساءل : أمن الممكن ان يقع شيء مثل ذلك في أيما يوم من الايام في اميركة ، في أوروية ؟ أمن الممكن ان يقع شيء مثل ذلك في فرنسا ؟ وأنا شخصا ما كنت لاصدق بأنه ممكن لو لم تكن أمامي صورة تلك الايام الحزيرانية التي اخضعت فيها ثورة العامة (الكومون Commune) سنة ١٨٧١ ، والتي تذكرنا بأن كل شيء جائز ضد الفقراء . ولقد اثبتت تجارب العصور ان البروليتاريا في كل بلد ، سواء اكان ذلك البلد اوروبيا او اميركيا ، تشكل اغراء « للعقب الحديدية » على نحو لا يقاوم .

فالاشتراكية في فرنسا ، شأنها في ايطالية واسبانيا ، هي اليوم اضعف من ان يكون لديها ما تخافه من « العقب الحديدية » ، لان الضعف البالغ هو حزام السلامة بالنسبة الى الضعيف . فليس ثمة « عقب حديدية » تجشم نفسها عناء الوطء على هذا الحزب المهزىل الشبيه بالتراب . وما الداعي الى اضعافه ؟ الواقع ان سحقه يقتضي جهدا قليلا ، ليس غير ، في فرنسا حيث البروليتاريا ضئيلة العدد . ولاسباب مختلفة ، وجدنا ان الحرب - التي كانت بالغة القسوة على الطبقات المتوسطة الدنيا ، سالبة اياها من غير ان تنتزع منها صيحة واحدة ، اذ كانت مخلوقات خرساء - لم تكن على مثل هذه القسوة مع العامل المستخدم في الصناعات الكبرى ، ذلك العامل الذي وجد من طريق صنع القنابل ما يسد به رمقه ، والذي كان اجره هزيلا جدا عندما وضعت الحرب اوزارها ومع ذلك فانه لم يهبط أكثر مما ينبغي قط . لقد حرص رجال الساعة على ذلك وجعلوه هما من همومهم ! وعلى أية حال فهذه الاجور لم تكن غير ورق ما كان زعماء الصناعة الاثرياء - الذين تشدهم بالسلطات العليا أقوى الصلات - ليجدوا كبير عناء في الحصول عليه . وهكذا وفق العامل الى العيش على خير وجه استطاعه . وكان قد سمع من الاكاذيب ما جعله لا يعجب ، بعد ، لا يما شيء ولا يستغربه . في تلك الفترة بالذات اختار الحزب الاشتراكي ان يتحطم وان يحيل نفسه الى هباء . ولقد كان هذا هزيمة عظيمة للاشتراكية ، هزيمة تمت من غير ما قتلى أو جرحى ! ولكن

كيف كان ذلك ؟ ان الاسباب التي ذكرتها كافية لتفسير المسألة . ولا ريب في ان الحرب مسؤولة عن شيء من ذلك .
ولكن الصراع بين العمل ورأس المال لا بد ان يستأنف يوما . عندئذ سوف نشهد أياما كأيام ثورتى سان فرانسيسكو وتشيكاجو اللتين تكهن جاك لندن بهولهما الذي يعز على الوصف . وليس شمة أيما سبب يحمل على الاعتقاد بأن الاشتراكية سوف تسحق في تلك الساعة – سواء أكانت عاجلة أم آجلة – تحت العقب الحديدية وتغرق في الدماء .

في عام ١٩٠٧ كان جاك لندن يعتبر متشائما مفرزا ، حتى الاشتراكيون المصادقون لأموه للاقائه الرعب في صفوف الحزب ، لقد كانوا مخطئين ، ذلك بأن أولئك الذين وهبوا القدرة الثمينة النادرة على النفاذ الى ضمير الغيب لا معدى لهم عن اظهار المخاطر التي تتجلى لهم . وأنا اذكر اني سمعت « جوريس » العظيم يقول مرات عديدة : « ان قوة الطبقات التي يمتعن علينا النضال ضدها لا تحظى منا بالتقدير الكافي . ان تلك الطبقات قوية ، ويقال انها فاضلة . لقد اطرح كهانها اخلاق الكنيسة ليعتقدوا اخلاق العمل ، وحين يتهدد الخطر تلك الطبقات يسرع المجتمع قلبا واحدا للدفاع عنها » . ولقد كان من واجبه ، كما كان من واجب جاك لندن ، ان يرفع أمامنا المראה النبوية التي تنعكس فيها أخطاؤنا وغفلاتنا .

الا فلنجنب تعريض المستقبل للخطر . انه لنا . فالبلوتوقراطية سوف تهلك . ونحن نستطيع منذ الان أن نلاحظ في مظاهر قوتها ذاتها أمارات انهيارها . انها سوف تهلك ، لان كل حكومة طبقية مقضي عليها بالموت . انها سوف تهلك لانها غير عادلة . انها سوف تهلك ، وهي منتفخة بالاعتزاز مطمئنة الى انها بلغت اوج قوتها ، كما قد هلك الاسترقاق وهلك القنانة سواء بسواء . وحتى في يوم الناس هذا يستطيع من ينعم النظر أن يرى انها متداعية الى السقوط . ان هذه الحرب ، التي رغبت فيها المصالح التجارية الكبرى في جميع بلدان العالم ، هذه الحرب التي كانت حربيها * ، هذه الحرب التي علقت عليها أملها في الفوز بثروات جديدة ، قد احدثت خرابا هو من الاتساع والعمق بحيث زعزعت الاوليغاركية ** الدولية نفسها ، وان اليوم الذي تنهار فيه على أوربية خربة قد أمسى قريبا .
أنا لا أستطيع أن أزعم لكم ان الاوليغاركية سوف تهلك في الحال ومن

* يقصد انها كانت حرب البلوتوقراطية * (المعرب)

** Oligarchy او حكومة القلة * (المعرب)

غير ما كفاح . انها سوف تكافح . ومن يدري ، فقد تكون حربها الاخيرة طويلة ، متفاوتة المصائر . ايه يا ورثة البروليتاريين ! ايه يا اجيال المستقبل ، ابناء الايام التي ستهل ! انكم سوف تناضلون ، وحين تشرع الخيبات في حملكم على الشك بنجاح قضيتكم فلا ريب في انكم سوف تستعيدون شجاعتكم وترددون مع ايفرهارد النبيل : « لقد خسرناها مؤقتا . ولكن ليس الى الابد ! لقد تعلمنا أشياء كثيرة . وغدا تنهض القضية من جديد ، وهي اقوى بالحكمة وروح الانضباط . »

اناتول فرانس

الفصل الأول

نصري

ان نسيم الصيف العليل ليثير اغصان « الشجر الاحمر » ، وان مياه « الوايلد ووتر » لتتموج موقعة انغاما عذبة على صخورها المطحلبة * .
الفراشات تسرح في اشعة الشمس ، ومن كل مكان ينبعث طنين النحل الوستان* .
ان كل شيء هادىء جدا ، آمن جدا ، واني لاجلس هنا ، واستغرق في التفكير ، مضطربة النفس قلقة . فالهدوء هو الذي يوقع في نفسي الاضطراب والقلق . انه يبدو غير حقيقي . العالم كله هادىء ، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . واني لارهق عيني ، وحواسي كلها ، بحثا عن شيء ينم عن تلك العاصفة الوشيكة . اوه ، شد ما ارجو ان لا تكون مبتسرة فجأة ! شد ما ارجو ان لا تكون مبتسرة فجأة !

ان اضطرابي وقلقي لا يدعوان الى كبير عجب . فانا افكر ، وافكر ، وليس في استطاعتي ان اكف عن التفكير . فقد عشت احفل سنوات العمر بالزخم طوال الفترة التي ارهقت فيها بالامن والهدوء ، وليس في ميسوري

* المكسوة بالطحالب .

١ كانت « الثورة الثانية » من عمل ارنست ايفرهارد في المحل الاول ، على الرغم من انه تعاون ، طبعاً ، مع الزعماء الاوروبيين . ولقد كان اعتقال ايفرهارد واعدامه السري الحدث الاكبر في ربيع ١٩٣٢ م . ومع ذلك فقد كان الاعداد الذي اعده للثورة دقيقاً الى درجة جعلت شركاءه في التآمر قادرين ، في قليل من الاضطراب او من التواني ، على وضع خطته موضع التنفيذ . وبعد اعدام ايفرهارد قصدت زوجته الى « وايك روبن لودج » Wake Robin Lodge ، وهو بيت خلوي في « سونوما هيلز » Sonoma Hills بكاليفورنيا .

الاقلاع عن التفكير في دوامة الموت والخراب المجنونة تلك التي ستتفجر عما قريب . ان صبيحات اليأساء لتضج في اذني ، وان في وسعي ان ارى ، كما قد رايت في الماضي ٢ ، تشويه اللحم البشري الغض الجميل وتمزيقه ، وانتزاع الارواح في عنف من الاجساد المغترّة بنفسيها ودفعها الى الله في قسوة بالغة . وعلى هذا النحو نحقق نحن البشر المساكين اهدافنا ، مناضلين في خضم من الاشلاء والخراب لكي نحمل الى الارض سلما دائما وسعادة مقيمة .

ثم انني احيا متوحدة مستوحشة . وحين لا افكر في الذي سيحدث في مقبلات الايام افكر في الذي كان ثم زال - افكر في نسري وهو يضرب الفراغ بجناحين لا يتسرب اليهما الكلل ، محلقا نحو ما كان شمسه دائما : المثل الاعلى المنير للحرية الانسانية . اني لا استطيع ان اقد كسلى متبلة وانتظر الحدث العظيم الذي هو من صنعته ، على الرغم من أنه ليس بيننا حتى يرى . لقد وقف سنوات رجولته كلها من أجله ، ومن أجله جاد بحياته . الثورة عمل يده . كان هو صانعها ٣ .

ومن هنا ، عقدت العزم على ان افرغ ، في فترة الانتظار القلق هذه ، للكتابة عن زوجي . ان ثمة ضوءا كثيرا استطيع انا وحدي من دون جميع الاشخاص الاحياء ان اقيه على شخصيته ، وشخصية على هذا النبل كله لا يمكن ان ترسم باللوان مشرقة أكثر مما ينبغي . لقد كان روحا عظيمة ، وحينما يصبح حبي عاريا عن الانانية لا أسف لشيء مثل أسفي لانه ليس هنا حتى يشهد فجر الغد . اننا لا يمكن أن نخفق . لقد كان البناء الذي بناه اقوى واوثق من ان يجعل الاخفاق جائزا . الويل « للعقب الحديدية » ! انها سوف ترد ، وشيكاً ، عن الانسانية المنطرحة على الارض خائفة القوى . وحين تطلق كلمة السر تنهض جماهير العمال في أرجاء العالم كله . ان شيئاً مثل هذا لم يحدث قط من قبل في تاريخ العالم . لقد توثقت وحدة صفوف العمال ،

٢ لا ريب في أنها تشير هنا الى « كومون (ثورة العامة) تشيكاغو » .

٣ مع احترامي كله لافيس ايفرهارد Avis Everhard يتعين علي اشير ان ارنست ايفرهارد لم يكن غير واحد من زعماء كثيرين بارعين وضعوا خطة « الثورة الثانية » . ونحن اليوم ، اذ نرجع البصر عبر القرون ، نستطيع ان نقول في اطمئنان انه حتى ولو عاش ارنست ايفرهارد فان حصيلة « الثورة الثانية » ما كان لها ان تكون اقل ازاء وفواجع مما كانت .

وللمرة الاولى سوف نشهد ثورة دولية واسعة سعة العالم نفسه ٤٠
وهكذا ترى اني مشبعة بالذي يوشك ان يقع ٠ لقد عشته ليلا ونهارا
على نحو مطلق ، وطوال فترة مديدة من الزمن حتى لقد اصبحت ماثلا ابدا
في ذهني ٠ ويقدر ما يتعلق الامر بهذه القضية لا أستطيع ان افكر في زوجي
من غير ان افكر فيها ٠ لقد كان هو روحها ، واني لي ان افصل في ذهني ما
بين الاثنين ؟

ان ثمة ، كما قلت من قبل ، ضوءا كثيرا لا يقوى احد غيري على اللقاء
على شخصيته ٠ والناس كلهم يعرفون انه كدح من اجل الحرية كدحا عنيفا
وقاسى في سبيلها ما قاسى ٠ اما انا فاعلم احسن العلم مدى العنف الذي
ميز كدحه والى أي حد كان ما قاساه موجعا ٠ ذلك بانني كنت الى جانبه خلال
هذه السنوات القلقة العشرين ، وانا اعرف اضطباره ، وجهده الذي لا يتطرق
اليه التعب ، واخلاصه اللانهائي للقضية التي قدم حياته ، منذ شهرين ليس
غير ، قريبا لها ٠

اني سأحاول ان اكتب في بساطة ، وأن أروي ههنا كيف دخل ارنست
ايفرهارد حياتي - كيف لقيناه أول مرة ، كيف نما حتى اصبحت جزءا منه ،
والتغيرات الضخمة التي أحدثها في حياتي ٠ وبهذه الطريقة يكون في ميسورك
ان تنظر اليه بعيني وتكتشفه كما اكتشفته انا - أروي كل شيء ما خلا
الاشياء التي تحول سريتها البالغة وعذوبتها البالغة دون الافضاء بها ٠
وانما كان اول اجتماعي به في شباط (فبراير) عام ١٩١٢ ، عندما
وفد الى بيتنا في بيركلي لتناول طعام العشاء بدعوة من أبي ٠ وليست استطيع

٤ لقد كانت « الثورة الثانية » دولية حقا ، كانت عملا ضخما ، عملا اضخم من
ان يكون عمل رجل واحد ليس غير ٠ والواقع ان العمال ، في جميع اوليفاريكات العالم ،
كانوا قد اعدوا للنهوض عند تلقي الاشارة بذلك ٠ كانت المانية ، وايطالية ، وفرنسية ،
وأستراليا Australasia كلها بلدانا عمالية - دولا اشتراكية ٠ كانت على
استعداد لان تمد يد العون الى الثورة ٠ ولقد فعلت ذلك في شهامة ٠ من اجل ذلك ما
ان سحقت « الثورة الثانية » حتى سحقت تلك الدول ايضا من قبل اوليفاريكات العالم
المتحدة ، واقامت مكان حكوماتها الاشتراكية حكومات اوليفاريكية ٠

٥ كان جون كانيغهام ، والد أيفيس ايفرهارد ، استاذا في جامعة بيركلي ،
بكاليفورنيا وكان حقله المختار هو الفيزياء ، وبالإضافة الى ذلك قام بنشاط واسع في
حقل البحوث الاصلية وكان يتمتع بمكانة مرموقة كعالم ٠ اما مائثرته الرئيسية ، فهي
العلم ، فدراساته للاكترون ، وكتابه العظيم « تماثل المادة والطاقة » حيث قرر على

ان اقول ان انطباعتي الاولى عنه كانت حسنة . كان واحدا من كثيرين دعوا الى تناول الطعام ، وفي حجرة الاستقبال ، حيث اجتمعنا وانتظرنا وصول المدعوين كافة ، كان ظهوره متنافرا او يكاد . كانت تلك الليلة « ليلة مبشرين » كما دعاها ابي في ما بيننا ، ولا ريب في ان ارنست كان « في غير موضعه » وسط رجال الكنيسة .

كانت ملابسه ، في المحل الاول ، لا تلائمه . كان يرتدي بذلة جاهزة الصنع خيطة من قماش داكن ، بذلة غير متناغمة مع جسده ، والواقع انه ليس في طاقة ايما بذلة جاهزة الصنع ان تتناغم مع جسده البتة . وفي تلك الليلة ، كشأنه دائما ، كان القماش متورما بعضلاته ، في حين ان سترته كانت بين منكبیه ، ويسبب من نمو كتفيه نموا كبيرا ، شبكة معقدة من التجاعيد . كانت عنقه اشبه بعنق مصارع محترف طمعا في الجوائز المالية ٦ ، غليظة وقوية . وقلت في ذات نفسي : « واذن فهذا هو الفيلسوف الاجتماعي ونمال الخيل السابق الذي اكتشفه ابي ! » ولا ريب في ان هيئته كانت تنم عن هذا ، بتلك العضلات المنتفخة وهذه الحنجرة الشبيهة بحنجرة الثور . وصنفته في الحال - هولة من ضرب ما ، كذلك قلت في ذات نفسي ، « توم اعمى » من ابناء الطبقة العاملة ٧ .

وبعد ذلك ، عندما صافحتني ! كانت مصافحته ثابتة وقوية ، ولكنه نظر الي في جسارة بعينيه السوداوين - بجسارة اكثر مما ينبغي ، كذلك قلت لنفسی . فقد كنت ، كما ترى ، مخلوقة من مخلوقات البيئة ، وكانت تهيم علي في ذلك الحين غرائز طبقية قوية . ولو قد واجهني رجل من ابناء طبقتي

== نحو نهائي لا يحتمل الجدل ان الوحدة المطلقة من المادة والوحد المطلقة من الطاقة متماثلتان .

وهذه الفكرة كان قد طلع بها من قبل ، ولكن من غير ما اقامة الدليل ، السير اوليفر اودج وغيره من الباحثين في ميدان « النشاط الاشعاعي » ، Radio-Activity الجديد .

٦ في تلك الايام كان من عادة الرجال ان يتنافسوا في سبيل الفوز باكياس المال . كانوا يتصارعون بالايدي . حتى اذا غلب احد المتصارعين - بان فقد وعيه او سقط في الساحة قتيلا - استولى الاخر على المال .

٧ في قوله « توم اعمى » ، Blind Tom ، اشارة غامضة - الى موسيقي زنجي اعمى ملا الدنيا وشغل الناس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لميلاد المسيح . شبيها بالمسيح في مظهره وطيبته ، وكان عالما ايضا .

الاجتماعية يمثل هذه النظرة الجسور اذن لكان صنيعة ذاك شيئا وراء الصفح والغفران . وانا أعلم اني لم أستطع الا أن أخفض عيني ، ولقد تنفست الصعداء عندما اجتزته واستدرت لارحب بالاسقف مورهاوس الاثير عندي - وكان رجلا عذبا مؤثرا للجد ، تخطى مرحلة الشباب وانتهى الى الكهولة ، ولكن هذه الجسارة التي حسبتها وقاحة كانت مفتاحا حيويًا لطبيعة ارنست ايفرهارد . كان بسيطًا ، صريحًا ، لا يخشى شيئا ، وكان يرفض اضاعه الوقت في ضروب التصنع التي يقضي بها العرف والتقليد . « لقد أعجبني » ، كذلك أوضح لي بعد ذلك بفترة طويلة ، « ولماذا لا أملا عيني بما يعجبني ؟ » قلت انه لم يكن يخشى شيئا . لقد كان أرسطوقراطيا بالفطرة - وذلك بالرغم من أنه كان منحازا الى معسكر اللارسطوقراطيين . كان « سوبرمان » ، حيوانا أشقر كالذي وصفه نيتشه^٨ ، وبالإضافة الى ذلك كان متقدما بالديمقراطية .

وكان في اهتمامي بالاجتماع الى الضيوف الآخرين وفي انطباعتي الاولى غير الملائمة ما انساني كل شيء عن فيلسوف الطبقة العاملة ، على الرغم من اني لمحت على مائدة الطعام مرة أو مرتين ، ولحت بخاصة ذلك الوميض الذي برقت به عيناه وهو يصغي أولا الى حديث هذا القس ثم الى حديث ذاك . وقلت في ذات نفسي انه ظريف ، وكدت أغفر له ثيابه . ولكن الزمان مر ، والعشاء انقضى ، ولم يفتح فمه ليتكلم قط ، بينما تحدث القسس على نحو لا نهائي عن الطبقة العاملة وصلتها بالكنيسة ، وعما فعلته الكنيسة - أو كانت تفعله من أجلها . ولاحظت ان والدي كان منزعجا لان ارنست لم يتحدث . ومرة أفاد والدي من إحدى فترات الهدوء فسأله أن يقول شيئا ، ولكن ارنست هز كتفيه قائلا : « ليس عندي ما أقوله » . واصل التهامه حبات اللوز المملح .

ولكن والدي ما كان ليرضى بأن لا يجاب الى رغبته . فقال بعد فترة : « ان بيننا ههنا عضوا من أعضاء الطبقة العاملة . وأنا واثق من أن في استطاعته أن يصور لنا الوضع من وجهة نظر جديدة خليق بها أن تكون ممتعة ومنمشة . وانما أشير بذلك الى مستر ايفرهارد » . فببت على وجوه الآخرين امارات اهتمام مهذب ، وسألوا ارنست - في الحاح - ان يبسط وجهة نظره . كان موقفهم منه متسامحا جدا ولطيفا

^٨ فريدريك نيتشه ، فيلسوف القرن التاسع عشر المجنون ، الذي بصر بومضات من الحقيقة أبدية ، ولكنه عاد قبيل وفاته فاتحرف نحو الجنون .

جدا الى درجة جعلته راشعا بالتنازل والتفضل حقا . ورايت ان ارنست قد لاحظ ذلك ، وانه سر به . وفي اثناء اجال طرفه في ما حوله ، ولحت ومضة الضحك في عينيه :

لقد استهل حديثه قائلا :

« أنا لست متضلعا من آداب الجدل الاكليركي » .

ثم اعتصم بالصمت في حياء وتردد ؟

والحوا عليه قائلين :

« تابع ! »

وقال الدكتور هامرفيلد :

« نحن لا نمانع في سماع الحقيقة عن أي رجل صدرت . ثم أضاف

مستدركا : « اذا كانت مخلصة » .

فقال ارنست ، وهو يسرع الى الضحك :

« اذن فانت تفصل الاخلاص عن الحقيقة ؟ »

فلث الدكتور هامرفيلد ، وحاول أن يجيب فقال :

« ان خيارنا قد يخطئون ، أيها الفتى ، أجل خيارنا قد يخطئون ! »

وفي الحال تغير موقف ارنست . لقد امسى رجلا اخر . وأجاب :

« حسن جدا . دعني ابدا بالقول انكم جميعا مخطئون . انتم لا

تعرفون شيئا عن الطبقة العاملة . بل ان جهلكم لهذه الطبقة فاضح اكثر من

ذلك بكثير . ان صوصيولوجيتكم * لا تقل رداءة وتفاهة عن طريقة تفكيركم ! »

ولم يكن العنصر الموجه كامنا في الكلمات نفسها بقدر ما كان كامنا في

اللهجة التي أفرغها فيها . وأفقت لدن سماعي أول نبرة من نبرات صوته .

كان ذلك الصوت جسورا مثل عينيه . كان نفخة صور اوقعت الرعدة فسي

أوصالي . واستثيرت المائدة كلها ، ودبت فيها حياة جديدة انتشلتها من

رتابتها ونعاسها .

فسأله الدكتور هامرفيلد :

« وما هو الرديء التافه الى هذا الحد الرابع في طريقة تفكيرنا ،

أيها الفتى ؟ » وكان في صوته وفي أسلوب أدائه شيء بغيض .

« انتم ميتافيزيقيون . وان في استطاعة الواحد منكم ان يقيم الدليل

على أي شيء من طريق الميتافيزيقا . ** حتى اذا تم له ذلك استطاع ان يثبت

* الصوصيولوجيا : علم الاجتماع .

** او « ما وراء الطبيعة » .

– تبعاً لإغراضه – خطأ الميتافيزيقيين الآخرين كافة • أنتم فوضويون في دنيا الفكر • أنتم صانعو أكوان Cosmos Makers معتموهون • وأن كلا منكم ليقوم في « كون » Cosmos من صنعه هو ، كون مخلوق من أهوائه ورغباته • أنكم لا تعرفون العالم الواقعي الذي فيه تعيشون ، وتفكيركم ليس له مكان في العالم الواقعي إلا بقدر ما هو ظاهرة من ظواهر الضلال العقلي •

« هل تدري ما الذي ذكرتني به وأنا جالس إلى المائدة اصغى لك تحدث وتحدث ؟ لقد ذكرتني على وجه الضبط بمدرسي Scholastics القرون الوسطى الذين تجادلوا بترصن وتعاليم في هذه المسألة الممتعة : كم ملاكاً يستطيع أن يرقص على رأس إبرة ؟ ولا عجب ، يا سادتي الاعزاء ، فأنتم بعيدون عن حياة القرن العشرين بعد الساحر الهندي الذي كان يصنع الرقى في الغابة البدائية قبل عشرة آلاف سنة • »

لقد بدا أرنست ، وهو يتكلم ، مضطرباً بانفعال رائع • كان وجهه متقدماً ، وكانت عيناه تقديحان وتومضان ، وكانت ذقنه وفكه فصيحين باللزعة العدوانية • ولكن ذلك كله لم يكن غير طريقة من طرائقه • أن طريقته هذبة في الهجوم ، طريقته المشهمة وكأنها تصطنع مطرقة كبيرة ، كانت تثير الناس دائماً ، ولطالما جعلتهم ينسون أنفسهم • ولقد شرع ضيفنا ينسون أنفسهم الآن • كان الأسقف مورهاوس منحنياً إلى أمام يصغي في انتباه بالغ • وكان الحق والغضب يشيعان الدم في وجه الدكتور هامرفيلد • واستبد الحق بأخرين أيضاً ، وكان فريق ثالث يبتسم في ضرب من التعالي المبتهج • أما أنا فقد وجدت الموقف ممتعاً إلى أبعد الحدود • واختلست النظر إلى أبي ، وكنت أحسب أنه على وشك أن يسترسل في الضحك من جراء هذه القنبلة البشرية التي كان مسؤولاً عن تفجيرها بيننا • وقاطعه الدكتور هامرفيلد :

– « أن تعابريك غامضة بعض الشيء • ما الذي تعنيه ، على وجه الدقة ، عندما تدعوننا ميتافيزيقيين ؟ » فتابع أرنست كلامه :

– « أنا ادعوك ميتافيزيقيين لأنكم تفكرون ميتافيزيقياً • أن طريقتم في التفكير مناقضة لطريقة العلم • وليس لاستنتاجاتكم أية صحة • أن في وسعكم أن تثبتوا كل شيء ، وليس في وسعكم أن تثبتوا شيئاً ، وكل منكم يفرغ إلى وجدانه الشخصي لكي يفسر ذاته ويفسر الكون • كما قد ترفعون أنفسكم بمرئ احذيتكم ذات الاعناق العالية لكي تفسروا الوجدان بالوجدان »

فقال الاسقف مورهاوس :

« لست أفهم • يخيّل الي أن أشياء العقل كلها ميتافيزيقية •
والرياضيات ، أكثر العلوم دقة وإقناعا ، ميتافيزيقية مئة بالمئة • وكل عملية
من العمليات العقلية التي يقوم بها المفكر العلمي هي ميتافيزيقية • انت
تقرني على هذا من غير ريب ، اليس كذلك ؟ »
فأجابه ارنست :

« أنت لا تفهم ، كما قلت انت عن نفسك • ان الميتافيزيقي يفكر على نحو
قياسي Deductively من خلال ذاتيته • أما العالم فيفكر على نحو
استقرائي Inductively من خلال وقائع Facts الخبرة أو التجربة •
ان تفكير الميتافيزيقي ينطلق من النظرية الى الوقائع ، في حين ان تفكير العالم
ينطلق من الوقائع الى النظرية • الميتافيزيقي يفسر الكون على ضوء ذاته •
أما العالم فيفسر ذاته بالكون • »
فغمغم الدكتور هامرفيلد في ارتياح :
« نحمد الله أننا لسنا علماء ! »
فسأله ارنست :
« أي شيء أنتم ، إذن ؟ »
« فلاسفة ! »
فضحك ارنست وقال :

« وهكذا تضيعون • لقد فارقتكم الارض الصلبة الواقعية ورحتم
تحلقون في الهواء متخذين من إحدى الكلمات طائفة لكم • اتوسل اليكم ان
تهبطوا الى الارض وتخبروني على وجه الضبط ما الذي تعنونه بالفلسفة • »
« الفلسفة هي ... » (وتمهل الدكتور هامرفيلد ، وتنحنح ، ثم
أضاف) « شيء لا يمكن تعريفه على نحو جامع الا للعقول والامزجة الفلسفية •
ان العالم الضيق التفكير المقحم أنفه في أنبوب اختبار لا يستطيع أن يفهم
الفلسفة • »

وتجاهل ارنست الطعنة • لقد كان من طريقته أن يتلفح حجة الخصم
ويردها الى نحره ، ولقد فعل ذلك الان في وجه واداء مشرقين بالاخاء :
« إذن فلا ريب في انك سوف تفهم التعريف الذي سأضعه الان
للفلسفة • ولكنني قبل أن أضعه سوف اتحدأك بأن تدلني على أي خطأ فيه أو
ان تبقى ميتافيزيقيا صامتا • الفلسفة لا تعدو أن تكون أوسع العلوم على
الاطلاق • وطريقتها في التفكير هي عين الطريقة التي تصطنعها العلوم كلها •
وبهذه الطريقة نفسها في التفكير ، الطريقة الاستقرائية ، تصهر الفلسفة

جميع العلوم في علم واحد عظيم • وكما يقول سبنسر ، ان حقائق كل علم بعينه هي جزئيا معرفة موحدة • الفلسفة توحد المعرفة التي تقدمها العلوم جميعا • الفلسفة هي علم العلوم ، هي العلم الرئيس ، اذا شئت • هل اعجبك تعريفي ؟

فغمغم الدكتور هامرفيلد :

– « شيء معجب جدا ، معجب جدا ! »

ولكن ارنست كان قاسيا لا يعرف الرحمة • لقد حذر قائلا :

– « تذكر ان تعريفي مهلك للميتافيزيقا • واذا لم تضع اصبعك على اйма

صدع في تعريفي فعندئذ تفقد حقه في ان تقدم ، بعد ، اйма حجة ميتافيزيقية • يجب ان تمحص الحياة في عناية بالغة التماسا لذلك الصدع وان تعتصم بالصمت ميتافيزيقيا حتى تعثر عليه • »

وانتظر ارنست • كان السكوت موجعا • ولقد وخز الالم الدكتور هامرفيلد ، وغلب عليه الانشداء ايضا • كان هجوم ارنست العنيف المنقض على الخصم بمثل المطرقة الضخمة قد اريكه وشوشه • فهو لم يكن يالف الطريقة البسيطة المباشرة في الجدل • فاجال طريقه حول المائدة يلتمس العون • ولكن احدا لم يهرع الى نجده • ولحت ابي يخفي ضحكته في منديل المائدة • وقال ارنست ، حين جعل هزيمة الدكتور هامرفيلد كاملة :

– « هناك طريقة أخرى لتسفيه الميتافيزيقيين • حاول ان تحكم عليهم

على ضوء أعمالهم • ما الذي فعلوه للانسانية غير نسج الاخيلة الوهمية ، وغير حسابان ظلالهم نفسها الهة ؟ لقد زادوا في حبور الجنس البشري ، انا اقر بذلك • ولكن أي خير ملموس قدموه الى الانسانية ؟ لقد تفلسفوا – اذا غفرت لي سوء استعمال هذه الكلمة – في الكلام على القلب بوصفه مثنوى للعواطف في حين كان العلماء يصوغون دورة الدم في الجسد • لقد خطبوا في الناس بلهجة مؤثرة قائلين ان المجاعة والطاعون قصاصان من عند الله ، بينما كان العلماء يبنون الاهراء ويمدون البواليع في اجواف المدن • لقد خلقوا الالهة على صورتهم ووفقا لرغباتهم ، فيما كان العلماء يشقون الطرق وينشئون الجسور • كانوا يزعمون ان الارض مركز الكون ، بينما كان العلماء يكتشفون اميركة ويسبرون الفضاء بحثا عن النجوم والتماسا لقوانين النجوم • وبكلمة ، ان الميتافيزيقيين لم يفعلوا شيئا على الاطلاق ، لخدمة الجنس البشري • لقد ردوا الى الوراء ، خطوة اثر خطوة ، في وجه تقدم العلم • وما ان استيقنوا ان حقائق العلم قد قوضت تفسيراتهم الذاتية للاشياء حتى اطلقوا تفسيرات ذاتية جديدة للاشياء ، وفي جملتها تفسيرات لآخر

الحقائق المثبتة . وهذا ما سوف يواصلون القيام به ، من غير ريب ، الى اخر الدهر . ايها السادة ، ان الميتافيزيقي هو ساحر دجال . والفرق بينك وبين الاسكيمو الذي يصنع لها يرتدي الفراء وياكل الاسماك الهلامية لا يعدو ان يكون فرق بضعة الاف سنة من الحقائق المثبتة . هذا كل ما هنالك .
فأعلن الدكتور بالينغفورد في ابهة :

« ومع ذلك فان فكر ارسطو ساد اوروبية طوال اثني عشر قرنا .
ولقد كان ارسطو ميتافيزيقيا . »
واجال الدكتور بالينغفورد طرفه حول المائدة ، فكوفىء على ملاحظته
بابتسامات وهزات رؤوس ترشح بالاعجاب .
فأجابه ارنست :

« ان المثل الذي أوردته هو من انعس الامثال وانكدها . انت تشير الى حقبة مظلمة جدا في تاريخ الانسانية . والواقع اننا ندعو تلك الحقبة العصور المظلمة . فترة اغتصب فيها الميتافيزيقيون العلم كما يغتصب رجل امراة ، وتحولت الفيزياء الى بحث عن حجر الفلاسفة ، فترة أصبحت فيها الكيمياء Chemistry سيمياء Alchemy وأمسى علم الفلك Astronomy علم نجوم Astrology . مؤسفة هذه السيادة التي كانت لفكر ارسطو ! »
فبدت امارات التوجع على الدكتور بالينغفورد ، ولكن وجهه ما لبث ان استعاد اشراقه وقال :

« وحتى لو سلطنا جدلا بصحة هذه الصورة التي رسمتها فيجب ان نعرف بان الميتافيزيقيا كانت قوية ، فطريا ، الى حد مكنها من ان تنقذ الانسانية من تلك الفترة المظلمة وتخرجها الى نور القرون التي تلت . »
فقال ارنست :

« لا علاقة للميتافيزيقيا بذلك . »
فصاح الدكتور هامرفيلد :

« ماذا ؟ هل تستطيع ان تنكر ان التفكير والتأمل هما اللذان قادا الى رحلات الاستكشاف ؟ »
وهنا ابتسم ارنست ، وقال :

« اه ، يا سيدي العزيز ، لقد حسبت انك فقدت حقا في المناقشة ، فانت لما تكتشف بعد الصدع في تعريفي للفلسفة . أنت الان تقف على اساس غير مكين ، هي طريقة الميتافيزيقيين ، وأنا اغفر لك ذلك . لا ، اني اكرر : الميتافيزيقا لا علاقة لها البتة بهذا . فالخبز والزبدة ، والحريير والجوامر ،

والدولارات والسنتات ، وعلى نحو عرضي ، اغلاق الطرق التجارية البرية الى الهند ٠٠٠ تلك هي الاشياء التي سببت رحلات الاستكشاف ٠ فما ان سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ حتى اُصد الاتراك الطريق في وجه القوافل القاصدة الى الهند ، وتعين على التجار الاوروبيين ان يكتشفوا طريقا اخرى . ذلك هو السبب الاصلي لرحلات الاستكشاف ٠ لقد أبهر كولومبس ليكتشف طريقا جديدة الى جزائر الهند الشرقية ٠ هذا ما تنص عليه كتب التاريخ كلها ٠ ومن طريق المصادفة تعلم القوم حقائق جديدة عن طبيعة الارض وحجمها وشكلها ، ولفظ النظام البطليموسي أنفاسه مرسلا ضوءا باهتا مترجرجا ٠

ونخر الدكتور هامرفيلد

فساله ارنست :

— « الا تقرني على ذلك ؟ اذن ، فأين موطن الخطأ في كلامي ؟ » فأجابه الدكتور هامرفيلد في نبذة حريفة :

— « لا أستطيع الا ان أؤكد موقعي ٠ وعلى أية حال ، فهذه قصة أطول من أن نخوض فيها الان ٠ »

فقال ارنست في عذوبة :

— « ليس ثمة في نظر العالم قصة هي أطول من ان يخاض فيها ٠ وهذا هو السبب الذي من أجله يصل العالم الى مواطن نائية ٠ ذلك هو السبب الذي من أجله وصل الى أميركة ٠ »

انا لن أصف تلك السهرة كلها ، على الرغم من ان مما يمتع فؤادي ان استحضر في ذاكرتي كل لحظة من لحظات تلك الساعات الاولى التي عرفت فيها ارنست ايفرهارد وكل شاردة وواردة من أحداثها ٠

لقد نشبت معركة ضخمة ، واهتاج القسس وشاع الدم في وجوههم ، وبخاصة في تلك اللحظات التي دعاها فيها ارنست فلاسفة رومانتيقيين ، ومسلطي ظلال وما الى ذلك ٠ وفي كل مرة كان يرددهم الى الحقائق : « الحقيقة Fact ، الانسان ، الحقيقة التي لا تدحض ! » هكذا كان يعلن في انتصار كلما جندل واحدا منهم ٠ كان مفعما بالحقائق ٠ لقد اعثرهم * بالحقائق ، وكن لهم بالحقائق ، وأمطرهم بوابل من قنابل الحقائق ٠

وسخر الدكتور هامرفيلد منه ، قائلا :

— « يبدو انها تصلي في هيكل الحقيقة ٠ »

* جعلهم يعثرون ويسقطون على الارض ٠

فشرح الدكتور باليغنفورد :

« ليس ثمة اله غير الحقيقة ، ومستر ايفرهارد هو نبيها »

فأذعن ارنست مبتسما ، وقال :

« انا مثل الرجل التكماسي ... »

وحين سالوه ايضا ، اضاف :

« ان ابن ولاية ميزوري يقول دائما : « يتعين عليك ان تريني » ولكن

ابن ولاية تكساس يقول : « يتعين عليك ان تدخل هذه المسألة الى عقلي » .

ومن هنا يتضح لكم انه ليس ميتافيزيقيا »

وكرة اخرى ، عندما قال ارنست ان الفلاسفة الميتافيزيقيين لا يستطيعون

ان يثبتوا لمحك الحقيقة سأل الدكتور هامفيلد فجأة :

« وما هو محك الحقيقة ، ايها الفتى ؟ هل تتلطف وتفسر لي ما

حير ، منذ عهد طويل ، رؤوساء أحفل بالحكمة من رأسك ؟ »

فاجابه ارنست :

« من غير ريب » لقد تحيرت الرؤوس الحكيمة كل ذلك التحير

الموجع في أمر الحقيقة لانهم راحوا يبحثون عنها في السماء . ولو بقوا على

الارض الصلبة ان كان خليقا بهم ان يعثروا عليها في سهولة ويسر - اجل ،

ولكن خليقا بهم ان يجدوا انهم هم انفسهم كانوا في الواقع يختبرون الحقيقة

بكل عمل من أعمالهم وبكل فكر يخطر لهم في حياتهم »

فكرر الدكتور هامفيلد في فروغ صبر :

« المحك ، المحك . دعنا من المقدمات . اعطنا ما طالما التمسناه

وبحثنا عنه : محك الحقيقة . اعطنا اياه وعندئذ نصبح كالالهة »

كان في كلماته وفي مسلكه كله ريبة ساخرة فظة أدخلت الجبور ، على

نحو سري ، الى قلوب معظم الجالسين الى المائدة ، وان بدت وكأنها ضايقت

الاسقف مورهاوس .

فقال ارنست :

« لقد عبر الدكتور جوردان ٩ عنه في وضوح كثير . لقد كان محك

الحقيقة عنده هو هذا : « هل تعمل بنجاح ؟ هل تاتمنها على حياتك ؟ »

فسخر الدكتور هامفيلد :

Jordan ٩

مرب بارز من مربي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن

العشرين ميلاد المسيح . كان رئيسا لجامعة ستانفورد ، وهي مؤسسة خاصة من

مؤسسات الاحسان والبر في تلك العصور .

« بيش ! انت لم تدخل الاسقف بيركلي ١٠ في الحساب . انك لم ترد على تحديه قط . »

فضحك ارنست وقال :

« كان انبل الميتافيزيقيين على الاطلاق . ولكن مثلك هذا مثل بائس . لان ميتافيزيقا بيركلي ، كما قرر هو نفسه ، قد اخفقت . »

واستبد الغضب بالدكتور هامفيلد ، وكان لغضبه ما يبرره . لقد بدا وكأنه أمسك بأرنست متلبسا بسرقة أو بكذبة . وصاح :

« ايها الفتى ، ان هذا الحكم يعدل كل ما قلته الليلة . انه زعم وضيع لا يستند الى أساس مكين . »

فغمغم ارنست في وداعة :

« لقد سحقت سحقا . بيد اني لا ادري ما الذي صرعتي . هل لك ان توضح لي ذلك ؟ »

فجمجم الدكتور هامفيلد :

« سوف افعل . سوف افعل . كيف عرفت ؟ أنت لا تعرف ان الاسقف بيركلي قرر أن ميتافيزيقاه قد اخفقت . ليس لديك برهان . ايها الفتى ، لقد كانت الميتافيزيقا عملية دائما . »

« ان الذي يثبت لي ان ميتافيزيقا بيركلي قد اخفقت هو . . . » وتمهل ارنست لحظة ثم اضاف : « هو انه جعل من دأبه دائما أن يدخل من الابواب لا من الجدران . ولانه آمن بالخبز والزبدة وبلحم البقر المحمر . ولانه حلق بموسى اثبتت نجاحها عندما نزعت الشعر عن وجهه . »

فصاح الدكتور هامفيلد :

« ولكن هذه أشياء واقعية ! أما الميتافيزيقا فهي شيء عقلي . »

فسأله ارنست في رفق :

« وهذه الأشياء تعمل . . . في العقل ؟ »

فhez الآخر رأسه بالاجاب .

فتابع ارنست كلامه في سيما تأملية :

« وحتى الملائكة تستطيع جمهرة منها ان ترقص على رأس ابرة . . . في العقل . والاله التلغف بالفراء الاكل السمك الهلامي يستطيع ان يوجد وان

١٠ احد الفائلين المثاليين بوحدانية الكون ، ولقد طاما حير فلاسفة ذلك العصر بانكاره لوجود المادة ، ولكن حججه البارة انهارت اخر الامر عندما عممت حقائق العلم التجريبي الجديدة تعميمها فلسفيا .

يعمل ٠٠٠ في العقل . وليس ثمة براهين على العكس ٠٠ في العقل . أنا أحسب ، أيها الدكتور ، انك تحيا في العقل ؟
فكان الجواب :

« ان عقلي هو عندي مملكة »

« هذه طريقة أخرى للقول انك تحيا في السماء . ولكنك تعود الى الارض كلما حان وقت الطعام ، أنا واثق من ذلك ، أو حين تزلزل الارض زلزالها . أو قل لي ، أيها الدكتور ، الست تخاف على جسدك الاثري ان تصيبه ، اثناء الزلزال ، أجرة غير مادية ؟ »

وللتو ، وعلى نحو غير راع تماما ، اندفعت يد الدكتور هامفريد الى رأسه ، حيث اختفت ندبة * تحت الشعر . فقد اتفق ان كانت الصورة البيانية التي عثر عليها ارنست صورة محكمة كل الاحكام . ذلك ان الدكتور هامفريد كاد يلقى حتفه في الزلزال العظيم ١١ حين انهارت عليه احدى المداخل . وضع القوم كلهم بضحك هادر .

وسأله ارنست عندما همدت فورة الابتهاج :

« حسنا ؟ ألدك أدلة على العكس ؟ »

وفي غمرة من الصمت الذي ساد بعد ذلك كرر السؤال :

« حسنا ؟ ومع ذلك فحجتك جيدة ، ولكنها ليست جيدة كثيرا . »

بيد أن الدكتور هامفريد كان قد سحق موقتا ، واتخذت المعركة اتجاهات جديدة . وفي نقطة اثر نقطة تحدى ارنست القسيس . فحين اكثروا انهم يعرفون الطبقة العاملة واجههم بحقائق أساسية عن هذه الطبقة ما كانوا يعرفونها ، وتحداهم أن يقدموا براهين داحضة . لقد امطرهم بالحقائق ، دائما بالحقائق ، وكبح من رحلاتهم الى السماء ، واعادهم الى الارض الصلبة والى حقائقها .

ما أوضح ما يترأى المشهد ، الان ، في مخيلتي ! أنا أستطيع ان أسمعه اللحظة ، وفي صوته نبرة الحرب تلك ، يسليخهم بحقائقه ، وكل حقيقة منها سوط يسلس مرة ومرة . ولقد كان قضا قاسيا الى ابعد الحدود . انه لم يتقبل رحمة ولم يمنح رحمة ١٢ . ولا أستطيع ان أنسى ما حييت الهجوم الكاسح

* الندبة اثر الجرح الباقي في الجلد .

١١ زلزال عام ١٩٠٦ العظيم الذي دمر سان فرانسيسكو .

١٢ هذه الصورة مستمدة من تقاليد تلك الايام . ففي المباريات التي تصارع فيها الرجال حتى الموت ، على طريقتهم البهيمية الضارية ، كان المصارع المنتصر يختار احدى خطتين : اما ان يذبح منافسه المنهزم الملقي السلاح واما ان يبقي على حياته

الذي شنّه عليهم آخر الامر :

« لقد اعترفتُم الليلة على نحو متكرر ، ومن طريق الاقرار المباشر أو الاحكام الجاهلة ، بأنكم لا تعرفون الطبقة العاملة ، ولكن ليس من حقنا ان نلومكم على ذلك . وأنى لكم ان تعرفوا شيئاً عن الطبقة العاملة ؟ انتم لا تحبون في حي واحد مع الطبقة العاملة . انكم تقيمون مع الطبقة الرأسمالية في حي آخر . ولم لا ؟ ان الطبقة الرأسمالية هي التي تدفع اليكم اجوركم ، والتي تطعمكم ، والتي تضع على ظهورهم حتى هذه الثياب التي ترتدونها ههنا الليلة . وانتم مقابل ذلك تركزون * مستخدمكم بأنماط الميتافيزيقا التي تترتاح اليها نفوسهم ارتياحاً خاصاً ، وهذه الانماط المقبولة لديهم انما حظيت بهذا القبول لانها لا تهدد بالخطر نظام المجتمع القائم . »
وهنا ثارت حول المائدة عاصفة من المعارضة والاحتجاج .
وتابع ارنست كلامه :

« أوه ، أنا لا اتحدى اخلاصكم . انتم مخلصون . انكم تبشرون بما تؤمنون به . ههنا تكمن قوتكم وقيمكم بالنسبة الى الطبقة الرأسمالية . اما اذا خطر لكم ان تغيروا ايمانكم في شيء يهدد النظام القائم بالخطر فعندئذ يسمي تبشيركم غير مقبول عند مستخدميكم ، وعندئذ تصرفون من الخدمة . وعلى أية حال فبين الفينة والفينة يصرف واحد منكم على هذا النحو ١٢ . الست على صواب ؟ »

هذه المرة لم يكن ثمة معارضة او احتجاج . لقد جلسوا مذعنين على نحو أبكم ، ما خلا الدكتور هامفيلد الذي قال :

« انما يسألون ان يستقبلوا حين يكون تفكيرهم مخطئاً ليس غير . »
فأجاب ارنست :

« هذه طريقة أخرى لقولنا : حين يكون تفكيرهم غير مقبول . »
ثم تابع قائلاً :

« وهكذا أقول لكم امضوا في سبيلكم وبشروا واقبضوا جعالاتكم ، ولكني اتوسل اليكم بحق الاله دعوا الطبقة العاملة وشأنها . انتم تنتسبون الى معسكر العدو . وليس ثمة ايما قاسم مشترك بينكم وبين الطبقة العاملة . ان ايديكم رخصة بالعمل الذي أداه غيركم بالنيابة عنكم . ومعكم متخمة

كرز : وعظ وبشر .

١٢ في خلال تلك الفترة طرد كثير من القسس من الكنيسة لتبشيرهم بعقائد غير مقبولة .
وانما كانوا يطردون ، بخاصة ، كلما أمسى تبشيرهم مصطبغاً بالاشتراكية .

بالاسراف بالطعام . » (وهنا انتفض الدكتور بالينغفورد ، واتجهت العيون كلها الى بطنه الضخم . لقد قيل انه لم ير قدميه نفسيهما منذ سنوات .) « وعقولكم محشوة بتعاليم لا تعدو ان تكون دعائم للنظام القائم . انتم جنود مستاجرون (جنود مستاجرون مخلصون ، أنا اعترف بذلك) بقدر ما كان افراد الحرس السويسري ١٤ جنودا مستاجرين . اخلصوا لارباب نعمتكم ولرواتبكم . احرصوا ، بمواعظكم ، مصالح مستخدميك ، ولكن لا تهبطوا الى الطبقة العاملة وتخدموا بوصفكم قادة زائفين . انكم لا تستطيعون . مخلصين ، ان تكونوا في كلا المعسكرين في آن معا . لقد كانت الطبقة العاملة وما تزال مستغنية عنكم وصدقوني ، ان الطبقة العاملة ستظل في غنى عنكم الى الابد وفوق هذا ، فأن في استطاعة الطبقة العاملة ان تنعم بالسعادة ، بدونكم ، أكثر مما تنعم بها معكم . »

١٤ الحرس الاجنبي المستاجر الذي كان يحرس قصور لويس السادس عشر ، وهو ملك فرنسي ضرب الشعب عنقه .

الفصل الثاني

تحديات

وبعد انصراف الضيوف ارتدى أبي في أحد الكراسي ، وأطلق العنان لرعود من الضحك المارد الجبار . أنا لم أشهده منذ وفاة أمي ، يضحك من كل قلبه على هذا النحو قط .

وقال ضاحكا :

– « أراهن أن الدكتور هامفيلد لم يواجه في حياته كلها مثل هذا الموقف . » آداب الجدل الاكليركي ! « هل لاحظت كيف استهل كلامه مثل حمل من الحملان – ايفرهارد أعني ، وكيف انقلب فجأة الى أسد مزمرج ؟ ان له لعقلا منظما الى حد رائع . ولقد كان خليقا به ان يصبح عالما ناجحا لو وجهت طاقاته في هذه السبيل . »

ولست أحسبني في حاجة الى القول ان ارست ايفرهارد وقع في نفسي موقعا حسنا . ولم يكن مرد ذلك الى ما قاله فحسب أو الى الطريقة التي قاله بها فحسب ، ولكن الى الرجل نفسه أيضا . أنا لم ألق من قبل رجلا مثله قط . ويخيل الي أن هذا هو السبب الذي من أجله لم أتزوج على الرغم من اني كنت قد بلغت الخامسة والعشرين . لقد أحببته . ولقد تعين علي أن أعترف بذلك لنفسي . وكان حبي إياه مبنيا على أشياء وراء العقل والمناقشة . فبصرف النظر عن عضلاته المنتفخة وحنجرته الشبيهة بخناجر المصارعين المحترفين أعجبت به بوصفه فتى صادقا صريحا . لقد استشعرت أن في بردي الصلف العقلي روحا رقيقة حساسة . أحسست بذلك ، بطرائق لا أدريها ، طرائق لا تعدو أن تكون أحداسي * كامرأة .

* جمع حدس .

لقد كان في نفخة الصور تلك التي أطلقها شيء نفذ الى قوادي • وظلت تتردد في مسمعي ، وشعرت بأني راغبة في أن أسمعها من جديد ، وفي أن أرى ومضة الضحك في عينيه ، تلك الومضة التي ناقضت جدية وجهه المتهيج • وكانت ثمة أمداء أخرى من المشاعر الغامضة غير المعينة اعتملت في ذات نفسي • لقد كدت أهدم به ، آنذاك ، حبا ، برغم وثوقي من هذه الحقيقة وهي اني لو لم أره كرة أخرى بعد ذلك اذن لتلاشت تلك المشاعر الغامضة واذن لنسيته في سهولة ويسر •

ولكن الاقدار لم تشأ لي أن لا أراه كرة أخرى • ان عناية والدي المستحدثة بعلم الاجتماع والمآدب التي راح يقيمها ما كانت لتجيز ذلك • والواقع ان والدي لم يكن عالما من علماء الاجتماع • لقد كان زواجه من امي سعيدا جدا ، ولقد كان سعيدا جدا ايضا بالابحاث التي أجراها فسي الفيزياء ، حقل اختصاصه • ولكن ما ان توفيت أمي حتى عجز عن سد الفراغ الذي خلفته • وفي بادئ الامر عني في غير ما حماسة ، بالدراسات الفلسفية ، ثم انساق - بعد ان استثير شوقه - الى علمي الاقتصاد والاجتماع • كان لديه حس بالعدالة مرهف ، وسرعان ما استبدت به نزعة متقدمة الى رفع المظالم وازالة ضروب الاجحاف • وفي كثير من الحمد والعرفان رحبت بهذه الامارات الدالة على استمتاع بالحياة جديد ، برغم اني لم أحلم الا قليلا بالحصيلة التي كان خليقا بذلك الاستمتاع أن يثمرها • ويمثل حماسة غلام صغير انغمس انغماسا مهتاجا في هذه الهوايات الجديدة ، بصرف النظر على المطارح التي تقوده اليها •

كان يألف العمل في المختبر ، ومن أجل ذلك حول حجرة الطعام الى مختبر خاص بعلم الاجتماع • الى هناك كان يفد الرجال على اختلاف صنوفهم وأحوالهم : - علماء ، وسياسيين ، واصحاب مصارف ، وتجار ، واساتذة ، وزعماء عمال ، واشتراكيين ، وفوضويين • كان يثيرهم الى النقاش ويحلل آراءهم في الحياة والمجتمع •

كان قد التقى بارنست قبل « ليلة المبشرين » بأيام قليلة • وبعد انصراف الضيوف عرفت كيف التقاه : كان يهبط احد الشوارع ذات ليلة ، واذا به يقف ليصغي الى رجل واقف فوق صندوق صابون يخطب في حشد من العمال • وكان الرجل الواقف على صندوق الصابون هو ارنست • وليس معنى هذا انه كان مجرد خطيب من خطباء صناديق الصابون • لا ، لقد كان يحتل مكانة مرموقة في مؤتمرات الحزب الاشتراكي ، كان احد الزعماء ،

وكان الزعيم المعترف له بالسبق في فلسفة الاشتراكية . ولكن كانت له طريقة واضحة في النص على العويص المغلق بلغة بسيطة ، وكان شارحا ومعلما بالفترة ، ولم يكن ليجد غضاضة في الوقوف على صندوق الصابون بوصفه وسيلة لشرح علم الاقتصاد لابناء الطبقة العاملة .

لقد وقف ابي ليصغي ، فاستثير شوقه ، وسعى الى الاجتماع به . وبعد أن تمت له معرفة به حسنة دعاه الى عشاء القسس . ولم يخبرني ابي بالقليل الذي عرفه عنه الا بعد أن انفض السامر ، لقد ولد في دنيا الطبقة العاملة ، ورغم تحدره من سلالة ايفرهارد العريقة التي عاشت في اميركة طوال منتي سنة ونيف . ١٥ وكان لا يزال في العاشرة من العمر عندما مضى ليعمل في المصانع ، وفي ما بعد أنهى فترة التدريب الالزامية فأصبح نعال خيل . كان ذا ثقافة ذاتية ، ولقد تعلم الالمانية والفرنسية على نفسه ، وكان يكسب في ذلك العهد رزقا هزيلا من طريق ترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية لـدار اشتراكية مناضلة من دور النشر في تشيكاغو . والى جانب دخله هذا كان يتلقى بعض العائدات التي نعم بها لقاء النسخ المحدودة المبعة من مصنفاته الاقتصادية والفلسفية .

ذلك كل ما عرفته عنه قبل ان اوي الى فراشي ، وهناك بقيت يقظي فترة طويلة ، أصغي في الذاكرة الى جرس صوته . وروعت لأفكاري تلك . فقد كان مختلفا عن سائر الرجال من ابناء طبقتي الاجتماعية الى أبعد الحدود ، غريبا الى أبعد الحدود ، قويا الى أبعد الحدود . وأبهجتني براعته وأفزعنتني في وقت معا ، ذلك بأن تصوراتي طوفت على نحو طائش حتى لقد وجدت نفسي أعتبره عشيقا ، وزوجا . لقد طالما سمعت ان قوة الرجال تفتن النساء الى حد لا يقاوم ، ولكنه كان قويا أكثر مما ينبغي ، وصحت : « لا ! لا ! هذا مستحيل ، هراء ! » وفي صباح اليوم التالي أفقت لأجد في ذات نفسي توقا الى رؤيته كرة اخرى . لقد وددت ان أراه يفهم الرجال في النقاش ، ونبرة الحرب في صوته ، ان أراه بكامل ثقته وقوته مقوضا رضاهم عن أنفسهم ، مزعجا إياهم عن أخايد تفكيرهم التقليدي . وأي بأس اذا تكشف عن صلف متفاخر ؟ ان ذلك الصلف ، اذا اصطنعنا تعبيره هو ، « كان يعمل بذجاج » ، كان يحدث أثارا : والى هذا ، فقد كان صلفه شيئا رائعا خليقا بأن يرى . كان يثير المرء كما يثيره استهلال المعركة .

١٥ كان التمييز بين من ولد على أرض الوطن ومن ولد خارجها صارما مثيرا للبغضاء في تلك الايام .

وانقضت أيام عديدة ، طالعت فيها مؤلفات أرنست التي استعرتها من أبي . كانت كلمته المكتوبة مثل كلمته الملفوظة : واضحة مقنعة . وكانت بساطتها المطلقة هي التي تقنع حتى عندما يسترسل المرء في الشك . لقد تمتع بموهبة الوضوح . وكان هو الشارح الكامل . ومع ذلك ، وبرغم أسلوبه ، كان ثمة أشياء كثيرة لم أحبها منه . لقد وضع التوكيد أكثر مما ينبغي على ما دعاه الصراع الطبقي ، والعداء بين العمل ورأس المال وتضارب المصالح . وفي حجب نقل الي أبي رأي الدكتور هامرفيلد في أرنست ، وكان يتلخص في انه « فتى مغرور ، جعلته الثقافة الهزيلة البالغة الرداءة مخلوقا معجبا بنفسه » . والى هذا فقد أبى الدكتور هامرفيلد ان يجتمع الى أرنست كرة أخرى .

أما الاسقف مورهاوس فتكشف عن أعجاب بأرنست وعن تطلع الى اجتماع آخر . لقد قال : « انه فتى قوي ، مفعم بالحبورية ، مفعم بالحبورية الى حد بعيد . ولكنه واثق من نفسه أكثر مما ينبغي ، واثق من نفسه أكثر مما ينبغي » .

وذاذ أصيل وفد أرنست علينا مع أبي . كان الاسقف قد وصل قبل ذلك ، وكنا نحسني الشاي على الشرفة . وبالمناسبة ، فقد كان وجود أرنست في بيركلي على نحو مستمر يعلل بهذه الحقيقة ، وهي انه كان يتلقى دروسا خاصة في علم الاحياء (البيولوجيا) في الجامعة ، وكان منكبا على العمل في وضع كتاب جديد موسوم بـ « الفلسفة والثورة » ١٦ .

— « الصفحة الثانية والثلاثون بعد المئة . وهكذا يبرز الصراع الطبقي، في المرحلة الحالية من التطور الاجتماعي ، بين الطبقة الدافعة للاجور والطبقة المتلقية للاجور » .

ونظرت اليه في سيما مظفرة . فابتسم لي كرة أخرى .

وأجبت :

— « ولكنك تقول : « الصراع الطبقي » .

فقال :

— « ذلك شيء مختلف عن البغضاء الطبقي . وصدقيني اننا لا نثير

أية بغضاء . نحن نقول ان النضال الطبقي هو قانون من قوانين التطور

١٦ ظل هذا الكتاب طبع ، سرا ، طوال القرون الثلاثة التي سادت فيها « العقب الحديدية » . ان ثمة نسخا عديدة من طبعات مختلفة منه في المكتبة الوطنية في أريديس .

الاجتماعي • ولسنا نحن مسؤولين عن ذلك • اننا لا نصنع الصراع الطبقي • نحن نفسره ليس غير ، كما فسر نيوتن الجاذبية • نحن نفسر طببعة تضارب المصالح الذي يحدث الصراع الطبقي • »

فصحت :

« ولكن يجب ان لا يكون ثمة تضارب مصالح البتة ! »

فأجاب :

« انا اقر على ذلك من كل قلبي • وذلك ما نحاول نحن الاشتراكيين ان نحققه : الغاء تضارب المصالح • التمس عفوك • دعيني أقرأ فقرة • »

وأخذ كتابه وقلب عدة صفحات ، ثم قال :

« الصفحة السادسة والعشرون بعد المئة : ان دورة الصراعات الطبقيّة التي بدأت بانحلال الشيوعية القبلية الجافية ونشوء الملكية الخاصة سوف تنتهي بموت الملكية الخاصة في وسائل الوجود الاجتماعي • »
فاعترض الاسقف ، وقد نم وجهه الشاحب الصارم ، بتوهج ضئيل ، عن شدة انفعاله :

« ولكني اخالفك في هذا • ان مقدمتك المنطقية خاطئة • فليس ثمة شيء اسمه تضارب المصالح بين العمل ورأس المال - او على الاصح يجب أن لا يكون ثمة شيء مثل ذلك • »

فقال ارنست في وقار :

« شكرا • انك بتلك العبارة الاخيرة رددت الي مقدمتي المنطقية • »
فتساءل الاسقف في حرارة :

« ولكن ما الذي يوجب قيام هذا التضارب ؟ »

فهز ارنست كتفيه قائلاً :

« لاننا هكذا خلقنا ، في ما أحسب • »

فصاح الاخر :

لقد بدت الشرفة ، فجأة ، وكأنها اصبحت صغيرة عندما اقبل ارنست • لانه كان ضخماً جداً - فقد كان طوله لا يزيد على خمسة اقدام وتسع بوصات - بل لانه اشع في ما بدا لي جوا من الضخامة • فحين وقف ليلقاني تكشف عن ارتباك ضئيل كان مغايراً الى حد غريب لعينيه الجسورين ويده الواثقة الثابتة التي أمسكت بيدي لحظة تحييني • وفي تلك اللحظة كانت عيناه على مثل ذينك الوثوق والثبات • لقد بدا هذه المرة

وكان فيهما سؤالاً ، وكفعله في المرة السابقة راح يطيل النظر الي .

وقلت :

« كنت اطلع كتابك : « فلسفة الطبقة العاملة » .

فأجابني وقد اضاءت عيناه على نحو مبتهج :

« لقد اخذت بعين الاعتبار ، طبعا ، طبقة القراء التي يخاطبها

ذلك الكتاب . »

فقلت متحديّة :

« اجل لقد فعلت ، وهذا هو السبب الذي من اجله اريد ان اتشاحن

معك . »

فقال الاسقف مورهاوس :

« وانا ايضا اريد ان اتشاحن معك . »

فهز ارنست كتفيه على نحو غريب وتقبل كوبا من الشاي .

وانحنى الاسقف ومنحنى حق التقدم عليه ، فقلت :

« انك تشير البغضاء الطبقيّة . وانا اعتقد ان من الخلط والاجرام

ان تدغدغ كل ما هو ضيق وبهيمي في الطبقة العاملة . البغضاء الطبقيّة

شيء مضاد للاجتماع ، بل انها في ما يبدو لي شيء مضاد للاشتراكية . »

فاجابها :

« غير مذهب . ان البغضاء الطبقيّة ليس لها وجود لا في نص ولا في

روح أي شيء مما قدر لي ان اكتبه . »

فصحت بنيرة تأنيبيه :

« اوه ! »

وبسّط ذراعي فتناولت كتابه وفتحته .

وارتشف شايبه وابتسم لي فيما كنت اقلب الصفحات .

وقرأت في صوت مرتفع :

« ولكننا لم نخلق هكذا ! »

فساله ارنست :

« هل تتحدث عن الانسان المثالي ؟ الانسان الغيري ، الشبيه

بالاله ، النادر الى حد يجعله في حكم اللاموجود عمليا ، ام عن الانسان

المعهود العادي ؟ »

فكان الجواب :

« عن الانسان المعهود العادي . »

- « الذي هو ضعيف ، غير معصوم ، مبال الى الخطأ ؟ »
فهز الاسقف مورهاوس رأسه بالإيجاب .
– « والذي هو وضع واناني ؟ »
وكرة اخرى هز الاسقف رأسه .
فحذره ارنست :
– « انتبه جيدا ! لقد قلت : « أناني » ؟ »
فاكد الاسقف رابط الجاش :
– « الانسان العادي هو أناني . »
– « ويريد كل ما يستطيع الحصول عليه ؟ »
– « نعم ، ويريد كل ما يستطيع الحصول عليه . . . هذا صحيح ،
ولكنه مؤسف . »
فاطبق فك ارنست العلوي على فكه السفلي اطبق الشوك وقال :
– « اذن ، لقد أوقعتك . دعني أريك . هو ذا رجل يعمل في خط
من خطوط السيارات العامة . »
فاعترضه الاسقف :
– « لم يكن في مكانه ان يعمل لولا رأس المال . »
– « صحيح ، ولسوف تسلم معي بان رأس المال كان خليقا به ان
يهلك لو لم يكن ثمة عمال لكسب ارباح الاسهم . »
واعترض الاسقف بالصمت :
فاصر ارنست :
– « ستسلم معي بهذا ، اليس كذلك ؟ »
فهز الاسقف رأسه .
فقال ارنست في مثل نبرة الامر الواقع :
– « وهكذا فان كلا من حكيمنا قد نسخ الآخر ، ورجعنا الى حيث
كنا من قبل . والان فلنبدأ من جديد . ان العمال في خط السيارات العامة
يقدمون العمل . وحملة الاسهم يقدمون رأس المال . ومن طريق الجهد المشترك
من جانب العمال وجانب رأس المال يكسب المال . ١٧ والفريقان يتقاسمان هذا
المال المكتسب . فاما حصة رأس المال فتدعى « ارباح الاسهم » ، واما حصة
-
- ١٧ في تلك الايام كانت جماعات من الافراد النهائيين تسيطر على جميع وسائل النقل ،
ولتحويل الجمهور حق اصطناع تلك الوسائل كانوا يفرضون عليه ضروبا من
المكوس والاتاوات .

العمل فتدعى « الأجور » .

فاعترض الاسقف قائلاً :

« حسن جدا ، وليس ثمة ايما داع لان تكون القسمة غير ودية » .

وهناك أجابه ارنست :

« يبدو انك نسيت ما اتفقنا عليه . لقد اتفقنا على ان الانسان العادي اناني ، انه الانسان الموجود في الواقع . ولكنك ارتقيت الى السماء لتحاول اجراء قسمة بين نوع من الناس يجب ان يكون ولكنه غير كائن فعلا . والان ، فلنعد الى الارض . لما كان العامل انانيا فانه يطمع في الفوز بكل ما يستطيع الحصول عليه في القسمة . ولما كان الرأسمالي انانيا فانه يطمع ايضا في الفوز بكل ما يستطيع الحصول عليه في القسمة . وحين لا يكون ثمة غير قدر بعينه من شيء ما ، وحين يطمع الفريقان في انتزاع كل ما يستطيعان انتزاعه من هذا الشيء نفسه فعندئذ ينشأ تضارب في المصلحة . ذلك هو تضارب المصالح بين العمل ورأس المال . وانه لتضارب يستعصي على التوفيق . فما دام ثمة عمال ورأسماليون فلا بد للنزاع على القسمة من ان يستمر . ولو كنت في سان فرانسيسكو ، هذا الاصيل ، اذن لتعين عليك ان تسير على قدميك . فليس ثمة اية سيارة عامة مستعدة لنقل الركاب » .

فتساءل الاسقف في جزع :

« اضراب جديد ؟ » ١٨

« اجل ، انهم يتنازعون على قسمة الاموال التي كسبت من طريق

النقل بالسيارات العامة في خطوط المواصلات بالمدينة » .

فاهتاج الاسقف مورهاوس وصاح :

« ولكن هذا خطر ! انه قصر نظر من جانب العمال . كيف يستطيعون

ان يرجوا الاحتفاظ بعطفنا ومشاركتنا الوجدانية » .

فقال ارنست في مكر :

١٨ هذه المنازعات كانت مألوفة جدا في تلك العصور الفوضوية اللاعقلانية . ففي بعض الاحيان كان العمال يرفضون ان يعملوا ، وفي بعض الاحيان كان الرأسماليون يرفضون ان يسمحوا للعمال بان يعملوا . ويسبب من العنف والهياج الناشئين عن هذه النزاعات كانت ممتلكات كثيرة تتلف ، وأرواح عديدة تزهرق . وهذا كله مما يتعذر علينا نحن اليوم ان نتصوره ، كما يتعذر علينا ان نتصور عادة اخرى من عادات تلك العصور ، أعني العادة التي كانت تقضي على الرجال بتحطيم الاثاث كلما تنازعوا مع زوجاتهم .

- « حين نضطر الى ان نمشي »

ولكن الاسقف مورهاوس تجاهله وتابع كلامه :

- « ان نظرتهم الى الاشياء ضيقة أكثر مما ينبغي . الناس يجب ان يكونوا ناسا ، لا بهائم . ولسوف يحدث الان عنف وسفك دماء ، ولسوف ترمل نساء ويقيم أطفال . ان على العمل ورأس المال ان يكونا صديقين . عليهما ان يعملا يدا بيد ، ومن أجل مصلحتهما المتبادلة »

فلاحظ ارنست في جفاف :

- « اه ، ها قد عدت الى السماء من جديد . ارجع الى الارض . تذكر

لقد اتفقنا على ان الانسان العادي اناني »

فصاح الاسقف :

- « ولكن ثمة ما يحتم عليه ذلك ! »

فكان جواب ارنست :

- « وهنا اتفق معك . ليس ثمة ما يحتم عليه ذلك . ولكنه سوف

يظل انانيا ما عاش في ظل نظام اجتماعي قائم على اخلاقية الجشع الخنزيري »

وشده الاسقف ، وارسل والدي ضحكة واهنة .

ولكن ارنست تابع كلامه في غير رحمة :

- « اجل ، اخلاقية الجشع الخنزيري . ذلك هو معنى النظام الرأسمالي . وذلك ما تدافع كنيستكم عنه ، ما تبشرون به كلما ارتقيتم منبر الوعظ . اخلاقية الجشع الخنزيري . ليس هناك اي اسم اخر له »

والتفت الاسقف مورهاوس الى والدي مستنجدا ، ولكن والدي ضحك

وهز برأسه . ثم قال :

- « اخشى ان يكون مستر ايفرهارد على صواب . سياسة » دعه

يعمل *Laissez-faire* ، سياسة دع كل امرئ وشأنه وليأخذ المتخلف

الشیطان . وكما قال مستر ايفرهارد الليلة الماضية فإن المهمة التي يؤدونها

انتم ، رجال الكنيسة ، هي الحفاظ على النظام الاجتماعي القائم ، ومجتمعنا

اليوم قائم على تلك القاعدة »

فصاح الاسقف :

- « ولكن هذه ليست تعاليم المسيح ! »

فسارع ارنست الى الاعتراض قائلا :

- « الكنيسة لا تعلم اليوم مبادئ المسيح . وهذا هو السبب الذي

من اجله لن يكون للعمال اي شأن بالكنيسة . الكنيسة تغض الطرف عن الوحشية الرهيبة التي تصلنعها الطبقة الرأسمالية في معاملة الطبقة العاملة . »

فاعترض الاسقف :

ـ « الكنيسة لا تغض الطرف عنها » .

عندئذ اجابه ارنست بقوله :

ـ « ولكن الكنيسة لا تحتج عليها . وما دامت الكنيسة لا تحتج فانها تغض الطرف . اذ يجب ان لا تنسى أن الكنيسة مؤيدة من جانب الطبقة الرأسمالية » .

فقال الاسقف في سذاجة :

ـ « انا لم انظر الى المسألة على ذلك الضوء . ولا بد أنك مخطئ . انا ادري أن ثمة كثيرا من الاشياء المحزنة والشريرة في هذا العالم . انا ادري ان الكنيسة قد خسرت . ما تدعوه البروليتاريا » ١٩

فصاح ارنست :

ـ « انكم لم تملكو البروليتاريا في يوم من الايام حتى تخسروها . لقد نشأت البروليتاريا ونمت خارج الكنيسة وبدون الكنيسة » .

فقال الاسقف في صوت خافت :

ـ « لست أفهمك » .

ـ « اذن دعني أشرح . عندما ظهرت الآلات وظهر نظام المصانع في الجزء الاخير من القرن الثامن عشر فصلت الكتلة العظمى من الطبقة العاملة عن الارض ، وهدم نظام العمل القديم ، وأخرج أبناء الطبقة العاملة من قراهم وسيقوا كالمقطوعان الى المصانع المدنية . وعهد الى الامهات والاطفال في العمل وراء الآلات الجديدة . وانتهت الحياة العائلية . كانت الاحوال رهيبة . وانها لقصة من قصص الدماء » .

فقاطعه الاسقف مورهاوس وعلى وجهه سيما معذبة :

ـ « ادري . لقد كان ذلك فظيحا . ولكنه حدث منذ قرن ونصف

قرن . »

١٩ Proletariat ، وهي مشتقة في الاصل من Proletarii اللاتينية ، الاسم الذي اعطي في احصاء سيرفيوس توليوس Servius Tullius لاولئك الذين كانت قيمتهم في نظر الدولة منحصرة في كونهم يحتضنون النسل والزرية Proles وبكلمة ثانية ، انهم لم يكونوا ذوي قيمة سواء من حيث الثروة ، او من حيث المكانة ، او من حيث القدرة الاستثنائية .

فتابع ارنست قائلا :

« وفي تلك الفترة ، قبل قرن ونصف قرن ، نشأت البروليتاريا الحديثة • وتجاهلتها الكنيسة • وعندما حول الرأسماليون البلاد الى مسلخ كبير ا اعتصمت الكنيسة باليكم • انها لم تحتج ، كما انها اليوم لا تحتج • وعلى حد قول اوستن ليويس ٢٠ ، متحدنا عن تلك الايام ، فان اولئك الذين وجهت اليهم الوصية القائلة « اطعموا حملاني » راوا الى تلك الحملان تباع في سوق النخاسة وتكره على العمل حتى الموت من غير ان يرفعوا صوتهم باحتجاج ٢١ • كانت الكنيسة خرساء عندئذ ، وقبل ان امضي في الشرح اطلب اليك اما ان تقرني من غير مواربة واما ان تخالفني من غير مواربة • هل كانت الكنيسة خرساء آنئذ ؟ »

فتردد الاسقف مورهاوس • لقد كان ، كالدكتور هامفريد ، غير متعود هذه « المصارعة » المضارية ، كما كان ارنست يدعوها •

وذكره ارنست قائلا :

« ان تاريخ القرن الثامن عشر قد كتب • فلو قد كانت الكنيسة غير خرساء اذن لوجدناها غير خرساء في كتب التاريخ • »

فاعترف الاسقف :

« اكاد اميل الى الاعتقاد بان الكنيسة كانت خرساء فعلا • »

« والكنيسة اليوم خرساء ايضا • »

فقال الاسقف :

« مهنا اختلف معك • »

فتمهل ارنست ، ونظر اليه متفحصا ، وقبل التحدي ، قال :

« حسن • دعنا نرى • ان في تشيكاغو نسوة يكسحن طوال

ايام الاسبوع من اجل تسعين سنتا • هل احتجت الكنيسة ؟ »

٢٠ كان مرشحا ، على اللائحة الاشتراكية ، لنصب حاكم ولاية كاليفورنيا في انتخابات خريف عام ١٩٠٦ عام ميلاد المسيح • كان انكليزيا بالولادة ، وكاتب الف عددا كبيرا من الآثار في الاقتصاد السياسي والفلسفة ، وواحدا من زعماء ذلك العصر الاشتراكيين •

٢١ ليس ثمة في التاريخ كله صفحة اشد هولاء وادعى الى الربيع من معاملة العبيد الصناعيين ، من اطفال ونسوة ، في معامل انكلترا خلال النصف الاخير من القرن الثامن عشر ميلاد المسيح • وفي امثال هذه المهنميات الصناعية تكونت بعض ثروات ذلك العصر الاكثر ضخامة والادعى الى الغرور •

فكان الجواب :

« هذا شيء أسمعه لأول مرة • تسعون سننا في الاسبوع ؟ انه شيء رهيب ! »
فالح ارنست :
« هل احتجت الكنيسة ؟ »
« الكنيسة لا علم لها بذلك • »
كان الاسقف يناضل في عنف • فسخر ارنست قائلاً :
« ومع ذلك فقد كانت الوصية الموجهة الى الكنيسة تقول :
« أطعموا حملاني • »
وبعد لحظة اضاف :

« اغفر لي سخريتي ، ايها الاسقف • ولكن هل تستطيع ان تعجب اذا ضيقنا بكم ذرعاً ؟ متى احتجتم لدى أبناء كنيستكم الراسمالين على تشغيل الاطفال في مصانع القطن الجنوبية ؟ ٢٢ الاطفال

٢٢ كان في امكان ايفرهارد أن ينتزع مثلاً خيراً من هذا من دفاع الكنيسة الجنوبية الصريح عن استرقاق العبيد قبل ما يعرف بـ « حرب التمرد » • وها نحن ننص في هذا الملحق على كثير من تلك الامثلة المنتخبة من وثائق العصر • ففي عام ١٨٢٥ قررت الجمعية العامة للكنيسة المشيخية Presbyterian « ان الاسترقاق معترف به في كل من العهد القديم والعهد الجديد وان الله لا يشجبها » • وأعلنت جمعية تشارلستون المعمدانية ، في خطاب لها القي عام ١٨٢٥ : « ان حق الاسياد في التصرف بوقت عبيدهم الارقاء قد اعترف به اعترافاً واضحاً من جانب خالق الاشياء كلها الذي يملك من غير ريب كامل الحرية في أن يسبغ حق الملكية على من يشاء • » وكتب المحترم اي • دي • سايمون ، الدكتور في اللاهوت والاستاذ في كلية راندولف مايقون الميثودية في فيرجينيا : « ان شواهد كثيرة من الكتاب المقدس لتؤكد في غير لبس أو ابهام حق امتلاك العبيد ، بالاضافة الى لسوازم ذلك الحق المألوفة • وحق بيع العبيد وشراهم منصوص عليه في وضوح • وعلى الجملة ، فسواء أرجعنا الى السنة اليهودية التي استنتها الله نفسه ، ام الى ما ارتقته البشرية ومارسته على نحو اجماعي في العصور كلها ، ام الى وصايا «العهد الجديد» والقانون الاخلاقي ، فلا بد لنا ان ننتهي الى هذا الاستنتاج : وهو أن الرق ليس غير أخلاقي • حتى اذا اثبتنا ان العبيد الافريقيين الاولين قد استرقوا استرقاقاً شرعياً فعدنئذ نستطيع القول ان حق الاحتفاظ بابنائهم عبيداً أرقاء يلزم عن ذلك لزوم النتيجة المحترمة • وهكذا نرى ان الاسترقاق الموجود في اميركة قد

الذين لا يزيد سن الواحد منهم عن ست سنوات والذين يعملون كل ليلة في مناوبة مقدارها اثنتا عشرة ساعة ؟ انهم لا يرون الشمس المباركة البتة •
وانهم ليموتون كالذباب • ان ارباح الاسهم تدفع من دامنهم • ومن ارباح الاسهم تشيد كنائس فخمة في نيو انجلندا حيث يقدم نوعكم عظمت عذبة مبتذلة الى متسلمي هذه الارباح المترفين المستكرشين •
فغمغم الاسقف في جرس واهن :

« لم اكن أدري • »

كان وجهه شاحبا ، ولقد بدا وكأنه يشكو غثيانا •

« واذن فأنكم لم تحتجوا ؟ »

فهز الاسقف رأسه •

« واذن فالكنيسة خرساء الآن ، كما كانت في القرن الثامن

عشر ؟ »

كان الاسقف صامتا ، وللمرة الاولى استنكف ارنست عن اللاحاح

على النقطة •

« ولا تنس ان كل قس يحتج مصيره الطرد • »

فاعترض الاسقف قائلا :

« يخيّل الي انك ظلمت الكنيسة في هذا • »

فسأله ارنست :

« امستعد انت للاحتجاج ؟ »

« أرني مساوىء . من مثل التي تشير اليها ، في بيتنا هذه ، وعندئذ

لا أحجم عن الاحتجاج • »

أقيم على أساس من الحق • »

وليس غريبا البتة ان تكون الكنيسة قد نقرت على هذه النعمة نفسها بعد جيل أو نحو ذلك في ما يتصل بالدفاع عن حق الملكية الرأسمالية • ففي متحف أزغارڊ Asgard الكبير كتاب اسمه « مقالات في التطبيق » من تأليف هنري فاندايك • ولقد نشر ذلك الكتاب في عام ١٩٠٥ ميلاد المسيح • ويبدو لنا من تضاعيف الكتاب ، اذا صح استنتاجنا ، ان فاندايك كان رجلا من رجال الكنيسة • والكتاب مثل صالح على ما كان خليقا بايفرهارد أن يدعوه « التفكير البورجوازي » . لاحظ الشبه بين كلام جمعية تشارلستون الممدانية المنقول اعلاه وبين قول فاندايك بعد سبعين سنة : « ان الكتاب المقدس يعلمنا ان الرب يملك العالم • انه يعطي كل انسان وفقا لرغبته الالهية الخاصة وتبعا للنواميس العامة • »

- فقلت ارنست في هدوء :
- « سوف أريك • أنا تحت تصرفك • سوف أخذك في سياحة عبر الجحيم » •
- « ولسوف احتج • »
- وتصدر الاسقف في كرسيه ، وانتشرت على وجهه الرقيق قسوة المحارب ، واضاف :
- « ان الكنيسة لن تكون خرساء ! »
- فحذره ارنست :
- « سوف يطردونك » •
- فجاء جواب الاسقف :
- « ساثبت لك العكس • ساثبت ، اذا كان ما تقول عن تشغيل الاطفال صحيحا ، ان الكنيسة قد تاهت في دياجير الجهل • وفوق هذا ، فأنا اذهب الى ان كل ما هو رهيب في المجتمع الصناعي مرده الى جهل الطبقة الرأسمالية • ولسوف تصلح كل خطأ من هذه الاخطاء حالما تتلقى الرسالة • وهذه الرسالة سوف يكون من واجب الكنيسة ان تؤديها » •
- وضحك ارنست : لقد ضحك على نحو بهيمي ، فوجدت نفسي مسوقة الى الدفاع عن الاسقف ، وقلت :
- « انتبه ، انت لا ترى غير جانب واحد من الصورة • ان في انفسنا كثيرا من الخير ، على الرغم من انك تجردنا من الخير كله • الاسقف مورهاوس على حق • فالظالم الصناعية ، وأنا معك في انها رهيبة جدا ، مردها الى الجهل • ان اقسام المجتمع قد انتهت الى ان تصبح مفصلة بعضها عن بعض اكثر مما ينبغي » •
- فأجاب ، وفي تلك اللحظة ابغضته :
- « ان الهندي الاحمر الجاني هو اقل قسوة ووحشية من الطبقة الرأسمالية » •
- فكان جوابي :
- « أنت لا تعرفنا • نحن لسنا قساة ولا وحشيين » •
- فتحداني :
- « برهني ذلك »
- فقلت ، وكان الغضب قد شرع يعصف بي :
- « كيف استطيع ان أبرهنه ••• لك ؟ »

فهز رأسه ، وقال :
- « أنا لا اسالك ان تبرهنه لي . انا اسالك ان تبرهنه لنفسك » .
فقلت :
- « أدري » .
فكان جوابه الجافي :
- « انت لا تدرين شيئا » .
فقال ابي مهدئا :
- « على رسلكما ... على رسلكما ايها الطفلان ... »
فقلت في حق :
- « انا لا ابالي ... »
ولكن ارنست قاطعني :
- « انتي اعرف ان لديك هالا ، أو ان لدى ابيك - فالنتيجة واحدة - مالا
موظفا في مصانع سبيرا » .
فصحت :
- « وما علاقة هذا بموضوعنا ؟ »
فبدأ في بطء :

- « ليس من علاقة كبيرة ... ما خلا ان الفستان الذي ترتدينه مخضب
بالدم . والطعام الذي تأكلينه طعام دام . ان دم الاطفال الصغار والشبان
الاقوياء ليقطر من عوارض سقوف بيتك الخشبية نفسها . وفي استطاعتي
الان ان اغمض عيني ، وان اسمعه يقطر ويقطر من أقطاره جميعا » .
ولأم ما بين العمل والكلمات فأغمض عيني وانهضت الى الورا في
كرسيه . وانخرطت في بكاء الالهانة والكرامة الجريح . فانا لم أعمل في
حياتي كلها قط مثل هذه المعاملة الوحشية . كان أبي والاسقف كلاهما مرتبكين
مشوشين . لقد حاولا ان يوجها الحديث نحو مجار أسهل وإيسل . ولكن
ارنست فتح عيني ، ونظر الي ، وأوما اليهما بأن يلزما الصمت . كان فمه
كالحا ، وكذلك كانت عيناه . ولم يكن في هاتين العينين وميض ضحك . أي
شيء كان على وشك ان يقوله ؟ أي تقرع رهيب كان يعتزم ان يرشقني به ؟
هذا ما لم اعرفه قط . ذلك بأنه في تلك اللحظة بالذات اجتاز الرصيف رجل
ما لبث ان وقف وراح ينظر الينا . كان رجلا ضخيم الجسم حقيير البزة ، وكان
على ظهره حمل كبير من الكراسي والستائر الخيزرانية . لقد نظر الى
البيت وكأنه يسائل نفسه أيدخل ويحاول ان يبيعهنا بعض بضاعته ام لا ؟

وقال ارنست :

« هذا الرجل يدعى جاكسون » .

فقلت في اقتضاب وجفاء :

« كان خليقا به ، يمثل هذا الجسد الضخم أن ينكب على العمل بدلا من الطواف ٢٣ في الشوارع لبيع البضائع »
فقال ارنست في لطف :

« لاحظني ردن ذراعه اليسرى » .

ونظرت ، فرايت أن الردن كان فارغا .

فأضاف ارنست في لطف موصول :

« ان ما سمعته يقطر من عوارض سقوف بيتك الخشبية هو بعض دم

هذه الذراع . لقد فقد ذراعه في مصانع سيرا ، ومثل جواد متهدم مريض طردته انت الى الطريق ليموت على قارعتها . وحين أقول « أنت » أعني مدير المصنع والموظفين الذين تدفعين انت وسائر حملة الاسهم الرواتب اليهم لكي يديروا شؤون المصنع نيابة عنك . لقد كان ذلك حادثا من حوادث العمل . وانما نشأ هذا الحادث عن محاولته ان يوفر على الشركة بضعة دولارات - فلم يكن من طنبور « دافع المكوك » المسنن الا ان انشعب اظفاره في ذراعه . لقد كان في امكانه ان يترك تلك القطعة الصغيرة من الصوان التي رآها في الاسنان كان في امكانه ان يترك تلك القطعة الصغيرة من الصوان التي رآها في الاسنان نتخذ سبيلها عبرها . ولقد كان خليقا بها أن تسحق صفحا مزدوجا من المسامير . ولكنه بسط ذراعه لانتزاع القطعة الصوانية ، فأنشبت الالة برائنها فيها فهرستها من رؤوس الاصابع الى الكنف . وكان ذلك في موهن من الليل . فقد كان المصنع يعمل طول الليل . ونقد دفعوا الى حملة الاسهم أرباحا سميكة في ذلك الفصل . كان جاكسون قد عمل ساعات عديدة ، وكانت عضلاته قد فقدت مرونتها وحيويتها ، فاذا بها تجعل حركاته بطيئة بعض الشيء . وهذا هو السبب الذي من اجله استطاعت الالة ان تبتلع ذراعه . كانت له زوجة وثلاثة اولاد » .

٢٣ في تلك الايام كانت الشوارع تحفل بالاف مؤلفة من هؤلاء التجار الفقراء الذين كانوا يعرفون باسم « الباعة المتجولين » . كانوا يحملون كل ما يملكون من بضاعة على ظهورهم ويتنقلون من بيت الى بيت . وكان في ذلك هدر ليس أعظم منه للطاقة البشرية . لقد كان التوزيع لا عقلانيا ومشوشا كالنظام الاجتماعي العام كله سواء بسواء .

فسألقه :

« وماذا فعلت الشركة من أجله ؟ »

« لا شيء • أوه ، أجل لقد فعلت شيئاً • لقد وفقت الى رد دعوى العطل والضرر التي اقامها عليها عند مغادرته المستشفى • فالشركة تستخدم، كما تعلمين ، محامين بارعين جدا • »

فقلت في اقتناع :

« انك لم ترو القصة كاملة • أو لعلك لا تعرف القصة كاملة • جائز

ان الرجل كان وقحا سفيها • »

« وقح وسفيه ! ها ! ها ! » كان ضحكه ابليسياً • « يا الهي العظيم ! وقح وسفيه ! وبعد أن هرست يده وابتلعت ! ومع ذلك فقد كان خادما وديعا مستضعفا ، وليس في صفحته ما يدل على أنه تكشف عن وقاحة ما • »

فألححت :

« ولكن المحاكم ؟ انه ما كان في الامكان ان ترد دعواه لو لم يكن

للقصة التي رويتها بقية • »

« أن الكولونيل انغرام هو كبير محامي الشركة • انه محام داهية • »
وانعم ارنست النظر الي لحظة ، ثم اضاف :

« سوف اقول لك ما الذي يتعين عليك ان تفعله ، أيتها الانسة كانغهام • »

« أجري تحقيقا في قضية جاكسون • »

فقلت في برود :

« لقد اعتزمت اجراء هذا التحقيق منذ شرعت تحدثنا حديثه • »

فأشرق وجهه في دماثة :

« حسن جدا • وسأدلك على المكان الذي تجديته فيه • ولكني ارتجف

عندك اذ افكر في كس ما سوف تقيمين الدليل عليه بواسطة ذراع جاكسون • »
وهكذا اتفق ان قبلت أنا والاسقف تحديات ارنست • لقد انطلقا معا ،

بعد أن خلفاني وقد وخزني حس بالظلم الذي أنزل بي وبطيقتي • كان الرجل وحشا • ولقد ابغضته انذاك ، وعزيت نفسي بالقول ان سلوكه هذا هو

السلوك الذي ينبغي للمرء ان يتوقعه من رجل من رجال الطبقة العاملة •

الفصل الثالث

نواع جاكسون

لم أتصور الا قليلا أي دور خطير كان مقدرًا لذراع جاكسون ان تلعبه في حياتي . فجاكسون ذاته لم يقع في نفسي موقعا حسنا حين رحت أبحث عنه في كل مكان . لقد وجدته في منزل كثير الصدوع ، متداع الى السقوط ٢٤ ، قائم قرب الخليج عند حافة المستنقع . كانت تحيط بالمنزل برك من الماء الراكد يعلو سطوحها زبد أخضر ذو منظر عفن ، في حين كانت الرائحة المنبعثة منها كريهة الى حد لا يطاق .

والفيت جاكسون وديعا مستضعفا ، كما وصفه ارنست . كان يقوم ببعض اشغال الخيزران ، وكان يكدح في عناد بينا كنت اتحدث معه . بيد انه يخيل الي ، على الرغم من وداعته وضعفه ، اني وقعت على اول نبرة من نبرات المראה المستحدثة عنده حين قال :

— « لقد كان في امكانهم ان يعينوني حارسا ٢٥ ، على أية حال »

٢٤ نعت يصطنع في وصف البيوت الخربة المتهدمة التي كان يقطنها جماعات كبيرة من العمال في تلك الايام . وكانوا يدفعون الى الملاكين أجورا من غير ريب — أجورا تعتبر ، بالقياس الى قيمة تلك البيوت ، ضخمة فاحشة .

٢٥ في تلك الايام كانت اللصوصية منتشرة الى حد لا يصدق . كان كل امرئ يسرق بعض ممتلكات غيره من الناس . أما أبناء الطبقات المهيمنة على المجتمع فكانوا يسرقون شرعا ، أو يخلعون صبغة شرعية على لصوصيتهم ، في حين كان أبناء الطبقات الفقيرة يسرقون على نحو غير شرعي . ولم يسلم من السرقة شيء البتة الا ما كان خاضعا لحراسة قوية . وكان عدد كبير من الرجال يستخدمون بوصفهم حراسا لحماية الممتلكات . وكانت بيوت الاغنياء مزيجا من خزانة حديدية وسرداب وقلعة . ونزعة الاولاد في عصرنا هذا الى وضع اليد على ممتلكات الآخرين — الشخصية انما تعتبر أثرا باقيا من « خاجة السرقة » التي كانت في تلك العهود السالفة شيئا عاما .

ولم أستطع أن أفوز منه بشيء كثير . لقد وقع في نفسي أنه رجل أبله ،
ومع ذلك فإن الانكباب الاصم الذي عمل به بيده الواحدة بدا وكأنه يتنافى مع
بلاهته . وأوحى ذلك الي بفكرة .

فسألته :

« كيف اتفق للماكينة أن ابتلعت يدك ؟ »

فنظر الي في أثناء وتأمل ، وهز رأسه وقال :

« لست أدري . كل ما أدريه هو أن ذلك قد حدث . »

فاوحيته اليه قائلة :

« بسبب من الاهمال ؟ »

فأجاب :

« لا . ليس من رأيي ان نعزو ما حدث الى الاهمال . لقد كنت أعمل
ساعات اضافية ، وأحسب ان ذلك قد أرهقني بعض الشيء . اني عملت سبع
عشرة سنة في تلك المصانع ، وقد لاحظت ان معظم حوادث العمل تقع قبل
اطلاق الصفارة ٢٦ مباشرة ، وأنا مستعد لان أراهن ان حوادث العمل التي
تقع في الساعة الاخيرة قبل اطلاق الصفارة تفوق مجموع الحوادث التي تقع
في سائر ساعات النهار كلها . ذلك أن الرجل لا يكون رشيق الحركة بعد عمل
موصول طوال ساعات وساعات . لقد رأيت عددا كبيرا من العمال تمزقهم
الالات تمزيقا وتمضغهم مضغا ٠٠٠ »

فسألته :

« رأيت عددا كثيرا منهم ؟ »

« مئات ومئات . وبعضهم أطفال أيضا . »

وباستثناء بعض التفاصيل الرهيبة كانت رواية جاكسون للحادث الذي
ألم به كالتي سمعتها من قبل . وحين سألته هل خرق قاعدة من قواعد تشغيل
الالة هز رأسه وقال :

« لقد دفعت الحزام بيدي اليمنى ، ومددت ذراعي اليسرى للالتقاط
القطعة الصوانية . انا لم أتمهل لأرى ما اذا كان الحزام قد نزع ، لقد حسبت
ان يدي اليمنى قد أتمت ذلك - والواقع انها لم تكن . ومددت ذراعي فسي
سرعة ، ولم يكن الحزام قد أقصي نهائيا . وعندئذ ابتلعت ذراعي وهرست ،
فقلت بلهجة تنضح بالمشاركة الوجدانية :

٢٦ كان العمال يدعون الى الشغل ثم يصرفون الى بيوتهم بواسطة صفارات بخارية
وحشية زعاقطة محطمة للاعصاب .

« لا ريب في أنك استشعرت ألما بالغا »

فكان جوابه :

« ان سحق العظام لم يكن شيئا مستحيا »

وكان ذهنه ضبابيا في ما يتعلق بدعوى العطل والضرر . ولكن شيئا واحدا ليس غير كان واضحا عنده وهو انه لم يتلق أي تعويض البتة . وكان لديه شعور بأن شهادة ملاحظي العمال ومدير المصنع قد أدت الى قرار المحكمة المشؤوم . فشهادتهم ، على حد قوله ، « لم تكن ما ينبغي ان تكونه » . فعقدت العزم على الذهاب اليهم .

كان شيء واحد واضحا : ان حالة جاكسون بائسة . كانت زوجته معتلة الصحة ، وكان عاجزا عن أن يكسب - من طريق اشغال الخيزران والبيع المتجول - ما يسد حاجة أسرته الى الطعام . وكان قد تخلف ، لضيق ذات يده ، عن دفع اجرة البيت ، وكان ابنه البكر - وهو غلام في الحادية عشرة - قد شرع يعمل في المصانع .

« لقد كان في ميسورهم أن يعهدوا الي بوظيفة حارس ، » تلك كانت كلماته الاخيرة وأنا أودعه .

حتى اذا اجتمعت الى المحامي الذي تولى الدفاع في قضية جاكسون وملاحظي العمال ومدير المصنع الذين أدلوا بشهاداتهم في المحكمة شرعت اشعر اخر الامر ، بأن في ما ذهب اليه ارنست بعض الوجاهة .

كان المحامي رجلا ضعيفا تبدو عليه سيما القصور وعدم الكفاءة ، وحين وقع نظري عليه زال عجبى لخسارة جاكسون دعواه . وكانت اول فكرة راودت ذهني هي أن جاكسون قد عوقب لاختياره مثل هذا المحامي عقابا يستحقه . ولكن اثنتين من عبارات ارنست ما لبثتا أن اومضتا في وجداني : « الشركة تستخدم محامين بارعين جدا ، » و « الكولونيل انغرام محام ذاهية » . وقمت بشيء من التفكير السريع . حتى لاح لي ان الشركة كانت ، طبعاً ، اقدر على اصطناع المواهب الحقوقية اللامعة من عامل بسيط مثل جاكسون . ولكن هذا لم يكن غير تفصيل ثانوي . فقد كنت على مثل اليقين من ان ثمة سببا ما ، سببا وجيها جدا لخسارة جاكسون دعواه .

وسألتني :

« لماذا خسرت الدعوى ؟ »

واستبد الارتباك والقلق بالمحامي ، لحظة ، فمالت نفسي الى الاشفاق على هذا المخلوق الضئيل البائس . ثم انه شرع يتظلم ويتشكى . وأنا اعتقد

ان نزعته الى التظلم والتشكي نزعَة فطرية ، فقد كان رجلا مغلوبا على امره بالولادة . لقد نق حول شهادة الشهود . فاولئك الشهود لم يقدموا غير البيينة التي تساعد الفريق الاخر . لقد عجز عن ان ينتزع منهم ايما كلمة خليف بها ان تساعد جاكسون . ولا عجب ، فقد كانوا يدركون اي الفريقين هو القادر على تزويد أرغفتهم بالزبدة . وتكشف جاكسون عن بلاهة صارخة . لقد أوقع الكولونيل انغرام الرعب في فؤاده فتشوش وارتيك . وكان الكولونيل انغرام لامعا في الاستجواب . ولقد طلب الى جاكسون ان يجيب على اسئلة مؤذية .

وسألته :

« كيف يمكن لاسئلته ان تكون مؤذية اذا كان الحق في جانبه ؟ »

فسألني بدوره :

« وما علاقة الحق بالمسألة كلها ؟ هل ترين الى هذه الكتب كلها ؟ » وأمر أصابعه على صف المجلدات المرصوفة على جدران مكتبته الهزيل . « لقد علمتني دراستي لها وقراءتي فيها ان القانون شيء والحق شيء آخر . اسألني أي محام تشائين . ان المرء يذهب الى « مدرسة الاحد الدينية » ليتعلم الحق . ولكنه يذهب الى هذه الكتب ليتعلم . . القانون . »

فسألته في شيء من التردد :

« أتريد ان تقول لي ان الحق كان في جانب جاكسون ، ومع ذلك فقد هزم ؟ أتريد ان تقول لي انه لا عدالة في محكمة القاضي كالديويل ؟ » وحقق المحامي الضئيل الي ، لحظة ، ثم زابت وجهه سيما المقاتلة . لقد شرع يثق ويتشكى من جديد :

« أنا لم أعط فرصة عادلة . لقد خدعوا جاكسون وخدعوني ايضا . وأي فرصة أعطيتها ؟ ان الكولونيل انغرام محام كبير . ولو لم يكن كبيرا هل كان يعهد اليه في تولي الاعمال القانونية الخاصة بمصانع سبييرا ، و « اتحاد أرسنتون للأراضي » ، « وتجمع شركات بيركلي » ، وكهرباء اوكلاند ، وسان ليندرو ، وبليرانتون ؟ انه محامي شركات ، والشركات لا تدفع الرواتب الضخمة الى المحامين لبلاعتهم ٢٧ . ما الذي يجعل مصانع سبييرا وحدها

٢٧ كانت مهمة محامي الشركات ان يخدم ، بطرائق ملتوية فاسدة ، نزعَة الشركات الى اختطاف المال . ولقد جاء في كتب التاريخ ان ثيودور روزفلت ، وكان في ذلك الوقت رئيسا للولايات المتحدة الاميركية ، قال عام ١٩٠٥ في خطاب له في حفلة توزيع الشهادات بجامعة هارفرد : « نحن كلنا نعرف من واقع الاشياء ان

تدفع اليه عشرين الف دولار في العام ؟ لانه يساوي عندهم عشرين الف دولار في العام ، ذلك هو السبب . أما انا فلا أساوي هذا المقدار كله . ولو كنت أساوي هذا المقدار لما كنت خارج الحلقة المحظوظة ، ولما ذقت طعم الجوع وتوليت الدفاع عن قضايا مثل قضية جاكسون . أي شيء تعتقدين أنه كان خليقا بي أن أقبض لو كسبت لجاكسون دعواه ؟

فأجبتة :

« كان خليقا بك ان تنهيه في أغلب المظن ٢٨ »

فصاح مغضبا :

« من غير ريب ، ان علي ان أعيش ، أليس كذلك ؟ »

فقلت بلهجة معنفة :

« ولكن له زوجة وأولاد »

فكان جوابه :

« وأنا أيضا لي زوجة وأولاد . وليس في العالم كله مخلوق واحد ،

غيري ، يبالي سواء أجاعوا أم لم يجوعوا »

ورق وجهه فجأة ، وفتح ساعته وأراني صورة فوتوغرافية صغيرة ملصقة داخل غطاء الساعة . وكانت تلك الصورة تمثل امرأة وبنيتين صغيرتين .

« ها هم . انظري اليهم . لقد مرت بنا أيام عصبية ، أيام عصبية ، وكنت أرجو ان أبعث بهم الى الريف اذا ما كسبت دعوى جاكسون . انهم لا ينعمون بالصحة هنا ، ولكني لا أستطيع ارسالهم الى الريف »

وحين نهضت معتزلة الانصراف ، عاد الى نقه وتظلمه :

« لم يتح لي شبح فرصة . ان بيني وبين الكولونيل انغرام والقاضي كالدويل صداقة حسنة . لست أقول اني لو فزت بالبينة الملائمة من شهودهما

عددا كبيرا من أقوى المحامين نفوذا وأعلام أجرا لا هم لهم الا استنباط الخطط الجريمة البارعة التي يستطيع بها موكلوهم ، أفرادا كانوا أو شركات ، التهرب من القوانين الموضوعية لتنظيم اصطناع الثروات الكبيرة اصطناعا يكون في صالح الجماهير »

٢٨ هذا مثل نموذجي على الكفاح القاتل الذي كان يصبغ المجتمع كله في تلك الايام . كان الناس يسطو بعضهم على بعض كالذئاب الضارية . كانت الذئاب الكبيرة تاكل الذئاب الصغيرة ، وفي القطيع الاجتماعي كان جاكسون واحدا من اصغر الذئاب .

عند الاستجواب اذن لقررت تلك الصداقة مصير الدعوى : ومع ذلك فيتعين علي ان اقول ان القاضي كالدويل بذل جهدا كبيرا للحؤول ببيني وبين الفوز بتلك البينة . وكيف لا ، والقاضي كالدويل والكولونيل انغرام ينتسبان الى محفل ماسوني واحد والى ناد واحد ، انهما يقطنان في حي واحد - حي لا تمكنني مواردني من السكنى فيه . وزوجتهما تتبادلان الزيارة على نحو موصول . انهما لا تنفكان تحييان لياالي الهويست * وما اليه . »
فسألته متمهلة لحظة على العتبة :

- « ومع ذلك فانت تحسب ان الحق كان في جانب جاكسون ؟ »
فكان جوابه :

- « انا لا احسب ذلك ، ولكني اعرفه معرفة اليقين ، ولقد ظننت بادئ الامر ان له حظا من أمل ، ايضا . بيد اني لم اخبر زوجتي . ذلك بانني كنت لا اريد ان اخيب امالها ، فقد كانت تمنى النفس بالقيام برحلة الى الريف . »
وسالت بيتر دونلي أحد ملاحظي العمال اللذين شهدا في المحكمة :
- « لماذا لم تلتفت نظر المحكمة الى هذه الحقيقة : وهي ان جاكسون كان يحاول دفع الاذى عن الالة ؟ »
ففكر فترة طويلة قبل ان يجيب . ثم انه اجال في ما حوله طرفا قلقلها وقال :

- « لان لي زوجة صالحة وثلاثة من اجمل الاولاد الذين قدر لعينيك ان تقعا عليهم . ذلك هو السبب . »
فقلت :

- « لست افهم ما تقول . »
فاجاب :

- « بكلمة أخرى ، لان اقدامي على مثل ذلك كان خليقا به ان يكون عملا احمق . »
- « تعني . . . »

ولكنه قاطعني في انفعال :

- « انا اعني ما قلته . فقد سلخت سنوات طويلة وانا اعمل في تلك المصانع . لقد دخلتها غلاما صغيرا مهمتي الوقوف امام نصل المرفزل . ومنذ ذلك الحين وانا اتقدم واطرقي . وبكثير من الجهد الشاق انتهيبت الى مركزي الحالي المرموق . وفي استطاعتي ان اؤكد لك ان ايمنا رجل في المصنع

* لعبة من ألعاب الورق .

لم يمد الي يدا - في ايما يرم من الايام - لانقاذي من الغرق . لقد كنت من قبل منتسبا الى النقابة . ولكنني واصلت العمل في الشركة خلال اضرابيين . لقد أطلقوا علي لقب « الوغد » . وليس فيهم اليوم رجل واحد يرضى بأن يحتسي معي كأسا لو رغبت اليه في ذلك . هل ترين الندوب على رأسي حين رشقت بالآجر الطائر ؟ وليس أيما طفل يعمل وراء نصل المغزل الا ويلعن اسمي . ان صديقي الوحيد هو الشركة . وليس الوقوف في صف الشركة واجبي ، ولكنه خبزي وزيدتي وحياة زوجتي وأولادي . ذلك هو السبب . »

وسألته :

- « وهل كان جاكسون حقيقيا باللوم ؟ »

- « كان من حقه ان يعطى عطلا وضررا . فقد كان عاملا صالحا لم يسبق له ان أورث الشركة اية متاعب . »

- « واذن فلم تكن تستشعر انك تملك الحرية لتقول الحقيقة كاملة ، كما أقسمت ان تفعل ؟ »

فهز رأسه .

فقلت في خشوع :

- « الحقيقة ... الحقيقة كاملة ... ولا شيء غير الحقيقة ؟ »

وغلغب الانفعال على وجهه من جديد . ورفعته ، لا نحوي ، ولكن نحو السמים .

وكان جوابه :

- « انا مستعد لان أرى روحي وجسدي يحترقان في جهنم الى الابد من اجل اولادي الثلاثة . »

أما هنري دالاس ، مدير المصنع ، فكان مخلوقا ثعلبي الوجه نظير الي في ازدياد كبير ورفض ان يتكلم . اني لم استطع ان انتزع منه كلمة واحدة في ما يتصل بالمحاكمة وبالشهادة التي ادلى بها فيها . اما مع ملاحظ العمال الآخر فكانت احسن حالا . كان جايكس سمث رجلا ذا وجه صارم ، ولقد غار فؤادي عندما واجهته . وأوقع في نفسي ، هو ايضا ، انطبعا شعرتني انه لم يكن متحررا من بعض القيود التي تحول بينه وبين التعبير عما في سريرة نفسه ، وفيما كنا نتحدث شرعت أرى انه كان أرقى ، عقليا ، من افراد زمهرته العاديين . لقد أقر بيتر دونيلي على ان جاكسون كان ينبغي ان يحظى بتعويض ، وذهب الى ابعد من ذلك فاعتبر طرد العامل - بعد ان جعله الحادث شخصا عاجزا - عملا يرشح قسوة وبرود دم . ليس هذا فحسب ، بل لقد

اوضح لي ان المصنع شهد كثيرا من حوادث العمل الماثلة ، وان سياسة الشركة كانت تقضي بالاستماتة في احباط جميع دعاوى العطل والضرر اللاحقة .

وقال :

« أتدري ما الذي يعنيه ذلك ؟ انه يعني مئات الالاف من الدولارات ، كل عام ، بالنسبة الى حملة الاسهم . »
وفيما كان يتحدث تذكرت آخر مبلغ دفع الى أبي كربع حققته أسهمه في الشركة . وتذكرت الفستان البديع الذي اشتريته أنا والكتب التي اشتراها أبي بفضل ذلك الربح . وتذكرت اتهام أرنست القائل بأن فستاني ملطخ بالدم ، وهكذا شرع جلدي ينمل تحت ثيابي .

وقلت :

« عندما شهدت في اثناء المحاكمة لم تشر الى ان جاكسون اصيب بما اصيب به نتيجة لمحاولته انقاذ الآلة من الاذى ؟ »
فأجابني في مرارة بالغة :
« لا . لم اشر الى ذلك . لقد شهدت أن جاكسون انزل الاذى بنفسه نتيجة للاهمال والتهاون ، وأنه لا مجال المبتة الى لوم الشركة او اعتبارها مسؤولة عما حدث . »

فسألته :

« وهل كان الحادث ثمرة التهاون حقا ؟ »
« سميه تهاونًا ، او اي شيء تشائين . الحقيقة هي هذه : ان المرء يستشعر الازهاق بعد ساعات من العمل الموصول . »
وكننت قد بدأت استمتع بحديث الرجل . لقد كان قماشه ، غير شك ، خيرا من قماش ابناء زمرته .

وقلت :

« انت تتمتع بثقافة أوسع من ثقافة معظم العمال . »

فأجاب :

« لقد اتممت دراستي الثانوية في إحدى المدارس العالية . ولقد وفقت الى ذلك من طريق القيام بأعمال الحجاب والفراشين . وكننت اطمح الى الالتحاق بالجامعة ، ولكن أبي توفي ، فاضطرت الى العمل في المصنع . »
وصمت لحظة ثم اوضح خجلا وكأنه يعترف بموطن من مواطن الضعف :

« لقد اردت ان اصبغ عالما طبيعيا : انا احب الحيوانات . ولكنني اضطررت الى العمل في المصنع . وحين رقيت الى مرتبة ملاحظ عمال تزوجت ، ثم كبرت العائلة ٠٠٠ و ٠٠٠ حسنا ، لم اعد منذ ذلك الحين سيد نفسي . »
فسالته :

« ماذا تعني بذلك ؟ »

« كنت اشرح لماذا شهدت في المحاكمة على النحو الذي شهدت به ٠٠٠ لماذا اتبعت التعليمات . »

« تعليمات من ؟ »

« الكولونيل انغرام . لقد رسم الخطوط الكبرى للشهادة التي كان علي ان ادلي بها . »

« والتي افسدت على جاكسون قضيبته . »

فهب رأسه ، وشرع الدم يرتفع قائما في وجهه .

« وكان لجاكسون زوجة وولدان هو عائلهم الوحيد . »

فقال في هدوء ، برغم ان وجهه كان يزداد قتاما على قتام :

« ادري . »

عندئذ تابعت مضيفة :

« قل لي ، اكان من اليسير ان ترتفع بنفسك مما كنت عليه ، في المدرسة الثانوية مثلا ، الى الرجل الذي كان لا بد ان تصبحه ، حتى تتصرف اثناء المحاكمة كما تصرفت ؟ »

وانذهلتني فجأة ثورانه ووقعت الرعب في نفسي . لقد انفجر ٢٩ مرسلًا شتيمة وحشية ، وجمع كفه وكأنه يبغني ان يضربني .
وقال بعد لحظة :

« اسالك العفو . لا ، لم يكن ذلك يسيرا . والآن ، يخيل الي ان في استطاعتك ان تنصرفي . لقد فزت بكل ما تريدينه مني . ولكن دعيني اقول لك هذا قبل ان تذهبي : لن يفيدك شيئا ان تكرري اي شيء مما قلته . ذلك اني سوف اذكره ، وليس ههنا اي شهود علي . سوف انكر كل حرف منه . واذا اضطررت الى ذلك فسوف انكره مقسما على الكتاب المقدس عند منصة

٢٩ من المعتن ان نلاحظ « رجولة » اللغة التي كانت سائرة على اللسان في تلك الايام كظاهرة دلالية indicative من ظواهر الحياة « الحمراء بيرثن وناب ، التي كانت تعاش انذاك . والاشارة هنا ليست ، طبعا ، الى انشيتمة التي اطلقها سميت ، ولكن الى فعل « انفجر » الذي اصطنعته ايفيس ايفرهارد .

الشهود •

وبعد اجتماعي بسميث قصدت الى مكتب والدي في « بناية الكيمياء »
وهناك التقيت بأرنست • لقد كان ذلك غير متوقع بالمرّة ، ولكنه استقبلني
بعينيه الجريئتين وبكفه المصافحة الثابتة • وبذلك المزيج الغريب من الخرق
والثقة • لقد بدا وكأن اجتماعنا الاخير العاصف قد نسي ، ولكنني
لم اكن في وضع نفسي يساعدني على نسيانه •
وقلت في اقتضاب :

« كنت احقق في قضية جاكسون • »

كان كله انتباها واهتماما ، وانتظرني حتى اكمل على الرغم من انه
كان في ميسوري ان ارى في عينيه آيات اليقين بان معتقداتي قد زعزعت •
واعترفت قائلة :

« يبدو انه قد عومل معاملة رديئة • وانا ••• انا اعتقد ان بعضا
من دمهم يقطر من عوارض سقوفنا الخشبية • »
فاجاب :

« من غير ريب • لو عومل جاكسون وجميع رفاقه معاملة رحيمة لما
كانت ارباح الاسهم على مثل هذه الضخامة • »
واضفت :

« لن يكون في مكنتي ان اجد أيما متعة في ارتداء الفساتين الجميلة
بعد اليوم • »

واستشعرت اني حقيرة منسحقة القلب ، ووعيت احساسا عذبا بان
ارنست كان ضريبا من « كاهن اعتراف » • وعندئذ راقنتني قوته كما راقنتني
منذ ذلك الحين الى آخر الدهر • لقد بدت وكأنها تشع وعدا بالامن والحماية •
وقال في شيء من كآبة :

« لا ، ولن يكون في مكنتك ان تجدي متعة في ارتداء الخشن من الثياب
ان ثمة معامل الجوت * ، كما تعلمين ، والشيء نفسه يجري كل يوم هناك •
انه يجري في كل مكان • ان حضارتنا التي نفخر بها مبنية على الدم ، منقوعة
بالدم ، وليس في وسعك انت ولا في وسع اي منا ان يهرب من اللطخة القرمزية •
ولكن من هم الرجال الذين تحدثت اليهم ؟ »
فانباته بكل ما قد حدث •
فقال :

* نسيج مصنوع من خيوط القنب الهندي •

- « ولم يكن أيما واحد منهم مالكا حرية التصرف • كانوا كلهم موثقين الى الالة الصناعية التي لا ترحم • والعنصر الفاجع في المسألة انهم موثقون الى تلك الآلة بنياط قلوبهم : فلذات اكبادهم ، الكائنات الغضة التي ينزعون بغريزتهم الى حمايتها • ان هذه الغريزة هي اقوى من ايما اخلاقية يملكونها • ابي ! لقد كذب ، لقد سرق ، لقد ارتكب كل المخازي ليضع لقمة الخبز في فمي وفي افواه اخوتي واخواتي • كان عبدا رقيقا للالة الصناعية ، ولقد محقت حياته واكرهته على العمل حتى الموت • »
فقاطعته :

- « ولكن انت ••• انت من غير ريب تملك حرية التصرف • »

فأجاب :

- « ليس على نحو كامل • انا لست موثقا بنياط قلبي • وكثيرا ما يلهج لساني بالشكر لاني لا اولاد لي • انا احب الاولاد حبا جما ، ومع ذلك فاذا ما قدر لي ان اتزوج فلن اجروء على انجاب ولد واحد • ، وهنا صحت :

- « هذا من غير ريب مذهب رديء • »

فقال في جرس حزين :

- « انا اعرف انه كذلك • ولكنه مذهب ملائم • انا رجل شوري ، وانها لهينة خطرة • »

فضحكت ضحكة من لم يصدق •

- « لو اقتحمت بيت ابيك ، في موهن من الليل ، لاسرق ارباح اسهمه في مصانع سيبيرا ، فما الذي تحسبينه يفعله ؟ »
فأجبت به :

- « انه ينام وعلى الطاولة المجاورة لسريره مسدس • واغلب الظن انه سوف يطلق عليك النار اذا اقتحمت عليه بيته • »

- « واذا ما قدرت انا ونفرا اخرين مليونا ونصف مليون رجل ٣٠ الى جميع بيوت الاثرياء ، فعندئذ ينهمر وابل من نار المسدسات ، اليس كذلك ؟ »

٣٠ هذه اشارة الى مجموع الاصوات التي نالها الاشتراكيون في الولايات المتحدة في انتخابات عام ١٩١٠ • وارتفاع هذا الرقم يدل على النمو السريع الذي عرفه حزب الثورة • ففي عام ١٨٨٨ كانت قوته الانتخابية ٢٠٦٨ ، وفي عام ١٩١٢ كانت ١٢٧.٧١٣ ، وفي عام ١٩٠٤ كانت ٤٣٥.٠٤٠ ، وفي عام ١٩٠٨ كانت ١.١٠٨.٤٢٧ ، وفي عام ١٩١٠ امست ١.٦٨٨.٢١١ •

فاعترضت قائلة :

« أجل ، ولكنك لا تقوم بشيء من ذلك الآن »

« ذلك على وجه الضبط ما فعله . ونحن نعتزم ان نستولي ، لا على مجرد الثروة التي في البيوت ، بل على جميع موارد تلك الثروة ، على جميع المناجم ، والسكك الحديدية ، والمصانع ، والمصارف ، والمحال التجارية . تلك هي الثروة . وانها لخطرة حقاً . ويخيل الي ان الرصاص سوف ينهمر باكثر مما احلم ، اجل باكثر مما احلم . ولكن كما كنت اقول ، ان ايا منا ليس اليوم مالكا حرية التصرف . فنحن كلنا صرعى دواليب الالة الصناعية واسنانها . لقد اكتشفت انك ايضا صريعة هذه الدواليب والاسنان ، وكذلك الرجال الذين تحدثت اليهم . تحدثي الى رجال اخرين . اذهبي وقابلي الكولونيل انغرام . عرجي على المندوبين الصحفيين الذين ابدعوا قضية جاكسون عن الصحافة ، ورؤساء التحرير الذين يشرفون على سياسة الصحف تجديهم كلهم عبيدا للالة »

وبعد برهة يسيرة وجهت اليه سؤالا صغيرا بسيطا عن تعرضية العمال للحوادث فتلقيت في الجواب محاضرة معززة بالاحصاءات .

« كل ذلك منصوص عليه في الكتب . فقد جمعت الارقام ، واقيم الدليل قاطعا على ان الحوادث نادرا ما تقع في ساعات العمل الصباحية الاولى ، ولكنها تزداد بسرعة في الساعات التالية بعد ان يصبح العمال متعبين واكثر بطؤا في عملياتهم العضلية والعقلية . هل تعرفين ان حياة العامل واوصاله معرضة للخطر ثلاث مرات اكثر من حياة ابيك واوصاله ؟ ولكن هذا هو الواقع . وشركات التأمين ٣١ تعرف ذلك . انهم يقتضون العامل خمسة عشر دولارا كل عام لقاء صك تأمين ضد الحوادث بقيمة ألف دولار في حين لا يقتضون اباك لقاء صك التأمين عينه غير اربعة دولارات وعشرين سنتا سنويا »

٣١ في خضم النضال الذئبي الرهيب الذي عرفته تلك العصور لم يكن أيما رجل امنا مهما جمع من ثروة ومال . وبسبب من خوفهم ان تتعرض اسرهم للفاقة من بعدهم ابتدع الرجال خطة التأمين . ان هذه الوسيلة تبذر لنا نحن الذين نحيا في هذا العصر الحبيب ، خرقا بدائية على نحو مضحك . اما في تلك الايام فكان التأمين مسألة جدية الى حد بالغ . والعنصر الطريف فيها هو ان الموظفين المكلفين بالحفاظ على أموال شركات التأمين وتديرها كثيرا ما كانوا هم انفسهم ينهبون تلك الاموال ويبددونها .

فألته :

– « واث ، كم يتقاضونك ؟ »

وما ان طرحت عليه سؤالي هذا حتى وعيت قلقا لم يكن بقليل .
فأجابني في غير مبالاة :

– « أوه ، ان تعرضني للاذى او القتل – بوصفي رجلا ثوريا – هو
اكثر من تعرض العامل لهذين الخطرين بثمانى مرات تقريبا . فشركات
التأمين تقتضى الكيميائيين البارعين الذين يشتغلون في المتفجرات ويقلبونها
بأيديهم ثمانية اضعاف ما تقتضى العمال . ولست احسب انهم يرغبون في
التأمين على حياتي باى ثمن . لماذا وجهت الي هذا السؤال ؟ »
وصفق قلبي ، واستطعت ان احس بالدم حارا في وجهي . ولم يكن ذلك
لانه امسك بي متلبسة بالقلق ، ولكن لانى امسكت بنفسى على تلك الحال ، وفي
حضرته .

في تلك اللحظة دخل ابي وشرع يعد العدة للانصراف معي . واعاد
ارست بضعة كتب كان قد استعارها ، ومضى لسبيله قبلنا . ولكنه ما ان
خطا خطوات معدودة حتى استدار وقال :

– « أوه ، بالمناسبة ، فيما انت تقوضين امنك العقلي وفيما انا اقوض
امن الاسقف يحسن بك ان تعرجي على السيدة ويكسون والسيدة بيرتونوايث
ان زوجيهما ، كما تعرفين ، هما حاملا الاسهم الرئيسيان في مصنع سبيرا .
وهاتان السيدتان ، مثل البشر جميعا ، موثقتان الى الآلة ، ولكن على نحو
يجعلهما متربعتين في قمتها . »

الفصل الرابع

عيد الآلة

كنت كلما فكرت في ذراع جاكسون يتعاطم انتفاضي • لقد واجهت الواقع • وللمرة الأولى قدر لي ان ارى الحياة • ان دراستي وثقافتي وحياتي الجامعية لم تكن واقعية • انا لم اتعلم ثمة غير نظريات في الحياة والمجتمع كانت تبدو حسنة جدا على القرطاس المطبوع ، اما الان فقد رايت الحياة نفسها • كانت ذراع جاكسون حقيقة من حقائق الحياة • وكانت كلمة ارنست « الحقيقة ، الانسان ، الحقيقة التي لا تدحض » ترن في وجداني •

لقد بدا لي ان من الرهيب ، من المتعذر ، ان يكون مجتمعنا كله مبنيا على الدم • ومع ذلك ، فقد كان ثمة جاكسون • انا لم استطع ان اثنى بنفسي عنه • كان فكري يرتد نحوه ، على نحو موصول ، كما ترتد ابرة البوصلة الى القطب • لقد عومل معاملة رابعة ، ولم يعرض عن دمه المسفوح لكسي يكرن في ميسور الشركة ان تدفع الى حملة الاسهم ربحا اعظم • ولقد عرفت عشرات من الاسر الراضية السعيدة التي تلقت هذه الارباح ، فافادت - كس على قدرها - من دم جاكسون • واذا جاز ان يعامل رجل فرد مثل هذه المعاملة الرهيبة ويظل المجتمع سائرا في طريقه لا يلوي على شيء افليس يجوز ان يعامل جمهرة من الرجال هذه المعاملة نفسها ؟ وتذكرت نسوة تشيكاغو اللواتي تحدث عنهن ارنست واللواتي يكدحن اسبوعا كاملا من اجل تسعين سنتا ، والاطفال الذين اشار اليهم والذين كانوا يعملون كالعبيد في مصانع القطن الجنوبية • وكان في ميسوري ان ارى ايديهم البيضاء الشاحبة التي اعتصر منها الدم تعمل على صنع القماش الذي خيط منه فستانتي • وعندئذ فكرت في مصنع سيرا وفي الارباح التي دفعت ، فرايت دم جاكسون على فستانتي انا ايضا • لا ، لم يكن في استطاعتي ان اولى من جاكسون فرارا •

كانت تأملاتي تردني اليه على نحو موصول .

وهناك في اعماق أعماقي غلب علي شعور بآني أقف على شفا جرف هار .
لقد بدا وكأنني على وشك ان أرى صورة للحياة جديدة رهيبة . ولم اكن أنا
وحدي اعاني هذه الازمة الروحية . فقد كان عالمي كله ينقلب رأسا على عقب .
كان ثمة أبي . ولقد استطعت ان أرى الاثر الذي كان ارنست قد شرع يتركه
في نفسه . وكان ثمة الاسقف ، ايضا . لقد بدا ، حين رأيتة اخر مرة ، رجلا
مريضا . كان يعاني توترا عصبيا عاليا ، وكان في عينيه فزع يمتنع على
الوصف . ومن القليل الذي اتصل نبأه بي ، عرفت ان ارنست كان مقيما
على عهده بأن يريه جهنم رأي العين . أما أي مشاهد جهنم رأتها عيننا
الاسقف فذلك ما لم أعرفه ، ذلك بأنه بدا مشدوها الى درجة جعلته يمسك
لسانه عن الكلام عليها .

وذات مرة ، وكان ذلك الشعور مستبدا بي حتى لقد انقلب عالمي الصغير
والعالم كله رأسا على عقب ، فكرت في ارنست بوصفه هو السبب في ذلك
كله . وقلت في ما بيني وبين نفسي ايضا : « لقد كنا سعداء جدا ، آمنى
السرب جدا ، قبل ان يجيء ! » وبعد لحظة وعيت ان تلك الفكرة كانت خيانة
للحقيقة ، وبرز ارنست امام عيني متجليا على صورة رسول الحقيقة : في
اشراق جبين ، وجراءة ملاك من ملائكة الله ، يناضل من اجل الحقيقة والحق
ويكافح من اجل انجاد الفقراء والمتوحدين والمضطهدين . وعندئذ برزت
امام ناظري صورة اخرى : المسيح ! كان هو ايضا قد انحاز الى وصف
المتوحدين والمضطهدين ، متحديا سلطان الكهان والفريسيين . وتذكرت
نهايته على الصليب ، وانقبض صدري بمثل النزاع الاخير حين فكرت في
ارنست . هل قدر عليه ، هو ايضا ، ان يموت على صليب ؟ - هو ، بدعوته
النفيية ونبرته الحربية ، وكل ما في برديه من قوة الرجل الذكي وعزمه .

وفي تلك اللحظة عرفت اني احبه ، وانني كنت اتحرق بالرغبة الى
اسعاده . وفكرت في حياته . لا ريب في انها كانت حياة هزيلة ، قاسية ،
بأسية . وفكرت في أبيه الذي كذب وسرق من اجله ، والذي اكراه على العمل
حتى الموت . وهو نفسه اضطر الى العمل في المصانع وهو بعد في العاشرة
من عمره ! وبدا لي وكأن فؤادي كله يتفجر توقا الى تطويقه بذراعي ، والى
اراحة رأسه على صدري - رأسه الذي كان من غير ريب مضنى بأفكار وهموم
كثيرة ، والى منحه الراحة - مجرد الراحة - والسلوان والنسيان طوال فترة
رخصة من الزمان .

والتقيت الكولونيل انغرام في حفلة من حفلات الكنيسة . والواقع انني كنت اعرفه معرفة جيدة ، وكنت اعرفه جيدا منذ سنوات عدة . لقد اوقعته في الشرك خلف نخلات وشجرات مطاط ضخام ، برغم انه لم يدرك انه قد وقع . والتفاني ببهجته وكياسته المهودتين . فقد كان ابدا رجلا دمثا يحسن سياسة الناس ، رجلا لبقا رصينا ، اما من حيث المظهر ، فقد كان ابرز رجل فسي مجتمعنا . كان رئيس الجامعة الجليل نفسه يبدو الى جانبه تافها وصغيرا . ومع ذلك فقد وجدت الكولونيل انغرام راسفاً بمثل اغلال الميكانيكيين الاميين . انه لم يكن يملك حرية التصرف . كان هو نابضا موثقا الى دواليب الآلة . ولن انسى ما حبيت للتغير الذي طرأ عليه حين اشترت السى قضية جاكسون . لقد تلاشت دماثته البسامة مثل شبيب . وشوهدت وجهه المهذب انطباعة مفاجئة رهيبة . واستشعرت مثل الذعر الذي استشعرته عندما انفجر جايوس سميث . ولكن الكولونيل انغرام لم يجدف ولم يلعن . وكان هذا هو الفرق الضئيل الذي ابقى بينه وبين العامل . كان معروفا بالنباهة وحضور الذهن ، ولكنه كان عاطلا الان ، عن هاتين الميزتين . وعلى نحو غير واع راح يجيل طرفه ههنا وههنا التماسا لطريق تنجيه مني . ولكنه كان قد وقع في الشرك وسط النخلات وشجرات المطاط .

أوه ، لقد أسقمه سماع اسم جاكسون . لماذا أثرت هذه القضية ؟ انه لم يستغ نكتتي . لقد كان ذلك قلة ذوق مني وعدم تبصر . ألم اكن اعلم ان الاحاسيس الشخصية لا تقدم ، في مهنته ، ولا تؤخر ؟ لقد ترك احاسيسه الشخصية في البيت عندما مضى الى مكتبه ، وفي المكتب لم تكن لديه غير احاسيس مهنته .

وسألته :

« هل كان من حق جاكسون ان ينال تعويضا ؟ »

فأجاب :

« من غير شك . أعني انني ، شخصا ، اشعر ان من حقه ان ينال تعويضا . ولكن هذا لا علاقة له البتة بالوجوه القانونية للقضية » .
كان قد شرع يستجمع حضور ذهنه البدد ويهيمن عليه .

وسألته :

« قل لي ، هل للحق Right اي علاقة بالقانون ؟ »

فأجاب مبتسما :

« لقد استعملت الحرف الصامت المفلوط في أول الكلمة » .

فقلت مستفهمة :

« تقصد انه كان علي ان قول : Might (القوة) ؟

فهز رأسه أن نعم •

وأضفت :

« ومع ذلك فيفترض فينا ان نحصل على العدالة بواسطة القانون ؟

فأجاب :

« ذلك تناقض ظاهرى ليس غير • اننا نحصل على العدالة فعلا » •

فسألته :

« انت تتكلم بمنطق المهنة ، الآن ، اليس كذلك ؟ »

فشاع الدم في وجه الكولونيل انغرام ، شاع بكل ما في الكلمة من

معنى ، وكرة اخرى اجال بصره في ما حوله التماسا لسبيل من سبل الفرار •

ولكنني اعترضت طريقه ، ولم أبد اي رغبة في الانصراف •

وقلت :

« قل لي ، حين يتخلى المرء عن أحاسيسه الشخصية لاحاسيسه المهنية

ألا يمكن أن يوصف هذا العمل بأنه ضرب من التمثيل* الروحي ؟ »

ولم أفر بجواب • كان الكولونيل انغرام قد ولى فرارا ، على نحو

غير ماجد ...

وبعد ذلك جربت الصحف • لقد كتبت عرضا هادئا ، موزونا ، غير

متحيز لقضية جاكسون • ولم اوجه ايما تهمة الى الرجال الذين كنت قد

تحدثت معهم ، بل لم اسمهم ايضا • لقد بسطت حقائق القضية الواقعة ،

السنوات الطويلة التي سلخها جاكسون وهو يعمل في المصنع ، ومحاولته

انقاذ الآلة من الاذى ، والحادث الذي تلا ذلك • وحالته الحاضرة البائسة ،

الجائعة • ولكن الصحف المحلية اليومية الثلاث رفضت نشر رسالتي وكذلك

فعلت المجلتان الاسبوعيتان •

وأمسكت بتلابيب بيرسي لايتون • كان خريجا من خريجي الجامعة ،

درس الصحافة ، وكان يمضي انذاك فترة تدريبه كمراسل لاقوى تلك الصحف

الثلاث وأبعدها نفوذا • ولقم ابتسم عندما سألته عن السبب الذي من أجله

أغفلت الصحف كل اشارة الى جاكسون او الى قضيته •

وقال :

« سياسة قلم التحرير • ليس لنا نحن اية علاقة بهذه الامور ، ان

* مثل بالقتيل : جدعه وظهرت اثار فعله عليه تنكيلا •

رئيس التحرير هو الذي يقرر ذلك » .

فسألته :

« ولكن ما صلة هذه المسألة بسياسة الصحيفة ؟ »

فأجاب :

« نحن كلنا نقف صفا واحدا مع الشركات . وحتى لو دفعت التعرفة الاعلانية لما استطعت ان تنزلي مما كتبت حرفا واحدا في تلك الصحف . ولو قد حاول احدا ان يدسها في احدى الصفحات دسا ، اذن لخسر وظيفته . بل انك ما كان في امكانك ان تلمعي في نشر مقالك ولو دفعت عشرة اضعاف التعرفة الاعلانية » .

« - وسياستك انت ؟ يبدو لي ان مهمتك هي تحريف الحقيقة نزولا عند أمر مستخدميك ، الذين يطيعون - هم بدورهم - مشيئة الشركات » .

« - انا لا علاقة لي البتة بذلك » . وبدا عليه الضيق لحظة ، ثم اشرق وجهه حين لمح سبيلا الى الخلاص . « انا ، شخصا ، لا اكتب اشياء تناقض الحقيقة . اني استوحي ضميري قبل كل شيء » . طبعاً ، هناك اشياء تعافها النفس في العمل اليومي . ولكن هذه كلها ، كما ترى ، لا تعدو ان تكون جزءا لا يتجزأ من العمل اليومي » .

على هذا النحو الصيبياني ، ختم حديثه .

« ومع ذلك فانت تتوقع ان تجلس على كرسي رئيس التحرير ، في يوم من الايام ، ان توجه سياسة الصحيفة ... »

فكان جوابه :

« - الى ان يحين ذلك يكون معدني قد أصبح صلبا قاسيا » .

« - وما دام معدنك لم يصبح صلبا قاسيا بعد قل لي ما رأيك ، في هذه اللحظة الحاضرة ، في سياسة رؤساء التحرير العامة » .

فسارع الى الاجابة :

« - ليس لي رأي ، ان المرء لا يستطيع ان يرقس الحبال اذا كان يطمح الى النجاح في الصحافة . هذا مقدار ما علمتني اياه الايام ، على أية حال »

وهز رأسه الغض هزة الرجل العاقل الحكيم .

فأصررت :

« - والحق ؟ »

« - انت لا تفهمين اللعبة .. لا ريب في ان ذلك كله حق لانه ينتهي الى

نتيجة حسنة • لا ترين ؟ »

فغمغمت :

« كلام غامض على نحو بهيج » •

ولكن فؤادي كان يتوجع أسفا على هذا الشاب ، واستشعرت ان علي
اما ان اصرخ واما ان انخرط في الكياء •

كان بصري قد شرع ينفذ الى ما وراء مظاهر المجتمع الذي عشت فيه
دائما ، ويكتشف الحقائق الرهيبة المحجوبة تحتها • لقد بدا وكأن مؤامرة
ضمنية حيكت ضد جاكسون • واستشعرت رعدة عطف على المحامي المتظلم
الذي كان قد دافع عن قضيته دفاعا غير ماجد • ولكن هذه المؤامرة الضمنية
أخذت تكبر وتتسع • انها لم تكن موجهة ضد جاكسون وحده • لقد وجهت
ضد كل عامل شوه المصنع خلقته او أفقده عضوا من اعضائه • واذا وجهت
الى كل امرئ في المصنع فلم لا تكون موجهة الى كل امرئ في جميع المصانع
الآخرى ؟ الا ينطبق هذا على الصناعات كلها ؟

واذا كان ذلك كذلك فعندئذ يكون المجتمع اكذوبة • واجفلت من
استنتاجاتي هذه • فقد كانت من الفظاعة بحيث يشك المرء في واقعيها ولكن
كان ثمة جاكسون • وكانت ثمة ذراع جاكسون ، والدم الذي لطخ فستاني ،
والذي كانت قطراته تسيل من عوارض السقف في بيتنا • وكان ثمة كثير من
مثل جاكسون - مئات منهم في مصنع سبيرا وحده ، كما كان جاكسون نفسه
قد قال • لا ، لم يكن في وسعي ان انسئ جاكسون او أتناساه •

واجتمعت الى السيد ويكسون والسيد بيرتونوايت ، الرجلين اللذين
يحملان كثرة الاسهم في مصنع سبيرا • ولكني لم استطع ان اهز وجدانهما
كما قد هزرت وجدان الميكانيكيين المشتغلين في خدمتهما • لقد اكتشفت ان لهما
اخلاقية فوق اخلاقية مائر افراد المجتمع • وهي ما استطيع ان ادعوه الاخلاقية
الارسطوقراطية او اخلاقية الاسياد ٣٢ • كانا يتحدثان في السياسة على
نطاق واسع ، وكانا يعتبران السياسة والحق شيئا واحدا • ولقد تحدثا
الي بطريقة ابوية ، مترفقين بشبابي وقلة خبرتي • والواقع اني قطعت الرجاء
من اقناعهما بخطل موقفهما كما لم أقطعه مع اي ممن اتصلت بهم في استطلاعي
ذاك • فقد اعتقدا اعتقادا جازما بأن مسلكهما كان سليما • لم يكن ثمة

٣٢ قبل ان تولد آيفيس أيفر هارد كتب جون ستوارت مل مقالة دعاهما « في الحرية » ،
وقد جاء في تلك المقالة : « حيثما تنشأ طبقة سائدة نجد ان جزءا كبيرا من
الاخلاق ينبع من مصالحها الطبقية ومن احساسها الطبقي بالاستعلاء والامتياز » •

مجال ، عندهما ، للشك في ذلك او لمناقشته . وكانا مقتنعين بأنهما منقذا المجتمع ، وبأنهما هما اللذان كانا يدخلان السعادة على قلوب كثير من الناس . ولقد رسما صورا مؤثرة للآلام التي كان خليقا بالعمال ان يعانونها لولا فرص العمل التي كانا هما ، وهما وحدهما ، يتيحانها لهم ، بحكمتها وبعيد نظرهما .

وبعيد اتصالي بهذين الرجلين المتمتعين بأعظم النفوذ الثقيت ارنست وحدته بنتائج استطلاعي ، فنظر الي والارتياح باد على محياه ، وقال :
 - « هذا رائع حقا . لقد بدأت تبحثين عن الحقيقة بنفسك . انه تعميم تجريبي انتهيت اليه بجهدك الخاص ، وانه لصحيح . ليس ثمة رجل حر التصرف بين المشتغلين في دنيا الآلة الصناعية ، ما خلا الرأسمالي الكبير ، وليس هو بحر التصرف ، اذا غفرت لي هذا الاسلوب الايرلندي ٣٣ . وهكذا ترى ان الاسياد واثقون كل الثقة من انهم مصيبون في ما يفعلون . وتلك هي قمة السخف في الموقف كله . انهم موثقون الى طبيعتهم البشرية الى حد يجعلهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا الا اذا اعتقدوا انه عدل . انهم يحتاجون دائما الى فتوى تدعم أعمالهم وتسمها بسمه القبول . »

« وهم حين يريدون ان يفعلوا شيئا ، على صعيد الاعمال التجارية والصناعية طبعاً ، مضطرون الى الانتظار ريثما ينشأ في عقولهم ، بطريقة ما تصور ديني ، او اخلاقي ، او علمي ، او فلسفي ، يشعرهم بأن ذلك الشيء عادل . وعندئذ يتقدمون الى فعله ، غافلين عن ان من مواطن الضعف في العقل البشري ان الرغبة هي ام الفكرة . وأيا ما كان العمل الذي يرغبون في القيام به فان الفتوى تسعفهم دائما . انهم سفساطيون سطحويون . انهم « جزويونيون » احتياليون . ليس هذا فحسب ، بل انهم ليعتقدون ان العدل ينبثق من طريقتهم في انزال الظلم . ومن الاساطير الماتعة المتعارفة التي خلقوها انهم اسمى من سائر افراد الجنس البشري حكمة وفعالية . ومن ههنا تنبثق فتواهم التي تخولهم حقا الاشراف على خبز سائر افراد الجنس البشري وزيدتهم . بل لقد ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فبعضوا من عدم نظرية حق الملوك الالهي - اليسوا هم ملوكا تجاريين ؟ ٣٤

٣٣ كانت التناقضات اللفظية ، ويدعونها Bulls (الاخطاء المضحكة) ضعفا محببا عند الايرلنديين القدامى .

٣٤ عزت الصحف الصادرة في العام ١٩٠٢ من تلك الحقبة الى رئيس « تروست فحم الانتراسايت » ، جورج ف. باير ، اعلان المبدأ التالي : « ان حقوق ومصالح

« ان عنصر الضعف في موقفهم كامن في انهم مجرد رجال اعمال . انهم ليسوا فلاسفة . انهم ليسوا بيولوجيين ولا علماء اجتماع . ولو قد كانوا كذلك اذن لكان كل شيء حسنا . فرجل الاعمال ، الذي يجمع الى هذه الصفة صفة العالم البيولوجي والعالم الاجتماعي ، خالق به ان يعرف - على وجه التقريب - الشيء الذي يحسن به ان يصنعه لصالح الانسانية . ولكن هؤلاء الرجال هم ، خارج نطاق الاعمال التجارية ، حمقى مغفلون . انهم لا يعرفون غير العمل التجاري . انهم لا يعرفون لا الجنس البشري ولا المجتمع ، ومع ذلك ينصبون أنفسهم قضاة يتحكمون في مصائر ملايين الجياع وجميع الملايين البشرية الاخرى التي تخلى عنها المجتمع . ان التاريخ لا بد ان يطلق ، في يوم من الايام ، ضحكة جارحة على حسابهم » .

ولم يأخذني العجب عندما تحدثت الى السيدة ديكسون والسيدة بيرتونوايث . لقد كانتا سيدتين من سيدات المجتمع ٣٥ . كانت بيوتهما قصورا . وكان لهما بيوت كثيرة متفرقة في البلاد : في الجبال ، وعند البحيرات وعلى شواطئ البحر . كان يسهر على راحتهما جيش من الخدم ، وكانت نشاطاتهما الاجتماعية مذهلة . لقد شملتا الجامعة والكنائس برعايتهما ، ولقد ركع القسس بخاصة عند اقدامهما في خضوع ذليل ٣٦ . كانتا قويتين هائلتين ، هاتان المراتان ، بسبب من الاموال التي كانت ملكا لهما . وكانت قوة رعاية الفكر ومناصرته بالمنح والهبات طوع ايديهما الى حد بعيد ، كما علمت بعد قليل من الدروس التي لقنني اياها ارنست .

لقد قلدتا زوجيهما وتحديثنا على النطاق الواسع نفسه عن السياسة ، وعن واجبات الاغنياء ومسؤولياتهم . وكانت تهيمن عليهما الاخلاقية نفسها

العامل سوف يصونها الرجال المسيحيون الذين منحهم الله ، في حكمته اللامتناهية، ثروات البلاد وحق امتلاكها ، .

٣٥ ان لفظ « المجتمع » هنا مستعملة في معنى خاص محدود ، وهو تعبير شائع من تعابير تلك الايام كانوا يعنون به النسوة الكسالى المتحللات بالذهب واللواتي كن لا يقمن باي عمل غير اتخام انفسهن من دنان العمل التي يتعب العمال في جنيتها . فلا رجال الاعمال ولا العمال كانوا يجدون متسعا من الوقت او فرصة من الغرض لولوج باب « المجتمع » . لقد كان « المجتمع » اختراع الاغنياء العاطلين الذين لم يعرفوا الكدح والذين انفقوا حياتهم في اللهو والعجب .

٣٦ « ايترا بامالكم المطلخة بالعار » ، تلك كانت العاطفة التي صرحت بها الكنيسة في ذلك العهد .

التي سيطرت على زوجيهما - اخلاقية الطبقة التي انتسبتا اليها . وكانتا تنطقان بعبارات درية لم تكن أذانهما نفسهما تفهم معناها .
واستبد بهما الحق حين حدثتهما عن الحالة المحزنة التي تردت فيها اسرة جاكسون وحين أبديت عجيبي لعدم مدهما يد المساعدة الطوعية الى ذلك الرجل . وقيل لي انهما ما كانتا لتحمدا لاي امرئ لفت نظرهما الى واجباتهما الاجتماعية . وعندما طلبت اليهما في صراحة ان تسعفا جاكسون رفضتا طلبي في صراحة مماثلة . والمذهل في الامر انهما رفضتا ذلك بعبارات تكاد تكون متماثلة ، رغم اني قابلت كلا منهما على انفراد ، وبرغم ان احدهما لم تعرف اني كنت قد رايت او كنت اعتزم ان ارى الاخرى . كان جوابهما المشترك انهما سعيديتان بأن تتاح لهما الفرصة للنص في وضوح لا يعثره لبس على انهما لن تعمدوا في اي يوم من الايام الى مكافأة المهملين على اهمالهم ، ولن تغريا الفقراء بايقاع الاذى بانفسهم ، قصدا وعمدا ، بواسطة آلات المصنع ٣٧ .

وكانتا صادقتين ٠٠٠ هاتان المرأتان . كانتا ثملتين بالايام بتفوق طبقتهما وتفوقهما الذاتي . كانتا تملكان فتوى مبررة ، وفق اخلاقية طبقتهما الخاصة ، لكل عمل كانتا تأتياه . وفيما كانت العربية تنأى بي عن منزل السيدة بيربونوايث الكبير التفت اليه وتذكرت قول ارنست ان تيتك السيدتين موثقتان الى الآلة ، ولكن على نحو يجعلهما متربعتين على قمتهما .

٣٧ في مجموعات مجلة « استشراف » Outlook ، وهي صحيفة اسبوعية نقدية من صحف تلك الايام ، وفي عددها المؤرخ في ١٨ آب (اغسطس) عام ١٩٠٦ نبا عن عامل فقد ذراعه . وتفاصيل قصة هذا العامل تشبه شبيها كاملا قضية جاكسون كما روتها آيفيس ايفرهارد .

الفصل الخامس

الفيلمانيون

وشرع ارنست يختلف الى بيتنا حيناً بعد حين . ولم يكن مجرد الاجتماع الى ابي ، ولا المآذب الحافلة بالجدل والمناظرة ، الجاذب الذي دعاه الى التعريج علينا . فحتى في تلك الفترة تمدحت ، في ما بيني وبين نفسي ، بأنني لعبت دوراً جريئاً في حمله على الاكثار من زيارتنا ، وسرعان ما كشفت لسي الايام عن صدق حدسي . ذلك بأن تاريخ الحب لم يعرف قط عاشقاً مثل ارنست ايفرهارد . لقد ازدادت نظرتي ومصافحته قوة وثباتاً ، لو كان ذلك ممكناً . والسؤال الذي نشأ منذ البدء في عيني لم تزده الايام الا الحاحاً .

لقد كانت انطباعاتي عنه ، اول ما رأيته ، غير مشجعة . ثم انسي وجدت نفسي منجذبة اليه . وبعد ذلك استشعرت نفوراً منه ، عندما هاجمني على ذلك النحو الضاري وهاجم طبقتي الاجتماعية . ومن ثم - وكنت قد أخذت ارى انه لم يطعن على طبقتي في غير وجه حق ، وان الاشياء المريرة القاسية التي قالها عنها كان لها ما يبررها - من ثم ألقيت نفسي منجذبة اليه كرة أخرى . لقد أصبح نبيلي . لقد نزع بالنسبة الي ، برقع الرياء عن وجه المجتمع ، وفتح عيني على لمحات من الحقيقة كانت مريرة بقدر ما كانت صحيحة على نحو لا سبيل الى انكاره .

ان تاريخ الحب لم يعرف قط ، كما قلت ، عاشقاً مثله . والواقع انه ما من فتاة في ميسورها ان تحيا في مدينة جامعية حتى تبلغ الرابعة والعشرين من غير ان تتم لها بعض الخبرات الغرامية . كان قد راودني عن نفسي شباب مرد من طلاب السنة الثانية في الجامعة ، وأساتذة جامعيون وخط الشيب رؤوسهم ، ورياضيون وعمالقة من لاعبي كرة القدم . ولكن أيا من هؤلاء لم يراودني عن نفسي كما قد فعل ارنست . لقد طوقتني ذراعاه

قبل ان أدري . وأطبقت شفتاه على شفتي قبل ان أوفق الى الاحتجاج او المقاومة . لقد كانت كبرياء العذراء التقليدية شيئاً مضحكاً أمام جسده وحماسه . ولقد ملك عواطفى باندفاعه الرائع الذي لا يغلب . انه لم يقصد الى ذلك . لقد طوقني بذراعيه ، وقبلني ، واعتبر ان من واجبنا كأمر مسلم به ان نتزوج . ولم تكن هذه المسألة لتحتمل ، عنده ، جدلاً او نقاشاً . ان النقاش الوحيد الذي نشأ حول ذلك – ولقد نشأ في ما بعد – انما دار حول مريد الزواج .

لقد كان ذلك شيئاً لم يسبق الى مثله . كان أمراً اقرب الى الخيال . ومع ذلك ، فان زواجنا – اذا اصطنعنا في الحكم عليه محك ارنست للحقيقة – كان ناجحاً . لقد وهبته حياتي . ولقد كان هذا قراراً سعيداً . ومع ذلك ، ففي أيام حبنا الاولى استبد بي الخوف من المستقبل عندما فكرت في مغازلته ، وعلى الرغم من هذا فقد كانت هذه المخاوف باطلة . فلم يقيض لاي امرأة ان تنعم بزواج ارق وأكثر حناناً منه . وهذه الرقة وذلك العنف عنده كانا مزيجاً غريباً مماثلاً لذلك المزيج السلوكي الذي اشرت اليه من قبل والمؤلف من خرق ورشاقة . يا لذلك الخرق الطفيف ! انه لم يوفق الى التغلب عليه قط ، ولقد كان حلواً محبباً الى القلب . والحق ان سلوكه في قاعة الاستقبال في بيتنا ذكرني بثور حذر في دكان من دكاكين الخزف ٣٨ .

في هذه الفترة بالذات تلاشى آخر ظل لشكي في اكتمال حبي له (ولقد كان شكاً لا واعياً ، في الغالب) . وكان هذا في ليلة رائعة دارت فيها المعركة ، في نادي الفيلوماثيين ، حيث تحدى السادة في عرينهم . وانما كان نادي الفيلوماثيين هذا هو النادي الاكثر امتيازاً في شاطئ المحيط الهادئ . وكان من خلق المس برينتوود ، وهي عانس ذات ثراء هائل . كان ذلك النادي هو زوجها ، وأسرتها ، ودميتها . وكان أعضاؤه اغنى افراد مجتمعتنا ، وأقوى الاغنياء عقلاً . بالإضافة – طبعاً – الى عدد محدود من العلماء لاضفاء الصبغة الفكرية على المؤسسة .

ولم يكن لنادي الفيلوماثيين مقر . فهو لم يكن من ذلك الضرب من

٣٨ في تلك الايام كانت العادة لا تزال تقضي بأن يملأ الناس غرف الجلوس بمختلف الطرף العتيقة . انهم لم يكونوا قد اكتشفوا ببساطة العيش بعد . ولقد كانت تلك الغرف متاحف يقتضي الحفاظ على نظافتها جهداً موصولاً لا نهاية له . كان « شيطان الغبار » هو سيد البيت . فقد كانت ثمة الاف من الوسائل لالتقاط الغبار ، ولكن لم يكن ثمة غير وسائل قليلة للتخلص منه .

النوادي • ان اعضاءه كانوا يجتمعون مرة كل شهر في بيت واحد منهم للاستماع الى محاضرة • وكانت المحاضرات عادة ، ولكن ليس دائما ، محاضرات مأجورة • فاذا ما وفق كيميائي في نيويورك الى اكتشاف جديد في حقل الراديوم مثلا دفع اليه النادي جميع نفقات انتقاله عبر القارة ، وقدم اليه فوق ذلك تعويضا سخيا عن وقته • والشئ نفسه كان يفعله النادي مع مكتشف عائد من الاصقاع القطبية ، او مع اديب او فنان احرز منذ برهة قصيرة نجاحا مرموقا • ولم يكن ليجز ان يتسرب شيء من مناقشاته الى الصحف • وهكذا كان في ميسور كبار السياسيين ورجال الدولة – وما كان اكثر المناسبات التي كانت تتاح لهم – ان يعبروا عن افكارهم تعبيرا كاملا •

لقد نشرت امامي الان رسالة متفضنة كتبها الي ارنست منذ عشرين عاما ، وما انذا انسخ عنها ما يلي :

« ان والدك عضو في نادي الفيلوماثيين ، وهكذا ففي امكانك ان تحضري • تعالي ، اذن ، مساء الثلاثاء القادم • و انا اعدك بان تلك الليلة سوف تكون اروع ليالي عمرك • لقد عجزت ، في مقابلتك الاخيرة ، عن زعزعة السادة الارستقراطيين ، ولكنني سوف ازعجهم لك اذا جئت • سوف اجعلهم يعمون كالذئاب • لقد ابديت انت شكك في اخلاقيتهم ليس غير ، والواقع ان الشك في اخلاقيتهم لا يزيدهم الا لطفلا وشعورا بالامتيان • اما انا فسوف اُسد بالخطر جيوبهم • ان ذلك يهزمهم حتى جذور طبائعهم البدائية • واذا استطعت ان تجيئي فلا بد ان تري رجل الكهف ، في ثياب السهرة ، يعوي وينهش عظمة من العظام • اني اعدك بان تسمعي مواء كثيرا ونفاذا بصيرا الى طبيعة البهيمة •

« لقد دعوني لكي يمزقوني اربا اربا • تلك هي فكرة المس برينتوود • لقد المعت الى ذلك ، في شيء من الخرق ، عندما دعنتني • ولقد سبق لها ان اتاحت لاعضاء النادي هذا الضرب من الهزل الساخر • انهم يبتهجون في ان يروا المصلحين الآمنين الوادعين يمثلون امامهم • والمس برينتوود تعتقد اني وديع مثل هرة صغيرة ، ساذج غبي مثل بقرة الاسرة • ولست انكر اني ساعدتها على تكوين تلك الانطباع • كانت كثيرة الحذر والتردد بادىء الامر ، حتى اكتشفت بالحدث اني لست بمؤذ ولا ضار • انهم سوف يدفعون الي مكافاة حسنة – مئتين وخمسين دولارا – تليق بالرجل الذي رشع نفسه ذات مرة ، على الرغم من انه راديكالي ، لمنصب حاكم الولاية • والى هذا ، فان علي ان اُرتدي بذلة سهرة ، ذلك شيء الزامي • والحق اني لم اُرتد مثل

هذه البذلة في أي يوم من أيام حياتي . وأحسب انني سوف اضطر الى استئجارها من مكان ما . ولكنني مستعد لان افعل اكثر من ذلك في سبيل الفوز بفرصة تنجح لي الكلام في نادي الفيلوماثيين » .

تلك الليلة التام شمل اعضاء النادي الوافدين من كل حذب وصوب في بيت آل بيربونوايث . وكان اصحاب الدار قد جاؤوا بكراسي اضافية الى قاعة الاستقبال الكبرى ، فقد كان عدد الفيلوماثيين الذين قعدوا للاستماع الى ارنست لا يقل عن المئتين بحال . لقد كانوا سادة المجتمع حقاً . وسليت نفسي بأن استعرضت في ذهني مجموع الثروات التي كانوا يمثلونها ، فإذا بها تبلغ مئات الملايين . ولم يكن اصحابها من كسالى الاغنياء . كانوا رجال اعمال لعبوا أدواراً فعالة الى ابعد الحدود في الحياتين الصناعية والسياسية .

وكنا كلنا قد اتخذنا مقاعدنا عندما وفدت المس برينتوود وأدخلت ارنست علينا . وتقدماً في الحال الى صدر القاعة ، وهو الموضع الذي كان مقرراً ان يلقي منه خطابه . كان يرتدي بذلة سهرة ، ولقد بدا بسبب من منكبته العريضين ورأسه المهيب ، رائعاً بهياً . وإلى هذا ، فقد كان ثمة مساحة الخرق الخفيفة الواضحة في حركاته . ويكاد يخيل الي انه كان في امكانه ان احبه من اجل هذا ليس غير . وعندما اجلت الطرف في ما حولي استشعرت ابتهاجاً عظيماً . لقد أحسست كرة أخرى ، بنبض راحة يده على راحة يدي ، ولمسة شفتيه . وغلب علي الاعتزاز الى حد غامر حتى لقد استشعرت ان من واجبي ان انهض واصرخ على مسمع من الجمع الحاشد : « انه فتاي ! لقد ضممني بين ذراعيه ، وانا - انا وحدي - استطعت ان املاً ذهنه على نحو كاد يشغله عن جميع فكراته التي لا تعد ولا تحصى ! »

وفي صدر القاعة قدمته المس برينتوود الى الكولونيل فان جيلبرت ، وعرفت ان هذا الاخير سوف يرأس الاجتماع . وكان الكولونيل فان جيلبرت محامياً كبيراً من محامي الشركات . وفوق هذا ، كان ذا ثراء هائل . وكان اصغر تعويض اتعاب يتنازل للنظر فيه هو مئة الف دولار . كان اماماً من ائمة القانون ، وكان القانون دمية يعبث بها كيف يشاء . لقد قبله وكأنه الطين ، ولواه وحرفه وكأنه احجية صينية على أي شكل احب . كان ممن حيث المظهر والاسلوب البلاغي تقليدياً عتيق الرزي ، اما من حيث الخيال والمعرفة والدماء فكان اكثر جدة وفتاء من اخر قانون سن للناس . وانما

لمع نجمه اول ما لمع عندما نقض وصية شارديويل ٣٩ . ولقد تقاضى على هذا العمل وحده خمسمئة الف دولار . ومنذ ذلك الحين ارتفع ارتفاع الصاروخ . وكثيرا ما كان يدعى محامي البلاد الاكبر . والمراد بلفظة « محام » هنا محامي الشركات طبعا . وما كان يمكن لايمّا تصنيف لاعظم ثلاثة محامين في الولايات المتحدة ان يغفله .

ونهض وشرع يقدم ارنست في عبارات قليلة منتقاة في عناية ، عبارات تحمل ظلا من سخرية خفيفة . ولقد كان الكولونيل فان جيلبرت ظريفا على نحو رقيق في تقديمه المصلح الاجتماعي وعضو الطبقة العمالية ، حتى لقد ابتسم النظارة . واغضبني ذلك ، ورنوت الى ارنست . ولكن مشهده جعل غضبي مزدوجا . لقد بدا وكأنه لم يع تعريض الكولونيل به . لقد خيل الى الناظر اليه انه ابله حقا . وتساءلت ، لحظة ، ماذا لو اربعيته هذه الصغوف المهيبة المؤلفة من عقول وسلطان ؟ ثم اني تبسمت . انه لم يستطع ان يخدعني . ولكنه خدع الآخرين ، كما قد خدع المس برينتوود من قبل . لقد احتلت كرسيها في مقدمة القاعة تماما ، وكثيرا ما كانت تلتفت نحو هذا الزميل او ذاك مبدية اعجابها بالملاحظات في ابتسامة .

حتى اذا ختم الكولونيل فان جيلبرت كلمته نهض ارنست وانشأ يتكلم . لقد استهل حديثه بصوت خفيض ، وفي تردد واستحياء ، وقد بدت عليه سيما ارتباك واضح . فتكلم عن ولادته في الطبقة العمالية ، وعن حقارة بيئته وبؤسها ، حيث كان الجسد والروح مجوعين معذبين على حد سواء . لقد

٣٩ كان نقض الوصايا هذا مظهرا فريدا من مظاهر تلك الحقبة . ذلك ان تركيم الثروات الهائلة جعل مشكلة التخلص من هذه الثروات بعد الوفاة مشكلة تكرر صفو جامعيها . وهكذا اصبح وضع الوصايا ونقض الوصايا تجاريتين معاصرتين مثل صنع الدروع وصنع البنائق . فكان اذكى المحامين البارعين في وضع الوصايا يكلفون وضع وصايا لا تحتمل النقص . ولكن هذه الوصايا كانت تنقض دائما ، وكثيرا ما كان ناقضوها هم انفسهم المحامين الذين وضعوها . ومع ذلك فقد استمر في اوساط الطبقة الثرية الوهم القائل بان في الامكان صياغة وصايا لا سبيل الى نقضها البتة ، وهكذا سعى الموكلون والمحامون في اثر هذا الوهم ، جيلا بعد جيل . ولقد كان سعيا شبيها بذلك الذي قام به سيميائيير Alchemists القرون الوسطى التماسا لحجر الفلاسفة الذي زعموا انه يحيل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة .

صور آماله ومثله العليا ، وتصوره لتلك الجنة التي كان أبناء الطبقات العليا ينعمون بالعيش فيها . قال :

– «وعرفت انه كان ثمة فوقى أريحية الروح ، والتفكير الطاهر النبيل، والعيش الفكري الفطن . لقد عرفت ذلك كله لانني طالعت روايات « مكتبة الشاطيء » .^{٤٠} حيث كان جميع الرجال والنساء ما خلا الاوغاد والمغامرات ، يفكرون أفكار جميلة ، ويتكلمون بلسان جميل ، ويقومون بأعمال ماجدة . وعلى الجملة فكما تقلبت اشراق الشمس كشيء طبيعي ، تقلبت هذه الفكرة : انه كان ثمة ، فوقى ، كل ما هو بديع ونبيل وخير ، كل ما يخلع على الحياة الذوق والكرامة ، كل ما يجعل الحياة حديرة بأن تعاش وما يكافئ المرء على قدر كده وشقاقه » .

وتدقق في الحديث واستعرض حياته في المصانع ، وتعلمه صناعة تنعيل الخيل ، واجتماعه بالاشتراكيين ، وبينهم – كما قال – وجد مفكرين البساء وظرفاء لامعين ، وكهنة من حملة الانجيل الذين جردوا من سلطانهم لان نصرانيتهم كانت ارحب من أن تغض الطرف عنها أية جماعة من التبديين للمال ، واساتذة سحقوا تحت دولاب عبودية الجامعة للطبقات الحاكمة . كان الاشتراكيون ثوريين ، كما قال ، يناضلون من أجل هدم المجتمع اللاعقلاني الحاضر واصطناع المادة الناشئة عن ذلك في انشاء مجتمع المستقبل العقلاني . وقال اشياء كثيرة لا يتسع المقام للنص عليها ولكني لن انسى ما حييت كيف وصف الحياة بين الثوريين . لقد تلاشى كل اداء متردد . لقد غدا صوته قويا واثقا ، لقد تالق مع تالق ارنست ، ومع تالق الفكرات التي تدفقت على لسانه . لقد قال :

– « وبين الثوريين وجدت ، ايضا ، ايمانا حارا بالمثالية الانسانية المتحمسة ، وبحلاوات الايثار وانكار الذات والاستشهاد في ساحة الغداء – وجميع اشياء الروح البهية اللاسعة . ههنا كانت الحياة طاهرة ، نظيفة ، ناشطة . لقد كنت على اتصال بنفوس كبيرة ترفع الروح والجسد مقامها عليا فوق الدولارات والمستنات ، نفوس كان النواح الرقيق المنبعث من صدر الطفل الجائع في احياء العمال القذرة يعني عندها شيئا أكثر من كل أبهة التوسع التجاري والامبراطورية العالمية وما ينطويان عليه من ثروات ضخمة . كان

٤٠ ضرب من الادب الغريب المذهل الذي كان يهدف الى تضليل الطبقة العمالية واعطائها فكرة غير صحيحة البتة عن طبيعة الطبقات الثرية .

كل ما حولي نبالة قصد وبسالة جهد ، وكانت نهاراتي وليالي كلها اشعة شمس وضياء قمر ، كلها نار وندى ، وامام ناظري كانت « كأس القربان المقدس » تتقد وتتوهج ابدا ، كأس قربان المسيح نفسه ، الجسد البشري الحار الذي طالما تعذب وأسيء اليه والذي لا بد ، رغم ذلك ، من ان ينقذ ويخلص آخر الامر »^{٥٠}

وكما رأيته من قبل متجليا فمجدا كذلك رأيته الان متجليا ممجدا أمام ناظري . كان جبينه مشرقا بالنور الالهي المنبعث منه ، وكانت عيناه اكثر اشراقا وسط الاشعاع الذي بدا وكأنه يلغه مثل وشاح . ولكن الآخرين لم يروا هذا الاشعاع ، وافترضت انه ناشيء عن دموع الفرح والحب التي جعلت رؤيتي ضبابية . وعلى أية حال ، فان مستر ديكسون ، الجالس خلفي ، كان ابعد ما يكون عن التأثر ، ذلك باني سمعته يقول ساخرا بصوت عال :
« طوباوي »^{٤٩} Utopian

ومضى ارنست فتحدث عن ارتقائه سلم المجتمع ، حتى لقد اصبح ، اخر الامر ، على اتصال ببعض ابناء الطبقات العليا ، وتدافع بالناكب مع الرجال المتصدرين في المراتب السامية . ثم كان انقشاع غشاوة الوهم عن عينيه . وهذا الانقشاع وصفه ارنست في صيغ لم تتملق المستمعين اليه تلك الليلة . لقد دهش لحقارة الطين فالحياة اثبتت انها ليست رفيعة ولا خيرة . لقد هالته الانانية التي واجهها ، وهاله اكثر من ذلك انعدام الحياة الفكرية . لقد اصيب بصدمة قوية ، وذكرى رفاقه الثوريين طرية في ذهنه ، حين اكتشف الغباء العقلي عند الطبقة السيدة . والى هذا فانه كان قد اكتشف ان هؤلاء السادة ، رجالا ونساء ، كانوا — برغم كنائسهم الفخمة ومبشرهم ذوي الرواتب العالية — مادييين الى حد مفرط . صحيح انهم كانوا يتكلمون عن مثل عليا صغبرة عذبة وعن اخلاقيات صغبرة غالية ،

٤٩ كان الناس في ذلك العصر عبيدا للالفاظ . والحق ان خساسة عبوديتهم ممنوعة على فهمنا . كان ثمة في الالفاظ سحر اعظم من السحر الذي في فن المشعوذ . ذلك بان عقولهم كانت مشوشة سديمية الى حد ان النطق بكلمة مفردة كان قادرا على ان ينقض الوقائع التي انتهى اليها عمر كامل من البحث والتفكير الجديين . ومن هذه الالفاظ « طوباوي » أو « مثالي » . فقد كان مجرد النطق بها قادرا على تعطيل ايما خطة ، مهما كانت سليمة ، من خطط التحسين او الاحياء الاقتصادي . وكانت جماعات هذه العبارات تعتبر عندهم نفحة من نفحات العبقرية .

ولكن مفتاح حياتهم المهيمن كان برغم لغوهم الطفلي ذاك ماديا صرفا . ولقد كانوا في الواقع عاطلين عن ايما اخلاقية حقيقية – مثلا ، تلك الاخلاقية التي كان المسيح قد بشر بها ولكن احدا لم يعد يبشر بها . قال :

– «لقد لقيت رجالا يتضرعون الى « امير السلام »* في خطبهم التهنيرية ضد الحرب ويضعون في الوقت نفسه المسدسات في ايدي « زبانية بينكروتون »^{٤٢} ليصوبوا نارها الى المضربين في عقر مصانعهم . ولقد لقيت رجالا ساخطين على وحشية المصارعة المحترفة ولكنهم يشاركون في الوقت نفسه في غش الطعام الذي كان يقتل كل عام عددا من الاطفال لم يقتل نظيره هيرودوس المملوكة يداه بالدماء .

« فذا رجل رقيق ، ارستوقراطي السمات يعمل مديرا دمية ، والة في ايدي الشركات التي تسرق ، خلسة ، اموال الارامل والايتام . وهذا رجل فاضل يجمع طبعات الكتب المترفة ويناصر الحركة الادبية ويدفع الاتاوة الى متزعم كثيف اللحية اسود الحاجبين . وهذا محرر صحيفة ينشر اعلانات عن « المستحضرات الطبية المسجلة » ويدعوني « مهيجا ديماغوجيا لثيما » لاني تحديته ان ينشر في صحيفته الحقيقة عن « المستحضرات الطبية المسجلة »^{٤٣} . وهذا رجل يتحدث في وقار وحماسة عن جمال المثالية وخيرية الله وكان قبل دقائق يخدع رفاهه في صفقة تجارية . وذلك رجل يعدونه دعامة الكنيسة والمتبرع السخي للارساليات التبشيرية في الخارج ، ومع ذلك يشغل عاملات مخازنه عشر ساعات يوميا برواتب لا تكاد تسد منهن رمقهن ، مشجعا اياهن بذلك ، تشجيعا مباشرا ، على البغاء . وذلك رجل ينشئ على نفقته كراسي لتعليم الفروع في الجامعة ويشيد الكنائس الفخمة ، ومع ذلك يقسم في دور القضاء يمينا كاذبة من اجل بضعة دولارات وبضعة سنتات . وهذا قطب من اقطاب السكة الحديدية يخنث بعهد كموطن ، وكرجل ، وكمسيحي فيمنح

* يسوع المسيح .

٤٢ كانوا في الاصل رجال مباحث خصوصيين ، ولكنهم ما لبثوا ان امسوا محاربين مستأجرين يعملون في خدمة الراسماليين . ثم انتهوا اخر الامر الى ان يصبحوا جند الاوليفاركية المرتزق .

٤٣ كانت « المستحضرات الطبية المسجلة » اكاذيب مسجلة . ومع ذلك فقد خدعت الناس كما خدعتهم رقى العصور الوسطى وغفراناتها . والفرق الوحيد هو ان المستحضرات المسجلة كانت اشد اذى واغلى ثمنا .

حسما سريا على الاسعار ، وما اكثر ما يمنح هذا الحسم ! وهذا عضو في مجلس الشيوخ يجعل من نفسه آلة وعبدًا ودمية صغيرة في يد متزعم سياسي قاسي الفؤاد غير مثقف ٤٤٠ ، وكذلك كان يفعل هذا الحاكم وذاك القاضي العضو في مجلس القضاء الاعلى ٠ وكانوا ثلاثتهم ينتقلون بالسكة الحديدية بجوازات مجانية ٠ وكان هذا الرأسمالي نفسه يملك الجهاز الحزبي ، والمتزعم المهيمن على الجهاز الحابي ، والسلك الحديدية التي تصدر الجوازات المجانية ٠

« وهكذا وجدت نفسي ، لا في الجنة ، ولكن في صحراء النزعة التجارية القاحلة ٠ انا لم اجد غير الغباء في كل شيء ، ما خلا التجارة ، ولم اجد احدا طاهرا ، نبيلًا ، وحيويا ، على الرغم من اني وجدت كثيرا من المفعمين بالحيوية - ولكن في فساد ٠ ان الذي وجدته كان اناثية وقسوة مهولتين ، ومادية جسيمة شرهة بارعة عملية » ٠

وانبأهم ارنست اشياء كثيرة اخرى عن انفسهم وعن خيبة املهم فيهم ٠ لقد اوقعوا السأم في نفسه عقليا ، أما اخلاقيا وروحيا فقد اصابته مسالكهم بالغثيان ، حتى لقد سعد بالعودة الى رفاقه الثوريين ، الذين كانوا طاهرين ، نبيلين ، مفعمين بالحيوية ، متحلين بكل الصفات الحميدة التي كانت تعوز الرأسماليين ٠

وقال :

« والان ، دعوني احدثكم عن تلك الثورة ٠ »

ولكن يتعين علي ان اقول ان نقده المرير هذا لم يكن قد حرك عواطفهم ٠ لقد اجلت بصري في ما حولي متطلعة الى وجهوهم فرايت انهم ظلوا مترفعين ، في رضا واطمئنان ، عن التهم التي وجهها اليهم ٠ وعندئذ تذكرت ما كان قد قاله لي يوما : ان ايما اتهام يوجه الى اخلاقيتهم يظل ، مهما قسا ، عاجزا عن ان يهزمهم ٠ وعلى اية حال ، فقد كان في ميسوري ان

٤٤ حتى في عام ١٩١٢ ميلاد المسيح كانت الكثرة العظمى من الناس ما تزال تظن انها تحكم البلاد بأصواتها يوم الانتخاب ٠ والواقع ان البلاد كانت خاضعة لحكم جماعة من المتزعمين الصغار الموجهين لسياسة الاحزاب والمعروفين بالـ Political Machines. وفي بادئ الامر كان هؤلاء المتزعمون يتقاضون اتاوات ضخمة من الرأسماليين الكبار ، ولكن هؤلاء الرأسماليين ما لبثوا ان وجدوا ان من الارخص لهم ان يملكوا بانفسهم الاجهزة الحزبية ويستأجروا المتزعمين استئجارا ٠

أرى ان جسارة لغته كانت قد مست مشاعر المس برينتوود . كانت امارات القلق والخوف قد بدت على محياها .

وشرع ارنست يصف جيش الثورة ، وفيما كان يعطي الارقام الدالة على قوته (الاصوات التي نالها في المارك الانتخابية في البلدان المختلفة) بدأ القلق يستبد بالمستمعين . لقد تجلى الجزع على وجوههم ، فأصبحت لا أرى الا شغافا مطبقة في احكام . واخيرا ألقى ارنست قفاز التحدي في وجه القوم . لقد وصف منظمة الاشتراكيين الاممية التي تشد اشتراكيي الولايات المتحدة البالغ عددهم مليوناً ونصف مليون الى اشتراكيي سائر العالم البالغ عددهم ثلاثة وعشرين مليوناً ونصف مليون وتوحد ما بينهم .

لقد قال :

— « ومثل هذا الجيش ، جيش الثورة ، المؤلف من خمسة وعشرين مليون رجل شيء جدير بأن يحمل الحكام والطبقات الحاكمة على التروي والتفكير . وشعار هذا الجيش : « لا هودة ! نحن نريد كس ما تملكون . نريد ان نقبض بأيدينا على ازمة السلطة وقدر الجنس البشري . هي ذي ايدينا . انها أيد قوية . اننا سننتزع منكم حكومتكم ، وقصوركم ، وكل رخانكم التشر بالارجوان * ، وفي ذلك اليوم سوف يتعين عليكم ان تشتغلوا من اجل كسب خبزكم اليومي ، كما يكدح الفلاح في الحقل ، او المستخدم المجوع الناقص النمو في حواضركم ومراكزكم التجارية . هي ذي ايدينا . انها أيد قوية ! »

وفيما هي يتكلم بسط من كتفيه المهيبتين ذراعيه الضخمتين ، فاذا بيدي نعال الخيل تتشبثان بالهواء مثل برائن نسر . كان روح العمال المتسلطة فيما كان يقف هناك ، ويداه مبسوطتان لتمزيق المستمعين اليه وسحقهم . وادركت ان اولئك المستمعين كانوا ينكمشون انكماشاً ملحوظاً بعض الشيء امام صورة الثورة هذه ، وهي صورة واقعية ، كامنة ، مهددة وانما أعني ان النسوة انكمشن ، وبدا الخوف على وجوههن . اما الرجال فلم تكن تلك حالهم . فقد كانوا من الاثرياء الفعاليين ، لا من الاثرياء الكسالى وكانوا قوما مقاتلين . وارتفعت قرقرة خافتة ، مبجحة ، وتلبثت في الهواء لحظة ، ثم اتخسرت . كانت هي طليعة الزمجرة ، ولقد قدر لي ان اسمعها مرات عديدة تلك الليلة — علامة البهيمية في الانسان ، باكورة تيقظ عواطفه البدائية . ولقد كانوا لا يعون انهم اطلقوا ذلك الصوت . كانت زمجرة القطيع

* اشارة الى العز والسلطان اللذين يعتبر الارجوان رمزا لهما (المغرب)

اطلقها القطيع ، واطلقها في لا وعي كامل . وفي تلك اللحظة ، بينا رأيت القسوة تتشكل على وجوههم ورأيت وميض القتال يلتصق في أعينهم ، أدركت أنهم لن يتخلوا ، في سهولة ويسر ، عن سيادتهم على العالم . ومضى أرست في هجومه . ففسر وجود المليون ونصف مليون ثوري في الولايات المتحدة باتهامه الطبقة الرأسمالية بأنها أساءت تدبير المجتمع ولم تحسن سياسته . لقد رسم الخطوط الكبرى للحالة الاقتصادية كما كانت عند رجل الكهف وكما هي عند الشعوب المتوحشة اليوم ، مشيرا إلى أنهم لم يكونوا يملكون لا أدوات ولا مكينات ، بل مجرد القدرة الطبيعية التي يتمتع بها الفرد على انتاج القوة . ثم تتبع تطور الآلات والنظام الاجتماعي حتى لقد بلغت طاقة الانسان المتمدن المنتجة ، اليوم ، اعظم الف مرة من طاقة الانسان المتوحش .

قال :

« في استطاعة خمسة رجال ان ينتجوا من الخبز ما يكفي ألفا وفي استطاعة رجل واحد ان ينتج من الاقمشة القطنية ما يكفي مئتين وخمسين شخصا ، ومن المنسوجات الصوفية ما يكفي ثلاثمئة ، ومن الاحذية ما يكفي ألفا . وفي امكان المراء ان يستنتج من هذا ان الانسان الحديث المتمدن قادر ، في ظل ادارة صالحة للمجتمع ، على ان يكون في وضع افضل جدا من وضع رجل الكهف . ولكن هل هو كذلك فعلا ؟ دعونا نرى . في الولايات المتحدة اليوم خمسة عشر مليون شخص ٤٥ يحيون في فقر . وانما يقصد بكلمة « فقر » هنا تلك الحالة التي لا يستطيع معها ، بسبب من نقص الغذاء وفقدان المأوى الصالح ، الاحتفاظ بفعالية العمل القياسية . ففي الولايات المتحدة اليوم ، على الرغم من جميع تشريعاتكم التي تدعونها تشريعات عمل ، ثلاثة ملايين من العمال الاطفال ٤٦ . لقد تضاعف عددهم خلال اثنتي عشرة سنة . وبالنسبة ، احب ان اسألكم انتم يا مديري المجتمع لماذا تنشروا على الملأ ارقام احصاء ١٩١٠ ؟ وانا أجيب بالنبأ عنكم فاقول انكم كنتم خائفين . لقد كان خليقا بأرقام البؤس ان تعجل بالثورة التي تتحفز

٤٥ نص روبرت هانتز ، عام ١٩٠٦ ، في كتاب موسوم بـ « الفقر » ، على انه كان في تلك الايام في الولايات المتحدة عشرة ملايين يحيون في فقر وفاقه .

٤٦ جاء في احصاء عام ١٩٠٠ (وهو اخر احصاء اجري في الولايات المتحدة ونشرت ارقامه على الملأ) ان عدد العمال الاطفال ١٨٧٠٢٥١٧٠٠ .

للاندفاع حتى في هذه اللحظات .

» ولكن فلنرجع الى الاتهام الذي اوجهه اليكم . اذا كانت طاقة الانسان الحديث الانتاجية اعظم الف مرة من طاقة انسان الكهف فلماذا تجد في الولايات المتحدة اليوم خمسة عشر مليون شخص محرومين من المأوى الصالح والغذاء الصالح ؟ لماذا نجد في الولايات المتحدة اليوم ثلاثة ملايين من العمال الاطفال ؟ انه اتهام صحيح . لقد اساءت الطبقة الرأسمالية تدبير المجتمع وسياسته . فامام الحقيقة القائلة بان الانسان الحديث يحيا على نحو اشد بؤسا من انسان الكهف والقائلة بان طاقته الانتاجية اعظم الف مرة من طاقة انسان الكهف لا يستطيع المرء الا ان يخلص الى هذا الاستنتاج : ان الطبقة الرأسمالية قد اساءت التدبير ، وانكم يا سادتي قد اساتم التدبير ، انكم قد اساتم التدبير على نحو اجرامي واناني . ومن اجل هذا لا تستطيعون ان تردوا علي ههنا الليلة وجها لوجه ، اكثر مما تستطيع طبقتكم كلها ان ترد على المليون ونصف مليون ثوري في الولايات المتحدة . انتم لا تستطيعون ان تجيبوا . انا اتحداكم ان تجيبوا . وفوق هذا ، اجد في نفسي الجراءة على ان اقول لكم الآن انكم لن تجيبوا حين انهي كلامي . ان السنتكم سوف تصاب بالعي في كل ما يتصل بهذه النقطة ، على الرغم من انكم سوف تتكلمون على اشياء اخرى في هذر بالغ .

» لقد أخفقت في تدبير أمر المجتمع . لقد حولتم الحضارة الى مسلخ . لقد كنتم عميانا وشرهيين . لقد نهضتم (كما تنهضون اليوم) على غير استحياء ، في ندواتنا التشريعية ، واعلنتم ان تحقيق الارباح مستحيل اذا لم يكره الصبية والاطفال الرضع على العمل الكادح . انا لا اطلب اليكم ان تتكلموا على كلامي في هذه القضية . فكل هذه الحقائق مدونة في المحاضر ، وهي تدينكم اداة رسمية . لقد دغدغتم ضميركم حتى ينام بشرثرات طفلية عن مثل عليا وعن اخلاقيات غالية . انتم مترهلون بالسلطان والثروة ، نشاوى بالنجاح ، وليس لكم من أمل في التغلب علينا اكثر من الامل الذي لليعاسب* المتهاففة على دنان العسل ، عندما تنقض عليها النحللات لتضع حدا لوجودها المترهل المتخم . لقد أخفقت في تدبير المجتمع ، فلا معدى من أن تنتزع هذه المهمة منكم . ان مليوننا ونصف مليون من رجال الطبقة العمالية ليقولون انهم سوف يحملون سائر ابناء الطبقة العمالية على الانضمام اليهم

* اليعسوب : ذكر النحل .

وانتزاع تلك المهمة من ايديكم • هذه هي الثورة ، يا سادتي • اوقفوها اذا استطعتم • »

وطوال فترة من الوقت غير يسيرة ظل صوت ارنست يرن في ارجاء القاعة الكبيرة • ثم ارتفعت المقررة المبحوحة التي سمعتها من قبل ، ونهض اثنا عشر رجلا واقفين على اقدامهم مطالبين الكولونيل فان جيلبرت ان يمنحهم حق الكلام • ولاحظت كتفي المس برينتسود تتحركان على نحو تشنجي ، فاستبد بي الغضب بادى الامر ، ذلك بأني حسبت انها كانت تضحك ساخرة من ارنست • ولكني اكتشفت بعد ذلك ان هذا لم يكن ضحكا ، ولكن هستيريا • لقد روعها ما كانت قد اقدمت عليه من فتح ابواب نادياها الفيلوماثي المبارك في وجه هذا الثوري المشاغب •

ولم يلاحظ الكولونيل فان جيلبرت الرجال الاثني عشر ، ذوي الوجوه المنفعلة ، الذين كانوا يناضلون من اجل حمله على منحهم حق الكلام • لقد وثب واقفا على قدميه ، ملوحا بذراعيه ، ولم يوفق - طوال لحظة - الى أكثر من النطق ببعض الاصوات المتقطعة المتناثرة • ثم ان الكلام تدفق من على لسانه • ولكنه لم يكن كلام محام يتقاضى مئة الف دولار في الدعوى الواحدة ولم يكن ذا ديباجة بلاغية عتيقة الزي •

لقد صاح :

- « مغالطة في مغالطة ! انا لم اسمع قط في حياتي مثل هذا القسدر الهائل من المغالطات ينطبق به في ساعة واحدة ليس غير • والى هذا فان من واجبي ان اقول لك ، ايها الفتى ، انك لم تأت بشيء جديد • فقد تعلمت كل ذلك في الجامعة قبل ان تولد انت ، لقد اعلن جان جاك روسو نظريتك الاشتراكية منذ قرنين تقريبا • عودة الى الارض ، حقا ! ارتداد ! ان علم البيولوجيا ليعلمنا سخف هذه المزاعم • لقد قيل ، وحق ما قيل ، ان المعرفة الناقصة شيء خطر ، وما قد قدمت انت ، الليلة ، خير مثل على ذلك بنظرياتك الطائشة الرعناء • مغالطة ! انا لم استشعر قط الحاجة الى التقيؤ بقدر ما استشعرها الآن لكثرة ما سمعت من مغالطات • ذلك هو رأى في تعميماتك الفجة وتفكيرك الصبباني ! »

وفرقع اصابعه علامة الازدراء والاستخفاف وجنح الى الجلوس • لقد اطلقت النسوة من رؤوس شفاههن هتافات استحسان ، واطلق الرجال عبارات تايدد اتسمت بالبحّة اكثر من ذي قبل • أما الرجال الاثنا عشر الذين كانوا يطالبون رئيس الاجتماع بأن يجيز لهم الكلام فقد شرع نصفهم يتكلمون في وقت معا • كانت الفوضى والبلبلّة ممتنعيتين على الوصف •

والواقع ان جدران السيدة بيرتونوايث الرحبة لم تر مثل هذا المشهد قط من قبل . هؤلاء ، اذن ، كانوا اقطاب الصناعة واسياد المجتمع المترصنين ، هؤلاء المتوحشون المزمجرون المكشرون عن انيابهم الرافلون في ثياب السهرة! لقد زلزلهم ارنست حقا عندما بسط يديه التماسا لمحافظ نقودهم ، يديه اللتين بدتا في اعينهم وكأنهما ايدي مليون ونصف مليون ثوري .

ولكن ارنست ما كان ليضيع صوابه في موقف من المواقف . فقبيل ان يوفق الكولونيل فان جيلبرت الى الجلوس كان ارنست قد نهض واقفا ورثب الى امام ، وهدر في وجههم :

« تكلموا واحدا واحدا ! »

لقد ارتفع الصوت من رثتيه الضخمتين وهيمن على العاصفة البشرية . لقد فرض عليهم الصمت بقوة شخصيته ليس غير .

وكرر في رقة :

« تكلموا واحدا واحدا ! دعوني ارد على الكولونيل فان جيلبرت . وبعد ذلك تستطيع بقيتكم ان تتصدى لي - ولكن واحدا بعد واحد ، تذكروا ! فلا مجال هنا للالعاب الجماعية . اننا لسنا الان في ملعب لكرة القدم . »

ثم اردف ملتفتا الى الكولونيل فان جيلبرت :

« اما في ما يتصل بك فانك لم تجب عن ايما شيء مما قلته . انت لم تزد على ارسال بعض الاحكام الاعتباطية المهتاجة حول مقدرتي العقلية . ان هذا قد يساعدك في مهنتك ، ولكنك لا تستطيع ان تتحدث الي على هذا النحو . انا لست عاملا من العمال ، يتقدم اليك متذلا ، سائلا ان تزيد اجره او ان تحميه من الالة التي يعمل وراءها . انت لا تستطيع ان تقف من الحقيقة موقفا اعتباطيا او تعسفيا حين يتعلق الامر بي . وفر مثل هذه المواقف لاصطناعها في تعاملك مع عبيد اجورك . انهم لن يستطيعوا الرد عليك لان في يدك خبرهم وزبدتهم وحياتهم ... »

« اما في ما يتصل بمسألة هذه « العودة الى الطبيعة » التي تزعم انك تعلمتها في الجامعة قبل ان اولد فاسمح لي ان اذهب الى انه لم يكن في امكانك ، على ما يبدو ، ان تتعلم منذ ذلك الحين اي شيء البتة . فالاشتراكية لا دخل لها « بالحالة الطبيعية » الا اذا صح ان لحساب التفاضل differential Calculus دخلا بصف من صفوف تدريس التوراة . لقد سبق لي ان رमित طبقتك الرأسمالية بالغباء في كل ما هو خارج نطاق العمل التجاري . وها انت ذا ، يا سيدي ، تزودني بمثل صارخ يثبت صحة ما

رميتكم به . »

وكان هذا التقريع الفظيع لمحاميتها الذي يرتفع أجره في القضية الواحدة الى مئة الف دولار شيئاً أكثر مما تستطيع اعصاب المس برينتود احتماله .
فاذا بهستيريتها تسمي عنيفة ، فيضطر القوم الى اخراجها من الحجرة وهي تبكي وتضحك في آن معا . ولقد احسنوا صنعا ، ذلك بأن اشياء اسوا ما ليبت ان تلت .

وتابع ارنست كلامه :

– « لا تركن الى رأيي في هذا الموضوع . ان سلطاتكم نفسها خليق بها ان تثبت بالاجماع انكم اغبياء . ان « المتعدين » المأجورين الذين يقدمون اليكم الزاد الثقافي سوف ينيؤونك بانكم على خطأ . اذهب الى اصغر مدرس من مدرسي علم الاجتماع في جامعتكم وسله ما الفرق بين نظرية روسو في العودة الى الطبيعة ونظرية الاشتراكية ، سل اعظم اخصائيكم البورجوازيين المستقيمي الرأي في علم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع ، قلب صفحات اي كتاب من كتب التدريس المؤلفة في هذا الموضوع والمذخرة فوق رفوف المكتبات التي تغدقون عليها منحكم ، تجد جوابا واحدا ليس غير ، وهو انه ليس ثمة ايما تناغم او انسجام بين العودة الى الطبيعة وبين الاشتراكية . ليس هذا فحسب ، بل ان الجواب الايجابي الاجماعي سوف يقرر ان الاشتراكية والعودة الى الطبيعة هما على طرفي نقيض . وكما قلت ، لا تركن الى رأيي في هذا الموضوع . فغباؤكم منصوب عليه هناك في كتبكم ، كتبكم انتم التي لا تقرؤونها ابد الدهر . اما غباؤك الشخصي فليس الا صورة عن غباء طبقتك .

« انك تعرف القانون والعمل التجاري ، ايها الكولونيل فان جيلبرت . انت تعرف كيف تخدم الشركات وتزيد ارباح حملة الاسهم بتحريف القانون وتشويهه . حسن جدا . الزم هذه السبيل . انت شخصية مرموقة . انت محام بارع جدا ، ولكنك مؤرخ رديء . انت لا تعرف شيئاً من علم الاجتماع ، ومعلوماتك البيولوجية ترقى الى عصر بليني Pliny . »

وهنا تلوى الكولونيل فان جيلبرت في كرسيه . وران على الغرفة سكون عميق . لقد جلس كل امرئ مسحورا – او على الاصح ، مشلولاً . فمثل هذا الهجوم الرهيب على الكولونيل فان جيلبرت العظيم كان شيئاً لم يسمع بمثله من قبل ، شيئاً متعذر التصديق – الكولونيل فان جيلبرت العظيم الذي كان القضاة يرتعدون امامه كلما وقف في قاعة المحكمة . ولكن ارنست ما كان ليهادو عدوا ابداً .

وقال ارنست

« وهذا طبعا لا ينتقص من قدرك . فكل امرئ ميسر للصناعة التي خلق لها . ولكن عليك ان تلزم انت صناعتك ، ولسوف الزم انا صناعتي . لقد اخترت لنفسك حقل اختصاص . فحين يقتضي الامر معرفة بالقانون ، معرفة باحسن الطرق الى التهرب من القانون او الى سن قانون جديد لمصلحة الشركات المتلصصة ، تجدني متمرغا في التراب عند قدميك ، اما حين يكون الامر ذا صلة بعلم الاجتماع - اي بصناعتي انا - فعندئذ تتمرغ انت فسي التراب عند قدمي . تذكر ذلك . وتذكر ايضا ان قانونك هو مادة يوم واحد ، وانك غير متضلع من المادة التي تنسحب على اكثر من يوم واحد . واذن فتوكيداتك الاعتبارية وتعميماتك الطائشة في قضايا التاريخ وعلم الاجتماع لا تساوي النفس الذي تضيعه عليها . »

وتهمل ارنست لحظة وانعم النظر الى الكولونيل فان جيلبرت ، ملاحظا وجهه المكفهر بالغضب ، وصدوره اللاهث ، وجسده المتلوي الما ، وكفيه البيضواوين النحيلتين اللتين كانتا تنقبضان ثم تنبسطان على نحو عصبي . - « ولكن يبدو لي ان لديك انفاسا تريد ان تصطنعها ، ولسوف اتيح لك انا فرصة اصطناعها . لقد اتهمت طبقتك الرأسمالية . ارني ان اتهامي هذا غير صحيح . لقد كشفت لك عن بؤس الانسان الحديث - ثلاثة ملايين من الاطفال المسترقين في الولايات المتحدة ، الذين يتعذر ، لولا كدحهم ، حصول الرأسماليين على الارباح ، وخمسة عشر مليونا من الذين يعوزهم الغذاء الصحيح ، والملابس الملائمة ، والبيت الصالح . ولقد لفت نظرك الى ان طاقة الانسان الحديث الانتاجية اصبحت ، بفضل التنظيم الاجتماعي وتسخير الآلات ، اعظم الف مرة من طاقة انسان الكهف . ونصصت على انه ليس في استطاع المرء ان يخلص من هاتين الحقيقتين الا الى استنتاج واحد : ان الطبقة الرأسمالية قد اساءت التصرف والتدبير . تلك كانت هي التهمة التي وجهتها ، ولقد تحديتكم بخاصة ، اخر الامر ، ان تدفعها . لا ، لقد ذهبت الى ابعد من ذلك . لقد تنبأت بانك لن تحاول دفعها . وكان من واجب نفسك ان يسحق نبوءتي . لقد زعمت ان خطابي مغالطة . ارني المغالطة ، ايها الكولونيل فان جيلبرت . رد على التهمة التي وجهتها ، انا ورفاقي البالغ عددهم مليون ونصف مليون ، اليك والى طبقتك الرأسمالية . » ونسي الكولونيل فان جيلبرت نسيانا تاما انه كان يرأس الاجتماع ، وان اللباقة تقتضيه ان يفسح في مجال الكلام لطالبيه . لقد نهض واقفا واطرح ذراعيه وبلاغته وسيطرته جانباً ، شاتما ارنست لفتوته وديماغوجيته ،

ومهاجما - في وحشية - الطبقة العاملة ، متفenna في تصوير تفاهتها وعدم فعاليتها .

ورد ارنست على هذه الحملة فقال :

- « ان فتوتي لا علاقة لها البتة بما اعلنته . لا ، وليس لتفاهة الطبقة العمالية اية علاقة به ايضا . لقد اتهمت الطبقة الراسمالية بأنها اساءت تدبير المجتمع ولم تحسن سياسته . انت لم ترد على هذا الاتهام . بل انك لم تقدم بأية محاولة للرد . لماذا ؟ الانك لا تملك جوابا ؟ انت بطل هذا النادي كله . وكل امرئ هنا ، باستثنائي انا ، يتطلع الى شفئك التماسا لذلك الجواب ، لانهم هم انفسهم لا جواب لديهم . اما انا فكنت اعلم - كما ذكرت من قبل - انك غير قادر على الاجابة ، ليس هذا فحسب ، بل كنت اعلم انك لن تحاول الاجابة . »

وصاح الكولونيل فان جيلبرت :

- « هذا شيء لا يحتمل ! هذه اهانة ! »

فاجابه ارنست في وقار :

- « الذي لا يطاق هو احجامك عن الاجابة . ما من رجل يمكن ان يهان فكريا . ان الاهانة هي ، في طبيعتها ذاتها ، انفعالية . استعد هدمك وسيطرتك على حواسك . اعطني جوابا فكريا عن اتهامي العقلي الذي قلت فيه ان الطبقة الراسمالية قد اساءت تدبير المجتمع وأفسدته . » واعتصم الكولونيل فان جيلبرت بالصمت ، وعلى وجهه انطباعة مترفعة مكفهرة ، كالانطباعة التي تعلو وجه من يأنف ان يتبادل الكلام مع وغد من الاوغاد .

فقال ارنست :

- « لا يأخذنك الغم وانكسار خاطر . حسبك عزاء ان واحدا من ابناء طبقتك لم يوفق حتى اليوم الى الرد على هذه التهمة . » ثم التفت الى اولئك الذين كانوا يتحرقون للكلام :

- « والان ، لقد سنحت فرصتكم . هاتوا ما عندكم ، ولا تنسوا انني اتحداكم هنا بأن تقدموا الي الجواب الذي عجز الكولونيل فان جيلبرت عن تقديمه . »

انه لمن المتعذر علي ان أسجل ههنا كل ما قيل في تلك المناقشة . فاننا لم ادرك من قبل قط أي قدر من الكلمات يمكن ان يتلفظ به في ثلاث ساعات . وعلى اية حال ، فقد كان ذلك ماجدا . كان ارنست كلما عصف الاهتياج بخصوصه لا يزيدهم الا هياجاً . كانت له هيمنة موسوعية على المعرفة ،

وبكلمة او عبارة ، وبوخزات حادة كطعنات السيف راح يثقبهم ويبرز لهم .
لقد كشف عن « لامنطقهم » ووضع ايديهم عليه . فهذا قياس منطقي فاسد ،
وذاك استنتاج لا صلة له بالمقدمة المنطقية ، على حين ان تلك المقدمة المنطقية
خادعة لانها حجبت في ثنائياها بكثير من المكر ، الاستنتاج الذي كانوا يحاولون
اقامة الدليل عليه . وهذا خطأ ، وذاك ادعاء ، وذلك تأكيد يتنافى مع الحقيقة
المقررة كما نصت عليها كتب التدريس كلها .

وهكذا ، وهكذا . وفي بعض الاحيان كان يستبدل الهراوة بالسيف * ،
وينقض بها على فكراتهم ، ذات اليمين وذات الشمال فيهشمها تهشما .
وكان يلح ، ابدا ، في طلب الحقائق ، ويأبى ان يناقش النظريات . ولقد
هزمتهم حقائقه هزيمة منكرة . كانوا كلما هاجموا الطبقة العاملة يرد
عليهم بالقول : « ان مثلكم كمثل قدر يكسوها السخام ومع ذلك تقول لركوة
القهوة : انت سوداء ! ان هذا ليس جوابا على التهمة القائلة ان وجهكم
قدر . » وكان يقول لهم ولكن فرد منهم : « لماذا لم تجيبوا على اتهامي
لطبقتكم بسوء التصرف والتدبير ؟ لقد تحدثت عن اشياء اخرى ، وعن اشياء
اخرى تتصل بأشياء اخرى ، ولكنكم لم تجيبوا . ايكون ذلك لانه لا جواب
لديكم ؟ »

ولم يتكلم مستر ويكسون الا عندما اذنت المناقشة بالانتهاء . كان
هو الشخص الوحيد الذي احتفظ بهدوئه وبروده ، ولقد عاملة ارنست في
احترام لم يسبغه على أحد من الآخرين .
لقد قال مستر ويكسون في روية وأناة :

— « ليس ثمة ضرورة لاي جواب . لقد تابعت المناقشة كلها في
دهش وتقزز . اني متقزز من حضراتكم ، يا ابناء طبقتي الاجتماعية . لقد
تصرفتم تصرف غلمان مدرسة اغرار ، ومن اسباب ذلك اقحامكم الاخلاق
وهزيم ** السياسي العادي في هذه المناقشة . لقد هزمتم وانتزع
منكم شرف السبق . وما كان اكثر لغوكم وهذركم ، ولكن ذلك كله لم يكن
غير طنين . لقد طننتم كالبعوض حول دب . ايها السادة ، هو ذا الدب
مائلا امامكم (وأشار الى ارنست) ، وان طنينكم لم يزد على ان داعب
اذنيه . »

* اي يترك السيف ويأخذ الهراوة بدلا عنه .

** الهزيم : صوت الرعد ، والرعد نفسه .

« صدقوني اذا قلت ان الوضع خطير . لقد بسط ذلك الدب مخالبه الليلية ، لسحقنا . ولقد قال ان في الولايات المتحدة مليوناً ونصف مليون ثوري . هذه حقيقة . » وقال ان هؤلاء يعتزمون ان ينتزعوا منا حكوماتنا وتصورنا وكل رفاهيتنا الارستوقراطية . وهذه ايضاً حقيقة . ان تغيراً ، تغيراً عظيماً ، يعتور المجتمع اليوم . ولكن المصادفة قد تشاء ان لا يكون هو التغير الذي يتوقعه الدب . لقد قال الدب انه سوف يسحقنا . ولكن ما قولكم اذا ما سحقنا نحن الدب ؟ »

وارتفعت قرقرة الحناجر في القاعة ، وهز بعض القوم رؤوسهم لبعض معبرين عن تأييدهم ويقينهم . كانت امارات الصرامة بادية على وجوههم . لقد كانوا مقاتلين ، ذلك شيء راهن لا ريب فيه .

وتابع مستر ويكسون حديثه في برود ورزانة :

– « سوف تقتنص الدب . ونحن لن نرد على الدب بالالفاظ . لا ، ان جوابنا سوف يفرغ في لغة الرصاص . اننا نحن اصحاب السلطان . ليس في وسع احد ان ينكر ذلك . وبفضل ذلك السلطان سوف نحفظ بالسلطان . »

ولفت فجأة نحو ارنست . كانت اللحظة دراماتيكية :

– « ذلك ، اذن ، هو جوابنا . ليس عندنا كلمات نضيعها في مجادلتك . ولكن ما ان تمد يديك القويتين المتجحتين الى قصورنا والى رفاهيتنا الارستوقراطية المرافلة بالارجوان حتى نريك ما هي القوة . ان جوابنا سوف يفرغ في دوي القنابل وشظاياها وفي قصف المدافع الالية السريعة ٤٧ . اننا سنسحقكم ، ايها الثوريون ، تحت عقبننا ، ولسوف نمشي على وجوهكم . ان العالم هو عالمنا ، نحن اسباده ، وسيبقى عالمنا ابد الدهر . اما جماهير العمال فقد تمرغوا في القدر منذ فجر التاريخ ، واني لاقرا التاريخ كما ينبغي ان يقرأ . وفي القدر سوف يظلون متمرغين ما دمت انا وابناء طبقتي ومن سوف يخلفنا نملك السلطان . هذه هي الكلمة . انها مليكة الكلمات : – السلطان – لا الاله ، لا الثروة ، ولكن السلطان . ادركها على لسانك حتى يتخدر بها . السلطان . »

٤٧ تبيننا مجرى التفكير في تلك العهود تنقل التعريف التالي مـ نـ « معجم الساخر ، (عام ١٩٠٦ بـ م) وقد وضعه رجل يدعى أمبروز بيرس Bierce وكان من أعنف مبغضي البشر في ذلك الزمان : « القنبلة العنقودية ، اسم : حجة يهيئها المستقبل جواباً على الاشتراكية الاميركية » .

فقال ارنست في هدوء :

« لقد فزت بجواب • انه الجواب الوحيد الذي يمكن ان يعطى • السلطان • ذلك ما ندعو اليه نحن ابناء الطبقة العاملة • نحن نعرف ، ونعرف جيدا من طريق الخبرات المريرة ، انه لا الحق ولا العدل ولا الانسانية قادرة على ان تلين قناتكم • ان قلوبكم قاسية مثل اعقابكم التي تدوسون بها وجود الفقراء • وهكذا نادينا نحن بضرورة الفوز بالسلطان • وبسلطان اصواتنا يوم الانتخاب سوف ننتزع حكومتكم من ايديكم • »

فاعترضه مستر ويكسون سائلا :

« ان حصولكم على الاغلبية الغامرة ، يوم الانتخاب ، لن يغير من الوضع شيئا • لنفرض اننا رفضنا ان نسلم اليكم مقاليد الحكومة بعد ان تستولوا عليها من طريق صندوق الاقتراع ؟ »

فأجاب ارنست :

« هذا الافتراض حسبنا حسابيه ايضا • ولسوف نقدم اليكم جوابنا في لغة الرصاص • لقد اعلنت ان كلمة « السلطان » مليكة الكلمات • حسن جدا • ولسوف يكون السلطان هو الحكم • ويوم ننتزع النصر من طريق صندوق الاقتراع ، وترفضون ان تسلموا الينا مقاليد الحكومة التي استولينا عليها على نحو دستوري وسلمي ، وتسالون ما الذي سوف نفعله ازاء هذا - اقول ، في ذلك اليوم سوف نجيبكم ، ولسوف يكون جوابنا مفرغا في دوي القنابل وشظاياها ، وفي قصف المدافع الآلية السريعة • »

« انكم لا تستطيعون ان تنجوا بانفسكم منا • صحيح انك قرأت التاريخ كما ينبغي ان يقرأ • صحيح ان جماهير العمال قد تمرغت في القدر منذ فجر التاريخ وما تزال • وصحيح ايضا انه ما دمت انت وابناء طبقتك ومن سوف يخلفكم قابضين على زمام السلطان فان اولئك العمال سيظلون متمرغين في القدر • انا اقر على هذا • انا اقر على كل ما قلته • ان القوة سوف تكون الحكم ، كما كانت هي الحكم دائما • انه صراع الطبقات • فكما اسقطت طبقته النبلاء الاقطاعيين القديمة هكذا سوف تسقط بدورها ، ولسوف تكون طبقتي ، الطبقة العاملة ، هي صاحبة الفضل في اسقاطها • ولو انك قرأت علم البيولوجيا وعلم الاجتماع بمثل الوضوح الذي تقرأ به التاريخ انن لرأيت ان هذه النهاية التي وصفتها امر محتوم • وسواء اتم ذلك في عام ، ام تم في عشرة اعوام ، ام تم في الف

فالذي لا ريب فيه هو ان طبقتم سوف تسقط عن عرشها ، ولسوف يكون سقوطها ثمرة السلطان • لقد ادرنا هذه الكلمة في رؤوسنا حتى لقد تخدرت بها عقولنا • السلطان • انها كلمة ملوكية ! »
وهكذا ختمت تلك الليلة التي قضيناها في نادي الفيلوماثيين •

الفصل السادس

تلميحات

حوالى هذه الفترة بالذات شرعت نذر الاحداث القادمة تطلع رؤوسها حولنا في سرعة وكثرة . كان ارنست قد لغت نظر ابي الى سوء مغبة ما درج عليه مؤخرا من استقبال الزعماء الاشتراكيين والعماليين في بيته ، وحضور الاجتماعات الاشتراكية جهارا . فما زاد ابي على ان ضحك ساخرا من مخاوفه . اما انا فكنت أفيد كثيرا من هذا الاحتكاك بزعماء الطبقة العمالية ومفكرها . كنت قد بدأت أرى الوجه الآخر من القطعة النقدية . وابتهجت بالايتار وبالمثالية اللذين لمستهما ، على الرغم من اني روعت بوقرة المؤلفات الفلسفية والعلمية الباحثة في الاشتراكية ، هذه المؤلفات التي وضعت في متناولي . كنت اتعلم في سرعة ، ولكنني لم اتعلم بالسرعة الكافية التي تجعلني ادرك ، انذاك ، خطورة وضعنا .

لقد كانت ثمة نذر ، ولكنني لم أُنْتَبِه اليها . كانت السيدة بيرتونوايث والسيدة ويكسون مثلا ، تتمتعان بنفوذ اجتماعي هائل في جامعة مدينتنا ، فاذاعتا في الناس أنني شابة تقدمية اكثر مما يجب . واني ذات نزعة مؤذية الى الفضول والتدخل في شؤون الآخرين . وخيل الي ان ذلك طبيعي جدا ، نظرا الى الدور الذي قمت به في التحقيق في قضية نراع جاكسون . ولكنني لم أقدر الاثر السيء الذي كان خليقا بتلك الدعاوة ، الصادرة عن مثل هاتين السيدتين المتمتعين بنفوذ اجتماعي عظيم ، ان تحدثه في نفوس الناس حق قدرها .

حقا ، لقد لاحظت بعض الانكماش تصطنعه صديقاتي واصدقائي ،

ولكنني عزوت هذا الى الاستهجان الذي ساد حلقات بيثتي بسبب من اعترامي
الزواج من ارنست . ولم يوضح لي ارنست ، الا بعد ذلك بقليل ، ان موقف
طبقتي العام هذا كان شيئاً اكثر من تلقائي ، وان دوافع محجوبة لسلوك
منظم كانت من ورائه . قال :

« لقد اويت عدوا من اعداء طبقتك . ليس هذا فحسب ، بل لقد
منحته حبك ، منحته نفسك . هذه خيانة لطبقتك . حذار ان تحسبي انك
سوف تنجين من العقوبة . »

ولكن حتى قبل ذلك بفترة من الزمان رجع ابي ذات اصيل الى
البيت . كان ارنست الى جانبي ، ولقد استطعنا ان نرى ان ابي كان
غاضباً - غاضباً على نحو فلسفي . والواقع ان ابي كان نادراً ما يستبد
به الغضب الجامح ، ولكنه كان يجيز لنفسه قدراً بعينه من الغضب
المكبوح . كان يدعو هذا القدر من الغضب علاجاً مقويماً . ولقد كان
في ميسورنا ان نرى انه كان قد تجرع شيئاً من هذا « العلاج المقوي »
عندما دخل الغرفة .

« ما رأيكما ؟ لقد تناولت طعام الغداء مع ويلكوكس . »
وكان ويلكوكس رئيس الجامعة المحال الى التقاعد ، وكان عقله
الذاوي محشواً بتعميمات كانت غضة عام ١٨٧٠ ولكنه لم يحاول منذ
ذلك الحين ان يعيد النظر فيها .

وأعلن ابي :

« لقد دعيت . لقد طلب الي ان اذهب . »
وتمهل . وانتظرنا .

« اوه ، لقد أتم ذلك في براعة بالغة . انا أسلم بهذا ، ولكنني
وبخت . أنا ! ومن قبل ذلك الاحفور Fossil العتيق ! »

فقال ارنست :

« أراهنك اني اعرف علام وبخت . »

فضحك ابي وقال :

« لن تعرف ولو أعطيتك الفرصة لكي تحزر ثلاث مرات . »

فأجابه ارنست :

« حسبي فرصة واحدة . ولن يكون ذلك حزراً على اية حال ، انه
سوف يكون استنتاجاً . لقد وبخت على حياتك الخاصة . »
فهتف ابي :

« ذلك هو على وجه الضبط ! كيف حذرت ؟ »
« كنت اعلم ان ذلك لا بد ان يحدث . لقد حذرتك قبل اليوم من
مثل هذه النتيجة . »
فقال ابي مستغرقا في التفكير :
« اجل لقد حذرتني . ولكني لم استطع ان اصدق ان ذلك ممكن .
وعلى اية حال ، فان هذا يزودني ببينة جديدة أكثر افحاما انص عليها
في كتابي . »

فتابع ارنست كلامه :
« ليس هذا شيئا مذكورا بالنسبة الى ما سيطالعك به المستقبل ،
اذا ما لمزت خطتك ولم تقلع عن استقبال هؤلاء الاشتراكيين والراديكاليين
على اختلاف ضروبهم ، في بيتك ، واستقبالي انا في جملتهم . »
« ذلك ما قاله ويلكوكس العجوز بالحصرف الواحد . لقد تحدث
عن جميع الاشياء غير المباحة ، وقال ان ذلك ينم عن ذوق سقيم وانه
لا غناء فيه البتة ، ولا ينسجم مع تقاليد الجامعة وسياستها . ولقد تكلم
عن اشياء اخرى كثيرة من هذا القبيل الغامض نفسه ، ولم اوفق الى
حمله على حصر كلامه في مسألة بعينها . لقد اخرجته كثيرا ، فلم يجد
معدى عن اجترار نفسه وعن انبائني بمعدى احترامه لي ، ومعدى احترام
العالم كله لي بوصفي عالما . والحق ان مهمته تلك لم تكن مستساغة
لديه . لقد كان في وسعي ان الالحظ انه لم يحبها . »
فقال ارنست :

« انه هو الآخر لم يكن مالكا حرية التصرف . ان المصفدة قدماه
بالاغلال leg-bar : لا يحذر ، دائما ، في كياسة ولطف . »
« اجل . ذلك مقدار ما فهمته منه . لقد قال ان الجامعة محتاجة
هذا العام الى اموال تزيد كثيرا على ما ترغب الولاية في تقديمه اليها ،
وان هذه الاموال يجب ان تأتي من بعض الاثرياء الذين لا بد ان يؤذي
نفوسهم انحراف الجامعة عن مثلها الاعلى وهو البحث الرصين يقوم به
العقل الرصين . وحين حاولت ان احمله على تركيز النقاش في علاقة حياتي.

٤٨ كانوا في تلك الايام يصفدون اقدام العبيد الافريقيين على هذا النحو ، وكذلك
كانوا يغلطون بالمجرمين . ولم تنسخ هذه العادة الا عند اشراق عصر « الاخاء
بين البشر » .

البيتية بانحراف الجامعة عن مثلها الاعلى اقترح منحي اجازة سنتين ،
براتب كامل ، اقضيها في اوروبة ابتغاء الاستجمام والقيام ببعض البحوث
العلمية . وواضح اني لم أستطع ، في ظل هذه الظروف والملابسات ،
ان اقبل عرضه . »

فقال ارنست في كنية :

« لو قبلت لكان ذلك خيرا لك الف مرة . »

فاحتج ابي قائلًا :

« كان عرضه رشوة ليس غير . »

فهن ارنست رأسه علامة الموافقة ، وتابع ابي كلامه :

« وفوق هذا ، فقد قال الشحاذ ان ثمة حديثا ، قبيلا وقالا يدور
حول موائد الشاي ، خلاصته ان ابنتي ترافق ، على مشهد من الناس ،
شخصية مثلك سيئة السمعة الى ابعد حد ، وان هذا لا يتفق بحال مع روح
الجامعة وكرامتها . وليس معنى ذلك انه هو شخصا يعترض - اوه ، لا ،
ولكن الناس تتحدث ، وخليق بي انا ان افهم . »

وفكر ارنست في هذا الكلام لحظة ، ثم قال وعلى وجهه كآبة عميقة
يشوبها غيظ قاتم :

« ان وراء هذا كله شيئا اكثر من مجرد مثل اعلى جامعي . لا ريب

في ان أحدا قد ضغط على الرئيس ويلكوكس . »

فسأله ابي وقد بدا على وجهه ما يفيد ان كلام ارنست اثار فضوله
اكثر مما اثار روعه :

« هل تظن ذلك ؟ »

فقال ارنست :

« اتمنى لو استطيع ان انقل اليك الفكرة التي تتشكل ، على نحو
ضبابي ، في ذهني . ان تاريخ العالم لم يعرف فترة كان فيها المجتمع
خاضعا لتغير رهيب موصول اكثر من هذه الفترة التي نعيش فيها . وهذه
التغيرات السريعة الطارئة على نظامنا الصناعي انما تحدث تغيرات لا
تقل سرعة في بنيتنا الدينية ، وبنيتنا السياسية ، وبنيتنا الاجتماعية .
ان ثورة رهيبة غير منظورة لتجري اليوم في نسيج المجتمع وبنيته . تلك
امور لا يستطيع المرء ان يستشعرها الا على نحو غامض . ولكنها اليوم
في حالة سديمية . ان في ميسور المرء ان يلمح ظلها الضبابي - اشياء ضخمة
غامضة ، فظيعة . وان عقلي ليجفل من التفكير في الصورة النهائية التي

ستقبلور فيها • لقد سمعت انا ويكسون يتحدث تلك الليلة • ولقد كانت وراء كلماته عين الاشياء التي لا اسم لها ولا شكل والتي أستشعرها الآن • كان يصدر في حديثه عن توقع واع ابعد ما يكون الوعي »
فقال ابي ، ثم تمهل ولم يتم :
- « تعنني ... »

- « أعني ان ثمة ظل شيء هائل متوعد شرع يهبط ، حتى في يوم الناس هذا ، على البلاد • سمه ظل اوليغاركية ما ، اذا شئت ، تلك اقرب صورة اجرؤ على رسمها له • اما ما ستكون عليه طبيعته فذلك ما ارفض ان اتخيله ٤٩ • ولكن ما اردت ان اقله هو هذا : انت في مركز محفوف بالخطر ، وانه لخطر يزيد خوفه هولا ، لاني عاجز حتى عن قياسه او سبره • اعمل بنصحتي ، واقبل الاجازة • »
فاحتج قائلاً :

- « ولكن مثل هذا القبول خليك به ان يكون جبنا ... »
- « لا ، على الاطلاق • انت رجل عجوز • لقد ادبت رسالتك في هذا العالم ، ولقد كانت رسالة عظيمة • دع المعركة الحالية للشباب وللقوة • كنا نحن الشبان ، لما نؤد رسالتنا بعد • ولسوف تقف ايفيس الى جانبي في مواجهة احداث المستقبل • انها ستكون هي ممثلك في جبهة النضال • »
فاعترض ابي :

- « ولكنهم لا يستطيعون ان يؤذوني • انا احمد الله على نعمة الاستقلال • اوه ، انا اعرف الاضطهاد الرهيب الذي يستطيعون انزاله بايما استاذ ليس له مورد رزق غير جامعته • ولكنني في غنى عنهم • وانا

٤٩ على الرغم من ان الناس لم يحلموا ، مثل ايفرهارد ، بطبيعة ذلك الظل ، فقد كان ثمة ، حتى قبل زمانه ، قوم بصروا بلمحات منها • قال جون كالهون Calhoun : « لقد نشأت في الحكومة قوة اعظم من الشعب نفسه ، تتألف من مصالح كثيرة متباينة قوية ، اتحدت في كتلة مفردة وتماسكت بفضل الفائض الضخم في المصارف وقدرته اللاحمة • » وقال الانساني الكبير ، ابراهيم لنكون ، قبيل مصرعه مباشرة : « اني الملح في المستقبل القريب ازمة زاحفة تخلع قوايدي وتوقع الرعدة في اوصالي جزعا على سلامة وطني ... ان الشركات قد توجهت وان عهدا من الفساد في الدوائر العليا سوف يتلو ، وان سلطة المال في البلاد سوف تحاول اطالة حكمها من طريق استغلال احقاد الناس حتى تتجمع الثروة في ايد قليلة وحتى تنهار الجمهورية • »

لم اعمل استاذًا في الجامعة طمعا في الراتب الذي تجريه علي • لا ، ان في استطاعتي ان احيا على دخلي الخاص ، وانا احيا في كثير من الرفه • وان الراتب هو كل ما يستطيعون انتزاعه مني • »

فأجابه ارنست :

– « ولكنك تغفل عن حقيقة الموقف • اذا ما تحققت مخاوفي كلها فعندئذ يكون في امكانهم ان ينتزعوا منك دخلك الخاص ، ورأسمالك الخاص ، بمثل السهولة التي ينتزعون بها راتبك • »

واعتصم ابي بالصمت بضع دقائق • كان مستغرقا في التفكير ، ولقد كان في ميسوري ان ارى اسارير العزم تتشكل على وجهه • واخيرا تكلم فقال :

– « انا لن اخذ الاجازة ••• »

وصمت من جديد ، ثم اضاف :

– « سوف اواصل تأليف كتابي •• انك قد تكون مخطئا ، ولكن سواء اكننت مخطئا او مصيبا فسألزم موقفني وادافع عن فكراتي • »

فقال ارنست :

– « حسن جدا • أنت تسلك السبيل نفسها التي يسلكها الاسقف مورهاوس في هذه الايام ، وتتجه نحو كارثة ماثلة • ولسوف يصبح كل منكما بروليتاريا قبل ان تبلغا نهاية المطاف • »

وانعطف الحديث شطر الاسقف ، فطلبنا الى ارنست ان يشرح لنا ما الذي كان يفعله به •

– « لقد اسقمت روحه تلك الرحلة التي رافقته خلالها الى جهنم • لقد اخذته الى بيوت نفر من عمال مصانعنا • لقد أربته الحطام البشري الذي طرحته الآلة الصناعية جانبا ، واستمع الى قصص حياتهم • لقد قدته الى احياء سان فرانسيسكو القذرة ، وفي غمرة الازمان ، والبغاء ، والاجرام

٥٠ هذا الكتاب ، « علم الاقتصاد والتربية » ، نشر في تلك السنة • ولا يزال لدينا ثلاث نسخ منه • اثنتان في آرديس Ardis واحدة في أزغاراد Asgard . وهو يبحث ، في تفصيل محكم ، في عامل واحد من عوامل استمرار النظام القائم ، اعني تصبب الجامعات والمدارس العامة ومحاباتها للرأسماليين • لقد كان اتهاما منطقيا وماحقا لنظام التربية كله الذي لم ينشأ في عقول الطلاب غير الفكرات المؤيدة للنظام الرأسمالي ، بحيث تطرد جميع الفكرات المعادية الهادمة • لقد احدث صدور ذلك الكتاب هياجا بالغا ، فسارعت الاوليفاركية الى مصادرته •

اكتشف قضية غير قضية الفساد الفطري • انه يستشعر تقززا غامرا • ولقد اصبح من المتعذر كبح جماحه ، وهذا اسوأ • انه اخلاقي اكثر مما ينبغي • ولقد استثيرت عواطفه على نحو عنيف لا يكاد يحتمل • وهو ، كدابه دائما ، غير عملي • انه يخلق في سماء الخيال رسما مختلف ضروب الخطى الاخلاقية الواهمة لشئ حملة تبشيرية في حلقات المثقفين • انه يستشعر ان من واجبه المحتوم ان يبعث الكنيسة القديمة من عدم ، وان يؤدي رسالتها الى المتحكمين والاسياد • انه مضنى بهذه الاجهاد ، ولا بد ان ينفجر عاجلا أو آجلا ، وعندئذ تقع كارثة • اما الشكل الذي سوف تتخذه فذلك ما لا استطيع ان اتكهن به • انه نفس طاهرة سامية ، ولكنه غير عملي الى ابعد الحدود • لقد استعصى امره علي ، فليس في امكاني ان ابقى قدميه على الارض • انه يندفع ، عبر الخيال ، نحو جثمانيته * • وبعد ذلك يصار الى صلبه • مثل النفوس السامية انما خلقت لتصلب • »

فسالته ، وكانت وراء بسمتي جدية قلق الحب :

« وانت ؟ »

فاجابني ضاحكا بدوره :

« لا ، لا ، انا قد اعدم او اقتل ، ولكنني لن اصلب • ان جذوري

سمتة في الارض باكثر مما ينبغي من تصلب وتشبث • »

فقلت :

« ولكن ما الذي يحملك على دفع الاسقف نحو الصلب ؟ انت

لا تستطيع ان تذكر انك سبب ذلك كله • »

فسألني بدوره :

« وما الذي يحملني على ابقاء احدي النفوس المطمئنة ناعمة

بالاطمئنان ، على حين يحفل العالم بملايين الانفس الغارقة في حمأة الالم

المبرح والشقاء المقيم ؟ »

« اذن فلماذا نصحت أبي بأخذ الاجازة ؟ »

فكان جوابه :

« لاني لست نفسا طاهرة سامية • لاني صلب ، متشبث ، انا اني •

* الجثمانية Gesthsemane المكان الذي اعتقل فيه المسيح خارج بيت المقدس •

(المغرب)

لاني احبك ، ولان اهلك ، مثل « روث » * القديمة ، هم أهلي . اما الاسقف فليس له بنت . والى هذا ، فان احوال الاسقف ، الخير ، على الرغم من عدم سلامته وضآلته ، لا بد ان يوتي خيرا ما في الثورة . ان لنقل الذرة الواحد وزنه واعتباره . »

ولم استطع ان اقر ارنست على ما ذهب اليه . فقد كنت اعرف طبيعة الاسقف مورهاوس النبيلة معرفة جيدة ، ولم يكن في ميسوري ان اتصور ان صوته اذ يرتفع داعيا الى العدالة والحق لن يكون اكثر من احوال ضئيل غير ملائم . ولكنني لم اكن انذاك ملمة ، مثل ارنست ، الماما كاملا بحقائق لحياة . لقد رأى ، على نحو واضح ، بطلان نفس الاسقف الكبير وعيها ، وهو شيء ما لبثت الاحداث التي تلت ان كشفت لي بوضوح مماثل .

وبعد ذلك اليوم بفترة وجيزة انبأني ارنست ، وكأنه يروي حكاية طريفة ، العرض الذي تلقاه من الحكومة بتعيينه مفوضا للعمل في الولايات المتحدة . وغمرني الابتهاج . فقد كان الراتب ضخما نسبيا ، وكان في امكانه ان يبسر امر زوجنا . وفوق هذا ، فليس من ريب في ان مثل تلك المهمة كانت ملائمة لارنست اقصى ما تكون الملازمة . ثم ان اعتزازي به اعتزازا غيورا جعلني ارحب بالعرض كإقرار من جانب الحكومة بمواهبه وكفاياته . عندئذ لاحظت الوميض في عينيه . كان يسخر مني .

وقلت مرتعدة :

ـ « انك لن ... ترفض ؟ »

فقال :

ـ « انها رشوة . ان وراءها يد ويكسون الرفيقة ، وان وراء ويكسون رجال اعظم منه شانا . تلك حيلة عتيقة ـ عتيقة كالنضال الطبقي نفسه تهدف الى اختطاف القادة من قلب جيش العمال . ما اكثر ما عرف العمال المساكين من ضروب التخلي والخيانة ! ليتك تعرفين كم زعيم من زعمائهم اشترته الاوليغاركية بمثل هذه الاساليب في الايام الخالية ! فلان تشتري جنرا لا ارخص ، بل ارخص بكثير ، من ان تقاتله وتقاتل جيشه برمته . لقد كان ثمة ... ولكنني لن اسمي اسماء . ان الوضع ليرمضني ، في صورته الحاضرة ، ارماضا كافيا . انا ، يا حبيبة فؤادي ، قائد عمال . انا لا استطيع ان ابيع قضيتي واخون رفاقي . ان ذكرى والدي العجوز المسكين

* Ruth هي احدى بطلات الكتاب المقدس . (المغرب)

والطريقة التي اكرهوه فيها على العمل حتى الموت خليف بها وحدها ، لو
لم تكن ثمة اسباب اخرى ، ان تحول بيني وبين ذلك • ،
وترقرقت الدموع في عينيه ، في عيني بطلي القوي ذاك • كان عاجزا
عن ان يغفر للقوم ، مهما تطاول الدهر ، الطريقة التي شوهو بها اباه -
ان يغفر الاكاذيب الخسيسة والسرقات الصغيرة التي اكره عليها ، لكسي
يضع لقمة الخبز في افواه اولاده •
لقد قال لي ارنست ذات يوم :

- « كان ابي رجلا صالحا • كانت نفسه طيبة ، ومع ذلك فقد جعلتها
وحشية حياته محرقة ، شائهة ، كليلية • لقد احاله اسياده - الوحوش الكبار
الى وحش محطم الفؤاد • لقد كان من حقه ان يكون الان على قيد الحياة ،
مثل ابيك انت • فقد كانت له بنية قوية • ولكن الالة ادركته ، فراح يعمل حتى
الموت من اجل الربح ، تأملي في ذلك • من اجل الربح - لقد تحول دم حياته
الى عشاء مخمور ، او الى حلية رخيصة مرصعة بالجواهر ، او الى لهو
خليع من ملاهي الاثرياء الطفيليين العاطلين عن العمل ، ملاهي سادته
الوحوش الكبار • »

الفصل السابع

رؤيا الاسقف

كتب الي ارنست يقول : « اصبح من المتعذر كبح جماح الاسقف ، انه يحلق عاليا في سماء الخيال • انه يعتزم ، الليلة ، ان يستهل اصلاح عالمنا هذا بالذات ، عالمنا الغارق في البؤس • انه يعتزم اداء رسالته • ذلك ما انباني به ، وليس في استطاعتي ان اثنيه عن عزمه • وهذه الليلة سوف يرئس جلسة الـ I.P.H. ^{٥١} ، ولسوف يفرغ رسالته تلك في ملاحظاته التمهيدية •

« هل لي ان ادعوك الى سماعه ؟ لقد قدر على جهده ان يكون عبثا باطلا • انه سوف يفطر فؤادك – سوف يفطر فؤادك ، ولكن ذلك سيكون بالنسبة اليك درسا عمليا ممتازا • انت تعرفين ، يا حبيبة فؤادي ، مبلغ اعتزازي بحبك لي • وبسبب من ذلك اريدك ان تعرفي قيمتي الكاملة ، اريد ان احركك من قدر ضئيل من الشعور بتفاهتي • وهذا هو الذي يجعل اعتزازي راغبا في ان تدركي ان تفكري سليم صحيح • ان آرائني قاسية ، ولكن عبث نفس في مثل نبل نفس الاسقف سوف يريك ضرورة هذه القسوة • وهكذا ، تعالي الليلة • صحيح ان ما سيحدث الليلة خلّيق به ان يوقع الحزن في نفسك ، ولكنه سوف يزيدك قريبا مني • »

وعقدت منظمة الـ I.P.H. مؤتمرها تلك الليلة في سان

٥١ لسنا ندري على وجه الضبط اسم المنطقة التي ترمز اليها هذه الحروف الاولى •

فرانسيسكو ٥٢ وكان ذلك المؤتمر قد دعي للنظر في الفساد الاخلاقي العام والبحث عن علاج له . ورأس الاسقف مورهاوس الجلسة . كان متوتر الاعصاب حين استوى على المنبر ، ولقد كان في استطاعتي ان استشعر وطأة التوتر العالي عليه . وجلس الى جانبه كل من الاسقف ديكنسون ، و هـ . هـ . جونز ، رئيس دائرة علم الاخلاق في جامعة كاليفورنيا ، والسيدة و . و . هيرد ، المنظمة الكبيرة لمشروعات الاحسان ، وفيليب وارد ، صاحب الايدي الخيرية الضخم ، وجمهرة من الكواكب الاقل سطوعا في سماء الفضيلة والاحسان .

ونفض الاسقف مورهاوس واستهل كلامه في غير تمهيد :
- « كنت في عربيتي المقللة اطوف في الشوارع . وكان الليل قد هبط وبين الغينة والفينة رحت انظر من خلال نوافذ العربية ، وفجأة بدا لي وكان عيني قد انفتحتا فرأيت الاشياء على حقيقتها . لقد حجبت عيني ، بادئ الامر ، بيدي لكي لا تقعا على المشهد الرهيب ، وفي غمرة من الظلام جبهني هذا السؤال ، ما الذي ينبغي ان يعمل ؟ ما الذي ينبغي ان يعمل ؟ وبعد برهة يسيرة جبهني السؤال في صورة اخرى : ما الذي كان خليقا بالسيد (المسيح) ان يفعله في مثل هذا الموقف ؟ ومع هذا السؤال بدا لي وكان ضياء ساطعا غمر المكان ، فرأيت واجبي واضحا كالشمس في رابعة النهار ، كما رأى شاوول واجبه في الطريق الى دمشق . »

« وأوقفت العربية ، وترجلت منها ، وبعد محادثة لم تستغرق غير دقائق معدودة اقنعت المومستين بأن تمتطيا العربية معي . واذا كان يسوع على صواب فلا ريب في ان هاتين المراتين التعتيتين كانتا اختي ، وان املهما الاوحد في التوبة والتطهر كان رهنا بمحبتتي وحناني :

« انا اظن في حي من اجمل احياء سان فرانسيسكو . والمنزل الذي احيا فيه كلف بناؤه مئة الف دولار ، وكلف ما فيه من اثاث وكتب وأعمال فنية مئة الف اخرى . انه دار كبيرة ، بل انه قصر يضم عددا من الخدم كبيرا . انا لم اعرف قط من قبل لاي شيء تصلح القصور . كنت احسب انها جعلت لكي يحيا المرء فيها . ولكنني اصبحت اعرف ، الان . لقد اخذت بنتي الهوى الى قصري ، ولسوف تقيمان فيه معي . واني لارجو ان املا كل غرفة من

٥٢ كان المرء لا يحتاج الى غير بضع دقائق لكي ينتقل بالمعبر (أو المدية) من بيركلي الى سان فرانسيسكو . والواقع أن هاتين المدينتين ، وغيرهما من مدن الخليج ، كانتا تؤلّفان مجتمعاً واحداً .

غرف قصري بأخوات من مثلهن • «
كان القلق قد شرع يستبد بالنظارة أكثر فأكثر ، وكانت وجوه الجالسين
على المنبر تتم عن قدر متعاطف من الرعب والذعر • وعند هذه النقطة نهض
الاسقف ديكسون ، وغادر المنبر والقاعة وعلى وجهه انطباعة اشمئزاز •
ولكن الاسقف مورهاوس واصل كلامه ، غافلا عن القوم كلهم ، مغمم العينين
برؤياه :

– « اوه ، ايها الاخوة وايها الاخوات ، لقد وجدت في عملي ذاك حلا
لجميع مصاعبي • انا لم اعلم لاي غرض جعلت العربات المقلدة ، ولكنني
امسيت اعرف ، الان • لقد جعلت لنقل الضعيف ، والمريض ، والطاعن في
السن • لقد جعلت لاضفاء الشرف على اولئك الذين فقدوا حس الخجل
نفسه •

« انا لم اكن اعلم لاي غرض جعلت القصور ، ولكنني وجدت لها الان
وجه استعمال • ان قصور الكنيسة يجب ان تكون مستشفيات وبيوت تربية
لاولئك الذين سقطوا على جوانب الطريق فهم يقاسون سكرات الهلاك • »
وصمت فترة ، وقد بدا واضحا انه كان متوتر الاعصاب يحاول ان
يلتمس افضل الطرق الى التعبير عن الفكرة التي استحوذت عليه •
ثم ما لبث ان اضاف :

– « انا لست مؤهلا ، يا اخوتي الاعزاء ، لان احدثكم حديثا ما عن
الاخلاق • لقد عشت في حماة العار والرياء فترة اطول من ان تجعلني قادرا
على مد يد العون الى الآخرين • ولكن العمل الذي قمت به نحو تبتك المراتين،
اللتين اعتبرهما اختي ، يظهر لي ان الطريق الفضلى ميسور الاهتمام بها •
وبالنسبة الى اولئك الذين يؤمنون بيسوع وانجيله لا يمكن ان يكون ثمة ايما
صلة بين الانسان والانسان غير صلة الوداد • المحبة وحدها اقوى من
الخطيئة – اقوى من الموت • ومن اجل ذلك اقول للاثرياء فيكم ان الواجب
يقتضيهم ان يفعلوا ما قد فعلته وما انا فاعله • ليفتح كل غني منكم باب بيته
في وجه لص من اللصوص وليعامله وكأنه اخوه ، او في وجه بغي من البغايا
وليعاملها وكأنها اخته وعندئذ لن تكون سان فرانسكو في حاجة لا الى قوة
من البوليس ولا الى جيش من القضاة • عندئذ تحول السجون الى مستشفيات،
ويزول المجرم وجريمته •

« ان علينا ان نجود بنفوسنا ، لا بأموالنا فحسب • علينا ان نفعل كما
فعل المسيح ، تلك هي رسالة الكنيسة اليوم • لقد ضللنا السبيل وابتعدنا

عن تعاليم « السيد » • اننا مستغرقون في ملذاتنا ومتارفنا • لقد أحللتنا
شيطان الجشع محل المسيح • وان لدي هنا قصيدة تروي القصة كلها •
وانا اود ان اتلوها على مسامعكم • لقد نظمناها نفس ضالة استطاعت ، رغم
ضلالها ، ان ترى بوضوح • ٥٣ • ولا يحسبنا أي منكم هجوما على الكنيسة
• الكاثوليكية • انها هجوم على الكنائس جميعا ، على ابهة وفخخة جميع
الكنائس التي تنكبت سبيل المسيح واقامت ما بينها وبين خرافه سياجا واقيا •
واليكم نص القصيدة :

لقد نفخ في الابواق الفضية عبر القبة ،
فرقع الناس على الارض في رهبة ،
وعلى اعناق الرجال رايت سيد روما القديس محمولا مثل
اله عظيم •

لقد ارتدى ، كالكهان ، ثوبا اشد بياضا من الزبد ،
وتجلبب ، كالملك ، بالارجوان النفيس •
وفي بهاء وضياء مضى البابا الى مقره ،
وقد اشارت على راسه ثلاثة تيجان من الذهب •

« وارند فؤادي ، خلسة ، الى سنوات ممعنة في القدم ،
الى رجل كان يطوف على مقربة من بحر موحش ،
ويبحث ، ولكن عبثا ، عن مكان ما يستريح فيه •
وسمعه يقول : للذئب وجاره ولكل طير عشه ،
أما أنا فيتعين علي من دون الجميع ان أطوف وأطوف
وأن ادمي قلمي وأشرب الخمر وقد ملحتها عبراتي • ،

وعصف الاهتياج بالنظارة ، ولكنهم ظلوا ممتنعين عن الاستجابة : ومع
ذلك فإن الاسقف مورهاوس لم يع هذه الواقعة • لقد واصل اندفاعه في غير
ما تردد :

— « وهكذا اقول للاغنياء ، فيكم ، ولجميع الاغنياء ، انكم تنزلون
بخراف « السيد » ابشع الظلم • لقد جعلتم قلوبكم قاسية كالجلاميد • ولقد
اوصدتم آذانكم دون صرخات المعذبين في الارض — صرخات الالم والاسى التي
٥٣ اوسكار وايلد ، أمير من امراء البيان في القرن التاسع عشر من التاريخ الميلادي •

لن تسمعوهما ، والتي سوف تسمع برغم ذلك في يوم من الايام . وهكذا
اقول »

ولكن هـ هـ جونز وفيليب وارد اللذين كانا قد نهضا عن كرسيهما ،
سارعا عند هذه النقطة الى انزال الاسقف عن المنبر ، فيما لزم سائر المستمعين
مقاعدهم مصعوقين لاهثين .
وضحك ارنست ضحكا قاسيا ووحشيا عندما انتهى الى الشارع ،
وهزني ضحكه هزا عنيفا . وبدا قلبي وكأنه يوشك ان ينفجر بعبرات مكبوحة .
وصرخ ارنست :

ـ « لقد ادبى رسالته . لقد انفجرت رجولة اسقفهم وطبيعته الرفيعة
الحجوبة عميقا في ذات نفسه ، فاستنتج مستمعوه الذين كانوا يجوبونه ، ان
مسا قد اصابه ! هل رأيتم يثاؤون به عن المنبر في قلق وجزع بالغين ؟ ان
عاصفة من الضحك محمومة قد هبت ، من غير ريب ، حين وقعت أعين القوم
على هذا الشاهد . »

فقلت :

ـ « ومع ذلك فان ما قام به الاسقف وما قاله ، الليلة ، سوف يخلف
انطباعة قوية . »

فتساءل ارنست في سخرية :

ـ « اتظنين ذلك ؟ »

فقلت له مؤكدة :

ـ « انها سوف تحدث ضجة . الم تر مراسلي الصحف يدنون كلماته
فيما كان يتكلم تدوينا خاطفا تعوزه العناية ، فكان ما سمعوه قد افقدهم
صوابهم ؟ »

ـ « لن ينشر سطر واحد من ذلك كله في صحف غد . »

فصحت :

ـ « لا أستطيع ان اصدق ذلك . »

فكان الجواب :

ـ « ليس عليك الا ان تنتظري وتري . لن ينشر سطر واحد ، لن تنشر
فكرة واحدة مما نطق به . الصحافة اليومية ؟ انها الطمس اليومي ! »
فاعترضت قائلة :

ـ « والمراسلون ؟ لقد رأيتم بأم عيني . »

ـ « لن يقدر لكلمة مما قال ان تتحول الى حروف مطبوعة ، لقد نسيت

رؤساء التحرير • انهم يقبضون رواتبهم ثمنا للسياسة التي يلزمونها •
وسياستهم هي ان لا ينشروا شيئا يهدد مصالح النظام القائم تهديدا جويًا •
ان كلمات الاسقف كانت هجومًا عنيفًا على الاخلاقية القائمة • لقد كانت
هرطقة • لقد انزلوه عن المنبر ليحولوا بينه وبين النطق بقدر من الهرطقة
اكبر • ان الصحف اليومية سوف تخنقها بنسيان الصمت • صحافة الولايات
المتحدة ؟ انها نمو طفيلي يسمن على هبات الطبقة الرأسمالية وعطاياها •
وظيفتها هي ان تخدم النظام الاجتماعي القائم من طريق قبولية الرأي العام ،
وانهم ليؤدوا هذه الوظيفة على خير وجه •

« دعيني اتنبأ • ان صحف الغد سوف تجتزئ بالنص على ان الاسقف
يشكو اعتلالا في الصحة ، وانه اهرق نفسه منذ فترة طويلة بعمل شاق
موصول ، وانه سقط في الليلة البارحة صريع الارهاق • حتى اذا انقضت
على ذلك ايام معدودات عمدت الصحف الى النص على ان الاسقف يعاني
انهيارا عصبيا ، وان رعيته المعترفة بالجميل قد منحته اجازة • ثم ان واحدا
من شبيئين سوف يحدث في ما بعد : اما ان يدرك الاسقف خطأ مسلكه ويعود
من اجازته رجلا معافى ليس في عينيه اياما رؤى جديدة ، واما ان يصر على
حماقته ، وعندئذ يكون في ميسورك ان تتوقعي ان تنشر الصحف نبأ جنونه
مفرغا في كلمات رقيقة مثيرة للشجون • ومن ثم سوف يترك ليتمتم برؤاه
للجدران الصماء • »

فصحت !

— « انك تذهب الى ابعد مما ينبغي ! »

فاجاب :

— « ولسوف يكون ذلك ، في عيني المجتمع ، جنونا حقا • وهل ثمة
رجل محترم ، رجل ليس بمجنون ، يقدم على فتح ابواب بيته في وجه الساقطات
واللصوص ليعيشوا معه وكأنهم اخوته وأخواته ؟ صحيح ان المسيح مات
بين لصين ، ولكن هذه حكاية اخرى • الجنون ؟ ان العمليات العقلية التي
يقوم بها من لا نقره على آرائه هي دائما خاطئة • واذن فعقل ذلك الرجل
مخطئ • اين الخط الفاصل بين العقل المخطئ والعقل الذي اصابه مس ؟
انه ليس في امكان الناس ان يتصوروا ان في ميسور اياما رجل عاقل ان
يخالفهم مخالفة جذرية في استنتاجاتهم الموهلة في التعقل • »

« ان في صحف هذا المساء مثلا صالحا على هذه الحقيقة • فماري
ماكينا تقطن الى الجنوب من « ماركت ستريت » • انها امرأة فقيرة ، ولكنها

شريفة • وهي ايضا مفعمة النفس بالروح الوطنية • ولكن لها آراء خاطئة في ما يتصل بالرأية الاميركية والحماية التي يفترض ان ترمز اليها • واليك ما حدث لهذه المرأة • لقد ألم بزواجها حادث أدخل على أثره الى المستشفى حيث مكث ثلاثة شهور • وعلى الرغم من انها أخذت تغسل في بيتها ملابس الناس فقد عجزت عن دفع البيت في مواعيدها • وأمس طردها منه • ولكنها رفعت، قبل ان تغادر المكان ، رأية أميركية • ومن تحت طياتها اعلنت انها هم لا يستطيعون ، بفضل ما تسبغه عليها من حماية ، ان يخرجوها الى الشارع البارد • ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ لقد اعتقلت واتهمت بالجنون • ولقد أخضعت اليوم لفحص طبي أجراه نفر من الاختصاصيين في الامراض العقلية • فحكى لها بانها مصابة بالجنون • ومن ثم اقتيدت الى مستشفى في نابا • « فاعترضت قائلة :

– « ولكن هذا المثل متكلف ، او قل انه مغتصب اغتصابا ، لنفرض اني اختلفت مع الناس جميعا حول الاسلوب الادبي لكتاب من الكتب • انهم طبعاً لن يبعثوا بي الى مستشفى المجاذيب بسبب من ذلك • »
فاجاب :

– « هذا صحيح • ولكن مثل هذا الاختلاف في الرأي لا يشكل أي خطر على المجتمع • ههنا يكمن الفرق • اما الاختلاف في الرأي ، كما يتجلى في قضيتي ماري ماكينا والاسقف مورهاوس فيشكل خطراً على المجتمع • ان ما الذي يحدث اذا ما رفض جميع الفقراء ان يدفعوا أجور بيوتهم ويعتصموا بحماية الراية الاميركية ؟ عندئذ تنقوض الملكية العقارية وتنهار • وآراء الاسقف لا تقل خطراً على المجتمع • واذن ، فليسق الى مستشفى المجاذيب ! »
ومع ذلك فقد أببت ان أصدق •
فقال ارنست :

– « انتظري وانظري • »

وانتظرت •

وفي صباح اليوم التالي اشترت الصحف جميعا • فالفيت ان ارنست كان ، حتى تلك المرحلة ، على حق • فلم تنشر الصحف ايما كلمة من كلمات الاسقف مورهاوس • واجتزأت صحيفة او صحيفتان بالاشارة الى ان عواطفه غلبت عليه فاخرجته عن طوره • ومع ذلك فقد أوردت الصحف كلام الخطباء الجبذل ، الذي لقي على أثر خطبة الاسقف ، بنصه الكامل •
وبعد ايام اعلنت الصحف ، في كثير من الايجاز ، ان الاسقف قد فارق

البلد في اجازة يستعيد بها عافيته ويتغلب على آثار الازهاق . كان كل شيء حسنا حتى الان ، ولكن لم يكن ثمة ايما الماع الى الجنون ، او حتى الى الانهيار العصبي . انا لم أتصور الا قليلا اي درب رهيب كان مقدرنا على الاسقف ان يسلكه - درب الجثمانية والصلب الذي كان ارنست قد انعم النظر فيه .

الفصل الثامن

مدمرو الآلات

وقبيل ترشح ارنست لعضوية الكونغرس ، على اللائحة الاشتراكية ، أقام ابي العشاء الذي كان يدعوه فيما بيننا « عشاء الربح والخسارة » . اما ارنست فقد دعاه « عشاء مدمري الآلات » . والواقع أنه كان مجرد عشاء ينتظم ثلثة من رجال الاعمال - رجال الاعمال الصغار طبعاً . واني لاشك في أن يكون أي منهم معنيا بصناعة او عمل تجاري يزيد رأسماله الاجمالي على مئتي الف دولار . لقد كانوا يمثلون رجال الاعمال من أبناء الطبقة الوسطى خير تمثيل .

كان ثمة أووين ، من مؤسسة سيلفيريبرغ وأووين وشركائهما - وهي بقالة ضخمة ذات فروع عديدة . وكنا نشترى موادنا الغذائية منها . وكذلك شهد العشاء كل من صاحبي مؤسسة كوالث وواشورن الكبيرة لبيع العقاقير وصنوف الطعام والشراب ، ومستر آسمونسين وهو صاحب مقلع ضخمة من مقالع الغرانيت في مقاطعة كونترا كوستا . وكان ثمة أيضاً عدد كبير من اضطراب هؤلاء الرجال ، بين أصحاب مصانع صغيرة وبيوتات تجارية صغيرة او مساهمين في مثل تلك المصانع والبيوتات . ويكلمة مختصرة ، كانوا كلهم رأسماليين صفاراً .

كانوا رجالاً اذكيا ممتعين ، ولقد تحدثوا في بساطة ووضوح . كانت شكواهم الاجتماعية منصبة على الشركات الكبيرة والتروستات الاحتكارية . وكان مذهبهم : « روضوا التروستات » . كان البلاء كله ناشئاً عن التروستات ، ولقد أطلق كل منهم صيحة الذعر نفسها . لقد طالبوا بأن تنتزع

الحكومة ملكية هذه التروستات ، كتروست السكك الحديدية وتروست البرق او التلغراف وغيرهما ، وان تفرض ضرائب دخل باهظة ، متدرجة في ضراوة ، لتفتيت تراكم الثروة الهائل . كذلك طالبوا ، كعلاج لبعض الادواء المحلية ، ان تستولي البلديات على ملكية شركات الماء والبنيين والتلفون والاوتوبيس وغيرها من المصالح العامة .

وكانت حكاية مستر آسمونسين عن بلایاه كصاحب مقلع غرانيت طريقة على نحو خاص . لقد اعترف بأنه لم يكسب في يوم من الايام ايما ربح من غرانيتته ، وذلك برغم ضخامة الطلب على الغرانيت بسبب من الدمار الذي انزله الزلزال الكبير بمدينة سان فرانسيسكو . فمنذ ست سنوات واعادة تعمير سان فرانسيسكو قائمة على قدم وساق ، ونطاق اعماله يتسع حتى لقد بلغ اربعة اضعاف ما كان عليه من قبل بل ثمانية اضعاف ما كان عليه من قبل ، ومع ذلك فان وضعه المالي ظل كما هو لم يطرأ عليه تحسنا .

لقد قال :

« ان السكك الحديدية تعرف صناعتي احسن مما اعرفها انا بقليل . انها تعرف نفقات الانتاج عندي بالفلس الواحد ، وهي تعرف احكام عقودي ونصوصها . اما كيف تستطيع ان تعرف ذلك فهذا ما احزره مجرد حزر . لا ريب في ان لها بين مستخدمي عيونا وجواسيس ، وانها على اتصال بجميع الفرقاء في مختلف العقود التي وقعتها . لاحظوا مثلا اني ما ان اوقع عقدا ضخما خليقا باحكامه ان تعود علي بربح وفير حتى ترفع اجور النقل من قلعي الى السوق . وكانت الشركة لا تقدم الي اي تفسير . وهكذا كانت السكة الحديدية تسلبني ربحي . وفي مثل تلك المالبسات لم اوفق قط الى حمل السكة الحديدية على اعادة النظر في قرار زيادة الاجور . ومن ناحية ثانية فقد كنت اوفق - كلما كثرت حوادث العمل وزادت نفقات الانتاج وانطوت احكام العقود على قدر من الربح اقل - الى ان اقنع السكة الحديدية بخفض اجورها . فماذا تكون النتيجة ؟ ان تفوز السكة الحديدية دائما بأرباحي ، سواء اكانت تلك الارباح كبيرة او صغيرة . »

فقاطعه ارنست ليقول :

« وان ما يبقى لك بعد هذا كله ليعادل ، تقريبا ، راتبك كمدير لو ان السكة الحديدية امتلكت المقلع . »

فأجابه مستر آسمونسين :

« تماما . منذ فترة قصيرة ليس غير ألقيت نظرة فاحصة على

دفاتري خلال العشر السنوات الماضية ، فاككتشفت ان ربحي كان طوال هذه السنوات العشر معادلا لراتب مدير . ولقد كان في اماكن السكة الحديدية ان تمتلك مقلعي وان تستاجرني لادارته .
فضحك ارنست وقال :

« ولكن مع هذا الفرق : هو انه سوف يتعين على السكة الحديدية ، في حال امتلاكها المصنع ، ان تتحمل جميع المخاطر التي تتحملها انت اليوم من اجله في كثير من الارتياح . »

فأجابه مستر آسمونسين في نبرة محزونة :

« هذا صحيح مئة في المئة . »

حتى اذا تركهم ارنست يقولون ما يريدون ان يقولوه شرع يطرح الاسئلة يمنة ويسرة . وبدأ بمستر أووين .

« لقد انشأت فرعا لبقالتك هنا ، في بيركلي ، منذ ستة اشهر تقريبا ؟ »
فأجابه مستر أووين :

« نعم . »

« ومنذ ذلك الحين لاحظت ان ثلاثا من بقاتل الزوايا الصغيرة قد اغلقت ابوابها . هل كان فرعك الجديد هو السبب في ذلك ؟ »
فأكد له مستر أووين ذلك ، في ابتسامة راضية :

« لم يكن في امكانها ان تصمد في وجهنا بحال من الاحوال . »
« لماذا ؟ »

« كنا نملك رأسمال اكبر . ان الاعمال الكبيرة تتميز بقدر من الهدر اقل . وقدر من الفعالية اعظم . »

« ولقد امتص فرعك الجديد أرباح المحال الصغيرة الثلاثة . فهمت . ولكن قل لي ، ما الذي حل بأصحاب تلك المحال الثلاثة ؟ »

« ان احدهم يسوق اليوم عربية من عربات التوزيع لحسابنا . اما الرجلان الآخران فلست ادري ما الذي حل بهما . »

وفجأة التفت ارنست الى مستر كيوالت :

« انت تبيع مقادير كبيرة من السلع بأسعار مخفضة ٥٤ . ما الذي

٥٤ Cut-rates كانوا في ذلك العهد كثيرا ما يخفضون الاثمان الى حد سعر الكلفة بل الى ما دون سعر الكلفة ايضا . وهكذا يكون في استطاعة الشركة الكبيرة ان تبيع بيع خسارة ، مدة اطول مما تستطيع الشركة الصغيرة ، وبذلك تطرد الشركة الصغيرة من السوق . وكان هذا الصنيع وسيلة شائعة من وسائل المنافسة .

حل بأصحاب المحال الصغيرة الماثلة المعنية ببيع العقاقير وصنوف الطعام والشراب ، أولئك الذين أكرهتهم على الارتداد الى الجدار ؟ »

فكان الجواب :

- « ان واحدا منهم ، هو مستر هاسفورذر ، مسؤول اليوم عن دائرة الوصفات الطبية في محلنا . »

- « ولقد امتصصتم الارباح التي كانوا يجنونها ؟ »

- « من غير ريب . ذلك ما نزلنا الى حلبة العمل التجاري من اجله . » فقال ارنست لمستر أسمونسين ، فجأة :

- « وانت ؟ انت ناقم لان السكة الحديدية قد امتصت ارباحك ، اليس كذلك ؟ »

فهز مستر أسمونسين رأسه علامة الایجاب .

- « ان ما تريده هو ان تجني انت الارباح ؟ »

فهز مستر أسمونسين رأسه كرة اخرى .

- « من الآخرين ؟ »

وهنا لم يفز ارنست بجواب . فالحق في السؤال :

- « من الآخرين ؟ »

فأجابه مستر أسمونسين في اقتضاب جاف :

- « تلك هي الطريقة التي تجنى بها الارباح . »

- « اذن فاللعبة التجارية هي ان تجني الارباح من الآخرين ، وان تحول

بين الآخرين وبين ان يجنوا الارباح منك . اليس كذلك ؟ »

وتعين على ارنست ان يكرر سؤاله قبل ان يجيبه مستر أسمونسين بقوله :

- « اجل ، هذا هو الوضع ، الا اننا لا نعترض على جني الآخرين

الارباح ما دامت غير فاحشة . »

- « تقصد ما دامت غير ضخمة . ومع ذلك فلست ترى بأسا في ان تجني

انت مثل هذه الارباح الضخمة . هذا امر لا ريب فيه ، اليس كذلك ؟ »

وفي دماثة اقر مستر أسمونسين بهذا الضعف . وكان ثمة رجل اخر

امتحنه ارنست الان ، هو مستر كالفين الذي كان يملك مصنعا كبيرا للالبان ومشتقاتها .

لقد قال له ارنست :

- « كنت منذ فترة خلت تقاثل « تروست الحليب » ، وما انت اليوم

منغمس في نشاط حزب غراينج السياسي^{٥٥} . فكيف كان ذلك ؟
فأجابه مستر كالفين ، وقد بدت على وجهه سيما المحارب حقا :
- « أوه ، أنا لم أطرح القتال . أنا أقاتل « التروست » في الميدان
الوحيد الذي يمكن للمرء أن يقاتل فيه - أعني في الميدان السياسي ، دعني
أريك . أننا نحن اصحاب مصانع الالبان كنا منذ بضع سنوات نفعل كسل
شيء على هوانا :
فقاطعه ارنست قائلا :

- « ولكذك كنتم تتنافسون في ما بينكم . »
- « أجل ، وذلك كان سببا في إبقاء الارباح على مستوى منخفض .
ولقد حاولنا ان ننظم انفسنا ، ولكن اصحاب مصانع الالبان المستقلة كانوا
يخترقون صفوفنا دائما . ثم جاءت تروست الحليب . »
فقال ارنست :

- « ممولة برأسمال فائض من ستاندرد أويل^{٥٦} . »
فأقر مستر كالفين :
- « أجل . ولكننا لم نعرف هذه الحقيقة آنذاك . لقد جاءنا عملاؤهما
متوعدين . قالوا لنا : « انضموا الينا واكسبوا الربح الوفير ، أو ابقوا
خارج التروست وجوعوا ! » وانضم معظمنا الى التروست . أما الذين لم
يفعلوا فقد جاعوا . أوه ، لقد عاد علينا ذلك بكسب حسن بادىء الامر .
فقد رفع سعر الحليب سنتا لكن ربع غالون . وكان ربع هذا السننت يدخل
جيوبنا . اما ثلاثة ارباعه الباقية فكانت تذهب الى التروست . ثم ان سعر
الحليب زيد سنتا آخر ، ولكننا لم نفز بأيما جزء مهما يكن من ذلك السننت .
وزهدت شكاوانا ادراج الرياح . كانت التروست قد امست هي صاحبة
الامر والنهي . واكتشفنا أننا كنا كميات مهملة . وأخيرا حرمونا ربع السننت
الاضافي . ثم شرعت التروست تعتصرنا اعتصارا . فما الذي كان في امكاننا
ان نفعله ؟ لقد ابتزت منا أموالنا . ولم يعد ثمة اصحاب مصانع ألبان ، لم
يبق غير تروست الحليب . »
فلاحظ ارنست في مكر :

٥٥ لقد بذلت ، خلال تلك الحقبة ، جهود كثيرة لتنظيم طبقة المزارعين في حزب سياسي
مهدفه القضاء على التروستات والشركات الكبرى من طريق اصدار تشريعات فعالة
ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالافخاق .
٥٦ أول تروست كبيرة ناجحة - ولقد كانتتقدم سائر التروستات جيلا كاملا تقريبا .

« ولكنني اعتقد انه كان في امكانكم ان تنافسوا التروست بعد ان رفعت السعر سنتين اثنتين »

« لقد توهمنا نحن ذلك ، ايضا ، لقد حاولنا ذلك » وتمهل مستر كالفين لحظة ، « ولكن هذه المحاولة انزلت الخراب في ساحتنا ، فقد كان في وسع التروست ان تنزل الحليب الى الاسواق بأرخص مما استطعنا نحن ، ومع ذلك فقد كانت تحقق بهذه الطريقة ربحا ضئيلا ، في حين كنا نحن نبيع بخسارة حقيقية . ولقد خسرت خمسين الف دولار في تلك المخاطرة . وتردى معظمنا في هاوية الافلاس ٥٧ ومحى اصحاب مصانع الالبان من الوجود » فقال ارنست :

« وهكذا سلبتكم التروست ارباحك ، ولقد انصرفتم الى السياسة لكي تحمل الدولة على سن تشريع يزيل التروست من الوجود وتسترد ارباحكم »

واشرق وجه مستر كالفين وقال :

« هذا على وجه الضبط ما اقلوه في خطبي الموجهة الى المزارعين ، تلك هي فكرتنا كلها مفرغة في كلمات معدودات » فسأله ارنست :

« ومع ذلك فان التروست تنتج الحليب بأرخص جدا مما يستطيع أصحاب المصانع المستقلة انتاجه ؟ »
« كيف لا تنتج الحليب بمثل هذا الرخص ورأسمالها الضخم يمكنها من التمتع بتنظيم رائع وآلات حديثة ؟ » فاجابه ارنست :

« لا مجال للمناقشة ، ان امكانياتها تيسر لها ذلك ، وانها لتحقيقه عمليا »

وهنا أطلق مستر كالفين خطابا سياسيا عرض فيه آراءه ، وتبعه في ذلك آخران فتحديثوا في حرارة بالغة ، وكانت صيحتهم جميعا تدعو الى القضاء على التروستات »

وقال لي ارنست في صوت كالهمس :

« يا لهم من قوم مساكين بسطاء ، انهم يرون في وضوح بقدر ما

٥٧ الافلاس - مؤسسة عجيبة كانت تمكن الفرد ، الذي اخفق في صناعة تنافسية ، من الامتناع عن تسديد ديونه . ولم يكن من آثارها غير تحسين الاحوال الوضعية التي اكتفت « صراع الظفر والناب » الاجتماعي .

تسمح لهم ابصارهم ان يروا . ولكنهم لا يرون غير رؤوس انوفهم . »
وبعد برهة قصيرة نهض للتحديث كرة اخرى ، ولقد تمكن بطريقته
المميزة من الاستحواذ على مشاعر الحاضرين والاستئثار بحق الكلام بقية
السهرة .

استهل حديثه قائلا :

« لقد اصغيت ، في اهتمام ، اليكم جميعا . وانا ارى بوضوح انكم
تلعبون اللعبة التجارية على الطريقة « الارثوذكسية » القويمة . ان الحياة
لتتلخص عندكم في ارباح . ان عند كل منكم مؤسسة وايماننا راسخا بانكم
خلقتم لغرض وحيد ، هو كسب الارباح . بيد ان ثمة عقبة . ففيما انتم
منغمسون في السعي لتحقيق الربح تنشأ التروستات الاحتكارية وتنتزع ارباحكم
من جيوبكم . وتلك ورطة تتعارض بطريقة ما مع هدف الخليقة . والطريقة
الوحيدة للخروج منها ، فيما يتراءى لكم ، هي القضاء على التروستات التي
تسلبكم ارباحكم .

« لقد اصغيت اليكم في اهتمام ، وليس ثمة غير اسم واحد قادر على ان
يختزلكم . ولسوف اطلق عليكم هذا الاسم . انتم مدمرو آلات . اتدرون من
هو مدمر الآلات ؟ دعوني اخبركم . في القرن الثامن عشر ، وفي انكلترة ،
كان الرجال والنساء ينسجون القماش في اكواخهم ، على انوال يدوية .
ولقد كان نظام الصناعة المنزلي هذا طريقة في نسج القماش ليس ابطأ منها
ولا اشد خرقا وابهظ تكاليف . وفجأة جاءت الالة البخارية والآلات المنطوية
على اقتصاد في جهد العامل . ان الفا من الانوال المجتمعة في مصنع كبير ،
والسيرة بالة بخارية مركزية ، كان في وسعها ان تنتج القماش بأرخص كثيرا
مما كان في ميسور النساجين المنزليين انتاجه على انوالهم اليدوية . هنا ، في
المصنع كان تضامن ، وفي وجه هذا التضامن تلاشت المنافسة . ان الرجال
والنساء الذين كانوا من قبل يشغلون الانوال اليدوية لحسابهم قصدوا الان
الى المصانع وشغلوا الانوال الآلية ، لا لحسابهم هم ، ولكن لحساب المالكين
الرأسماليين . والى هذا ، فان الاولاد الصغار مضوا للعمل خلف الانوال
الآلية ، وبأجور ادنى ، مزاحمين الرجال على اللقمة اليومية . وعانى الرجال
من جراء ذلك كله ازمة قاسية . لقد هبط مستوى عيشهم . لقد جاعوا . ولقد
قالوا ان الآلات هي المسؤولة عن بلائهم هذا . وهكذا شرعوا يدمرون الآلات .
ولكنهم لم يقلحوا ، لقد كانوا بلهاء الى حد بعيد .

« ومع ذلك فانكم لم تتعظوا من امثولتهم . فها انتم اولاء ، بعد قرن

ونصف قرن ، تحاولون ان تدمروا الآلات . ان آلات التروستات الاحتكارية لتعمل ، باعترافكم انتم ، على نحو أكثر فعالية واقل كلفة مما تستطيعون انتم ان تعملوا . وهذا هو السبب الذي من اجله تعجزون عن منافستهم . ومع هذا فانكم لا تخفون رغبتكم في تدمير تلك الآلات ، انتم اشد بلاهة حتى من عمال انكلترا البلهاء . وفيما انتم تهذون حول احياء المنافسة تمضي التروستات الاحتكارية في انزال الخراب بساحتكم .

» انكم كلكم تكرررون القصة نفسها - انقضاء عهد المنافسة وبزوع عهد التجمع والتضامن . ومع ذلك ، فأنت يا مستر اووين قضيت على المنافسة هنا في بيركلي عندما اكراه فرعك الجديد ثلاثا من البقالات الصغيرة على الانسحاب من الميدان . لقد كانت مؤسستك التجمعية اشد فعالية ومع هذا فأنت تستشعر وطأة الاحتكارات الاخرى عليك ، وطأة التروستات الاحتكارية ، فترفع عقيرتك بالشكوى . وانت انما تفعل ذلك لانك لست صاحب تروست . ولو قد كنت تملك تروستا للبقالة تهيمن على اسواق الولايات المتحدة كلها اذن لكان خليقا بك ان تغني اغنية اخرى ، ولكن خليقا بتلك الاغنية ان تهتف : « مباركة هي التروستات » . ثم انك ، بالاضافة الى ان مؤسستك التجمعية الصغيرة ليست تروستا بالمعنى الصحيح ، تدرك ان هذه المؤسسة لا تتمتع بالقوة الكافية . وهكذا شرعت تتكهن بالنهاية التي ستصير اليها . فأنت تشعر انك لا تعدو ان تكون ، انت وشبكة بقالاتك ، مجرد عامل ثانوي في اللعبة . انت ترى المؤسسات القوية تلمع وتاداد قوة يوما بعد يوم ، انت تحس بأيديها المدرعة تسقط على ارباحك وتختطف قبضة من هنا وقبضة من هناك : تروست السكة الحديدية ، تروست النفط ، تروست الفولاذ ، تروست الفحم الحجري . وانت تعرف انها سوف تقضي عليك ، في نهاية الشوط ، وتسلبك آخر نسبة مئوية من ارباحك الهزيلة .

» انت يا سيدي لاعب بسيط مستضعف . ولكنك حين اخذت بخناق البقالات الثلاث الصغيرة ، هنا في بيركلي ، لانك اقوى منها رأسمال وخير تنظيما ، انتفخت تها ، ورحت تتحدث عن الفعالية وروح الاقدام ، وارسلت زوجتك لتقوم برحلة الى اوروبة ما كانت لتتسنى لها لولا الارباح التي كسبتها من طريق التهام البقالات الصغيرة الثلاث . لقد كانت تلك البقالات كلابا ياكل بعضها بعضا ، ثم جئت انت فأكلتها جميعا . ولكن ها هي ذي الكلاب الكبرى قد شرعت ، بدورها ، تنهش لحكم ، وهذا ما يجعلك تزعق . وما اقول لك يصح فيكم جميعا ، يا من تجلسون الليلة الى هذه المائدة . انتم كلكم تزعقون . انكم كلكم تلعبون لعبة خاسرة ، وتندبون حظكم بسبب من ذلك .

« ولكنكم حين تزعمون لا تشرحون الوضع في صراحة ، كما شرحته انا . انتم لا تعلنون انكم ترغبون في ابتزاز الارباح من الآخرين ، وانكم انما تثيرون هذه الضجة كلها لان الآخرين يبتزون ارباحكم منكم ، لا ، انتم انكى من ان تفعلوا ذلك . انكم تعلنون شيئاً آخر . انكم تلقون خطبا سياسية تمثل وجهة نظر صغار الرأسماليين ، خطبا من مثل ذلك الخطاب الذي القاه مستر كالفين . ما الذي قاله ؟ اليكم بضعا من عباراته كما دونتها : « ان مبادئنا الاصلية سليمة لا غبار عليها . » ، « ان ما تحتاج اليه هذه البلاد هو عودة الى الطريق الاميركية الاساسية : اتاحة الفرص الحرة للمواطنين جميعا » ، « روح الحرية التي ولدت فيها هذه الامة . » ، « فلنعد الى مبادئنا واجدائنا . »

« وهو حين يقول « اتاحة الفرص الحرة للمواطنين جميعا » يقصد اتاحة الفرص الحرة لابتزاز الارباح ، وهي حرية تنكرها عليه الآن التروستات الكبرى . فوجه السخف في المسألة هو انكم كررتم هذه العبارات على نحو موصول حتى لاصبحت تؤمنون بها . انتم تطالبون بالحرية لتنهبوا اخوانكم في الانسانية على طريقتهكم الصغيرة الخاصة ، ولكنكم تنومون انفسكم مغنطيسيا لتحملوها على الظن بانكم تريدون الحرية . انتم شرهون اكتسابيون ، ولكن سحر عباراتكم يقودكم الى الاعتقاد بانكم وطنيون . ليس هذا فحسب ، بل انكم لتصورون رغبتكم في الارباح ، وهي انانية خالصة ، وكأنها جزع غيري على الانسانية المثالة . فتعالوا الآن ، هنا في هذا الوطن الذي لا يشهده غيرنا ، واصطنعوا الصدق والامانة مرة في حياتكم . انظروا الى المسألة في وجهها ، وعبروا عنها في صيغ لا التواء فيها . »

وشاع الدم في وجوه القوم ، وبدت عليها امارات الغضب . ليس هذا فحسب ، بل لقد غلب عليها قدر من الذعر . لقد روعوا ، بعض الشيء ، لرؤية هذا الفتى ذي الوجه الناعم ، ولزخم كلماته المهشمة ، ونزعه الرهيبة لتسمية الاشياء باسمائها الحقيقية . وانبرى مستر كالفين للاجابة متسائلا :

ـ « ولم لا ؟ ولم لا نستطيع ان نعود الى الطرائق التي سلكها آباؤنا واجدادنا عندما انشئت هذه الجمهورية ؟ لقد نطقت بحقائق كثيرة ، يا مستر ايفرهارد ، على الرغم من انها كريمة غير سائغة . ولكن دعونا ، ههنا ، في ما بيننا ، نتصاح . فلنطرح الاقنعة كلها ولنقبل الحقيقة كما نص عليها مستر ايفرهارد في غير موارد . صحيح اننا نحن الرأسماليين الصغار نسعى وراء الارباح ، وان التروستات تسلبنا ارباحنا هذه . صحيح اننا نريد ان

نقضي على التروستات لكي يكون في امكاننا الاحتفاظ بأرباحنا . ولكن اي باس في ذلك ؟ ولم لا نستطيع تحقيق هذه الرغبة ؟ لم لا ؟ اقول لم لا ؟ »

فقال ارنست وعلى وجهه سيما ارتياح :

ـ « آه ، لقد انتهينا الان الى بيت القصيد . سوف اشرح لك لم لا ، على الرغم من ان هذا الشرح سوف يكون عسيرا بعض الشيء . لقد درستم ، ايها السادة ، التجارة دراسة محدودة ولكنكم لم تدرسوا التطور الاجتماعي البتة . وأنتم تعيشون اليوم في غمرة مرحلة انتقال في التطور الاقتصادي ، بيد انكم لا تفهمونها ، وهذا ما يسبب كل هذا الاضطراب وذلك التشويش . لماذا لا تستطيعون العودة الى طرائق الاباء والاجداد ؟ لانكم لا تستطيعون . انكم لا تقدرون على وقف مد التطور الاقتصادي واعادته من حيث اتى الا بمقدار ما تستطيعون اكراه ماء الشلال على التدفق من ادنى الى أعلى . لقد اوقف يوشع الشمس فوق « جيعون » اما انتم فتريدون ان تبرزوا يوشع . انتم تريدون ان تكرهوا الشمس على الارتداد ، في سمائها ، الى الوراء . انتم تريدون ان يرجع الزمان القهقري من الظهيرة الى الصباح .

» لقد راعىكم الآلية الموفرة للجهد العمالي ، والانتاج المنظم ، وفعالية الاحتكار المتعاطمة ، فوددتم ان ترجعوا الشمس الاقتصادية جيلا بكامله ، او نحو ذلك ، الى الوراء ، الى العهد الذي خلا من رأسماليين كبار ، وآلية ضخمة ، وسلك حديدية ـ يوم كان جمهرة من الرأسماليين الصغار يقاتلون في فوضى اقتصادية ، ويوم كان الانتاج بدائيا ، متلافا ، غير منظم ، باهظ النفقة . صدقوني ، لقد كانت مهمة يوشع اسهل ، ولقد كان السرب وراءه يساعده . ولكن الله تخلى عنكم انتم ، صغار الرأسماليين . ان شمس الرأسماليين الصغار تجنح الى الغروب . انها لن تبرز كرة اخرى ابد الدهر . لا ، ولن يكون في وسعكم ان توقفوها حيث هي على الاقل . انتم ماضون في سبيلكم الى الهلاك ، ولقد كتب عليكم ان تبيدوا ، نهائيا ، من وجه المجتمع .

» ذلك هو حكم التطور الذي لا يرد . انها كلمة الله . التضامن اقوى من المنافسة . لقد كان الانسان البدائي كائنا ناقص النمو يختبئ في فجوات الصخور . ثم تجمع وتضامن وشن الحرب على اعدائه اللوامح . لقد كان اعداؤه بهائم متنافسة . اما هو فكان بهيمة متضامنة ، وبسبب من ذلك استطاع التفوق على الحيوانات جميعا . ومنذ ذلك الحين والانسان

بحق تضامناً اعظم فأعظم • ان القضية هي قضية الصراع بين التضامن والتنافس ، وهو صراع قديم يرقى الى الف قرن خلت ، منيت خلالها المنافسة بهزائم موصولة • ان كل من ينحاز الى جانب المنافسة لا بد هالك •

فاعترضه مستر كالفين :

– « ولكن التروستات نفسها لا تعدو ان تكون ثمرة المنافسة • »

فأجابه ارنست :

– « صحيح الى ابعد الحدود • والتروستات نفسها قضت على المنافسة وهذا هو السبب الذي من أجله ، كما قلت انت بالذات ، انسحبت من صناعة الالبان • »

وسرت ضحكة السهرة الاولى حول المائدة • وحتى مستر كالفين شارك في الضحك على نفسه •

وتابع ارنست حديثه :

– « والان ، ما دمنا في الكلام على التروستات فلنحاول ان نقرر بضعة امور • اني سوف اطلق احكاما بعينها ، فاذا خالفتومني فيها فاعلنوا رأيكم • ان الصمت سوف يعني الموافقة • اليس صحيحا ان النول الآلي قادر على ان ينسج مقدارا من القماش اعظم من ذلك الذي ينسجه النول اليدوي وبكلفة اقل بكثير ؟ »

وتهمل قليلا ، ولكن احدا منهم لم ينطق بكلمة ، فأضاف :

« واذن اليس من حماقة واللاعقلانية البالغة ان ندمر الآلات ونرجع الى طريقة النسج بالنول اليدوي ، هذه الطريقة الخرقاء والاكثر كلفة ؟ »
فهز القوم رؤوسهم بالموافقة • فتابع :

– « اليس صحيحا ان ذلك التجمع المعروف بالتروست ينتج على نحو اكثر فعالية وأرخص سعرا مما تستطيع ان تنتجه الف من المؤسسات الصغيرة المتنافسة ؟ »

ومع ذلك ، فلم يعترض احد :

– « اذن اليس من حماقة اللاعقلانية ان ندمر ذلك التجمع الرخيص الفعال ؟ »

واعتصم القوم كلهم بالصمت فترة غير يسيرة • ثم ان مستر كيوالت تكلم متسائلا :

– « ما الذي يتعين علينا ان نفعله اذن ؟ ان القضاء على التروستات هو السبيل الوحيد الذي نستطيع تصوره للتخلص من سيطرتها • »

وفي الحال أمسى ارنست كله نارا وحيوية . وصرخ :
- « سوف اريك طريقة أخرى . فلنقلع عن التفكير في تلك الآلات الرائعة التي تنتج في فعالية ورخص . فلنخضعها لسلطاننا . فلنفد من فعاليتها ورخصها . فلندرها بأنفسنا . فلنطرد مالكي الآلات الرائعة الحاليين ولنملك نحن تلك الآلات . تلك ، ايها السادة ، هي الاشتراكية . انها تجمع تضامني اعظم من التروستات ، تجمع اقتصادي واجتماعي اعظم من اي تجمع ظهر حتى اليوم على سطح هذا الكوكب . انه منسجم مع التطور . نحن نواجه التجمع بتجمع اعظم . ذلك هو الجانب الرابع . انضموا اليها ، نحن الاشتراكيين ، وراهنوا على الجانب الرابع » .
وهنا نشأت معارضة . لقد هن القوم رؤوسهم وانشأوا يهتمون ويغمفون .

فضحك ارنست وقال :
- « حسن جدا ، اذن فأنتم تفضلون ان تكونوا مناقضين للتطور . انتم تؤثرون ان تمثلوا ادوارا ارتدادية . لقد كتب عليكم ان تهلكوا كما كتب على كل نزعة ارتدادية ان تهلك . هل خطر لكم ذات يوم ان تتساءلوا ما الذي سيحل بكم عندما تظهر تجمعات تضامنية اعظم حتى من التروستات الحالية ؟ هل فكرتم ذات يوم في المصير الذي ستنتهون اليه عندما تتحد التروستات الكبرى نفسها في تجمع التجمعات - في التروست الاجتماعية ، الاقتصادية ، السياسية ؟ »

وهنا التفت الى مستر كالفين فجأة ، وقال :
- « قل لي ، اذا كان هذا غير صحيح . انتم مضطرون الى تشكيل حزب سياسي جديد لان الاحزاب القديمة خاضعة كلها لسلطان التروستات . ان العقبة الرئيسية التي تعترض دعايتكم « الغراينجية » هي التروستات . فوراء كل عقبة تلاقونها ، وكل ضربة تنزل بكم ، وكل هزيمة تمنون بها ، يد التروستات الاحتكارية . اليس هذا صحيحا ؟ قل لي ! »

فلزم مستر كالفين الصمت ، في شيء من الضيق والانزعاج .
فشجعه ارنست قائلا :
- « هيا ! تكلم ! »

فاعترف مستر كالفين :
- « ذلك صحيح . لقد احرزنا اكثرية المقاعد في المجلس التشريعي لولاية اوريغون واصدرنا تشريعا وقائيا ، ولكن حاكم الولاية ، الذي كان

صنيعة التروستات ، وضع عليه « الفيتو » (حق النقض) . وانتخبنا حاكما لكولورادو ، ولكن المجلس التشريعي ابى ان يجيز له تولي المنصب . ومرتين اثنتين اقررنا مشروعا بضريبة دخل وطنية ، وفي كلتا المرتين داست المحكمة العليا المشروع بقدمها وسحبته بدعوى انه غير دستوي . ان المحاكم لفسي ايدي التروستات . ونحن ابناء الشعب ، لا ندفع الى قضائنا رواتب كافية . ولكن لا بد ان يجيء زمان . . . »

فقاطعه ارنست قائلا :

« . . زمان يسيطر فيه تجمع التروستات على الهيئات التشريعية كلها ، زمان يصبح فيه تجمع التروستات هو الحكومة نفسها » .

فارتفعت الصيحات :

« هذا لمن يكون ! هذا لمن يكون ! »

لقد كان كل امرئ بالغ الاهتياج ، تبدو على وجهه امارات الرغبة

في القتال . وسالهم ارنست :

« قولوا لي ، ما الذي سوف تفعلونه عندما يجيء ذلك الزمان ؟ »

فصاح مستر آسمونسين ، وايدت أصوات عديدة قراره هذا :

« سوف نلجأ الى اصطناع قوتنا » .

فحذروهم ارنست :

« ولكن هذا سوف يعني الحرب الاهلية » .

فاجابه مستر آسمونسين ، ومن ورائه صيحات جميع الرجال الجالسين

الى المائدة :

« اذن فلنكن الحرب الاهلية ! اننا لما ننس الاعمال الماجدة التي

قام بها آباؤنا واجدادنا . وحين تتعرض حرياتنا للخطر تجدنا على استعداد

لان نقاتل ونموت » .

فابتسم ارنست وقال :

« لا تنسوا اننا اتفقنا ، ضمنا ، على ان الحرية تعني عندكم ، ايها

السادة ، حرية ابتزاز الارباح من الاخرين » .

وعصف الغضب بالمتحلقين حول المائدة ، وكان غضبهم هذه المرة غضبا

مقاتلا . ولكن ارنست عرف كيف يضبط الجلبة ويوصل صوته الى آذانهم .

« بقي سؤال اخر . حين تلجأون الى اصطناع قوتكم تذكروا ان سبب

لجورتكم هذا الى القوة سوف يكون سيطرة التروستات على الحكومة .

ومعنى ذلك ان الحكومة سوف تجرد عليكم الجيش النظامي ، والاسطول ،

والميليشيا ، والبوليس - وبكلمة واحدة ، سوف تجرد عليكم آلة الحرب الاميركية المنظمة كلها . أي شيء تستطيع قوتكم ان تفعله في تلك الحال ؟ »
وغلب الرعب على وجوههم ، وقبل ان يثوبوا الى رشدهم ضرب ارنست ضربه الجديدة :

- « هل تذكرون ذلك العهد ، غير المعن في البعد ، يوم كان جيشنا النظامي لا يتجاوز عدده خمسين الف مقاتل ؟ لقد تزايد هذا العدد ، سنة بعد سنة ، حتى لقد بلغ اليوم ثلاثمائة الف مقاتل » .
وعاود الضرب من جديد :

- « ولكن هذا ليس كل شيء . ففيما كنتم تطاردون طيفكم المحبب ذاك الذي تدعونه الارباح ، وفيما كنتم تنشئون فلسفة اخلاقية ترفع من مقام صنمكم الاثير ذاك ، الذي تدعونه المناقسة ، حقق الاحتكار اشياء اعظم شأننا واشد هولاً . لقد انشأ الميليشيا » .
فصاح مستر كيوالت :

- « الميليشيا قوتنا ، وبها نستطيع ان نصد غزوة الجيش النظامي » .
فكان جواب ارنست :

- « سوف تلتحقون انتم انفسكم بالميليشيا ، وسترسلون الى ماين ، او فلوريدا ، او الفليبين ، او الى أي مكان آخر ، لكي تغرقوا في دماء رفاقكم المقاتلين ، مدنيا ، من اجل حرياتهم . في حين سوف ياتي رفاقكم انفسهم من كانساس او ويسكونسين او أي ولاية اخرى الى هنا ، الى كاليفورنيا ، لكي يغرقوا في دماء رفاقكم المقاتلين مدنيا » .
كان القوم قد صدموا الان ، صدمة حقيقية . ولقد ظلوا صامتين غير ناطقين بكلمة ، حتى غمغم مستر اووين :

- « لن ننضم الى الميليشيا . ان في هذا ما يحسم المسألة . نحن لن نكون على هذا القدر كله من الحمق » .

فضحك ارنست ضحكة صارخة وقال :

- « انتم لا تفهمون حقيقة التجمع الذي تم ، وليس في امكانكم ان تنهضوا بعبء الدفاع عن انفسكم بانفسكم . ومن اجل هذا سوف تجرون الى الميليشيا جرا » .

فأصر مستر اووين :

- « ولكن ثمة شيئا اسمه القانون المدني » .
- « ليس حين تعلق الحكومة القانون المدني . في اليوم الذي تحدثون

فيه عن التجاؤكم الى اصطناع قوتكم سوف تنقلب قوتكم هذه عليكم • انكم سوف تلتحقون بالمليشيا طوعا او كرها • واذا ما رفضتم الانضمام الى المليشيا ، ام عصيتم الاوامر بعد انضمامكم اليها ، فعندئذ تمثلون امام مجلس عرقي ، منعقد في ساحة القتال نفسها ، وتعدمون رميا بالرصاص كالكلاب ، سواء بسواء • ذلك هو القانون ! »

فاكد مستر كالفين في جزم :

– « لا ، ليس هذا هو القانون • ليس ثمة قانون كهذا • ايها الفتى ، لقد حلمت بذلك كله • كيف لا ، وقد تحدثت عن ارسال المليشيا الى الفيليبين • هذا شيء مخالف للدستور • ان الدستور ينص في توكيد ، على ان المليشيا لا يجوز ان توجه الى خارج البلاد » •

فسأله ارنست :

– « واي شأن للدستور بهذه المسألة ؟ ان المحاكم تفسر الدستور ، والمحاكم ، كما اقر مستر آسمونسين ، هي صنيعة التروستات • والى هذا فذاك هو القانون كما قلت • ذلك هو القانون النافذ منذ سنوات ، القانون النافذ منذ تسع سنوات ايها السادة ! »

فتساءل كالفين غير مصدق :

– « القانون ينص على سوقنا الى المليشيا ؟ القانون ينص على محاكمتنا امام المجالس العرفية المنعقدة في ساحة القتال نفسها اذا ما عصينا ؟ »

فقال ارنست :

– « نعم ، القانون ينص على ذلك بالضبط » •

فتساءل ابي ، وكان في امكاني ان ارى ان الامر كان جديدا عليه ايضا :

– « ولكن كيف جاز ان لا نسمع قبل اليوم بهذا القانون ؟ »

فقال ارنست :

– « لسببين اثنين • اولاه لما تنشأ بعد الحاجة الى وضعه موضع التنفيذ • ، ولو قد نشأت هذه الحاجة اذن لسمعت به في الحال • وثانيا ، لان القانون عرض على الكونغرس ومجلس الشيوخ سرا ، وعلى وجه الاستعجال ، فاقرته الهيئتان التشريعتان في غير ما مناقشة تقريبا • ولم تشر الصحف ، طبعاً ، الى شيء من ذلك • ولكننا عرفنا ، نحن الاشتراكيين ، بما حدث • لقد نشرناه في صحفنا • ولكنكم لا تقرأون صحفنا البتة » •

فقال مستر كالفين في عناد :

– « انا لا ازال اصر على انك تحلم • ان البلاد لا يمكن ان تجيز مثل

هذا التشريع » .

فأجابه أرنست :

- « ولكن البلاد قد أجازته فعلا . وفي ما يتصل بقولك اني احلم .. »
وهنا وضع يده في جيبه وأخرج منه كراسة صغيرة ، « قل لي ، هل يبدو هذا
اضغاث أحلام ؟ »

وفتح الكراسة ، وشرع يقرأ :

- « المادة الاولى ٠٠٠ ان الميليشيا سوف تؤلف من كل مواطن ذكر
سليم الجسم من مواطني الولايات المختلفة ، والمقاطعات ، واقليم كولومبيا ،
تتجاوز سنة الثامنة عشرة وتقل عن الخامسة والاربعين » .

« المادة السابعة : ان كل ضباط او مجند - تذكروا المادة الاولى ،
ايها السادة ، انكم جميعا مجندون - يرفض او يتلصقا عن المثزل امام ضابط
التحشيد عند دعوته وفقا لاحكام هذا القانون يحال الى المحكمة العسكرية
وتنزل به العقوبة التي يحكم بها قضاتها » .

« المادة الثامنة : ان المحاكم العسكرية الخاصة بمحاكمة ضباط الميليشيا
وجنودها تشكل من ضباط الميليشيا ليس غير » .

المادة التاسعة : ان الميليشيا ، حين تدعى للمقتال فعليا من اجل الولايات
المتحدة سوف تخضع لنفس قواعد الحرب واحكامها التي تخضع لها قوات
الولايات المتحدة النظامية » .

« تلك هي الوقائع ، ايها السادة ، ايها المواطنون الاميريكيون ، يا رفاق
السلاح الميليشيين ! قبل تسع سنوات اعتقدنا نحن الاشتراكيين ان القانون
كان موجها ضد العمال . ولكن الذي يبدو انه وجه ضدكم انتم ايضا . لقد
قال عضو الكونغرس « ويلي » خلال المناقشة الموجزة التي سمع بها رئيس
المجلس ، ان مشروع القانون « يقضي باتخاذ العدة لانشاء قوة احتياطية
ابتغاء الاخذ بخناق الرعاع - ولا تنسوا انكم انتم الرعاع ايها السادة -
وتحمي حياة الناس وحریتهم وممتلكاتهم من الاخطار جميعا » . وفي مقبلات
الايام ، عندما تلجأون الى اصطناع قوتكم تذكروا انكم سوف تصطنعونها ضد
ممتلكات التروستات ، وحرية التروستات - وفقا للقانون - في ابتزاز الارباح
منكم . ان انيابكم لملقوعة ، ايها السادة ، وان برائنكم لملقمة . ويوم تلجأون
الى اصطناع قوتكم ، وقد حرمتم الانياب والبرائن ، فعندئذ لن تكونوا قادرين
على الانزى مثل جيش من الاسماك الصدفية ! »
فصاح كوالنت :

ـ « لست اصدق ذلك ! ليس ثمة قانون كهذا » . انها قصة اخترعتموها ،
انتم الاشتراكيين ، ابتغاء الاثارة والتهيج » .
فكان الجواب :

ـ « لقد قدم هذا القانون الى مجلس النواب في ٣٠ تموز (يوليو)
ولقد قدمه النائب « دك » نائب اوهميو . وكان تقديمه على وجه الاستعجال ،
الشديد ، ولقد اقره مجلس الشيوخ ، بالاجماع ، في ١٤ كانون الثاني (يناير)
١٩٠٣ . وبعد سبعة ايام ليس غير صدق عليه رئيس الولايات المتحدة ٥٨ » .

٥٨ كان ايفرهارد على صواب في الوقائع الاساسية ، على الرغم من انه اخطأ في
تعيين التاريخ الذي قدم فيه مشروع القانون . فقد قدم مشروع القانون في ٣٠
حزيران (يونيو) لا في ٣٠ تموز (يوليو) . ان لدينا هنا في اريديس ، « سجل
الكونغرس » ، وان مراجعة هذا السجل لتظهر ان الاشارة الى ذلك القانون وردت
في ٣٠ حزيران (يونيو) ، و ٩ ، و ١٥ ، و ١٦ ، و ١٧ كانون الاول (ديسمبر)
١٩٠٢ ، و ٧ و ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٣ . اما الجدل الذي تكشف عنه
رجال الاعمال في تلك المادبة فلم يكن شيئاً غير مألوف . ان نفرا قليلا من الناس
عرفوا بوجود هذا القانون . ولقد نشر اي . اونترمان ، وهو ثوري ، في تموز
(يوليو) ١٩٠٣ ، كراسة في جيرارد ، كانساس ، عن « قانون الميليشيا » . ولقد
كان لهذه الكراسة رواج محدود بين العمال . ولكن عملية عزل الطبقات بعضها
عن بعض كانت قد بلغت من التقدم حدا جعل ابناء الطبقة الوسطى لا يسمعون
البتة بهذه الكراسة ، وهكذا ظلوا في جهل من هذا القانون .

الفصل التاسع

رياضيات حلم

وفي غمرة من الذعر الناشئ عما كشفه من وقائع استأنف ارنست من جديد :

« لقد قال اثنا عشر رجلا منكم ، هذه الليلة ، ان الاشتراكية مستحيلة .
أما وقد أكدتم المستحيل فدعوني الان ابين لكم المحتوم . انه ليس محتوما
فحسب ان تزولوا انتم ، الرأسماليين الصغار ، من الوجود ولكن من المحتوم
ان يزول الرأسماليون الكبار والتروستات ايضا من الوجود . تذكروا ، ان مد
التطور لا يذكفء الى الورااء ابدا . انه يندفع الى أمام ، على نحو موصول ،
وانه ليتقدم من المنافسة الى التجمع التضامني ، ومن التجمع الصغير الى
التجمع الكبير ، ومن التجمع الكبير الى التجمع الضخم ، ومن ثم يتقدم الى
الاشتراكية التي هي اضمخ التجمعات على الاطلاق .

« انتم تقولون لي انني احلم . حسن جدا . سوف اعطيكم رياضيات
حلمي . وها اني اتحداكم ، مقدما ، ان تظهروا ان رياضياتي تنطوي على
خطا . سوف اريكم اولا حتمية انهيار النظام الرأسمالي ، ولسوف ابين لكم ،
رياضيا ، لماذا كان انهياره امرا واجبا الحدوث . واليكم التفصيل . وانني
لاسالكم ان تحتملوني قليلا اذا ما بدا كلامي ، اول الامر ، خارجا على
الموضوع .

دعونا ، قبل كل شيء ، نستطلع عملية بعينها من العمليات الصناعية ،
وكلما نصصت على أمر تخالفونني فيه ارجوكم ان تقاطعوني . لنفرض ان
لدينا مصنعا للاحذية . هذا المصنع يأخذ الجلد ويحوله الى احذية . وهوذا

مقدار من الجلد يساوي مئة دولار . انه يدخل الى المصنع ثم يخرج منه على صورة أحذية تساوي ، على سبيل الفرض ، مئتي دولار . ما الذي حدث ؟ لقد أضيفت مئة دولار الى قيمة الجلد . كيف تمت هذه الاضافة . دعونا نرى .

« ان رأس المال والعمل labour هما اللذان أضافا هذه المئة دولار الى قيمة الجلد . فأما « رأس المال » فقدم المصنع والآلات ودفع النفقات جميعا . وأما « العمل » فقدم نشاط العمال . وبفضل الجهد المشترك الذي بذله « رأس المال » و « العمل » أضيفت على قيمة الجلد مئة دولار . هل تقرّونني كلكم على ما قلته حتى الآن ؟ »

فهز القوم المتعلقون حول المائدة رؤوسهم هزة الموافقة .
« حتى اذا انتج « رأس المال » و « العمل » هذه المئة دولار تقدما الى قسمتها في ما بينهما . والاحصاءات الخاصة بهذه القسمة هي كسرية . وإذن ، دعونا نجعلها ، تسهila للبحث ، تقريبية . فنقول ان « رأس المال » يأخذ حصة مقدارها خمسون دولارا ، وان « العمل » يأخذ ، على صورة أجور ، حصة مقدارها خمسون دولارا . ونحن لن نحاول الكلام على التشاحن الذي يقع بين الفريقين حول القسمة ٥٩ فهما طال التشاحن فإن القسمة تسوى على اساس من هذه النسبة المئوية او تلك . والفت نظركم هنا الى ان ما يصدق على هذه العملية الصناعية الخاصة يصدق ايضا على جميع العمليات الصناعية . هل انا على صواب ؟ »

وكرة اخرى ، وافق المتعلقون حول المائدة على ما قاله ارنست .
« والان لنفرض ان « العمل » ، وقد تلقى دولاراته الخمسين ، اراد ان يشتري الاحذية التي صنعها . انه لا يستطيع ان يشتري منها أكثر من مقدار يساوي خمسين دولارا . هذا واضح ، اليس كذلك ؟
«والان فلننتقل من هذه العملية الخاصة الى مجموع العمليات الصناعية

٥٩ يوضح ايفرهارد هنا سبب جميع المشاكل العمالية في ذلك العهد . ففي قسمة الناتج المشترك يطعم « رأس المال » في الاستيلاء على أقصى ما يستطيع الاستيلاء عليه ، ويطعم « العمل » في الاستيلاء على أقصى ما يستطيع الاستيلاء عليه . وهذا النزاع على القسمة أمر يستعصي على التوفيق . ولقد استمر نزاع رأس المال والعمل على قسمة الناتج المشترك ما بقي نظام الانتاج الرأسمالي . ان ذلك يبدو في أعيننا أمرا مضحكا ، ولكن علينا أن لا ننسى ان سبعة قرون كاملة تفصلنا عن أبناء ذلك العصر ، وكفى بذلك ميزة لنا عليهم .

في الولايات المتحدة برمتها ، هذه العمليات التي تشمل الجلد نفسه ، اي المادة الخام ، والمشحن ، والبيع ، وكل شيء . ولسوف نقول ، حرصا منا على ان تكون ارقامنا مدورة كما يقولون ، ان انتاج الثروة الاجمالي في الولايات يبلغ كل عام اربعة مليارات دولار . واذن فقد نال « العمل » ، على صورة أجور ، خلال المدة نفسها ، ملياري دولار . وهذا شيء لا يحتمل المناقشة ، انا واثق من ذلك . مع العلم بأن النسب المئوية التي انص عليها لا مبالغة فيها . لان « العمل » يعجز ، بسبب من الف وسيلة من الوسائل الرأسمالية ، عن شراء حتى نصف ما صنعه من انتاج اجمالي .

« ولكن فلنعد الى صميم موضوعنا . سنقول ان « العمل » يشتري سلعا بملياري دولار . وهذا ما يجعل العقل السليم يقر بأن « العمل » لا يستطيع ان يستهلك غير مليارين اثنين . ومعنى هذا انه لا يزال ثمة ملياران آخران ينبغي ان ننظر في أمرهما ، ملياران لا يستطيع العمل ان يشتريهما او يستهلكهما » .

وهنا قال مستر كيوالت :

« بل ان « العمل » لا يستهلك ملياريه نفسيهما . أما اذا فعل فعندئذ لا يكون له ايما ودائع في مصارف الادخار » .

« ان ودايع « العمل » في مصارف الادخار ليست غير ضرب من الاموال الاحتياطية تستهلك بمثل السرعة التي تتراكم بها . وهذه الاموال انما تدخر للشيوخوخة ، للمرض ، لحوادث العمل ، ولنفقات الجنائز . ان الوديعة التي يضعها العامل في مصرف الادخار ليست غير كسرة من خبز ترد الى الرف لكي تؤكل في اليوم التالي . لا ، ان « العمل » يستهلك كامل الانتاج الاجمالي الذي تستطيع الاجور ان تشتريه له .

« ان مليارين اثنين ليتركان لرأس المال . وبعد ان يدفع رأس المال نفقاته هل يستهلك ما يتبقى لديه ؟ هل يستهلك رأس المال ملياريه الاثنيين بكاملهما ؟ »

وصمت ارنست لحظة ، وطرح علامة الاستفهام صارخة واضحة على عدد من الرجال . لقد هزوا رؤوسهم . فقال واحد منهم في صراحة :

« لست أدري » .

فتابع ارنست قائلا :

« بل انك تدري من غير ريب . قف وفكر لحظة . لو استهلك رأس

المال حصته اذن لما كان في امكان مجموع الرساميل الاجمالي ان يزيد ، واذن لظل ثابتا لا يتغير . الق نظرة على تاريخ الولايات المتحدة الاقتصادي تجد ان مجموع الرساميل الاجمالي قد ازداد ، وما زال ، على نحو موصول . واذن فرأس المال لا يستهلك حصته . هل تذكرون ذلك العهد الذي كانت انكلترا تملك فيه مقدارا ضخما من سندات سككنا الحديدية ؟ ولكن الايام كرت واستطعنا ان نشترى هذه السندات منها . ما الذي يعنيه هذا ؟ هذا يعني ان حصة رأس المال غير المستهلكة هي التي اشترت تلك السندات واستردتها . وما الذي يعنيه الحقيقة القائلة بان رأسماليي الولايات المتحدة يملكون اليوم ما يساوي مئات ملايين الدولارات من السندات المكسيكية ، والسندات الروسية ، والسندات الايطالية ، والسندات اليونانية ؟ معنى ذلك ان مئات الملايين هذه كانت جزءا من حصة رأس المال التي لم يستهلكها الراسماليون . وفوق هذا ، فمنذ فجر النظام الرأسمالي لم يستهلك رأس المال في ايما يوم من الايام حصته كلها .

« والان نصل الى بيت القصيد . اربعة مليارات دولار من الثروة تنتج خلال عام واحد في الولايات المتحدة . ويشترى « العمل » ويستهلك مليارين اثنين . على حين لا يستهلك رأس المال المليارين الباقين . وهكذا يظل رصيد ضخم غير مستهلك . ما الذي يفعل بهذا الرصيد ؟ ما الذي يمكن ان يفعل به ؟ ان « العمل » لا يستطيع ان يستهلك شيئا منه ، لان « العمل » يكون الان قد انفق اجوره كلها . ورأس المال لن يستهلك هذا الرصيد ، لانه استهلك قبل ذلك ، وفقا لطبيعته ، كل ما يقدر على استهلاكه . وهكذا يظل الرصيد قائما . أي شيء يمكن ان يفعل به ؟ أي شيء يفعل به ؟ »

فتطوع مستر كيوالت للاجابة :

— « انه يباع خارج الولايات المتحدة » .

فأقره ارنست على هذا :

— « تماما . فبسبب من هذا الرصيد تنشأ حاجتنا الى سوق أجنبية . انه لببيع في الخارج ، اننا مضطرون الى بيعه في الخارج . فليس ثمة ايما طريقة اخرى للتخلص منه . وذلك الفائض غير المستهلك ، ذلك الفائض المبيع في الخارج ، يصعب ما ندعوه ميزاننا التجاري الايجابي . هل نحن جميعا متفقون على ان ما قلته ، حتى الان ، صحيح ؟ »

فقال مستر كالفين في فظاظة :

— « لا ريب في ان من العبث المضيع للوقت ان تفصل الكلام هذا التفصيل

كله على الالفباء التجارة • نحن كلنا نعرف هذه الالفباء ونفهمها ، •

فرد عليه ارنست :

« وبهذه الالفباء التي عنيت أنا بتفصيل الكلام عليها الى هذا الحد سوف أخزيك • ذلك هو سر جمالها • ولسوف أخزيك بها في هذه اللحظة • اسمع :
« ان الولايات المتحدة بلد رأسمالي طور موارده ونماها • وهي تملك ، بحكم نظامها الصناعي الرأسمالي ، فائضا غير مستهلك يتعين عليها ان تتخلص منه ، ويتعين عليها ان تتخلص منه خارج الحدود ٦٠ • وما يصح على الولايات المتحدة يصح على كل بلد رأسمالي آخر ذي موارد مطورة • ان لدى كل من هذه البلدان فائضا غير مستهلك • ولا تنسوا انه قد نشأت في ما بينها ، منذ فترة ، تجارة متبادلة ، وان هذه الفوائض ما تزال ، برغم ذلك ، غير مستهلكة • ذلك ان « العمل » في جميع هذه البلدان قد انفق أجوره كلها ، فليس في امكانه ان يشتري أي فائض • وكذلك استهلك رأس المال في جميع هذه البلدان كل ما يقدر على استهلاكه وفقا لطبيعته • ومع ذلك فالفوائض لا تزال متراكمة • ان كلا من هذه البلدان لا يستطيع ان يتخلص من فائضه بتصديره الى الاخر • فبأي طريقة تعتزم التخلص من هذه الفوائض جميعا ؟ »
فاقترح مستر كروالت :

« ببيعها لبلدان غير متطورة الموارد » •

« تماما • وهكذا ترون ان حاجتي هي من الوضوح والبساطة بحيث تكلمونها بأذهانكم بالنيابة عني • والان الى الخطوة التالية : لنفرض ان الولايات المتحدة تخلصت من فائضها بتصديره الى بلد غير مطور الموارد ، كالبرازيل مثلا ، حيث بيع واستهلك • فما الذي تناله الولايات المتحدة لقاء ذلك من البرازيل ؟ »

٦٠ أدلى ثيودور روزفلت ، الذي كان رئيسا للولايات المتحدة قبل زمان هذه القصة بسنرات معدودات ، بهذا التصريح : « اننا في حاجة الى تبادل في شراء السلع وبيعها يكون أكثر حرية وأوسع نطاقا لكي يكون في الامكان التخلص على نحو ملائم من فائض انتاج الولايات المتحدة بتصديره الى البلدان الاجنبية • ولا ريب في ان هذا الفائض الذي يشير اليه كان هو أرباح النظام الرأسمالي التي عجزت طاقة الرأسماليين الاستهلاكية عن استهلاكها • ومما يذكر ان الشيوع (السناتور) هانا Hanna أعلن في تلك الفترة بالذات : « ان انتاج الثروة في الولايات المتحدة يفرق استهلاكها ، سنويا ، بنسبة الثلث • » وصرح شيخ آخر ايضا : « ان الشعب الاميركي ينتج كل عام ملياري دولار من الثروة أكثر مما يستهلك • »

فقال مستر كيوالت :

ـ « الذهب » *

فاعترض ارنست :

ـ « ولكن ثمة كمية محدودة من الذهب في العالم » *

فعدل مستر كيوالت اجابته :

ـ « الذهب في صورة وثائق دين وسندات وما الى ذلك » *

فقال ارنست :

ـ « الان اصبت الهدف * ان الولايات المتحدة تنال من البرازيل ، لقاء

فائضها ، سندات ووثائق دين * ولكن ما معنى هذا ؟ انه يعني ان الولايات

المتحدة سوف تملك في البرازيل سككا حديدية ومصانع ومناجم وارضيات

واي معنى لهذا بالمقابل ؟ »

فاستغرق مستر كيوالت في التفكير وهز راسه *

وتابع ارنست كلامه :

ـ « سوف اقول لك * انه يعني ان موارد البرازيل قد اخذت سبيلها نحو

التطور والنمو * والان ، الى النقطة التالية * حين توفيق البرازيل ، في ظل

النظام الرأسمالي ، الى تطوير مواردها ، فعندئذ يصبح لديها هي نفسها

فائض غير مستهلك * ولكن هل تستطيع ان تتخلص من هذا الفائض بتصديره

الى الولايات المتحدة ؟ لا ، لان لدى الولايات المتحدة نفسها فائضا * هل

تستطيع الولايات المتحدة ان تفعل ما قد فعلته من قبل - ان تتخلص من فائضها

بتصديره الى البرازيل ؟ لا ، لان البرازيل امسى لديها ، الان ، فائض ايضا *

« ما الذي سوف يحدث ؟ ان على الولايات المتحدة والبرازيل جميعا

ان تبجحا عن بلدان اخرى غير مطورة الموارد ، لكي تلقيا على اكتافها احمال

فائضيهما * ولكن عملية التخلص من الفائض نفسها ، لا بد ان تؤدي ، اخر

الامر ، الى تطوير موارد تلك البلدان * ولن تنقضي فترة حتى يصبح لديها

هي الاخرى فوائض ، وحتى تلتئم بلدانا اخرى تلقى على ظهورها احمالها *

والان ، ايها السادة ، انتبهوا جيدا الى ما اقول * ان كوكينا ليس بالضخم

جدا * وهذا العالم الذي نحيا فيه لا ينتظم غير بلدان معدودة * فما الذي

سوف يحدث عندما ينهض كل بلد من بلدان العالم ، حتى اصغر تلك

البلدان واخرها ، وبين يديه فائض ، ويواجه البلدان الاخرى وقد اثقلت

الفوائض ايديها ؟ »

وتهمل قليلا ونظر الى القوم المستمعين اليه * كانت الحيرة التي رانت

على وجوهم توقع السرور في النفس • ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت وجوهم تنطق بالذعر ايضا • فمن بعض التجريدات كان ارنست قد صنع ، يمثل سحر الساحر ، رؤيا عجيبة ، وفتح اعينهم عليها • وكانوا يرون اليها انذاك ، وهم قاعدون هناك ، ولقد كان في ذلك ما ألقى الرعب في قلوبهم •

فقال ارنست في خبث :

« لقد بدأنا بألف وباء ، يا مستر كالفين • وها انا قد قدمت اليك بقية الابجدية • انها سهلة جدا • وذلك هو سر جمالها • ولسوف تفوز ، عما قريب ، بالجواب من غير ريب • ما الذي سيحدث ، اذن ، عندما يصبح لكل بلد في العالم فائضه ؟ الى أين سينتهي نظامكم الرأسمالي عندئذ ؟ »
ولكن مستر كالفين هز رأسا مضطربا • كان يستحضر في ذهنه حجج ارنست عله يجد فيها خطأ ما •

وقال ارنست :

« دعوني أراجع معكم ، في شيء من الايجاز ، الخطوات التي مشيناها حتى الان • لقد بدأنا بعملية صناعية بعينها : مصنع الاحذية • ولقد وجدنا أن قسمة الانتاج المشترك التي تمت هناك كانت شبيهة بالقسمة التي تمت في جميع العمليات الصناعية الاخرى • كذلك وجدنا ان « العمل » لا يستطيع ان يشتري بأجوره الا قدرا بعينه من الانتاج ، وان رأس المال لم يستهلك بقية الانتاج كلها • ووجدنا انه بعد ان استهلك « العمل » كل ما مكنته أجوره من استهلاكه ، وبعد ان استهلك رأس المال كل ما رغب في استهلاكه ، بقي لدينا فائض لما يستهلك بعد • واتفقنا على انه لا سبيل الى التخلص من هذا الفائض الا خارج الحدود • واتفقنا ايضا على ان عاقبة القاء عبء هذا الفائض على عاتق بلد اخر لن تكون غير تطوير مرار ذلك البلد ، وان ذلك البلد خليف به ان يجد نفسه ، خلال فترة قصيرة ، أمام فائض غير مستهلك • ووسعنا نطاق هذه العملية حتى لقد شملت جميع البلدان على ظهر هذا الكوكب ، وحتى لاصبح كل بلد ينتج كل سنة ، بل كل يوم ، فائضا غير مستهلك لا يستطيع ان يتخلص منه بتصديره الى أي بلد اخر • والان أوجه اليكم السؤال من جديد : ما الذي سوف تفعله بهذه الفوائض ؟ »

ولم يجب أحد بكلمة •

فتسائل ارنست :

« مستر كالفين ؟ »

فاعترف مستر كالفين قائلا :

« ان ذلك ليعجزني » *

وقال مستر آسمونسين :

« انا لم أحلم قط بشيء مثل هذا * ومع ذلك فانه يبدو في عيني واضحا

كالحرف المطبوع » *

كانت هذه اول مرة أسمع فيها نظرية كارل ماركس ٦١ في « فضل القيمة » تبسط وتشرح ، وكان ارنست قد فعل ذلك في بساطة بالغة جعلتني انا أيضا

ذاهلة معقودة اللسان *

وقال ارنست :

« سوف أدلكم على طريقة للتخلص من الفائض * القوا به في البحر * القوا كل عام في البحر بمقادير من الاحذية والقمح والملابس ومختلف السلع التجارية تساوي قيمتها مئات الملايين من الدولارات * أليس في هذا ما يحل المشكلة ؟ »

فاجابه مستر كالفين :

« أنه سوف يحلها من غير ريب * ولكن من السخف ان نتحدث على

هذا النحو » *

وهنا انقض عليه ارنست انقضااض الصاعقة :

« هل هو أكثر سخفا مما تدعون اليه ، يا مدمري الآلات ، من العودة الى طرائق اجدادكم التي ترقى الى ما قبل الطوفان ؟ ما الذي تقترحونـه للتخلص من الفائض ؟ انكم تريدون ان تتلافوا مشكلة الفائض بعدم انتاج ايما فائض * وبأية طريقة تقترحون اجتناب انتاج فائض ما ؟ بالعودة الى اسلوب بدائي في الانتاج ، اسلوب معمر في الاضطراب والفوضى واللاعقلانية ، اسلوب كثير الهدر بالغ الكلفة ، الى درجة تجعل من المتعذر عليكم انتاج ايما فائض » * وبلغ مستر كالفين ريقه * كان السهم قد اصاب الهدف وكان القوم قد استشعروا اثره الموجه في نفوسهم * وبلغ مستر كالفين ريقه من جديد ، وتنحنح ، ثم قال :

٦١ كان كارل ماركس ، بطل الاشتراكية الفكرية الكبير ، يهوديا ألمانيا من اهل القرن التاسع عشر * وكان معاصرا لجون ستوارت ميل * وانه ليصعب علينا نحن اليوم ان نصدق أن اجيالا بكاملها انقضت على اكتشافات ماركس الاقتصادية كان مفكره العالم وعلمائه المرموقون يسخرون خلالها منه ويهزأون به * وبسبب من اكتشافاته هذه أبعد عن وطنه فمات منفيا في انكلترا *

– « انك لعلی صواب • اني اقف الان موقف المذنب • فالعودة الی طرائق الایاء والاجداد سخف من السخف • ولكن علينا ان نفعل شيئا • انها مسألة حياة او موت بالنسبة الينا نحن ابناء الطبقة الوسطی • اننا نأبی ان نهلك • نحن نؤثر بدلا من ذلك ان نكون سخفاء وان نرجع الی طرائق آباءنا وأجدادنا الخرقاء حقا والمنطوية علی هدر كثير • سوف نعيد الصناعة الی مرحلة « ما قبل التروستات » • سوف ندمر الآلات • فما الذي تعتمزون ان تفعلوه في هذا الصدد ؟ »

– « ولكنكم لا تستطيعون ان تدمروا الآلات • انكم لن تستطيعوا حمل من التطور علی ان يجري القهقري • فهناك قوتان عظيمتان تقاومانكم ، كل منهما اقوى منكم ومن طبقتكم الوسطی • فالرأسماليون الكبار – التروستات ، بكلمة مرجزة – لن يدعوكم ترجعون الی الورا • انهم لا يحبون ان يروا الی الآلات تدمر • وهناك العمال ، من ناحية ثانية ، وهم اعظم من التروستات واشد بأسا • انهم لن يدعوكم تدمرون الآلات • ان ملكية العالم ، وملكیة الآلات معه ، تتأرجح بين التروستات والعمال • ذلك هو تخطيط المعركة • ان ایا من الفريقين لا يريد تدمير الآلات • ولكن كل فريق منهما يريد امتلاك الآلات • وفي هذه المعركة ، لا مكان للطبقة الوسطی • ان الطبقة الوسطی قزم بين عملاقين • الا ترون ؟ انكم انتم ابناء الطبقة الوسطی المسكينة الآخذة سبيلها الی الموت قد علقتم بين حجري الرخی ، وان عملية الطحن قد بدأت حتی في يوم الناس هذا •

« لقد بينت لكم ، رياضيا ، حتمية انهيار النظام الرأسمالي • فحين يقف كل بلد من البلدان وفي يده فائض لا سبيل الی استهلاكه في الداخل او الی بيعه في الخارج فعندئذ ينهار النظام الرأسمالي تحت صرح الارباح الرهيب الذي اقامه النظام نفسه • وفي ذلك اليوم لن يكون ثمة أيما تدمير للآلات • ان الصراع سوف يدور ، آنذاك ، حول ملكية الآلات • فاذا كان النصر حليف العمال فعندئذ تكون سبيلكم هينة سهلة • وعندئذ تدخل الولايات المتحدة ، ويدخل العالم كله من هذه الناحية ، عصرا جديدا وهائلا • وبدلا من ان تسحق الآلات الحياة ستجدون ان الآلات نفسها سوف تجعل الحياة أكثر عدلا ، واعظم سعادة ونبلا • وانتم ، ابناء الطبقة الوسطی المقضي عليها ، سوف تشاركون سائر العمال – اذ لن يكون ثمة آنذاك غير عمل وعمال – في التوزيع العادل لمنتجات الآلات الرائعة • ولسوف نبدع نحن ، نحن كلنا ، آلات جديدة واكثر روعة • ولن يكون ثمة أيما فائض غير مستهلك لانه لن يكون ثمة اية ارباح » •

فسأله مستر كيوالت :

« ولكن لنفرض ان التروستات انتصرت في هذا الصراع الناشب حول ملكية الآلات والعالم ؟ »

فأجابه ارنست :

« عندئذ تسحقون انتم ويسحق العمال ونسحق كلنا تحت العقب الحديدية لاستبداد لا يقل وحشية وقطاعة عن ايما استبداد سود صفحات تاريخ الانسان . والواقع ان هاتين اللفظتين ، العقب الحديدية ، خليك بهما ان يكونا اسما صالحا لذلك الاستبداد ٦٢٠ »

وساد صمت طويل ، واستغرق كل من الجالسين الى المائدة في تفكير استثنائي عميق .

فقال مستر كاليفين :

« ولكن اشتراكيتك هذه هي حلم » .

ثم كرر :

« حلم » .

فأجابه ارنست :

« سوف اريك شيئا ليس بالحلم ، اذن . وذلك الشيء سوف ادعوه الاوليفاركية . اما انتم فتدعون البلوتوقراطية . ونحن جميعا نعني الشيء نفسه : الرأسماليين الكبار او التروستات . فلنحاول ان نرى من الذي يملك القوة اليوم . ولكي نوفق الى ذلك يحسن بنا ان نستعرض اقسام المجتمع الطبقيّة .

« ان ثمة ثلاث طبقات كبرى في المجتمع . هناك اولاً البلوتوقراطية ، المؤلفة من اصحاب مصارف اثرياء ، واقطاب سكة حديدية ، ومديري شركات واقطاب تروستات . وهناك ثانياً الطبقة الوسطى ، طبقتكم ايها السادة المؤلفة من مزارعين ، وتجار ، وصناعيين صغار ، واصحاب مهن . وهناك ثالثاً وأخيراً طبقتي انا ، البروليتاريا ، المؤلفة من عمال ذوي اجور ٦٣ .

٦٢ هذا اول اصطناع معروف لهذا الاسم للدلالة على الاوليفاركية .

٦٣ ان تقسيم ايفرهارد للمجتمع يتفق مع ذلك الذي وضعه لوسيان سانيال ، احد ثقات علم الاحصاء في ذلك العصر . وقد كان تقديره لابناء كل من هذه الطبقات ، على اساس من احصاء سكان الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، يجري كما يلي : الطبقة البلوتوقراطية : - ٢٥١ و ٢٥٠ ، الطبقة الوسطى ٨٤٥ و ٤٢٩ ، وطبقة البروليتاريا ١٣٧ و ٣٩٢ و ٢٠ .

« انكم لا تستطيعون الا ان تسلموا بان ملكية الثروة تشكل قوة اساسية في الولايات المتحدة اليوم . فما نصيب كل من هذه الطبقات الثلاث من ملكية هذه الثروة ؟ هي ذي الارقام . ان البلوتوقراطية تملك سبعة وستين مليار دولار . ومن المجموع الاجمالي للأشخاص المشتغلين في حقل الاعمال والمهن في الولايات المتحدة لا تنتظم البلوتوقراطية غير تسعة أجزاء من عشرة من واحد في المئة ، ومع ذلك فالبلوتوقراطية تملك سبعين في المئة من كامل الثروة الوطنية . وتملك الطبقة الوسطى اربعة وعشرين مليار دولار . ان تسعة وعشرين بالمئة من المشتغلين في حقل الاعمال والمهن هم من ابناء الطبقة الوسطى ، وهم يملكون خمسة وعشرين في المئة من مجموع الثروة العام . بقيت البروليتاريا . انها تملك اربعة مليارات . ومن بين جميع الاشخاص المشتغلين في حقل الاعمال والمهن ينتسب سبعون في المئة الى البروليتاريا لا تملك غير اربعة في المئة من مجموع الثروة العام . في يد اي من هذه الطبقات تتركز القوة ، ايها السادة ؟ »

فلاحظ مستر اسمونسين قائلاً :

« من ارقامك نفسها نتيبن اننا نحن ابناء الطبقة الوسطى اقوى من العمال » .

فرد عليه ارنست :

« ان اعتباركم ايانا ضعفاء لا يجعلكم اشد بأساً في وجه قوة البلوتوقراطية . وفوق هذا ، فانا لم انته منكم بعد . ان ثمة قوة اعظم من الثروة ، وهي اعظم لانها لا يمكن ان تنتزع . ان قوتنا نحن ، قوة البروليتاريا ، تتمثل في عضلاتنا ، في قدرة ايدينا على القاء الاصوات في صناديق الاقتراع وفي قدرة اصابعنا على الضغط على زناد الاسلحة النارية . وهذه القوة لا سبيل الى انتزاعها منا بآية حال . انها القوة البدائية ، انها القوة ذات الصلة الوثيقة بالحياة ، انها القوة التي هي اقوى من الثروة ، والتي تعجز الثروة عن انتزاعها من اصحابها .

« ولكن قوتكم يمكن ان تنتزع . ان سلبها منكم أمر ممكن . وحتى في هذه الايام شرعت البلوتوقراطية في سلبكم اياها . ولسوف تنتزعها كلها منكم ، اخر الامر . وعندئذ لن تعودوا ما ندعوه الطبقة الوسطى . انكم سوف تنحدرون اليها . سوف تصبحون بروليتاريين . واجمل ما في الامر انكم ستضاعفون ، عندئذ ، قوتنا . ولسوف ننادي بكم اخوة لنا ، ولسوف نقاتل واياكم كتفا الى كتف من اجل قضية الانسانية .

ان العمال ليس لديهم شيء مادي يجردون منه • فحسبتهم من ثروة البلاد تتألف من ملابس واثاث ، وفي بعض الاحيان النادرة جدا من بيت فارغ • اما انتم فليدكم الثروة المادية ، ليدكم اربعة وعشرون مليارا من الدولارات ، ولسوف تنتزعها البلوتوقراطية منكم • طبعاً ، هناك احتمال ضخم ان توفق البروليتاريا الى انتزاعها منكم اولاً • الا ترون وضعكم ، أيها السادة ؟ ان الطبقة الوسطى ليست غير حمل صغير مترنح بين أسد ونمر • فان لم يفترسكم الاول افترسكم الثاني • واذا ما افترسكم البلوتوقراطية اولاً فلن ينقضي طويل وقت حتى توفق البروليتاريا ، بدورها ، الى افتراس البلوتوقراطية •

« وحتى ثروتكم الحالية ليست مقياساً صحيحاً لقوتكم : ان قوة ثروتكم في هذه اللحظة لا تعدو ان تكون صدفة فارغة • وهذا هو السبب الذي من اجله تطلقون صيحة حريكم الصغيرة الواهنة : « العودة الى طرائق الآباء والاجداد » • انتم تعاون عجزكم • وانتم تعلمون ان قوتكم هي صدفة فارغة • ولسوف اظهر لكم فراغها •

« أية قوة يملكها المزارعون ؟ ان اكثر من خمسين بالمئة منهم عبيد ارقاء بسبب من هذه الحقيقة ، وهي انهم مجرد مكترئين او مرتنهين بالتزام بعينه • بل انهم كلهم عبيد ارقاء بسبب من هذه الحقيقة • وهي ان التروستات أمسكت بتملك اليوم او تسيطر على ، لا فرق ، جميع وسائل تسويق المحاصيل ، من مثل الخزن في التلاجات ، والسكك الحديدية ، ورافعات الحنطة الى اهراثها ، وخطوط المواصلات البحرية • وفوق هذا ، فان التروستات تسيطر على الاسواق • وليس للمزارعين ، في هذا كله ، حول او قوة • اما سلطانهم في الحقلين السياسي والحكومي فساتحدث عنه في ما بعد ، عند الكلام على سلطان الطبقة الوسطى كلها سياسياً وحكومياً •

« ان التروستات لتعتصر المزارعين وتبتز منهم ارباحهم ، يوماً بعد يوم ، كما قد اعتصرت وابتزت ارباح مستر كالفين وسائر المشتغلين في صناعة الالبان • ويوما بعد يوم تبتز ارباح اتجار بالطريقة نفسها • هل تذكرون كيف استطاعت « تروست التبغ » ان تقضي على ما يزيد على اربعمئة من مخازن بيع السيجار في مدينة نيويورك وحدها • اين هم مالكو مناجم الفحم الحجري القديم ؟ انتم تعلمون اليوم ان تروست السكة الحديدية - فلست في حاجة الى انبائكم بذلك - تملك او تسيطر على جميع مناجم فحم الانثراسايت والفحم

القيري • وتروست ستاندرد اويل ٦٤ ، الا تملك عشرين من خطوط النقل البحري عبر المحيط ؟ الا تسيطر ايضا على النحاس ، هذا ان لم نقل شيئاً عن تنظيمها تروستا لصهر المعادن كمشروع جانبي جديد ؟ ان ثمة في الولايات المتحدة عشرة الاف مدينة تنورها الليلية شركات تملكها ستاندرد اويل او تسيطر عليها ، وفي عدد مماثل من المدن تهيمن ستاندرد اويل على جميع وسائل النقل الكهربائي – ما عمل منها داخل المدن ، او في الضواحي ، او بين مدينة واخرى • لقد اقصى عن المسرح جميع الراسماليين الصغار الذين كانوا يعملون في هذا الحقل والذين كانوا يملكون آلافا وآلافا من الشركات • لقد اقصوا عن المسرح كما اقصيتم انتم سواء بسواء •

« وحال الصناعاتي الصغير اشبه بحال المزارع • فالصناعيون الصغار والمزارعون الصغار قد حولوا اليوم ، عمليا ، الى ارقاء واقنان • ومن هذه الناحية نستطيع ان نقول ان ارباب المهن وأهل الفن هم في اللحظة الحاضرة عبيد مسترقون في كل شيء الا في الاسم ، على حين ان رجال السياسة خدم واذئاب • لماذا تعمل أنت ، يا مستر كالغين ، طوال ليلائك ونهاراتك ، لجمع شمل المزارعين ، مع سائر الطبقة الوسطى ، في حزب سياسي جديد ؟ لان سياسيي الاحزاب العتيقة لن يقروك على فكراتك الارتدادية لانهم ما قلت انا انهم : اعني خدما واذئابا للبلوتوقراطية •

« لقد ذهبت الى القول ان ارباب الحرف وأهل الفن عبيد مسترقون • حسنا ، اي شيء هم ان لم يكونوا كذلك ؟ فالاساتذة ، والمبشرون ، ورؤساء تحرير الصحف كلهم انما يتولون مناصبهم من طريق الخدمة التي يسدونها الى البلوتوقراطية ، وخدمتهم هذه قوامها الترويج للآراء التي لا تسيء الى البلوتوقراطية او التي تدعو الى احترامها ليس غير • حتى اذا ما سولت لاحد منهم نفسه ان يروج لآراء تعرض البلوتوقراطية للخطر فصلوا من وظائفهم ، وفي هذه الحال ينحدرون ان لم يكونوا قد ادخروا قرشهم الابيض ليومهم الاسود – الى البروليتاريا فيهلكون او يصبحون مهيجين عمالين • ولا تنسوا ان الصحافة ، ومثير الوعظ ، والجامعة ، هي التي تقولب الرأي العام وتحدد اتجاه الامة الفكري • اما أهل الفن فليس لهم من عمل غير تسهيل سبل اللذة والرنذلة امام البلوتوقراطية وامام اذواقها الخسيسة •

« ولكن الثروة ، على أية حال ، ليست في ذات نفسها السلطان الحقيقي ، انها الوسيلة الى السلطان ، والسلطان حكومي • من الذي يهيمن على

٦٤ ستاندرد اويل وروكفلر – راجع الهامش رقم ٥٦ •

الحكومة اليوم ؟ البروليتاريا بملايينها العشرين الناهضين بمختلف ضروب الحرف ؟ حتى انتم تسخرون من هذه الفكرة . اهي الطبقة الوسطى بملايينها الثمانية المنصرفين الى اعمالهم ؟ انها لا تهيمن على الحكومة اكثر مما تهيمن البروليتاريا . وان فمن الذي يهيمن على الحكومة ؟ البلوتوقراطية باعضائها القلائل البالغ عددهم ربع مليون ليس غير . ولكن ربع المليون هؤلاء لا يهيمنون على الحكومة ، برغم انهم يسدون اليها خدمة جليلة . ان دماغ البلوتوقراطية هو الذي يهيمن على الحكومة ، وهذا الدماغ يتألف من سبع ٦٥ مجموعات صغيرة وقوية من الرجال . ولا تنسوا ان هذه المجموعات انما تعمل اليوم ، عمليا ، في تعاون وائتلاف .

«دعوني احدثكم عن قوة واحدة من هذه المجموعات ليس غير : مجموعة السكك الحديدية . انها تستخدم اربعين الف محام لتهزم الشعب في المحاكم . انها تصدر آلافا لا تحصى من الجوازات المجانية لقضاة ، ورجال المصارف ، ورؤساء تحرير الصحف ، والقسس ، واساتذة الجامعات ، واعضاء مجالس الولايات التشريعية ، واعضاء الكونغرس . وهي تنشئ ردهات الاستقبال ٦٦ المترفة في عواصم الولايات كلها ، وفي العاصمة الاتحادية .

٦٥ حتى في عام ١٩٠٧ كان الناس يعتبرون ان احدى عشرة مجموعة كانت تسيطر على البلاد ، ولكن هذا الرقم خفض باتحاد مجموعات السكة الحديدية الخمس في تجمع تضامني ضخم ينظم جميع السكك الحديدية . وهذه المجموعات الخمس المتحدة على هذا النحو ، مضافا اليها حلفاؤها المليون والسياسيون ، كانت التالية : (١) مجموعة جايمس جي هيل المسيطرة على السكك الحديدية في الشمال الغربي . (٢) مجموعة سكة حديد بنسلفانيا ، ومديرها المالي « شيف » ، ومعها مؤسسات مصرفية ضخمة عاملة في فيلادلفيا ونيويورك . (٣) مجموعة هاريمان ، ومحاميها « فريك » ، وموجهها السياسي « اوديل » ، وهي تسيطر على خطوط المواصلات في شواطئ المحيط الهادئ الجنوبية الغربية . (٤) اسرة غولد وسكك حديدها الضخمة . (٥) مجموعة « مور » و « رايد » و « ليدز » المعروفة بـ « زمرة جزيرة روك » . وهذه الاوليغاركيات الخمس القوية نشأت نتيجة للمنافسة وما يتبعها من تصادم المصالح ، واجتازت الطريق الممتومة نحو التجمع .

٦٦ كانت ردهات الاستقبال في محطات السكة الحديدية مؤسسة غريبة لرشوة أعضاء المجالس التشريعية واربابهم وافسادهم ، اولئك الاعضاء الذين كان مفروضا فيهم ان يمثلوا مصالح الشعب ويدافعوا عنها .

وتستخدم في جميع حواضر البلاد ومدنها جيشا هائلا من المحامين المشاغبين ومن صغار السياسيين الذين كانت مهمتهم حضور اجتماعات الناخبين لاختيار المرشحين للانتخابات القادمة ، وانتخاب المندوبين والممثلين ، والاتصال بالحلفين القضائيين ، ورشوة القضاة ، والعمل بكل طريقة لخدمة مصالح هذه المجموعة ٦٧

« ايها السادة ، لقد اجتزأت بمجرد رسم الخطوط الكبرى لقوة واحدة من المجموعات السبع التي تؤلف دماغ البلوتوقراطية ٦٨ . ان ثروتكم البالغة

٦٧ قبل خطاب ايفرهارد هذا بعشر سنين أصدر « مجلس تجارة نيويورك » تقريرا تقتطف منه الفقرة التالية : « ان السكك الحديدية تسيطر كلية على المجالس التشريعية في معظم ولايات الاتحاد . انهم ينصبون ويعزلون شيوخ الولايات المتحدة ونوابها وحكام ولاياتها ، وفي الامكان اعتبارهم دكتاتوريي السياسة الحكومية في الولايات المتحدة . »

٦٨ لقد استهل روكفلر حياته عضوا في البروليتاريا ، ومن طريق المكر والاقتصاد في النفقة وفق الى انشاء أول تروست كاملة ، اعني تلك المعروفة بستاندرد أول . ولست أجد معدى ، ههنا ، عن تقديم هذه الصفحة العجيبة من تاريخ ذلك العصر لاطهر كيف استطاعت الحاجة الى اعادة توظيف فائض اموال ستاندرد أول ان تسحق جمهرة من الرأسماليين الصغار ، وكيف عجلت في انهيار النظام الرأسمالي . فقد كان دافيد غراهام فيليبس كاتباً راديكالياً من كتاب ذلك العصر ، وكان قد نشر في صحيفة « ساتارداي ايفنغ بوست » ، بعددها الصادر في ٤ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٠٢ للميلاد مقالا تقتطف منه المقاطع التالية . والواقع انه لم تصلنا غير هذه النسخة الفريدة من تلك الصحيفة ومع ذلك فليس في ميسورنا الا ان نستنتج ، من مظهرها ومحتواها ، انها كانت احدى الدوريات الشعبية ذات الانتشار الواسع . واليك المقاطع المختارة من المقال : « منذ عشر سنوات تقريبا قدر أحد الثقات المرموقين دخل روكفلر بثلاثين مليون دولار . كان قد بلغ أقصى حد من حدود التوظيف الرابع للارباح فسي صناعة النفط وكانت مبالغ ضخمة من المال تتدفق على جون دافيسون روكفلر وحده - أكثر من مليوني دولار كل شهر . وهكذا ازدادت معضلة اعادة توظيف الاموال حدة . لقد أصبحت كابوسا . كان دخل النفط يتضخم ، ويتضخم ، وكان عدد المشروعات التي لا يخشى توظيف الاموال فيها محدودا ، بل لقد كان محدودا أكثر منه اليوم . ومن ثم شرع آل روكفلر يثبون من صناعة النفط الى

اربعة وعشرين مليار دولار لا تمنحكم ما يساوي خمسة وعشرين سنتا من السلطان الحكومي . انها صدفة جوفاء سوف تنتزع منكم وشيكا . ان البلوتوقراطية لتنعم اليوم بالسلطة كلها . انها اليوم تسن القوانين ، لانها تملك مجلس الشيوخ ، والكونغرس ، والمحاكم ، ومجالس

صناعات أخرى من غير ان تحفزهم الى ذلك شهوة خاصة الى ارباح اضافية . لقد اكرهوا على ذلك تجرفهم موجة الثروة العارمة التي جذبها اليهم مغناطيس احتكارهم جذبا لا يقاوم . فانشأوا حياة خاصة لاستطلاع افضل السبل لتوظيف أموالهم الفائضة ، ويقال ان الراتب الذي يتقاضاه رئيس هذه الهيئة يبلغ مئة وخمسة وعشرين الف دولار في العام .

« وشن آل روكفلر أول غارة واضحة من غاراتهم على حقل السكة الحديدية ، فلم تطل سنة ١٨٩٥ حتى كانوا قد سيطروا على خمس أطوال السكة الحديدية كلها في الولايات المتحدة . فما الذي يملكونه أو يسيطرون عليه اليوم ؟ انهم زور سلطان عظيم في جميع السكك الحديدية الكبرى في نيويورك ، الشمالية والشرقية والغربية ، ما عدا واحدة حيث تبلغ حصتهم بضعة ملايين ليس غير . وهم يملكون اسهما كثيرة في معظم السكك المتشعبة من تشيكاغو . ليس هذا فحسب ، بل انهم يسيطرون على عدد من الخطوط الممتدة الى المحيط الهادي . ان اصواتهم هي التي تجعل مستر مورغان على مثل هذه القوة والسلطان في الوقت الحاضر على الرغم من ان في امكاننا ان نضيف انهم احوج الى دماغه منه الى اصواتهم ، وتضامن الاثنين يؤلف « وحدة المصالح » على نطاق واسع .

« ولكن السكك الحديدية لم تكن بقيادة وحدها على ان تمتص سيول ذهبهم العارمة . وسرعان ما تصاعد دخل جون د . روكفلر من مليوني دولار ونصف مليون في الشهر الى اربعة ملايين ثم الى خمسة ملايين ثم الى ستة ملايين فسي الشهر ، ثم الى خمسة وسبعين مليونا في العام . كان نفط الاضاءة قد أصبح كله ربحا . وكانت اعادة توظيف الدخل تضيف الى ثروة روكفلر ثمراتها المتواضعة المؤلفة من عدة ملايين دولار سنويا .

« وانتقل آل روكفلر الى غاز الاستصباح والكهرباء عندما نمت هاتين الصناعتان فبلغتا مرحلة التوظيف الآمن . واليوم يحتم على جزء كبير من الشعب الاميركي ان يشرع في مضاعفة ثروة آل روكفلر كلما جنحت الشمس للغروب ، مهما كانت وسيلة الاضاءة التي يصطنعونها . كذلك انطلقوا الى ميدان رهن المزارع . ويقال انه حين ادى الازدهار الذي عرفته البلاد منذ بضع

الولايات التشريعية • ليس هذا فحسب • اذ يجب ان تكون وزارة القانون قوة يلجأ اليها في تنفيذ القانون • واليوم تسن البلوتوقراطية القانون وهي تعتمد في انفاذه على الشرطة ، والجيش ، والاسطول ، وأخيرا على الميليشيا التي هي انتم ، وأنا ، وكل واحد منا : »
ولم يثر بعد ذلك غير جدل قليل ، وسرعان ما انفرط عقد المدعوين الى المائدة • كانوا كلهم هادئين مغلوبا على أمرهم ، ولقد ودع القوم بعضهم بعضا في اصوات خفيفة • لقد بدا وكأنهم كانوا مروعين ، او يكادون ، برؤيا

سنوات الى تمكين المزارعين من تحرير مزارعهم المرهونة طفرت الدمعة من عين جون • د • روكفلر • ذلك بأن الثمانية ملايين دولار التي اعتقد انه عني بها طوال سنوات لكي تعود عليه بمقدار من الربا ضخم ما لبثت ان طرحت فجأة على عتبة بابيه ، وهناك انشأت تصيح مطالبة بمشوى جديد • وهذه الزيادة غير المتوقعة في موميه ، هموم البحث عن مواطن يؤوي فيها ذرية نطفه وذرية هذه الذرية وذرية ذرية الذرية ، كانت أكثر من ان تحتملها رباطة جأش رجل من غير هضم ...

» ومضى آل روكفلر الى المناجم - مناجم الحديد والفحم الحجري والنحاس والرصاص - الى شركات صناعية أخرى ، الى خطوط الاوتوبوسات ، الى السندات الوطنية وسندات الولايات والبلديات ، الى البواخر والزوارق البخارية وشركات البرق ، الى العقارات وناطحات السحاب والقصور والفنادق وعمارات المنطقة التجارية ، الى شركات التأمين على الحياة ، الى المصارف والبنوك • وما هي الا فترة قصيرة حتى لم يبق اياما حقل من حقول الصناعة خلوا من ملايينهم ...

» وبنك روكفلر - ذي ناشيونال سيتي بنك - هو في ذات نفسه اكبر المصارف في الولايات المتحدة ، وليس يبرزه في العالم كله ايما مصرف آخر غير بنك انكلترة وبنك فرنسا • ان متوسط الودائع فيه يزيد على مئة مليون دولار في اليوم الواحد ، وهو يهيمن على سوق القروض في وول ستريت وعلى سوق الاسهم • ولكنه ليس وحيدا • انه رأس سلسلة من بنك آل روكفلر تنتظم اربعة عشر بنكا وتروستا في مدينة نيويورك ، ومصارف ذات قوة ونفوذ بالغين في جميع المراكز المالية في البلاد •

ان جون د • روكفلر يملك من أسهم ستاندرد أويل ما تتراوح قيمته ، حسب اسعار السوق المالية ، بين اربعمئة مليون دولار وخمسمئة مليون دولار • وهو

العصور التي تجلت لهم .
وقال مستر كالفين موجهها الخطاب الى ارنست :
- « الوضع خطير حقا . وليس لي غير اعتراض طفيف على الطريقة
التي اصطنعتها في تصويره . بيد أنني لا اقر رأيك في مصير الطبقة الوسطى .
اننا لن نهلك ، ولسوف نقهر التروستات ونقضي عليها » .
فاكمل ارنست بلسانه :
- « وتعودون الى طرائق آبائكم وأجدادكم » .
فأجابه مستر كالفين في كآبة :
- « اجل ، وسنعود الى طرائق آبائنا وأجدادنا . انا ادري ان ذلك
ضرب من تدمير الآلات ، وانه سخف من السخف . ولكن الحياة تبدو سخيفة
اليوم ، بسبب من مكائد البلوتوقراطية . وعلى أية حال فإن صفتنا كدمري
آلات هي على الاقل ممكنة وعملية ، في حين ان حلمك ليس بالممكن ولا بالعمل
ان حلمك الاشتراكي هو . . . حسنا . انه مجرد حلم . نحن لا نستطيع ان
نتبعك » .
وقال ارنست ، في شيء من كآبة ، وهو يضافحه مودعا :
- « حبذا لو كنتم تعرفون شيئا عن التطور وعن علم الاجتماع ، اذن
لوفرنا على أنفسنا هذا العناء كله » .

يملك ما قيمته مئة مليون دولار في تروست الفولاذ ، ومثل ذلك تقريبا في مصلحة
مفردة من مصالح السكة الحديدية الغربية ، ونصف هذا المقدار في مصلحة
أخرى مماثلة ، وهكذا وهكذا وهكذا حتى يكل العقل من الاحصاء والتعداد .
ولقد كان دخله في العام الماضي نحو من مئة مليون دولار . . . ولعل الدخول
التي ينعم بها آل روتشيلد مجتمعين لا تبلغ هذا الرقم وانه لرقم يتصاعد في
سرعة خاطفة » .

الفصل العاشر

الردود *

وبعد مادية رجال الاعمال تعاقبت الاحداث ، مثل هزيم الرعد ، اثر الاحداث ، وكلها خطير الى حد مروع . واذا بي أنا ، أجل انا التي عشت طوال ايامي السالفة حياة وادعة جدا ، في المدينة الجامعية الهادئة ، أجد نفسي وشؤوني الشخصية منجذبة نحو درود الشؤون العالمية الهائل . ولست ادري ما الذي جعلني ثورية : حبي لارنست أم منحه اياي نظرة جلية الى المجتمع الذي كنت احيا فيه ؟ ولكن الذي ادريه هو انني ثورية أصبحت ، وانني قد بقي بي في دوامة من الاحداث كان خليقا بها ان تكون مستعصية على التصور قبل ثلاثة اشهر ليس غير .

وتواققت الازمة التي ألت بمصائري مع أزمات ضخام المت بالمجتمع . لقد طرد ابي ، قبل كل شيء ، من الجامعة . اوه ، انه لم يطرد بمعنى تقني technically لقد طلب اليه ان يستقيل ، ذلك كان كل شيء . وهذا في ذات نفسه ، لم يكن أمرا ذا بال . والواقع ان ابي تلقاه في ابتهاج . وكان الذي ابهجه ، اكثر من أي شيء اخر ، ان نشر كتابه « علم الاقتصاد والتربية » قد عجل في طرده من الجامعة . لقد ذهب الى القول ان ذلك يثبت وجهة نظره . وهل في ميسور المرء ان يقدم بيئة خيرا من هذه البيئة على ان الطبقة الرأسمالية تسيطر على التربية ومعاهدها ؟ ولكن هذا البرهان لم يقدر له قط ان يؤدي ثمرة ما . ان احدا لم يعرف

* الردود موضع في البحر يجيش ماؤه فيخشى فيه الغرق .

ان ابي قد حمل على الاستقالة من الجامعة حملا . فقد كان عالما بارزا الى درجة جعلت اعلان نبأ كهذا - مردفا بالسبب الذي من اجله اكره على الاستقالة - شيئا خطيرا خليقا به ان يحدث هياجا في ارجاء العالم كله . وامطرته الصحف بوابل من الاطراء والتمجيد ، واثنت عليه لاطراحه عناء حجرة المحاضرات وبلاءها لكي يقف وقته كله على البحث العلمي .

لقد ضحك ابي باديء الامر . ثم استبد به الغضب - الغضب القوي . وبعد ذلك كانت عملية « اخماد » كتابه وخنقه في المهد . وانما تمت هذه العملية في الخفاء ، في الخفاء الى درجة عجزنا معها ، في اول الامر ، عن الفهم . كان نشر الكتاب قد احدث ، مباشرة ، بعض الضجة في البلاد . فحملت الصحافة الرأسمالية على ابي حملة مهذبة ، مفادها ان مما يدعو الى الرثاء ان يعمد عالم يتمتع بمثل هذه العظمة الى هجرة حقل اختصاصه ليغزو دنيا علم الاجتماع التي لا يعرف عنها شيئا ، والتي لم يلبث ان تاه في مجاهلها . واستمرت هذه الحملة اسبوعا كان ابي خلاله يضحك قسي فتور ويقول ان الكتاب قد مس في جسم الرأسمالية قرحا موجعا . وفجأة كفت الصحف اليومية والمجلات النقدية عن الاشارة الى الكتاب مجرد اشارة . وفي فجائية ماثلة ، اختفى الكتاب - ايضا - من الاسواق . لقد اصبح من المتعذر على المرء ان يقع في المكتبات على نسخة واحدة . فكتب ابي الى الناشر في ذلك ، فأجيب بأن صفائح الكتاب المعدنية قد تلفت على غير قصد . وتبعث ذلك مراسلة غير مرضية ولا مقنعة : حتى اذا حمل الناشر ، اخر الامر ، على اتخاذ موقف صريح اعلن أنه لا يجد سبيلا الى اعادة تنضيد احرف الكتاب ، وانه على اتم استعداد للتخلي عن حقوقه فيه .

فقال ارنست :

« ولن تجد أي دار نشر اخرى في البلاد كلها تجرؤ على مسه . ولو قد كنت مكانك اذن للجأت منذ الان الى البحث عن وفاء . ان ما نقتنه حتى هذه اللحظة لا يعدو ان يكون طعم العقب الحديدية الاول » .

ولكن ابي لم يكن شيئا ان لم يكن عالما . انه لم يؤمن قط بسرعة الوثوب الى الاستنتاجات . والتجربة المخبرية لم تكن عنده تجربة مخبرية ان لم تجر بكامل تفاصيلها . وهكذا طرق ، في كثير من الاضطبار ، ابواب دور النشر كلها ، فقدمت جمهرة من المعاذير ، ولكن أيا منها لم يبد رغبة في نشر الكتاب .

وحين اقتنع والدي بأن الكتاب قد « خنق » عمليا حاول ان ينشر هذه

الواقعة على صفحات الجرائد . ولكن رسائله القيت في سلة المهملات . وفي اجتماع سياسي عقده الاشتراكيون وشهده عدد كثير من المراسلين وجد ابي الفرصة التي كان ينتظرها . لقد وقف في القوم وروى حكاية خنق الكتاب . ولقد ضحك في اليوم التالي عندما طالع الصحف ، ثم استبد به الغضب الى درجة قضت على جميع الخصائص المقوية . ان الصحف لم تشر الى الكتاب قط ، ولكنها روت ما قاله أمس على نحو مشوه . لقد حرفت كلماته وعباراته عن مواضعها وقرائنها وأحالت ملاحظاته المكبوتة الموزونة السي خطاب فوضوي نابح . ولقد فعلت ذلك في براعة وفن . وانا لا ازال اذكر مثلاً بعينه على نحو مخصوص . فقد اصطنع ابي عبارة « الثورة الاجتماعية » فما كان من المراسل الا ان اكتفى باسقاط لفظة « الاجتماعية » ليس غير ، وطير ذلك الى كل بقعة من بقاع البلاد في برقية من برقيات « الاسوسييتد بريس » . ومن جميع اطراف البلاد انبعثت صيحة ذعر . لقد وسم ابي بميسم الفوضوية والنهلسيتية (العدمية) وفي احدى الصور الكاريكاتورية التي تناقلتها الصحف على نطاق واسع اظهر ابي حاملاً راية حمراء على رأس جمهرة من الرعاع ذات شعور طويلة وأعين تتميز بالغيب الضاري ، جمهرة من الرعاع تحمل في ايديها مشاعل ، وسكاكين ، وقنابل ديناميكية .

لقد هاجمته الصحف ، لفوضويته ، هجوماً رهيباً في مقالات رئيسية طويلة محشوة بالقذح والذم ، واخذت تلمع الى انه اصيب بانهايار عقلي . وقال لنا ارنست ان سلوك الصحافة الرأسمالية هذا لم يكن شيئاً جديداً البتة . فقد كانت العادة تقضي ، كما قال ، بتوجيه المراسلين الى الاجتماعات الاشتراكية كلها لمجرد تحريف ما يقال فيها وروايته رواية مشوهة ، ابتغاء ترويع الطبقة الوسطى والقضاء على كل امكانية من امكانيات اندماجها في البروليتاريا . وحذر ارنست والذي تحذيراً موصولاً ، سائلاً اياه ان يكف عن القتال ويتوارى عن الانظار .

وعلى أية حال فقد واصلت الصحافة الاشتراكية القتال ، فأصبح معروفاً في القطاع العمالي القاريء أن الكتاب قد « خنق » . ولكن هذه المعرفة وقفت عند تخوم الطبقة العاملة . ثم ان دار « الاحتكام الى العقل » ، وهي دار نشر اشتراكية كبيرة ، اتفقت مع ابي على اصدار الكتاب . وابتهج ابي ابتهاجاً غامراً ، أما ارنست فقد عصفت به ذعر شديد ، وأصر على القول :

« أقول لك اننا نقف على شفا المجهول . ان اشياء ضخمة لتقع في السر حولنا وحوالينا . في استطاعتنا ان نشعر بها . نحن لا نعرف ما هي ،

ولكنها هناك على أية حال . وان كيان المجتمع كله ليرتعد بسبب منها . لا تسألني . انا نفسي لا ادري . ولكن لا بد ان يتبلور ، من هذا التطور الاجتماعي الموصول ، شيء ما . انه ليتبلور الان . و « خنق » كتابك ليس الا عاملا معجلا في هذا التبلور . ما عدد الكتب التي « خنقت » حتى الان ؟ ليس لدينا أقل فكرة عن ذلك . نحن نحيا في الظلام . ولا سبيل امامنا الى المعرفة . ترقب الخطوة التالية : « خنق » الصحف الاشتراكية ودور النشر الاشتراكية ، ويؤسفني ان تكون عملية « الخنق » هذه على وشك الحدوث . اننا سوف نخنق . »

كان ارنست قد جس نبض الاحداث على نحو اكثر احكاما حتى من سائر الاشتراكيين ، فما هما غير يومين اثنين حتى سددت الضربة الاولى : كانت مجلة « الاحتكام الى العقل » دورية اسبوعية ، وكان متوسط تداولها في اوساط البروليتاريا سبعمئة وخمسين الف نسخة . ليس هذا فحسب ، بل كانت كثيرا ما تصدر طبعات خاصة تتراوح نسخ العدد الواحد منها ما بين مليوني نسخة وخمسة ملايين نسخة . وهذه الطبوعات الضخمة انما كان ينهض بنفقاتها ويقوم بتوزيعها جيش العمال المتطوعين الصغير الذي كان قد انضوى تحت لواء « الاحتكام » . فاذا بالضربة الاولى تسدد الى هذه الطبوعات الخاصة ، ولقد كانت ضربة ماحقة حقا . ولكن كيف ؟ لقد أصدرت ادارة البريد قرارا تعسفيا انكرت فيه ان تكون هذه الطبعات جزءا لا يتجزأ من سيرورة « الاحتكام » النظامية ، ومن اجل ذلك امتنعت عن توزيعها .

وبعد اسبوع اصدرت ادارة البريد قرارا اعتبرت فيه هذه المجلة مشاغبة مثيرة للفتنة ، ورفضت قبولها بالكلية . وكانت هذه ضربة رهيبة للدعاية الاشتراكية . واستماتت مجلة « الاحتكام » ، ووضعت خطة للوصول الى مشتركينها من طريق شركات الاكسبريس ، ولكن هذه الشركات ابتت ان تنقلها . وكان في ذلك نهاية « الاحتكام » . ولكن ليس نهايتها الاخيرة . فقد اعدت العدة لمواصلة نشر الكتب . كانت عشرون الف نسخة من كتاب ابي رهن التجليد ، وكانت دواليب الالة الطابعة تطلع مقادير اضافية . وفجأة ، ومن غير ما انذار ، اندفعت جماعة من الغوغاء ، ذات ليلة ، حاملة راية اميركية مصففة ، ومنشدة بعض الاناشيد الوطنية ، واضرمت النار في مؤسسة « الاحتكام » الكبيرة ، فالتهمتها التهاما .

وكانت جيرارد ، من اعمال ولاية كانساس ، مدينة هادئة آمنة . ان ايما اضطرابات عمالية لم تنشب هنا . فقد كانت « الاحتكام » تدفع الى

مستخدميها أجورهم وفقا للقواعد التي أقرها اتحاد العمال • وكانت في الواقع عمود المدينة الفقري ، متيحة فرص العمل لمئات من الرجال والنساء • ولم يكن أبناء جيرارد هم الذين شكلوا الجماعة الغوغائية التي اضمرت النار في المؤسسة • لا ، لقد نبعت هذه الجماعة ، في ما يبدو ، من باطن الارض ، حتى اذا انجزت مهمتها ارتدت الى باطن الارض من جديد • ولقد وجد ارنست في هذه المسألة معنى ليس أكلح منه ولا أشأم •

قسال :

« ان المئات السود ٦٩ لتنظم اليوم في الولايات المتحدة • وليست هذه الا بداية • ولسوف نشهد من مثلها شيئا كثيرا • ان العقب الحديدية قد بدأت تشرب حليب السباع • »

وهكذا هلك كتاب ابي • ولقد قدر لنا ان نرى كثيرا من جماعة « المئات السود » في الايام التي تلت • واسبوعا بعد اسبوع كانت ادارة البريد تمنع توزيع مزيد من الصحف الاشتراكية ، وفي مناسبات عدة حطمت جماعة « المئات السود » المطابع الاشتراكية • ولا حاجة الى القول ان صحف المنطقة التزمت السيادة الرجعية التي انتهجتها الطبقة الحاكمة ، فاذابها تشهر بالصحف الاشتراكية المعتدى عليها وتصور قضيتها تصويرا مثوها ، على حين جعلت من « المئات السود » وطنيين حقيقيين ومنقذين للمجتمع • وكان هذا التصوير المشوه كله مقنعا الى درجة حدث حتى ببعض القسس المخلصين الى امتداح « المئات السود » من على منابر الكنائس معلنين اسفهم في الوقت نفسه ، لهذا الظرف القاهر الذي جعل اللجوء الى العنف ضرورة من الضرورات •

وكان التاريخ يسرع الخطى ، وكانت انتخابات الخريف على الابواب • ورشح الحزب الاشتراكي ارنست لعضوية الكونغرس • وكان الظرف مؤاتيا اكثر ما تكون المواتاة لنجاحه • ذلك بأن اضراب الاوتوبوسات في سان فرانسيسكو كان قد سحق • وبعد هذا بقليل سحق اضراب سائقي العربات أيضا • وكانت هاتان الهزيمتان قاصمتين لظهور الحركة العمالية المنظمة • فقد أيد اتحاد عمال المرافئ ، مع جميع حلفائه في صناعات البناء ،

٦٩ كانت المئات السود Black Hundreds جماعات غوغائية رجعية نظمتها الاوتوقراطية المحتضرة خلال الثورة الروسية • وكانت هذه الجماعات الرجعية تهاجم جماعات الثوار وتفسد في الارض عند الحاجة ، وتتلغ ممتلكات المواطنين لكي تزود الاوتوقراطية بذريعة تتوسل بها للاستنجا بالوقواق •

اضراب سائقي العربات ، فسحق على نحو منكر • كان اضرابا داميا • وكان رجال الشرطة قد كسروا ، بهراواتهم الخاصة لمنع الاضطرابات ، رؤوسا لا تعد ولا تحصى ، وكانت لائحة القتلى قد تضخمت بفتح نيران احد الرشاشات على المضربين من أهراء شركة « مارسدين سبيشال ديليفري » •

وران على وجوه الرجال تجهيم ، ونطقت بالشهوة الى الانتقام • لقد التمسوا الدم ، والثأر • انهم وقد قهروا في ميدانهم المختار كانوا على أتم الاستعداد لطلب الثأر عن طريق العمل السياسي • كانوا لا يزالون محتفظين بتنظيمهم العمالي ، وهذا ما منحهم قوة في الصراع السياسي الدائر • وتعاضم حظ ارنست في النجاح اكثر فاكثر • ويوما بعد يوم راحت الاتحادات تعلن تأييدها للاشتراكيين حتى لقد ضحك ارنست نفسه عندما انحاز مساعدو متعهدي الجنائز وملتقطو الدجاج الى صفهم • لقد اصبح العمال شرسين شكسين • كانوا يتوافدون على الاجتماعات الاشتراكية في حماسة مسعورة ، وكانوا يصمون آذانهم دون خدع سياسيي الاحزاب العتيقة • وكان خطباء هذه الاحزاب العتيقة يستقبلون عادة بقاعات فارغة ، ولكنهم كانوا في احيان نادرة يجدون في انتظارهم حشودا تملأ هذه القاعات ، حشودا كان من دأبها ان تفسد عليهم جو الاجتماع فيضطرون الى الاستنجاذ برجال الشرطة •

كان التاريخ يسرع الخطى • كان الجو يتذبذب بأشياء بعضها حدث وبعضها على وشك ان يحدث • وكانت البلاد على شفا فترة عصيبة ٧٠ ناشئة عن سلسلة من سنوات الازدهار التي ازداد فيها التخلص من الفائض غير المستهلك ، عن طريق تصديره الى خارج الحدود ، عسرا في عسر • كانت الصناعات قد اختصرت ساعات العمل • وكان عدد كبير من المصانع يتوقف عن العمل ريثما يصرف الفائض • وخفضت الاجور ذات اليمين وذات الشمال •

ليس هذا فحسب ، بل لقد سحق اضراب الميكانيكيين العظيم ايضا • وهكذا هام مئتا الف ميكانيكي ، مع نصف مليون من حلفائهم عمال صناعات الاشغال المعدنية ، في اضراب دموي لم تمن الولايات المتحدة بأقصى منه ولا أمعن في التخريب • كانت معارك مستميتة تخاض ضد جيوش صغيرة من مفسدي

٧٠ في ظل النظام الرأسمالي كانت فترات الازمة هذه محترمة بقدر ما كانت سخيفة • كان الازدهار يعود على البلاد ، دائما ، بالنكبات والازراء • وكان مرد ذلك ، طبعا ، الى وفرة الارباح غير المستهلكة التي كانت تكس تكديسا •

الاضرابات ٧١ انزلتها منظمات اصحاب المصانع الى الميدان . وكانت جماعات « الثأت السود » ، وقد ظهرت في عشرات من المواطن المتناثرة ، قد اغارت على الممتلكات الخاصة فكان من نتيجة ذلك ان دعيت قوة مؤلفة من مئة الف جندي نظامي أميركي لوضع حد رهيب للمسألة كلها . وكان عدد من الزعماء العمال قد اعدم ، وصدرت احكام بالسجن على عدد كبير اخر من اولئك الزعماء ، على حين حشر الاف من العمال المضربين في زرائب الشيران ٧٢ حيث اساء الجنود معاملتهم على نحو مقيت .

كان لا بد ، الان ، من دفع ثمن سنوات الازدهار . كانت الاسواق كلها متخمة ، وكانت الاسواق كلها تعاني هبوطا في الاسعار . وفي زحمة انهيار الاسعار العام كان انهيار سعر العمل اسرعها جميعا . وكانت البلاد تتشنج بنزاعات صناعية . كان العمال يضربون هنا ، وهناك ، وفي كل مكان . وحيث احجم العمال عن الاضراب عمد الرأسماليون الى طردهم . وغصت الصحف بقصص العنف والدم . ولعبت جماعات « الثأت السود » دورها في تلك الاحداث كلها . كان الشغب والاحراق المتعمد ، واتلاف الممتلكات على

٧١ مفسدو الاضرابات **Strike-breakers** : كان هؤلاء ، اذا اعتبرنا الهدف والممارسة وكل شيء ما خلا الاسم ، هم جند الرأسماليين الخاص . كانوا منظمين تنظيما دقيقا ومسلحين تسليحا حسنا ، وكانوا ابدا على اتم الاهية للانتقال بقطر حديدية خاصة الى ايما جزء من اجزاء البلاد اضرب فيه العمال او اغلق الراسماليون ابواب مصانعهم في وجوههم . وتلك العهود الغريبة كان في امكانها ، وحدها ، ان تساعد على خلق هذا المشهد المذهل الذي نرى فيه « فارلي » Farley وهو ذائع الصيت من قادة مفسدي الاضرابات ، يطوف في الولايات المتحدة ، عام ١٩٠٦ ، على متن قطر حديدية خاصة ، من نيويورك في الشرق الى سان فرانسيسكو في الغرب على راس جيش مؤلف من الفين وخمسمئة رجل كاملي البعدة والسلاح لقمع اضراب سائقي السيارات في سان فرانسيسكو . ومثل هذا العمل كان خرقا فاضحا لقوانين البلاد . ولكن حدوث هذا الفعل وآلاف من الافعال المشابهة ، من غير ان يلقي المسؤولين عنها عقابا ما ، يظهر للقارئ الى أي حد كان القضاء في تلك الايام صنيعا من صنائع البلوتوقراطية .

٧٢ يوم اضرب عمال المناجم في ايداها ، في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر ، شاعت المصادفة ان يجلس الجنود عددا كبيرا من المضربين في زريبة ثيران . ثم ان ذلك الصنيع ظل ، هو واسمه ، مألوقا خلال القرن العشرين .

نحو لا يرحم ، هي المهمة التي انيطت بها ، ولقد ادت مهمتها هذه فأحسن تاداءها • وكان الجيش النظامي كله في الساحة ، بعد ان قضت اعمال « المئات السود » ٧٣ بنزوله اليها • وكانت جميع المدن اشبه شيء بالمعسكرات الحربية وكان الرصاص يطلق على العمال فيصرون كالكلاب • ومن جيوش العاطلين عن العمل عزز مفسدو الاضرابات بعناصر جديدة • حتى اذا هزت اتحادات العمال منفذي الاضرابات تحركت القوات النظامية فسحقت تلك الاتحادات • وكانت ثمة ، الى ذلك ، قوات الميليشيا • وحتى تلك اللحظة كانت الحاجة لما تنشأ بعد الى الافادة من قانون الميليشيا السري • ومن هنا انزلت الميليشيا النظامية ليس غير ، الى الساحة ، ولقد نزلت الى الساحة في كل مكان ، وفي فترة الارهاب هذه عززت الحكومة جيشها النظامي فأضافت اليه مئة ألف مجند جديد •

والمواقع ان العمال لم يمنوا قط من قبل بمثل هذه الهزيمة الكاملة • كان اقطاب الصناعة الكبار ، الاوليفاريون ، قد القوا للمرة الاولى بثقلهم كله في الشغرة التي كانت جمعيات الصناعيين المكافحين قد أحدثتها • وكانت هذه الجمعيات شائنا من شؤون الطبقة الوسطى ، عمليا • ولكنها انزلت الان بالحركة العمالية النظامية هزيمة رهيبية حاسمة بعد ان اكترتها على ذلك فترة الازمة العصبية وجمود الاسواق وكسادها ، وبعد ان ايدها اقطاب

٧٣ ان الاسم فقط ، لا الفكرة ، هو الذي اقتبس من روسيا • فقد كانت جماعات « المئات السود » امتدادا متطورا للعمال السريين العاملين في خدمة الرأسماليين ، ولقد اصطنعت أول ما اصطنعت في فضالات القرن التاسع عشر العمالية • هذه حقيقة لا تحتمل الجدل والمناقشة • ونحن انما نستند في ذلك الى مصدر موثوق الى ابعد الحدود هو كارول د • دوايت مفوض العمل في الولايات المتحدة ، فقد أعلن في كتابه الموسوم بـ « معارك العمل » *The Battles of Labour* انه « في بعض الاضرابات التاريخية الكبرى عمد اصحاب المصانع انفسهم الى التحريض على اعمال العنف » ، وان الصناعيين كثيرا ما كانوا يغرون العمال بالاضراب ابتغاء التخلص من فائض السلع المتراكمة لديهم ، وان عملاء الصناعيين لم يتورعوا عن احراق الشاحنات خلال اضرابات عمال السكك الحديدية اثناء لنار الاضراب والفوضى • ومن العمال السريين العاملين في خدمة الرأسماليين نشأت جماعات « المئات السود » فاذا بهذه الجماعات تصبح ، بدورها ، في ما بعد ، سلاح الاوليفارية الرهيب اعني « العمال - المحرضين » •

الصناعة الكبار . لقد كان ذلك تحالفا بالغ القوة ، ولكنه كان تحالف الاسد والحمل ، كما ادركت الطبقة الوسطى بعد ذلك بقليل .

وكانت الحركة العمالية متجهمة الوجه مضرجة بالدماء ، ولكنها مسحوقة . ومع ذلك فان هزيمتها لم تضع حدا لعهد الازمة العصيب . فقد واصلت المصارف ، وهي تشكل في ذات نفسها قوة هامة من قوى الاوليفاركية، مطالبة عملائها بتغطية حساباتهم المدينة . وحولت عصابة وول ستريت ٧٤ سوق الاسهم الى دوامة تنفتت فيها قيم البلاد كلها حتى لتكاد تصبح لا شيء . ومن خلال الدمار والخراب نشأت الاوليفاركية الجديدة رابطة الجأش ، لا مبالية ، واثقة من نفسها . كانت رصانتها وثقتها بنفسها مروعتين . وهي لم تكف باصطناع قوتها الهائلة فحسب ، ابتغاء تحقيق خططها ، بل اصطنعت الى ذلك قوة خزانة الولايات المتحدة بكاملها .

وكان اقطاب الصناعة قد ارتدوا الآن على الطبقة الوسطى . فاذا بجمعيات الصناعيين التي ساعدت اقطاب الصناعة على تمزيق الحركة العمالية تجد نفسها الآن وقد مزقتها حلفاؤها السابقون . وخلال سحق رجال الطبقة الوسطى ورجال الاعمال والصناعة الصغار صمدت التروستات . لا ، لقد فعلت التروستات شيئا اكثر من الصمود . لقد زرعت الريح اثر الريح اثر الريح . . . ذلك بانها كانت هي وحدها تعرف كيف تحصد العاصفة وتجنّي الارباح منها . واي ارباح ! ارباح عملاقة ! واذا كانت هي من القوة بحيث تستطيع ان تقاوم العاصفة التي كانت الى حد بعيد من صنع أيديهم ، فقد انطلقوا في اثر الحطام الطافي من حولهم ونهبوه . وانكششت القيم على نحو فاجع لا يكاد العقل يتصوره ، وضاعفت التروستات ثرواتها ووسعت رقعة مشاريعها لتشمل حقولا جديدة كثيرة . كل ذلك على حساب الطبقة الوسطى دائما .

وهكذا شهد صيف عام ١٩١٢ حملة الافناء الحقيقية ضد الطبقة الوسطى . وحتى ارنست اصابه الذهول للمسرعة التي شنت بها تلك الحملة . لقد هز برأسه على نحو متذر بالسوء ، وتطلع في غير ما امل الى انتخابات الخريف .

٧٤ Wall Street وقد دعي بذلك على اسم شارع في مدينة نيويورك القديمة ، حيث كانت سوق الوراق المالية ، وحيث كان تنظيم المجتمع غير العقلاني يجيز التلاعب باسعار اسهم الصناعات كلها ورفعها وخفضها على نحو كله خديعة واحتيال .

وقال :

« لا فائدة ترجى • لقد هزمنا • ان العقب الحديدية هناك • ولقد كنت رجوت أن نحز انتصارا سلميا امام صناديق الاقتراع • ولكني كنت مخطئا • على حين كان ويكسون مصيبا ، انهم سوف يسلبوننا ما تبقى لنا من حريات قليلة • وسوف تمشي العقب الحديدية على وجوهنا ، وليس ثمة من سبيل غير ثورة دامية تقوم بها الطبقة العمالية • اننا سوف ننتصر من غير ريب ، ولكني ارتعد لجرد التفكير في ذلك • »

ومنذ ذلك الحين اتكل ارنست ، في غير ما تحفظ ، على الثورة • وفي هذه النقطة كان سابقا حزيه متقدما عليه • فقد ابى رفاقه الاشتراكيون ان يقروه على ما ذهب اليه • كانوا لا يزالون يصرون على ان النصر يمكن ان ينتزع من طريق الانتخابات • وليس معنى هذا انهم فقدوا صوابهم • لا ، فقد كان لهم من رصانتهم وشجاعتهم ما يعصمهم من ذلك • ولكنهم كانوا غير مستعدين للتصديق - ليس اكثر ولا اقل • لقد عجز ارنست عن حملهم على الخوف ، جدبا ، من ظهور الاوليغاركية • لقد استثارته اقواله ، ولكنهم كانوا واثقين من قوتهم اكثر مما ينبغي ولم يكن في مفهومهم للتطور الاجتماعي متسع لايما اوليغاركية ، واذن فالاوليغاركية لا يمكن ان تكون • وقالوا له في احد اجتماعاتنا السرية :

« سوف نحملك الى كرسي الكونغرس وسوف يكون كل شيء حسنا • »

فاجابهم ارنست في برود :

« وحين يطردونني من الكونغرس ، ويحبطون مشروعاتي ، ويطلقون علي رصاصا تطير دماغي ••• ما الذي سوف يحدث بعد ذلك ؟ »
فاجابته دزينة اصوات في وقت معا :
« عندئذ نفزع الى السلاح • »

فكان جوابه :

« عندئذ تتمرغون في دمائكم • لقد سمعت تلك النغمة ترددها الطبقة الوسطى ، ولكن الى اين انتهى بها ، الان ، تهديدها باللاجوء الى السلاح ؟ »

الفصل الحادي عشر

المغامرة الكبرى

ان مستر ويكسون لم يطلب الى ابي ان يسعى للقاءه . لقد التقيا مصادفة على متن المعبر * القاصد الى سان فرانسيسكو ، مما يؤذن بأن التحذير الذي وجهه الى ابي لم يكن ثمرة تفكير سابق . ولو ان المصادفة لم تجمع ما بينهما اذن لما كان ثمة اي تحذير . ولكن هذا لا يعني ان النتيجة كان خليقا بها ان تكون مختلفة . فقد كان ابي من ذرية اولئك الرجال الاشداء الذين اقلتهم « زهرة ايار » ٧٥ (ماي فلور) ، وكان الدم يجري في عروقه عنيدا لا راد لارادته .

لقد قال لي بعيد عودته مباشرة :

— « ان ارنست كان مصيبا . ارنست فتى رائع الى ابعد الحدود ، واني لأوثر ان اراك زوجة له على ان اراك زوجة لروكفلر نفسه او الملك انكلترة » .

فسألته في ذعر :

* Ferry-boat زورق لقطع النهر من شاطئ الى آخر .
٧٥ May Flower احدى السفن الاولى التي حملت المهاجرين الانكليز الى اميركا.
بعد اكتشاف العالم الجديد . وكان المتحدرون من هؤلاء المستعمرين الاولين قد غالوا ، فترة من الزمان ، في الاعتزاز بانسابهم . ولكن دمهم ما لبث ان انتشر وتوزع على نحو واسع حتى لنستطيع القول انه أمسى يجري ، في عروق الاميركيين كلهم تقريبا .

– « ما المسألة ؟ »

– « ان الاوليفاركية توشك أن تدوس وجهينا – وجهك ووجهي • ذلك محصل ما قاله لي ويكسون • لقد اصطنع في حديثه معي لطفاً بالغاً ما كنت لانتظره منه بوصفه اوليفاركيا • لقد عرض علي أن يعيدني الى الجامعة • ما رايك في ذلك ؟ هو ، ويكسون ، مغتصب المال الخسيس ، يملك القوة على تقرير ما اذا كنت سأرجع الى التدريس في جامعة الولاية أم لا أرجع !! بل لقد عرض علي ما هو خير من هذا : عرض أن يسند الي رئاسة كلية ضخمة من كليات العلوم الطبيعية تعد العدة في هذه الايام لانشائها – ان الاوليفاركية يجب ان تتخلص من فائضها بطريقة ما ، أترين ؟

« لقد قال لي : » هل تذكر ما قلته لذلك الاشتراكي الذي يتعشق ابنتك ؟ لقد قلت له اننا نطمح الى المشي على وجوه الطبقة العمالية • وهذا ما سوف نفعله عما قريب • أما انت فاني أكن لك احتراما عميقاً بوصفك عالماً ، أما اذا ربطت مقدراتك بمقدرات العمال فعندئذ يتعين عليك أن تتحسس وجهك ، هذا كل ما هنالك • « قال ذلك ثم استدار وفارقني • »

وحين احطنا ارنست علماً بهذا الحديث كان جوابه :

– « هذا يعني ان علينا ان نقدم موعد الزواج • »

ولكنني سرعان ما اكتشفته • ففي ذلك الوقت بالذات دفعت أرباح أسهم مصانع سبيرا الفصلية – او على الاصح كان ينبغي أن تدفع ، لان ابي لم يتلق أرباحه • وانتظر ابي عدة أيام ، ثم كتب رسالة الى امين السر • وفي غير ما تأخير جاءه الجواب يقول بأنه ليس في سجلات الشركة ما يدل على ان أبي يملك شيئاً من أسهمها ، ويطلب اليه في كياسة ولطف ان يقدم معلومات أكثر وضوحاً •

وأعلن أبي :

– « سوف أوضح له ذلك ايضاحاً كافياً ! عليه اللعنة ! »

ومضى الى البنك لكي يأتي بالاسهم من صندوقه الحديدي الخاص •

وقال حين رجع وفيما كنت اساعده على خلع معطفه :

– « ارنست رجل رائع جداً • اكرر ، يا بنيتي ، ان فتاك ذاك شاب

رائع جداً • »

وكانت الايام قد علمتني أن اتوقع ، كلما امتدح ارنست على هذا

النحو ، كارثة من الكوارث •

وأوضح أبي قاتلا :

« لقد مشوا على وجهي وانتهوا • ليس ثمة أسهم • لقد وجدت الصندوق فارغا • سوف يتعين عليك وعلى ارنست ان تتزوجا على وجه السرعة • »

وأصر أبي على الاساليب المختبرة • لقد ساق مصانع سبيرا الى القضاء ، ولكنه عجز عن أن يسوق دفاتر مصانع سبيرا الى القضاء • ذلك بأنه لم تكن له سيطرة على الحاكم ، في حين كان لمصانع سبيرا سيطرة عليها • لقد فسر هذا كل شيء • وخذله القانون خذلانا مبيها ، ونفذ مفعول السرقة السافرة •

ان الطريقة التي خذل بها أبي لتثير الان ، حين ارجع اليها بالذاكرة ، ضحكي او تكاد • لقد التقى بويكسون ، مصادفة ، في شارع من شوارع سان فرانسيسكو فقال لويكسون انه وغد لعين • ثم ان أبي اعتقل بتهمة الشروع في الاعتداء ، وغرم في محكمة البوليس ، وأخذ عليه تعهد بأن يلزم الامن والهدوء وكان ذلك كله مضحكا الى حد جعل أبي نفسه ينفجر بالضحك عندما أطلق سراحه وانقلب الى البيت • ولكن أي هياج اثير في الصحف المحلية ! كان ثمة كلام جدي عن جرثوم العنف الذي أصاب جميع من اعتنق الاشتراكية ، واتخذت الصحف من أبي ، بحياته الطويلة الهادئة ، مثلا ساطعا على الطريقة التي يعمل بها ذلك الجرثوم • ليس هذا فحسب ، بل لقد اكدت اكثر من صحيفة واحدة ان عقل أبي قد وهى تحت وطأة الدراسة العلمية ، واقرحت ان يحجز في مستشفى من مستشفيات الولاية الخاصة بالامراض العقلية • ولم يكن ذلك مجرد كلام • لقد كان خطرا وشيك الوقوع • ولكن أبي كان من الحكمة بحيث بصر به • كان له في تجربة الاسقف عبرة • ولقد اعتبر بها حقا • لقد اعتصم بالسكينة ، أيا ما كان الظلم المنزل به ، فاثار ذلك - في ما أحسب - دهش اعدائه •

وواجهنا ، الان ، مسألة المنزل - منزلنا • لقد نزعت ملكيته منا بدعوى استحقاق الرهن • ولم يكن ثمة أي رهن طبعيا ، لا في تلك الفترة ولا في أي فترة سالفة • فالواقع اننا كنا قد اشترينا الارض نقدا ، واننا سددنا ثمن البيت عند بنائه • ولقد كان البيت وقطعة الارض متحررين ، دائما ، لا يتقلهما دين ما • ومع ذلك ، فثمة كان الرهن محررا وموقعا عليه بطريقة صحيحة وقانونية ، مع ثبت بمدفوعات الفائدة السنوية خلال عدد من الاعوام • ولم يطلق أبي أية صيحة زعر • لقد سلب الان بيته كما سلب ماله من قبل • ولم

يكن لديه مفزع يلجأ اليه . فقد كانت آلية المجتمع في ايدي اولئك الذين كانوا نزاعين الى تحطيمه . كان في اعماق اعماقه فيلسوفا ، ولقد اصبح الان في نجوة حتى من الغضب .
وقال لسي :

– « لقد كتب علي ان اسحق . ولكن هذا ليس سببا كافيا يدعوني الى ان لا احاول جعل عملية السحق تلك خفيفة جهد الطاقة . ان عظامي الهرمة هذه هشة ، ولقد اخذت درسا قاسيا . والله يعلم اني لا اريد ان اقضي ايامي الاخيرة في مستشفى من مستشفيات المجاذيب . »

وهذا ما يذكرني بالاسقف مورهاوس ، الذي اهملته في الصفحات الاخيرة – ولكن دعني اتحدث اولا ، عن زواجي . ففي زحمة الاحداث يبدو زواجي حدثا تافها ، انا ادري هذا ، وهذا هو السبب الذي من اجله سوف أجتزئ بالاشارة اليه ليس غير .

وقال ابي حين طردنا من منزلنا :

– « الان سنصبح بروليناريين حقيقيين . لقد طالما حسدت فتاك ذاك على معرفته الفعلية للبروليناريات . اما الان فسوف ارى بعيني راسي واتعلم الحقيقة بنفسي . »

لقد كان دم المغامرة يجري قويا حارا في عروق ابي من غير ريب . لقد نظر الى نكبتنا وكأنها مغامرة من المغامرات . فلم يستبد به لا غضب ولا مرارة . لقد كان من الحكمة والبساطة بحيث يسمو على الحقد والانتقام ، وكان قد عاش في عالم العقل فترة طويلة جعلته لا يفتقد المتارف التي كنا قد تخلينا عنها . وهكذا رأيت ، حين انتقلنا الى سان فرانسيسكو لننزل بيتا حقيرا من أربع غرف في حي العمال القدر ، يباشر المغامرة في مثل ابتهاج طفل وحماسه ، مردفين برجاجة عقل العالم العبقري وبعد نظره . انه لم يتحجر عقليا البتة . ولم يكن لديه فهم زائف للقيم . فالقيم التقليدية او المعتادة كانت لا تعني عنده شيئا . ان القيم الوحيدة التي اعترف بها كانت هي الحقائق الرياضية والعلمية . لقد كان ابي رجلا عظيما . كان له عقل وروح لا يتمتع بمثلهما غير العظام من الناس . وكان من بعض الوجوه اعظم من ارنست نفسه ، ارنست الذي لم اعرف قط امراا اعظم منه .

وحتى أنا وجدت شيئا من الارتياح في التغير الذي طرأ على حياتنا حسبي أنني كنت في سبيلي الى النجاة من النذب المنظم الذي كان نصيبنا المتعاطم في المدينة الجامعية منذ ان تعرضنا لسخط الاوليفاركية الناشئة

وعداوتها • وكان التغير بالنسبة الي مغامرة ايضا ، بل اعظم المغامرات على الإطلاق ، اذ كانت هي مغامرة الحب • لقد عجل تغير مصائرنا في زواجي ، ولقد استهللت حياتي في الحجرات الاربع في بيل ستريت ، بحي العمال القذر في سان فرانسيسكو ، بوصفي زوجة ذات بعل •

ومن كل ذلك يبقى اليوم هذه الحقيقة : اني اوقعت السعادة في قلبب أرنست • لقد دخلت حياته العاصفة لا كقوة مهيجة جديدة بل كقوة تسعى بسبيل الامن والطمأنينة • لقد منحته الراحة • كانت هي هدية حبي اليه • وكانت هي الامارة الوحيدة ، التي لا تخطيء ، على اني لم اخفق في مهمتي ، اذ اي بهجة يمكن أن تسعد فؤادي اكثر من حملي السلوان وضياء البشر الى عينيه المرهقتين البائستين ؟

يا لتينك العينين المرهقتين الحبيبتين ! لقد كدح كما لم يكدح من قبله غير قلة قليلة من اولي العزم ، وطوال عمره كله كان كدحه هذا من أجل الآخرين • ذلك كان هو مقياس رجولته • لقد كان انسانيا ومحبا • وكان – بروح القتال المتجسدة فيه ، وجسده المكافح ، وروحه النسرية – يعاملني بمثل لطف الشاعر ورقته • لقد كان شاعرا • كان منشدا أفعال لا أقوال • ولقد غنى طوال حياته اغنية الانسان • وانما أخذ نفسه بذلك مسوقا بحسب الانسان ليس غير ، وفي سبيل الانسان وهب حياته ومات على الصليب •

فعل ذلك كله من غير ان يرجو في المستقبل ثوابا او مكافاة • لم يكن ثمة ، في مفهومه للأشياء ، أيما حياة أخرى بعد الموت • لقد انكر على نفسه الخلود ، وهو الذي اتقدت نفسه بالخلود اتقادا كاملا – وذلك هو التناقض الظاهري في شخصيته • انه وهو الملتهب الروح كان خاضعا لسلطان تلك الفلسفة الباردة : الوجدانية المادية • وكان من دأبي ان أفند آراءه بأن أقول له اني اقيس خلوده بمقياس واحد هو أجنحة روحه ، وانه يتعين علي ان أعيش دهورا لا نهاية لها لكي انجز عملية القياس تلك على نحو كامل • وعندئذ كان من دأبه ان يضحك ، وتنبسط ذراعاه نحوي ، وينادييني : يا فيلسوفتي الميتافيزيقية الحلوة ! ويفارق الارهاق عينيه ، ويتدفق نحوهما ضياء الحب السعيد الذي كان في ذات نفسه افصاحا جديدا وكافيا عن خلوده •

وكان من دأبه ايضا ان يدعوني « يا ثنائيتي ! » ويشرح كيف كان الفيلسوف « كانت » ، بواسطة العقل المحض ، قد ألغى العقل لكي يعبد الله • وراح يبين وجوه الشبه ، واتهمني بفعل مماثل • وحين أقررت بالتهمة

الموجهة الي ، ولكنني دافعت عن ذلك الفعل بوصفه عقلانيا الى حد بعيد ،
أحكم ضمني اليه وضحك على نحو لا يحسنه غير واحد من محبي الله
أنفسهم . وكنت نزاعة الى انكار قدرة الوراثة والبيئة على تفسير أصالته
وعبقريته ، ذاهبة الى أنها لا تقوى على ذلك بأكثر مما تقوى اصبع العلم
الباردة المتلمسة على التقاط ذلك الجوهر الزئبقي الكامن في بنية الحياة
نفسها وعلى تحليله وتصنيفه .

لقد ذهبت الى القول بأن المكان مظهر من مظاهر الله ، وان السروح
امتداد لشخصية الله ، وحين دعاني « يا فيلسوفتي الميتافيزيقية الحلوة ! »
دعوته « يا فيلسوفي المادي الخالد ! » وهكذا تبادلنا الحب ، ونعمنا بالسعادة
وغفرت له ماديته بسبب من عمله الهائل في العالم ، ذلك العمل الذي كان
يقوم به من غير ما تفكير بأن يكسب من وراء ذلك أي ربح لروحه ، وبسبب
من تواضع نفسه المغرق الذي كان يقيه غائلة الغرور والاعتداد الملوكي بذاته
وروحه .

ولكنه كان ذا كبرياء . وأني يكون نسرا ولا تعمر صدره الكبرياء ؟
كانت حجة تقول بأن شعور ذرة الحياة الغانية وكأنها اله أروع من شعور
الاله بالالوهية ، ومن هنا مجد ما اعتبره فنائيته وعدم خلوده . وكان مولعا
بالاستشهاد بمقاطع من احدى القصائد . والواقع انه لم يطلع قط على
القصيدة كاملة ، ولقد حاول على غير طائل أن يكتشف ناظمها وأنا اثبت
ههنا هذه المقاطع ، لا لانه احبها فحسب ، بل لانه تلخص التناقض الظاهري
الذي كان يلف روحه وتصوره لروحه . اذ كيف يستطيع رجل ذو حماسة
واتقاد وشعور بالعظمة شديد أن ينشد الابيات التالية ويظل مجرد تراب فان ،
كسرة من قوة عابرة ، شكلا زائلا ؟ واليك الابيات :

« بهجة على بهجة وكسب على كسب

تلك هي الحقوق التي قدرت لي بالولادة

واني لارفع صوتي بتمجيد ايامي اللانهائية

الى حافة الارض المرددة للصدى .

وعلى الرغم من اني أعاني جميع الميتات التي يستطيع الانسان ان يموتها

الى نهاية الزمان القصوى

فقد شربت كأس الغبطة حتى الثمالة

في كل عصر وبقعة -

زبد الغرور ، نكهة القوة ،

حلاوة الانوثة !
انا اشرب الحثالة نفسها
فالشراب لذيق حقا .
اذ اشرب حتى الحياة واشرب حتى الموت
واتمطق بالاغاني
وعندما اموت تلثم تلك الكاس « انا » جديدة !



« ان الانسان الذي اخرجته من جنة عدن
كان انا ، يا الهي ، كان انا ،
ولسوف اكون هناك عندما تنفجر الارض والهواء
من البحر الى السماء ،
لانها عالمي ، عالمي البهي الزاهي
عالم همومي الاثيرة علي
من اول صيحة خافتة تطلقها الـ « انا » التي ولدت حديثا
الى آلة التعذيب المتمثلة في مخاض المرأة .



« ان طوفان دمائي الفتية الضارية المصطخب
لخليق به ، وقد غص بنبضات عرق لم يولد بعد
ومزقته الرغبة في الحياة ،
ان يطفىء نار الديفونة .
انا انسان ، انسان ، انسان ، من اللحم الخدر
الى غبار الهدف الارضي
من ظلمة الرحم الحامل الغضة
الى بهاء روجي العارية .



« ان الانسان الذي اخرجته من جنة عدن
كان انا ، يا الهي ، كان انا ،
ولسوف اكون هناك عندما تنفجر الارض والهواء
من البحر الى السماء

لأنها عالمي ، عالمي البهي الزاهي
عالم بهجتي الاثيرة لدي ،
من اسطع ومضة من ومضات تيار المنطقة القطبية الشمالية
الى غسق ليلة جبي انا ، ٧٦

كان ارنست يرهق نفسه ، دائما ، بالعمل . واذا كان قد احتفظ ، رغم ذلك ، بعافية موفورة فالفضل في هذا لبنيته القوية الرائعة . ولكن حتى تلك البنية لم تستطع ان تذود النظرة المتعبة عن عينيه ، - عينيه المتعبتين - العزيزتين ! انه لم ينم في اي يوم من الايام اكثر من اربع ساعات ونصف في الليلة الواحدة ، ومع ذلك فما كان ليجد متسعا من الوقت كافيا لاداء كل ما كان يرغب في اداؤه من عمل . ولم يكن ليكف قط عن النهوض بعبء نشاطاته كداعية ، وكانت منظمات العمال المتهافئة على دعوته الى لقاء المحاضرات في نواديها مضطرة الى انتظار دورها فترة غير يسيرة من الزمان . ثم كانت الحملة الانتخابية . وفي هذا الميدان وحده بذل ارنست من الجهد ما لو وقف رجل كامل وقته لبذل مثله لاجزه الامر . وبعد « خنق » دور النشر الاشتراكية حرم عاداته الهزيلة . فاذا به في وضع حرج يقتضيه بذل جهد عنيف لكسب رزقه ، ذلك بأنه كان عليه ان يكسب هذا الرزق بالاضافة الى قيامه باعماله الاخرى كلها . لقد ترجم للمجلات عددا ضخما من المقالات ذات الموضوعات العلمية والفلسفية . فكان اذا ما انقلب الى البيت في موهن متأخر من الليل ، وقد انهكت الحملة الانتخابية قواه ، اكب على الترجمة مواصلا الكدح حتى ساعات الصباح . وفوق هذا كله ، كانت ثمة نزعتة النهمة الى الدرس . فقد واصل دراسته حتى يوم وفاته ، وكانت دراساته هذه واسعة الى حد مذهل .

ومع ذلك فقد وجد متسعا من الوقت لكي يمحضني حبه ويجعلني سعيدة . ولكن هذا لم يتم الا من خلال ادماجي حياتي ادماجا كاملا في حياته . لقد تعلمت الاختزال والطبع على الآلة الكاتبة ، وامسيت سكرتيرته . وكان يصير على القول اني وفرت عليه بذلك نصف الجهد المطلوب ، وعلى هذا النحو دربت نفسي على فهم عمله . لقد اصبحت اشواقنا interests متبادلة ، ولقد عملنا معا ولعبنا معا .

٧٦ ان ناظم هذه القصيدة سوف يظل مجهولا ابد الدهر . وهذه المقاطع هي الجزء الوحيد الذي وصل الينا منها .

ثم كانت ثمة لحظاتنا العذبة المختلصة في غمرة من عملنا - مجرد كلمة ، أو لمسة حنان ، أو ومضة من ضياء الحب . وكانت لحظاتنا اشدّ عذوبة بسبب من انها مختلصة . ذلك باننا عشنا في الاعالي ، حيث كان الهواء مشرقا شديد المضاء ، وحيث كان الكدح من اجل الانسانية ، وحيث كانت الابواب موصدة ابدا في وجه الخسة والانانية . لقد احببنا الحب ، ولم يشب حبنا قط بايما شيء اقل من الاسمى والاقضل . وانما يبقى من هذا كله حقيقة واحدة : هي انني لم أخفق . لقد منحته الراحة - وما كان أحوجه اليها ، هو الذي عمل بمثل هذا الكدح كله من اجل الآخرين . . . فتاي الفاني العزيز ذا العينين المتعبتين !

الفصل الثاني عشر

الاسقف

وانما التقيت ، مصادفة ، بالاسقف مورهاوس ، بعد زواجي من أرنست . وعلى أية حال يتعين علي أن اروي الاحداث بتسلسلها الصحيح . وتفصيل ذلك ان الاسقف ، بعد ثورته في مؤتمر الـ I.P.H. ، نزل عند ضغط الاصدقاء ، وهو ذو النفس الرضية الوادعة ، وغادر البلد في اجازة ولكنه رجع أشد عزما من ايما وقت مضى على التبشير برسالة الكنيسة ، وكم كان دعر رعيته بالغا حين وجدوا أن عظته الاولى كانت شبيهة كل الشبه بالخطبة التي القاها في المؤتمر . لقد كرر القول ، في اسهاب كثير وتفصيل مـورث للاسى ، ان الكنيسة قد ضلّت عن سبيل « السيد » وتعاليمه ، وان شيطان الجشع قد أقيم مقام المسيح .

وكانت النتيجة أنهم اقتادوه ، طوعا أو كرها ، الى مصح غير حكومي للامراض العقلية ، بينما ظهرت في الصحف أحاديث مشجبة عن انهياره العقلي وعن قدسية شخصيته . لقد حبس في المصح وكأنه سجين . ولقد قصدت الى المصح مرات عديدة ، ولكن القيمين على ادارته لم يجيزوا لي الاجتماع به . وهزنتني على نحو مروع هذه المساة المثيرة : رجل عاقل ، سوي ، اشبه بالقديسين يسحق سحقا بأرادة المجتمع الوحشية . ذلك بأن الاسقف كان عاقلا ، طاهر القلب ، نبيل النفس . ولم يكن فيه من عيب ، كما قال أرنست ، غير ان فكرته عن علمي الاحياء والاجتماع كانت خاطئة . وبسبب من هذه الفكرة الخاطئة لم يوفق الى سلوك الطريق الصحيح لتقويم الاوضاع واصلاحها .

وكان الذي روعني هو عجز الاسقف . كان مقدرا عليه ، اذا ما أصر على اعلان الحقيقة ، كما تجلت له ، أن يقذف به في جناح المجازيب . وعندئذ لن يكون في ميسوره ان يفعل شيئا . ان ماله ، ومركزه الاجتماعي ، وثقافته لن تقدر كلها على انقاذه . كانت آراؤه تشكل خطرا على المجتمع ، ولم يكن في وسع المجتمع ان يتصور صدور مثل هذه الافكار الخطرة عن عقل سليم . ذلك في ما يبدو لي ، على الاقل ، كان موقف المجتمع من قضية الاسقف مورهاوس .

ولكن الاسقف ، برغم كبريائه وطهاره روحه ، كان ذا مكر عظيم . لقد أدرك الخطر المحدق به ادراكا واضحا . ولقد رأى نفسه عالقا في الشرك ، فحاول ان ينجو منه . وكان في حرمانه المساعدة التي كان في ميسور اصدقائه ، من مثل ابي وارنست ومثلي أنا ، ان يسدوها اليه ما تركه وحيدا في ميدان المعركة . وفي عزلة المصح الاجبارية ابل من دائه . لقد أمسى عاقلا كره أخرى . ان عينيه ما عادت ترى رؤى ، وان عقله قد طهر من اللوم القائل بأن الواجب يقتضي المجتمع ان يرعى خراف « السيد » ويغذيها .

لقد ابل ، كما قلت ، من دائه ، ابل ابلا كاملا ، ورحبت الصحف ورحبت الكنيسة بعودته في ابتهاج . وذات يوم ، مضيت الى كنيسته ، فاذا بي اجد ان العظة التي القاها من ذلك الضرب نفسه الذي كان يلقيه قبل ان شرعت عيناه تريان رؤى بفترة طويلة . وأصبت بخيبة ، بل أصبت بصدمة نفسية . هل وفق المجتمع ، اذن ، الى اكراهه على الاستسلام ؟ هل كان مورهاوس جبانا ؟ هل أجبر على انكار آرائه السالفة ؟ او هل كانت المحنة أقسى من ان يقوى على احتمالها فاستسلم في جزع لقوة النظام القائم التي تكتسح كل من يعترض سبيلها ؟

وزرت في بيته الجميل . كان قد تغير الى حد محزن . كان اشهد هزالا من ذي قبل ، وكانت تعلو وجهه تجاعيد لم المحها فيه قط من قبل . والواقع ان زيارتي قد أخرجته احراجا واضحا . كان يجذب رده اثناء الحديث على نحو عصبي . وكانت عيناه قلقتين ، تضطربان ههنا وههناك وفي كل اتجاه رافضتين أن تلتقيا بعيني . وبدا وكأن شيئا يشغل باله ، فاذا بحديثه ينقطع بين الفينة والفينة ، واذا به ينتقل من موضوع الى اخر انتقلا فجائيا مذهلا . هل يمكن ان يكون هذا الشخص هو الرجل الرابط الجاش ، الشبيه بالمسيح ، الذي سبق لي ان عرفته بعينين صافيتين شفافيتين ونظرة ثابتة غير مضطربة كروحه نفسها ؟ لقد عومل في قسوة ، وحمل على الخضوع

عنوة وترهيبا . كانت روحه بالغة اللطف . وهي لم تكن جبارة الى درجة تمكنها من الصمود في وجه حملات المجتمع المنظمة الخاتلة .

واستشعرت الاسى يعتمر فؤادي ، يعتمره اعتصارا يمتنع على الوصف . لقد تحدثت على نحو غامض ، وكان شديد التوقع لما قد اقول ، عظيم الخوف منه الى حد جعلني لا املك الجرأة على استجوابه . لقد تكلم عن مرضه بطريقة غير مباشرة ، وتحدثنا في غير اتساق عن الكنيسة ، وعن التعديلات التي ادخلت على الارغن ، وعن الصدقات الصغيرة . وحين فارقت غلب عليه الارتياح الى درجة اغرتني بالضحك لولا ان قلبي كان مفعما بالدموع .

يا للبلبل المسكين ! لو اني عرفت ليس غير ! كان يناضل مثل عمارق ، ولكني لم احزر ذلك . كان يخوض معركته وحيدا ، وحيدا وسط ملايين من اخوانه في الانسانية . لقد مزقه الصراع بين خوفه من مستشفى المجاذيب وبين اخلاصه للحقيقة والخير ، فتشبث في حزم بالحقيقة والخير ، ولكنه كان ممن التوحد بحيث لم يجرؤ على الثقة حتى بي انا . كان قد تعلم المدرس القاسي الذي القاه المجتمع عليه ، تعلمه على نحو حسن أكثر مما ينبغي .

ولكني ما لبثت ان عرفت . لقد اختفى الاسقف ذات يوم . ولم يكن قد ابلغ احدا انه ذاهب الى مكان ما . واذا كرت الايام من غير ان يظهر من جديد لغف الناس بأنه انتحر خلال جنون موقت اصيب به . ولكن هذه الفكرة ما لبثت ان تبديدت عندما علم انه كان قد باع ممتلكاته كلها - قصره المديني ، وبيته الريفي في ميلنو بارك ، ولوحاته ومجموعاته الفنية ، وحتى مكتبته الاثيرة عليه . كان واضحا انه قد تخلص تخلصا كاملا ، وسريا ، من كل شيء قبل تواريه عن الانظار .

وانما حدث هذا خلال الفترة التي فاجأتنا النكبة فيها فشغلتنا بشؤوننا الخاصة عن كل شيء . ولم نوفق الى التفكير الحق في الاسقف والتساؤل عما كان يفعله الا عندما استقر بنا المقام في بيتنا الجديد . وعندئذ أمسى كل شيء واضحا ، على نحو مفاجيء . كنت قد انطلقت عبر الشارع ، في ساعة مبكرة من احدى الامسيات ، والغسق لما ينقض بعد ، واندفعت الى حانوت جزار لاشترى شيئا من لحم لعشاء ارشست . لقد دعونا وجبة الطعام اليومية الثالثة « عشاء » supper في بيتنا الجديد .

ولم اكد اغادر حانوت الجزار حتى انبثق من بقالة الزاوية المنتصبة الى جانب ذلك الحانوت رجل ما . واغراني حس بالالفة غريب بأن ارجع

البصر من جديد • ولكن الرجل كان قد استدار وانشأ يمشي مبتعدا عني في سرعة • كان في انحدار كتفيه وفي حاشية الشعر الفضية بين سترته وياقته وقبعته الناعمة ما اثار في نفسي ذكريات غامضة • وبدلا من ان اعبى الشارع رحت اعدو خلف الرجل • وأسرعت خطاي ، محاولة ان اطرد الأفكار التي تشكلت في ذهني تشكلا تلقائيا • لا ، ذلك مستحيل • انه لا يمكن ان يكون •• ليس في هذه الوزرة * الطويلة الساقين الى حد بعيد ، المتهترئة عند الكفل • وتمهل ، وسخرت من نفسي ، وكدت اقلع عن المطاردة • ولكن الشعور بأن هاتين الكتفين وذلك الشعر الفضي ليست غريبة عني ما لبث ان استحوذ علي • فمضيت مسرعة ، كرة اخرى ، في اثر الرجل ، حتى اذا اجتزته القيت نظرة حادة على وجهه ، ثم استدرت على نحو مفاجيء فواجهت •• واجهت الاسقف !

ووقف هو بدوره على نحو مفاجيء ايضا ، وانشأ يلهث • وسقط من يده اليمنى ، على الرصيف ، كيس ورقي ضخم • وتمزق الكيس ، وتواثبت عند قدمي الاسقف وقدمي جمهرة من حبات البطاطا وتدحرجت • ونظر هو الي في دهش وذعر ، ثم بدأ وكأنه قد ذبل • لقد انحدرت كتفاه كابة وانكسارا ، واطلق زفرة عميقة •

وبسطلت نحوه يدي • فصافحني ، ولكن يده كانت دبقة • وتنحنح في ارتباك : وكان في امكاني ان ارى العرق يتفقد من جبينه • كان واضحا ان لقائي به قد روعه ترويعا • وغمغم في خفوت :

« حبات البطاطا • انها نفيسة • »

وتعاوننا على لم الحبات المتناثرة وأعدناها الى الكيس المتمزق الذي حمله الاسقف ، الان ، بعناية بالغة ، تحت ابطه • وحاولت ان اعبى له عن ابتهاجي بلقائه قائلة ان عليه ان يمضي معي الى البيت في الحال ، وأضفت : « ان ابي سوف يسعد برؤيتك • نحن نسكن على مرمى حجر من هنا ليس غير • »

فقال :

« لا استطيع • لقد آن لي ان انصرف • وداعا • »

وأجال الطرف في ما حوله بخوف ، وكأنه كان يخشى ان يكتشف احد وجوده ، وقام بمحاولة للانطلاق •

* Overall's ثوب يلبسه العامل صيانة لثيابه من الاتساخ •

وقال عندما رأي أسير الى جانبه وادرك اني اعترم الالتصاق به بعد ان اهتديت اليه :

« اخبريني أين يقع بيتكم ، وسوف أزورك في ما بعد . »
فأجبت في حزم :

« لا . يجب ان تجيء الان . »
ونظر الى حبات البطاطا تتدحرج ، او تكاد ، على ذراعه ، والى الرزم الصغيرة الاخرى التي كانت فوق ذراعه الاخرى .
وقال :

« ذلك متعذر علي ، حقا . اغفري لي جلافتي . لو عرفت الحقيقة لعذرتنسي . »
وبدا كانه على وشك ان ينهار ، ولكنه ما لبث ان عاود السيطرة على نفسه .

وتابع كلامه قائلا :

« والى ذلك ، فهناك هذا الطعام . انها حالة تشير الاسى ، حالة رهيبه . انها امرأة عجوز . يجب ان امضي اليها في الحال . انها فقيرة الى الطعام . يجب ان امضي في الحال . انت تفهمين ذلك من غير ريب . وبعد اداء هذه المهمة سوف ارجع . اني اعدك بهذا . »
فتطوعت قائلة :

« دعني اذهب معك . هل المكان بعيد ؟؟ »
فقال :

« على مبعدة مجموعتي ابنية ليس غير . »
وبارشاد من الاسقف عرفت شيئا عن الحياة في جوارنا . انا لم احسب ، حتى في الحلم ، ان في ذلك الجوار مثل هذه التعاسة وهذا اليأس . وكان مرد ذلك طبعاً الى اني لم أعن بمسألة البر والاحسان . ذلك بأنني كنت قد اقتنعت بأن أرنست كان على صواب عندما سخر من الاحسان وشبهه بالكمامة توضع على قرحة . . . ازيلوا القرحة واستاصلوها ، - ذلك كان هو العلاج الذي وصفه . اعطوا العامل نتاج يديه . قدموا راتباً تقاعدياً ، كالذي يأخذه الجنود ، الى اولئك الذين يشيخون في كدحهم شيخوخة شريفة وعندئذ لن تبقى ثمة حاجة الى الصدقات والى البر والاحسان . واذ كنت مقتنعة بهذا فقد كدحت معه في سبيل الثورة ، ولم استنفد طاقتي في العمل على تسكين العلل الاجتماعية التي كانت تنشأ في غير انقطاع عن جور النظام الاجتماعي .

وتبعت الاسقف الى حجرة صغيرة ، لا يزيد طولها على اثني عشر قدما ولا يزيد عرضها على عشرة اقدام ، في احد المنازل الخلفية . وهناك وجدنا امرأة المانية عجوزا ضئيلة الجسم قال الاسقف انها في الرابعة والستين . واخذها الدهش عندما وقع بصرها علي ، ولكنها حبتني بانحناء تحية عذبة وتابعت خياطتها بنظالا رجاليا كان في حجرها . والى جانبها ، على أرض الحجرة ، كان ركام من البناتيل . واكتشف الاسقف انه لم يكن ثمة لا فحم ولا وقود . فمضى ليشترى شيئا من هذين .

ورفعت بنظالا وانعمت النظر في عمل المرأة . فقالت هازة رأسها في رفق من غير ان تكف عن درزها القماش :

« ستة سنتات ، يا سيدتي . »

لقد درزت في اناة ، ولكنها لم تنقطع عن الدرز قط . لقد بدا وكأنها مستعبدة لفعل « درز » .

فسألته :

« لقاء هذا العمل كله ، أهذا ما يدفعونه ؟ كم يستغرق انجاز البنطال

الواحد ؟ »

فأجابت :

« أجل ، هذا ما يدفعونه . ستة بنسات لقاء كل بنطال . والبنطال

الواحد تستغرق خياطته ساعتين . »

ثم أضافت في سرعة ، وقد نم وجهها عن انها كانت تخشى ان تورث رب العمل ، بكلامها هذا ، بلاء ما :

« ولكن رب العمل لا يعرف ذلك . انا بطيئة في العمل . فيسدي مصابتان بالروماتيزم . الفتيات يعملن بسرعة اعظم بكثير . وهن ينجزن البنطال في نصف المدة التي احتاج انا اليها لانجازه . ان رب العمل رجل شقوق . انه يدعني أخذ الاشغال الى بيتي ، بعد ان امسيت الان طاعنة في السن وبعد ان أمسى ضجيج الماكينة يصعد رأسي . ولولا كرمه هذا اذن لعرفت طعم الجوع . »

« أجل ، ان اللواتي يعملن في الدكان يحصلن على ثمانية بنسات . ولكن ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ ليس ثمة اعمال تكفي الفتيات الصغيرات وحدهن . فلا عجب اذا كانت فرص العمل غير متاحة للعجائز . اني في كثير من الاحوال لا افوز بأكثر من بنطال واحد أخيطه . وفي بعض الاحيان ، كما هي الحال الان ، يعطونني ثمانية بناتيل ويطلبون الى أنجازها قبل ان يهبط الليل . »

وسالته عن الساعات التي تنفقها في العمل فأجابت قائلة ان ذلك رهن
بالمواسم والفصول .

« في الصيف حين يكون ضغط الطلبات شديدا أعمل من الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء . اما في الشتاء فيكون البرد قارسا جدا ، وتظل البدان شبه متصلبتين فترة غير يسيرة من ساعات الصباح . ثم يتعين عليك ان تعمل في ساعة متأخرة – ان تعمل الى ما بعد منتصف الليل أحيانا . »
« أجل ، لقد كان هذا الصيف صيفا رديئا . انها الازمة . لا ريب في ان الله غاضب . هذا هو اول شغل يعهد الي رب العمل في أدائه منذ اسبوع . صحيح ان المرء لا يستطيع ان يسرف في الاكل عندما لا يكون ثمة عمل . لقد تعودت ذلك . فقد سلخت عمري كله في الخياطة – في موطنسي القديم . وهنا في سان فرانسيسكو . . . اجل لقد سلخت في هذا العمل ثلاثا وثلاثين سنة .

ان الواحدة منا لتعتبر الموضع حسنا اذا استطاعت ان تفوز بما يمكنها من دفع اجرة الغرفة . ان مؤجري رجل شفوق جدا ، ولكنه مضطر الى اخذ الاجرة . هذا عدل . انه لا يطالبني بأكثر من ثلاثة دولارات عن هذه الحجرة . هذا رخيص . ولكن ليس من العسير عليك ان تجدي بين يديك ثلاثة دولارات كاملة كل شهر . »

وكفت عن الكلام ، وهزت برأسها ومضت في درزها .
واقترحت :

« يتعين عليك ان تصطنعي اشد الحرص في ما يتصل بطريقة انفاق ما تكسبينه . »

فهزت برأسها في توكيد :

« ولكن ما ان تدفع اجرة الغرفة حتى يتحسن الموضع بعض الشيء . صحيح انه ليس لدي حليب امزجه بالقهوة . ولكن في استطاعتي ان انعم بوجبة طعام في اليوم ، وفي احيان كثيرة بوجبتين . »

قالت قولها هذا الاخير في اعتزاز . كان في كلماتها مسحة من نصر . ولكني لاحظت ، فيما كانت تواصل درزها ، ان الحزن غالب على عينيها العبدتين ، وان الالم باد على ثغرها . وغابت نظراتها ، فسارعت الى جلاء الغشاوة عن ناظريها . لقد اعترضت تلك الغشاوة درزها .
وأوضحت العجوز :

« لا ، ليس الجوع هو الذي يورث المرء الما في القلب . ذلك بان في استطاعة الواحدة منا ان تالف الجوع وتتعوده . واذا كنت ابكي فانما ابكي

من أجل طفلي . كانت الماكينة هي التي قتلتها : صحيح انها أرهقت نفسها بالعمل ولكنني لا أستطيع أن أفهم . لقد كانت ذات بنية قوية ، وكانت غضة الاهداب ، - في الأربعين ليس غير . ولقد عملت ثلاثين سنة فحسب . لقد استهلكت حياة العمل وهي صبية صغيرة ، هذا صحيح ، ولكن زوجي قضى نحبه . لقد انفجر الرجل في وجهه وهو يعمل في المصنع . وما الذي كان علينا ان نفعله ؟ كانت هي في العاشرة ، ولكنها كانت قوية . بيد ان الماكينة قتلتها . أجل ، قتلتها . قتلتها وكانت أرشق عاملة في الدكان . لقد طالما فكرت في ذلك ، واني لادري . ذلك هو السبب الذي من أجله لا أقوى على العمل في الدكان . ان الماكينة تصدع رأسي . فانا أسمعها تقول على نحو موصول : « لقد قتلتها ! لقد قتلتها ! » وهي تقول ذلك طوال ساعات الليل والنهار . وعندئذ افكر في ابنتي . واصبح عاجزة عن العمل .

وغامت عينها من جديد ، فكان عليها ان تسمح هذه الغشاوة قبل ان توفق الى استئناف درزها .

وسمعت الاسقف يتعثر على السلم ، ففتحت الباب . أي مشهد كان ذلك المشهد ! كان يحمل على ظهره نصف كيس فحم ، وفوقه شيء من نقود . كان بعض غبار الفحم يكسو وجهه ، وكان عرق الاجهاد يتفصد من جسده سيولا . والقى بحمله في زاوية قريبة من المستودع ، ومسح وجهه بمندبيل خشن ضخم مزين بالرسوم . ولم اصدق حواسي الا بشق النفس : الاسقف ، أسود مثل حمال فحم ، وقد ارتدى قميصا قطنيا من قمصان العمال (يعوزهم زر عند الحنجرة) ، ووزرة عادية ! لقد كان ذلك هو اغرب الاشياء على الاطلاق : الوزرة ، الوزرة المتهرئة عند الكفل ، المجرة عند العقبين ، المرفوعة بحزام جلدي ضيق حول الخصر كأحزمة العمال .

وعلى الرغم من ان الاسقف كان ينعم بالدفع فان يدي المرأة العجوز البائستين الثورمتين كانتا قد تشنجتا بالبرد القارس . وقبل ان تفارقها ، كان الاسقف قد اضرم النار ، على حين كنت انا قد قشرت حبات البطاطا ووضعتها على النار ابتغاء سلقها . وقدر لي ان اعلم ، مع الايام ، انه كانت ثمة حالات كثيرة مشابهة لحالتها ، وحالات كثيرة أسوأ ، محجوبة في أعماق البيوت الرهيبة في جوارنا .

ورجعنا لنجد أرنست وقد ألم به الجزع لتأخري . وبعد ان انحسرت فجأة اللقاء انحنى الاسقف الى الورا مستريحاً في كرسيه ، ومد رجليه المكسوتين بالوزرة ، وتنفس الصعداء . كنا نحن اول من التقاهم من

أصدقائه القدماء منذ اختفائه ، - كذلك قال لنا . ولا ريب في انه عانى ، خلال الاسابيع التي تصرمت منذ ذلك الاختفاء قسوة الوحدة الى حد بعيد . لقد حدثنا بأشياء كثيرة ، ولكن أكثر ما حدثنا به كان الابتهاج الذي غمر قلبه وهو ينفذ وصايا المسيح .

قال :

- « ذلك باني أقوم الان ، حقا ، باطعام خرافه . ولقد تلقيت درسا عظيما . اننا لا نستطيع ان نسدي الى الروح عوننا ما ، الا اذا بدأنا بأشباع المعدة . وخراف المسيح يجب ان تغذى بالخبز ، والزبدة ، والبطاطا ، واللحم ، وبعد ذلك - وبعد ذلك فقط - تصبح الارواح مستعدة لضرب من التغذية أسمى وأرفع . »

وأكل في شهية بالغة من العشاء الذي طهوته . وأحسب انه لم يأكل على مائدتنا يمثل هذه الشهية قط من قبل ، في الايام الخالية . وتحدثنا في ذلك ، فقال انه لم يكن في ايما يوم مضى على مثل العافية التي يتمتع بها الان . - « انا امشي الان على قدمي دائما . » قال ذلك وشاع الدم في وجنتيه اذ فكر في الايام التي ألف فيها امتطاء متن عربته ، وكان ذلك كان خطيئة خطيرة لا سبيل الى محوها .

ثم اضاف في سرعة :

- « ان صحتي هي الان خير مما كانت . واني لسعيد جدا - سعيد ، في الواقع ، أقصى ما تكون السعادة . لقد أمسيت ، اخر الامر ، روحا مكرسة لخدمة خراف « السيد » . »

ومع ذلك فقد كان يغلب على وجهه الم سرمدي ، الم العالم الذي كان قد جعله الان عالمه . كانت عيناه قد انفتحتا على الحياة في حالتها الطبيعية غير المصنوعة ، ولقد كانت حياة تختلف عن تلك التي عرفها في الكتب المطبوعة المرصوفة على رفوف مكتبته .

وقال مخاطبا ارنست مباشرة :

- « وانك انت المسؤول عن هذا كله . ايها الفتى . »

واضطرب ارنست وارتبك .

وتلجلج قائلا :

- « لا - لا - لا . . . لقد حذرتك . »

فاجابه الاسقف :

- « لا ، لقد اسأت فهمي . اننا لم اقصد بذلك الى التوبيخ بل الى

الاقرار بالفضل . لقد أردت ان اشكره لانك دللقتني على الطريق . فقد خرجت بي من النظريات حول الحياة الى الحياة نفسها . ونزعت الاقنعة عن ضروب الزيف الاجتماعي . لقد كنت انت ضياء في ظلمتي ، ولكني انسا الان ، ارى الضياء . وانا سعيد جدا . ولكن ... »

وتردد والام يعتمر فؤاده ، والجزع يعصف بعينه . ثم اضاف :

« ولكن هذا الاضطهاد ؟ .. انا لا اؤذي احدا . لماذا لا يدعونني وشاني ؟ اني لا ابالي بالاضطهاد نفسه ، لا ، ولكني اشكو طبيعة هذا الاضطهاد . كان جديرا بي ان لا ابالي لو انهم قطعوا لحمي بالضرب المبرح ، او احرقوني على الخازوق ، او صلبوني ناكس الرأس . ولكن مستشفى الامراض العقلية هو الذي يروعي . حسبك ان تتصور ذلك ! تصورني انا - في مستشفى من مستشفيات المجازيب . انه شيء تتقزز النفس منه . وان يفرض علي ان امضي بقية عمري وسط مشاهد الجنون الصارخ ! لا ! هذا كثير ! هذا كثير ! »

شيء يدعو الى الرثاء حقا . لقد ارتعشت يده ، وارتعد جسده كله واجفل من الصورة التي كان قد تمثلها في خياله . ولكنه ما لبث ان فزع الى الهدوء ، واجتزأ بالقول :

« اغفري لي ما بدر مني . تلك هي اعصابي المرهقة . واذا كان العمل في خدمة السيد المسيح يقود الى هناك فلا بأس . من انا حتى اشكو وانتظلم ؟ »

وشعرت فيما كنت انظر اليه وكأنني أصبح بصوت جهير :

« ايها الاسقف العظيم ! ايها البطل ! يا بطل الله ! »

ومرت ساعات الليل في تناقل ، وبمرورها عرفنا طرفا اخر من قصة الاسقف .

قال :

« لقد بعث منزلي - او على الاصح منازلتي - وسائر ممتلكاتي الاخرى . وكنت اعلم اني مضطر الى القيام بذلك في السر ، والا سلبوني كل شيء . ولو قد فعلوا اذن لكان ذلك فظيحا . اني كثيرا ما لا اقضي العجب في هذه الايام كلما فكرت في مقدار البطاطا الهائل - او في مقدار الخبز ، او اللحم ، او الفحم ، او الوقود - الذي تستطيع مئتان او ثلاثمائة من الدولارات ان تشتريه . »

والتفت نحو ارنست وقال :

– « انت على صواب ، أيها الفتى • ان العمال لينالون اجورا منخفضة الى حد رهيب • انا ، مثلا ، لم اقم في حياتي بأى عمل غير السعي الى انتزاع اعجاب الفريسيين ببلاعتي – وكنت احسب ، يومذاك ، اني ابشر برسالة المسيح – ومع ذلك فقد كانت ثروتى تقدر بنصف مليون دولار • انا لم اعرف قط ما الذي تعنيه ثروة مقدارها نصف مليون دولار الا بعد ان ادركت مقدار ما استطيع ان تشتريه من بطاطا وخبز وزبدة ولحم • وعندئذ ادركت شيئا اخر • ادركت ان كل هاتيك المقادير من البطاطا والخبز والزبدة واللحم كانت ملكي وانني لم ابذل اىما جهد في صنعها • ثم اتضح لي ان شخصا اخر اشتغل وصنعها ولكنها سلبت منه • وحين هبطت الى دنيا الفقراء وجدت اولئك الذين سلبوا ثمرات عملهم ، والذين كانوا جائعين بائسين لانهم سلبوا هذه الثمرات • »
ورددناه الى قصته ، فقال :

« – المال ؟ لقد اودعته مصارف مختلفة باسماء مختلفة • انهم لا يستطيعون ان ينتزعوه مني ابد الدهر ، لانهم لن يعثروا عليه ابد الدهر • ويا ما اطيع ذلك المال ! انه قادر على شراء مقادير هائلة من الطعام • انا لم اعرف قط من قبل لاي شيء يصلح المال • »
فقال ارنست في شيء من كآبة :

« – ليتنا نفوز بشيء منه للنهوض بأعباء الدعاية • ان في ميسوره ان يؤدي الينا خدمة جليلة • »
فقال الاسقف :

« – هل تظن ذلك ؟ انا لا اؤمن بالسياسة ايمانا كبيرا • بل اني ليخيل الي اني لا افهم السياسة • »
وكان ارنست دقيقا في امثال هذه الامور • فلم يكرر اقتراحه ، برغم انه كان يعلم احسن العلم في أي مأزق خرج وجد الحزب الاشتراكي نفسه بسبب من حاجته الى المال •

وتابع الاسقف كلامه :
« – انا ابيت في بعض الفنادق الرخيصة • ولكنني خائف ، وهذا ما يجعلني لا اطلل المكث في مكان واحد • والى هذا ، فقد استأجرت غرفتين في بيوت العمال في حيين مختلفين من احياء المدينة • وهذا اسراف عظيم من غير ريب ، ولكنه ضروري • وانا اعوض عن هذا الاسراف على نحو جزئي ، بان اتولى طهو طعامي بنفسى ، وان كنت في بعض الاحيان اشترى من بعض

المقاهي شيئا اتبلغ به • ولقد اهدتني الى اكتشاف • ان اطباق التايمال ٧٧ صالحة جدا حين يغدو الهواء باردا في ساعات الليل المتأخرة • ولا عيب فيها غير أنها غالية الثمن • ولكنني اكتشفت مكانا استطع ان احصل فيه على ثلاثة اطباق منه لقاء عشرة سنتات ليس غير • انها لا تضاهي اطباق المطاعم الاخرى جودة وحسن اعداد ولكنها توقع في الجسد دفقا عظيما •

« وهكذا وجدت اخر الامر عملي في هذا العالم ، بفضلك انت ، ايها الفتى • انه عمل السيد المسيح • »

ونظر الي ، وبرقت عيناه ، ثم أردف :

– « لقد أمسكت بي وانا اطعم خرافه • ولا ريب في انكم كلكم سوف تصونون سري • »

لقد تحدث في قدر غير يسير من اللامبالاة ، ولكن خوفا حقيقيا كان يكمن وراء كلامه • ولقد وعد بأن يعود لزيارتنا كرة اخرى • ولكننا قرانا في الصحف ، بعد اسبوع واحد ، انباء محزنة عن الاسقف مورهاوس الذي سبق الى مستشفى المجانين في « نابا » والذي لما ينقطع الرجاء من شفاؤه بعد • وعيئا حاولنا ان نجتمع اليه ، وأن نطلب الى السلطات اعادة النظر فسي قضيته أو دراستها من جديد • ليس هذا فحسب ، بل اننا لم نوفق الى معرفة ايما شيء عنه ، ما خلا ما كررته بعض البيانات من انه لا يزال ثمة أمل في شفاؤه •

وقال ارنست بمرارة :

– « لقد طلب المسيح الى الشاب الثري ان يبيع كل ما يملك • ولقد صدع الاسقف بما أمر به المسيح فانتهى به ذلك الى مستشفى المجانين • لقد تغيرت الدنيا كثيرا منذ عهد المسيح • ان الثري الذي يهب الاخرين ، في هذه الايام ، كل ما يملك امسى يعتبر اليوم رجلا مخبولا • لا مجال للجدل أو المناقشة • لقد اصدر المجتمع حكمه • »

٧٧ التايمال Tamale اكلة مكسيكية كثيرا ما يشار اليها في اداب ذلك العصر • من المفروض ان مقادير وافرة من التوابل كانت تصطنع في اعدادها • ولم تصلنا اي وصفة لطريقة صنع هذا « الطبق » •

الفصل الثالث عشر

الاضراب العام

وانتخب ارنست ، طبعاً ، عضواً في الكونغرس خلال التطور المفاجيء الذي طرأ على الراي العام ، لمصلحة الاشتراكية ، في خريف عام ١٩١٢ . ومن اقوى العوامل ، التي ساعدت على تضخيم مجموع الاصوات الاشتراكية ، القضاء على هيرست (٧٨) . ولم يكن ذلك أمراً عسيراً على البلوتوقراطية . كان هيرست ينفق ثمانية عشر مليون دولار ، كل عام ، في سبيل اصدار صحفه المختلفة ، وكان يسترد هذا المبلغ وزيادة من ابناء الطبقة الوسطى لقاء الاعلانات المنشورة في تلك الصحف . كانت الطبقة الوسطى هي مصدر

٧٨ وليام راندولف هيرست Hearst ، مليونير كاليفورني شاب وفق الى ان يصبح اقوى مالك للصحف في الولايات المتحدة . كانت صحفه تصدر في جميع المدن الكبرى ، وكانت تفوز برضا الطبقة الوسطى السائرة نحو الانحلال ورضاً البروليتاريا ايضاً . وكان انصاره من الكثرة بحيث استطاع الاستيلاء على صدفه الحزب الديموقراطي القديم الفارغة . لقد احتل مركزاً شاذاً ، فكان يدعو الى اشتراكية مخصية مردفة بضرب غريب من الرأسمالية البرجوازية الصغيرة . كان ذلك اشبه بمحاولة مزج الماء بالزيت ، ولم يكن ثمة ايما أمل له في النجاح ، على الرغم من انه كان خلال مدة قصيرة ، مصدر خوف جدي بالنسبة الى البلوتوقراطيين .

قوته كلها . اما التروستات فلم تكن لتعلن . (٧٩) وللقضاء على هيرست لم يكن القوم في حاجة الى اكثر من حبس الاعلانات عنه .

ولم تكن الطبقة الوسطى قد ابدت كلها بعد . لقد بقي هيكلها العظمي المكين . ولكنها كانت مجردة من القوة والسلطان . كان الذين عمروا من الصناعيين الصغار وأرباب الاعمال الصغار خاضعين خضوعا كاملا للبلوتوقراطية فهم يحيون تحت رحمتها . لم تكن لهم شخصية اقتصادية او سياسية مستقلة . فما ان اصدرت البلوتوقراطية امرها حتى حبسوا اعلاناتهم عن صحف هيرست .

وخاض هيرست معركة مجيدة . لقد واصل اصدار صحفه متحملا خسارة شهرية مقدارها مليون دولار ونصف . وواصل نشر الاعلانات من غير ان يطالب اصحابها بأي تعويض . وكرة اخرى اصدرت البلوتوقراطية امرها ، فلم يكن من الصناعيين الا ان امطروه بالمتكرات يطلبون اليه فيها ان يكف عن نشر اعلاناتهم القديمة . وأصر هيرست على انتهاج الخطة التي رسمها لنفسه . ووجه اليه الانذار اثر الانذار . ومع ذلك واصل هيرست نشر الاعلانات . وحكم عليه بالسجن ستة اشهر لاستخفافه بالسلطة القضائية وتمرده على انذاراتها ، في حين دفع الى هاوية الافلاس من طريق دعاوى العطل والضرر العديدة التي اقيمت عليه . ولم يبق ثمة امل له في الحياة . فقد لفظت البلوتوقراطية حكمها عليه . وكانت المحاكم العوبية في يدي البلوتوقراطية . فهي مستعدة لتنفيذ ذلك الحكم . ومع انهيار هيرست ، انهار ايضا الحزب الديمقراطي الذي كان ذلك الصحفي قد سيطر عليه منذ فترة قصيرة .

وبتهشيم هيرست والحزب الديمقراطي لم يبق أمام أنصاره غير سبيلين اثنين : أن ينضموا الى الحزب الاشتراكي او ان ينضموا الى الحزب الجمهوري . وهكذا جنينا نحن الاشتراكيين ثمرات اشتراكية هيرست الزائفة . ذلك بأن الكثرة الكاثرة من اتباعه انضمت اليها :

وكان خليقا بنزع الملكية عن الفلاحين ، ذلك النزاع الذي تم في تلك الفترة ، ان يعمل هو الاخر على تضخيم الاصوات التي احرزناها في

٧٩ كانت نفقات الاعلان هائلة في تلك الايام التي اختلط فيها الحابل بالنابل . وكان الراسماليون الصغار هم وحدهم الآخذين بأسباب التنافس ، ومن اجل ذلك كانوا يعلنون في الصحف وغيرها . واذ لم يكن ثمة ، حيث ترجد التروست ، ايما منافسة فلا عجب اذا ما وجدت التروستات نفسها غير محتاجة الى الاعلان .

الانتخابات لولا ظهور حزب غراينج ظهورا قصيرا عابثا . وناضل ارنست والزعماء الاشتراكيون نضالا ضاريا من اجل اكتساب المزارعين الى صفهم ، ولكن القضاء على المصحف الاشتراكية وعلى دور النشر الاشتراكية كان عقبة ضخمة حالت دون تحقيق ذلك ، على حين لم تكن الدعاية الشفهية قد رفعت الى مستوى الكمال بعد . وهذا ما مكن سياسيين مثل مستر كالفين - سياسيين كانوا هم انفسهم مزارعين نزع منهم ملكية الارض منذ عهد بعيد - من اكتساب المزارعين الى صفهم ، ومن القاء قوتهم السياسية في حملة لا طائل تحتها .

لقد قال ارنست ذات يوم وهو يضحك في ضراوة :

« يا للمزارعين المساكين ! ان التروستات لتستبد بهم طالما ونازلا » -
ولقد كان ذلك هو الوضع حقا . ذلك ان التروستات السبع الكبرى ، المتعاونة في حقل العمل ، كانت قد انشأت من فوائضها الهائلة صندوقا موحدا وكونت تروستا زراعية . فمنذ عهد بعيد واصحاب السكك الحديدية ، المسيطرون على اسعار النقل ، واصحاب المصارف ومقامرو البورصة المسيطرون على اسعار الاسهم يطعنون المزارعين ويهيطون بهم الى درك المدين المرهق . وكان اصحاب المصارف والمهيمنون على جميع التروستات قد سلفوا المزارعين ايضا مقادير هائلة من المال . وهكذا وقع المزارعون في الشرك ، ولم يبق للقضاء عليهم غير جذب خيوط الشبكة واحكام شدها . وهذا ما بدأت التروست الزراعية تفعله .

كانت ازمة عام ١٩١٢ قد ادت الى تدهور اسعار المنتجات الزراعية تدهورا رهيبا . فقد ضغطت الاسعار الان ، على نحو متعمد ، حتى الافلاس ، في حين قصمت السكك الحديدية ، بأسعارها الاغتصابية ، ظهر المزارع . وهكذا اضطر المزارعون الى ان يستدينوا اكثر فأكثر ، بينما حيل بينهم وبين تسديد قروضهم القديمة . ثم تلا ذلك نزع ملكية الرهون على نطاق واسع واكراه المدينين على دفع الكمبيالات المستحقة ، عنوة . عندئذ تخلص المزارعون عن الارض للتروست الزراعية . وهل كان لديهم ما يفعلونه غير ذلك ؟ حتى اذا تخلوا عن الارض التحقوا في خدمة التروست ، فاذا بهم يصبحون مدراء ، ونظارا ، وملاحظي عمال ، وعمالا عاديين . لقد عملوا لقاء رواتب ، لقد اصبحوا عبيدا ألقنا موثقين الى الارض بأجر يقيمون به اودهم . لم يكن في ميسورهم ان يفارقوا سادتهم ، لان سادتهم كانوا يؤلفون البلوتوقراطية . ولم يكن في ميسورهم ان يقصدوا الى المدن ، لان البلوتوقراطية

كانت هي صاحبة الكلمة العليا هناك ، ايضا • كان امامهم سبيل واحدة ليس غير : - ان يرحلوا عن الارض ويصبحوا متشردين • وبكلمة ، لم يكن امامهم غير ان يجوعوا • وهنا ايضا منوا بخيبة ، ذلك بان السلطات سنت قوانين صارمة ضد التشرّد ووضعتها موضع التنفيذ في قسوة بالغة •

ولسنا في حاجة الى القول ان بعض المزارعين ، بل ان جماعات كاملة من المزارعين ، وقفوا ههنا وهناك الى الابقاء على اراضيهم وصيانتها من شرور نزع الملكية بفضل احوال استثنائية خاصة • ولكنهم كانوا قلة متناثرة ، فلم يقدموا ولم يؤخروا • وعلى اية حال فان البلوتوقراطية ما لبثت ان جمعت شتاتهم ، في السنة التالية ، وقضت عليهم ٨٠ •

وهكذا ذهب الزعماء الاشتراكيون ما عدا ارنست ، خريف عام ١٩١٢ ، الى الجزم بان نهاية الرأسمالية قد دنت • والحق ان الازمة الاقتصادية الحادة وما نشأ عنها من بطالة رهيبية ، والضرية القضائية التي انزلت بالمزارعين وبالطبقة الوسطى ، والهزيمة الحاسمة التي منيت بها اتحادات العمال في كل ميدان ••• كل اولئك يبرر اعتقاد الاشتراكيين بان نجم الرأسمالية قد اذن بالافول ، وطرحهم القفاز في وجهها تحديا واستخفا •

٨٠ ان القضاء على طبقة مالكي الارض الصغار في العهد الروماني لم يتم بمثل السرعة التي تم بها القضاء على المزارعين وصغار الراسماليين الاميركيين • لقد كان في القرن العشرين زخم momentum ، على حين لم يكن في رومة القديمة شيء من ذلك تقريبا •

والواقع ان عددا من المزارعين ، الذين غلبت عليهم شهوة الى التربة مسعورة والذين ارادوا ان يظهروا ان بإمكانهم ان ينقلبوا عند الحاجة الى بهائم ضارية ، حاولوا ان يتخلصوا من نزع الملكية بالامتناع عن كل تعامل سوقي • لقد استنكفوا عن بيع ايما شيء ، وعن شراء ايما شيء • وانشأوا في ما بينهم نظاما بدائيا من نظم المقايضة • لقد تحملوا في ذلك حرمانا رهيبا ومشاق مخيفة ، ولكنهم واصلوا نهجهم هذا في عناد ، وامسى صنيعهم حركة ذات قوة وبأس • والحق ان الطريقة التي حطموها بها كانت فريدة ومنطقية وبسيطة • ذلك بان البلوتوقراطية عمدت ، بفضل سيطرتها على الحكومة ، الى زيادة الضرائب • فكان ذلك نقطة الضعف في درعهم • لقد أعوزهم المال ، بعد ان امتنعوا عن البيع والشراء ، ومن هنا اضطروا آخر الامر الى بيع اراضيهم لكي يدفعوا الضرائب الى الحكومة •

وأأسفا ! لشد ما استهان الاشتراكيون بقوة العدو ! لقد اعلنوا ، في كل مكان انهم لا يد فائزون في الانتخابات ، وراحوا يشرحون الوضع في عبارات لا ليس فيها • وقبلت البلوتوقراطية التحدي • فالبلوتوقراطية ، بحسن تقديرها الاشياء ووزنها لها ، هي التي هزمتنا من طريق تشتيت قوتنا وتفقيتها • والبلوتوقراطية هي التي اطلقت ، بواسطة عملائها السريين ، الصيحة القائلة بان الاشتراكية ملحدة مدسدة للمقدسات • والبلوتوقراطية هي التي دفعت بالكنايس ، والكنيسة الكاثوليكية خاصة ، الى الميدان ، وسلبتنا جزءا من اصوات العمال الانتخابية • والبلوتوقراطية هي التي شجعت بواسطة عملائها السريين طبعاً ، حزب غراينج ومدت خيوطه حتى الى المدن والى اوساط الطبقة الوسطى المحتضرة •

وايا ما كان فقد تحول الرأي العام في اتجاه الاشتراكية فعلاً • ولكن بدلا من ان ننعم بنصر كاسح يعطينا اغلبيّة كبيرة في جميع المجالس التشريعية، وجدنا انفسنا اقلية في تلك المجالس • صحيح اننا رفعنا الى الكونغرس خمسين نائبا ، ولكن ما ان استوى هؤلاء على مقاعد الكونغرس ، ربيع عام ١٩١٣ ، حتى وجدوا انفسهم مجردين من كل قوة مهما تكن • ومع ذلك فقد كانوا احسن حظا من نواب حزب غراينج ، الذين سيطروا على دزينة من حكومات الولايات ، والذين لم يجز لهم - في الربيع - ان يقولوا مقاليد المناصب التي انتزعوها • لقد ابي محتلو تلك المناصب ان يتخلوا عنها ، وكانت المحاكم في ايدي الاوليفاركية • ولكنني تخطيت الاحداث الان ، اكثر مما ينبغي • وان علي ان اتحدث قبل ذلك عن الايام المثيرة التي شهدناها في شتاء عام ١٩١٢ •

كانت الازمة التي عرفتھا البلاد قد سببت نقصا هائلا في الاستهلاك • ذلك بان العمال ، وقد طردوا من المصانع ، لم يكن لديهم اجور يشترون بها سلعا ما • فكان من نتيجة هذا ان وجدت البلوتوقراطية بين يديها فائضا اعظم • وهذا الفائض تعين على البلوتوقراطية ان تتخلص منه بتصديره الى خارج الحدود • وبسبب من خططها الهائلة ، احتاجت البلوتوقراطية الى مال • وبسبب من الجهود الجبارة التي بذلتها للتخلص من ذلك الفائض في السوق العالمية ارتطمت بالمانيا • وكانت الارتطامات الاقتصادية تتبع عادة بالحروب ، ولم يكن ارتطام البلوتوقراطية هذا بالمانيا شذوذا عن القاعدة • فقد اخذ اله الحرب الالمانسي الكبير اهبطه للقتال ، وشرعت الولايات المتحدة تستعد مي الاخرى للمعركة •

وخيمت سحابة الحرب داكنة مشؤومة • واعد المسرح لكارثة عالمية ، فقد كان في كل صقع من اصقاع العالم ازيمات اقتصادية ، واضطرابات عمالية ، وطبقات وسطى محتضرة ، وجيوش من العاطلين عن العمل ، وتضارب بين المصالح الاقتصادية في السوق العالمية ، وغمغمات ودمدمات عن الثورة الاشتراكية (٨١) •

لقد ارادت الاوليغاركية الحرب ضد المانيا • وارادت الحرب لدرزينة من الاسباب • ففي خداع الاحداث التي يجدر بمثل هذه الحرب ان تسببه ، وفي اعادة توزيع اوراق اللعب الدولية وعقد مجموعة من المعاهدات والمحالفات الجديدة كانت الاوليغاركية تجد مجال الربح واسعا امامها • والى هذا ، فخليق بالحرب ان تستهلك كثيرا من الفوائض الوطنية ، وتخفف جيوش العاطلين عن العمل التي كانت تهدد بلدان العالم كافة ، وتعطي الاوليغاركية

٨١ ظلت هذه الغمغمات والدمدمات تسمع فترة طويلة من الزمن • ومنذ عام ١٩٠٦ للميلاد نطق اللورد أيفبوري ، وهو انكليزي ، بالكلمات التالية في مجلس اللوردات : « ان الاضرابات التي تسود اوروبا ، وانتشار الاشتراكية ، وظهور الفوضوية المشؤوم هي انذارات الى الحكومات والى الطبقات الحاكمة بان حالة الطبقة العمالية في اوروبا اُمتست لا تطاق ، وانه اذا كان لنا ان نجتنب الثورة فينتعين علينا ان نتخذ بعض الخطوات من اجل زيادة الاجور ، وخفض ساعات العمل ، وتنزيل اسعار مواد المعيشة الضرورية • » وتعليقا على خطاب اللورد ايفبوري قالت صحيفة « وول ستريت جورنال » - وهي صحيفة كان ينشرها فريق من المقامرين بالاسهم المالية - ما نصه : « هذه الكلمات انما نطق بها لسان رجل ارستوقراطي وعضو في اكثر المجالس التشريعية محافظة في اوروبا كلها • وهذا ما يزيدها قيمة وخطرا • انها تنطوي على اقتصاد سياسي اكثُر نفاسة من ذلك الذي ينتظر المرء ان يقع عليه في معظم الكتب • انها تبدو وكأنها انذار • فحذار ، يا رجال وزارتي الحرب والبحرية ، حذار ! » •

وفي الوقت نفسه كتب سيدني بروكز ، في اميركة ، مقالا في مجلة « هاربرز ويكلي » قال فيه : « انكم لن تسمعوا في واشنطن ، ايما ذكر للاشتراكيين ، وانى لكم ان تسمعوا ؟ ان رجال السياسة هم دائما ، في هذه البلاد ، اخر من يرى مايجري تحت انوفهم • انهم سوف يهزأون بي عندما اتكهن ، واتكهن بأعظم قدر من الثقة ، ان الاشتراكيين سوف يفوزون ، في الانتخابات الرئاسية القادمة ، باكثر من مليون صوت • »

فرصة تتنفس خلالها وتكمل خططها وتضعها موضع التنفيذ . ان حربا كهذه لقادرة على ان تمكن الاوليفاركية من بسط سيطرتها التامة على السوق العالمية . ليس هذا فحسب ، بل ان حربا كهذه لتخلق جيشا نظاميا ضخما لا حاجة الى تسريحه ، في حين انها تحل في اذهان الناس شعار « اميركة ضد المانية » محل شعار « الاشتراكية ضد الاوليفاركية » .

والحق ان الحرب كان خليقا بها ان تفعل هذه الاشياء كلها لولا الاشتراكيون . فقد عقد اجتماع سري للزعماء الغربيين في بيتنا الصغير المؤلف من اربع غرف في شارع بيل . وهناك درس الزعماء الموقف الذي يتعين على الاشتراكيين ان يتخذوه . ولم تكن هذه هي اول مرة دسنا فيها الحرب بقدمنا (٨٢) ، ولكنها كانت اول مرة فعلنا فيها ذلك في الولايات المتحدة . وبعد اجتماعنا السري اتصلنا بالمنظمة الوطنية ، وسرعان ما كانت برقياتنا المرسلة بالمشيفرة تتبادل ، عبر الاطلسي ، بيننا وبين المكتب الدولي .

كان الاشتراكيون الالمان مستعدين للتعاون معنا . وكان عددهم يزداد على خمسة ملايين يحتل كثير منهم مناصب في الجيش النظامي . وكانوا ، الى ذلك ، على صلات ودية مع اتحادات العمال . وفي كلا البلدين اطلق الاشتراكيون تصريحات جريئة ضد الحرب وهددوا باعلان الاضراب العام . وفي غضون ذلك اعدوا العدة للاضراب العام . ليس هذا فحسب ، بل ان الاحزاب الثورية في جميع البلاد اعلنت تعلقها بالمبدأ الاشتراكي ، القائل بالسلام العالمي ، الذي يتعين على الثوريين صيانته والذود عنه ، ولو اضطرهم ذلك الى التمرد والثورة في الوطن .

وكان الاضراب العام هو النصر الكبير الاوحد الذي احرزناه نحن الاشتراكيين الاميركيين . ففي اليوم الرابع من كانون الاول (ديسمبر)

٨٢ في مطلع القرن العشرين صاغت منظمة الاشتراكيين الدولية ، آخر الامر ، وبعد اختبار طويل ، موقفها من الحرب . وهذا الموقف يمكن تلخيصه بالكلمات التالية : « لماذا يقاتل عمال بلد ما عمال بلد اخر لمنفعة ساداتهم الرأسماليين ؟ »

وفي ٢١ نوار (مايو) من عام ١٩٠٥ عندما كادت الحرب ان تنشب بين النمسا واطاليا ، عقد اشتراكيو ايطاليا والنمسا وهنغاريا مؤتمرا في ترييستا وهددوا باعلان اضراب عمالي عام في كل من البلدين اذا ما اعلنت الحرب . وقد تكرر ذلك في السنة التالية ، عندما اوشكت « المسألة المراكشية » ان تورط فرنسا والمانية وانكلترا في حرب ضروس .

سحب السفير الاميركي من العاصمة الالمانية . وتلك الليلة شن اسطول الماني هجوما على هونولولو فأغرق ثلاثة طرادات اميركية وزورقا مسلحا من زوارق خفر السواحل ، واطلق نيران مدافعه على المدينة . وفي اليوم التالي اعلنت كل من المانية والولايات المتحدة الحرب ، ولم تنقضى على ذلك ساعة واحدة حتى دعا الاشتراكيون الى الاضراب العام في كلا البلدين .

وللمرة الاولى واجه اله الحرب الالمانى رجالا من ابناء امبراطوريته كانوا هم روح تلك الامبراطورية المسيرة . انه ما كان قادرا ، بدونهم على الاحتفاظ بامبراطوريته سليمة قوية . وكان وجه الجدة في الموقف كامنا في ان ثورتهم هذه كانت سلبية . انهم لم يقاتلوا . انهم لم يفعلوا شيئا . وباحجامهم عن القيام بأي عمل اوثقوا يدي اله الحرب الالمانى بوثق متين . وهنا وجد هذا الاله فرصته الذهبية التي طالما تمنها لاطلاق « كلاب حربه » على جماهير شعبه الثائر . ولكنه حرم هذه المتعة . لقد عجز عن اطلاق « كلاب حربه » ، وعجز عن تعبئة جيشه لخوض غمار الحرب . ليس هذا فحسب ، بل لقد عجز ايضا عن معاقبة رعاياه المتمردين . ان قطارا حديديا واحدا لم يجر ، وان رسالة برقية واحدة لم تطير ، ذلك بان عمال التلغراف والسكة الحديدية كفوا عن العمل ، متضامنين مع سائير ابناء الشعب .

وما حدث في المانية حدث في الولايات المتحدة ايضا . كانت حركة العمال المنظمة قد اعتبرت اخر الامر ، بتجاربها القاسية . فبعد ان هزمت هزيمة حاسمة في ميدانها المختار هجرت ذلك الميدان ، ووجهت وجهها شطر ميدان الاشتراكيين السياسى ، ذلك بان الاضراب العام كان اضرابا سياسيا . والى هذا فقد كانت الضربة التي وجهت الى حركة العمال المنظمة قاسية الى درجة جعلتها تتخلى عن كل حذر واحتياط . لقد شاركت في الاضراب العام بسائق من القنوط ليس غير . وهكذا راح العمال يطرحون ادواتهم ويغادرون اعمالهم باللايين . وكان موقف الميكانيكيين موضع الاعجاب والتقدير بخاصة . كان رؤسائهم قساة متعطشين الى الدم ، وكانت منظماتهم قد سحقت على نحو ظاهري ، ومع ذلك فقد توافدوا علينا هم وحلفائهم في الصناعات المعدنية .

وحتى العمال العاديين وسائير العمال غير المنضوين تحت لواء منظمات بعينها اعلنوا الاضراب . كان الاضراب قد كبل كل شيء بحيث عجز كل امرئ عن العمل . والى هذا ، فقد اثبتت النساء ، انهن اقوى انصار

الاضراب والمروحين له • لقد قاومن الحرب في ضراوة ، انهن لم يسردن ان يندفع أزواجهن الى ساحة الموت • ثم ان فكرة الاضراب العام استبدت بعواطف الناس • لقد لمست حسس الدعاية عندهم • كانت الفكرة معدية • فاذا بالاطفال يضربون في المدارس كافة ، واذا بذلك الفريق من المعلمين الذين أثروا مواصلة العمل يرجعون من حيث أتوا بعد ان وجدوا انفسهم يدخلون على حجرات تدريس مهجورة • لقد اتخذ الاضراب العام شكل نزهة وطنية كبرى • وراقت فكرة تضامن العمال ، التي اثبتت صحتها على هذا النحو ، لخيال الناس جميعا • واخيرا لم يكن ثمة خوف من اي خطر ناشئ عن هذا « المرح » الجماعي الهائل • اذ كيف السبيل الى معاقبة ايما امرئ حين يكون كل امرئ مذنبا ؟

واصبحت الولايات المتحدة بالشلل • ولم يعرف احد ما الذي كان يحدث • لم يكن ثمة صحف ، ولا رسائل ، ولا برقيات • وكانت كل جماعة من الناس ، في كل بلد او منطقة ، تحيا في عزلة كلية وكأن عشرة آلاف ميل من المجهل البدائية تفصل ما بينها وبين سائر العالم • لم يكن للعالم - من هذه الناحية - وجود البتة • واستمرت هذه الحال اسبوعا •

اننا لم ندر ، في سان فرانسيسكو ، ما الذي كان يجري حتى عبر الخليج في اوكلاند او بيركلي • وكان اثر ذلك كله في نفوس الناس قدريا قابضا للمصدر • لقد بدا وكأن شيئا كونيا cosmic ضخما قد مات • كان نبض البلاد قد توقف • والحق ان البلاد كلها كانت قد ماتت • لم يكن ثمة لا عربات تقرر في الطرق ، ولا صفارات مصانع ، ولا ازيز كهرياء في الهواء ، ولا انطلاق سيارات في الشوارع ، ولا صيحات باعة الصحف - لم يكن ثمة غير اشخاص كانوا يجتازون الشوارع ، في فترات متباعدة ، وكانهم اشباح مريية ، ضاقت صدورهم هم ايضا ، واحالهم الصمت الى كائنات شبه وهمية •

وخلال اسبوع الصمت ذاك تلقت الاوليفاركية درسا قاسيا • ولقد حفظت درسها هذا جيدا • كان الاضراب العام انذارا • وكان ينبغي ان لا يحدث كرة اخرى • ذلك ما ستحرص عليه الاوليفاركية وتسعى بسبيله •

وفي ختام الاسبوع عاد عمال التلغراف ، في المانية والولايات المتحدة ، وفقا لترتيب سابق ، الى اعمالهم • وبراستطهم قدم الزعماء الاشتراكيون

في كلا البلدين انذارهم الى الحكام . ان على الحكام ان يصدرُوا امرهم بوقف الحرب . والا فان الاضراب العام سوف يستمر . وسرعان ما توصل الفريقان الى اتفاق . واعلنت الحكومتان وقف الحرب ، واستأنف شعبا البلدين اعمالهما .

وكان احياء السلم هذا هو الذي ادى الى تحالف المانية والولايات المتحدة . والواقع ان هذه المحالفة بين الامبراطور والاوليغاركية انما عقدت ابتغاء مواجهة عدوهما المشترك : البروليتاريا الثورية في كل من البلدين . وهذه المحالفة بالذات هي التي نقضتها الاوليغاركية في ما بعد ، بكثير من الغدر ، عندما ثار الاشتراكيون الالمان وخلصوا الامبراطور عن عرشه . لقد كان ذلك هو الشيء نفسه الذي سعت الاوليغاركية بسبيله : تحطيم منافسها العظيم في الاسواق العالمية . فبازاحة الامبراطور الالمانى من الطريق لن يبقى لدى المانية فائض تبعية خارج الحدود . ذلك بأن الشعب الالمانى سوف يستهلك عندئذ ، بحكم طبيعة الدولة الاشتراكية نفسها ، كل ما ينتجه . صحيح ان المانية ستعتمد منذ اليوم الى تصدير بعض الاشياء التي تنتجها مقابل اشياء لا تنتجها ، ولكن هذا شيء ، والفائض غير المستهلك شيء مختلف بالكلية .

وقال ارنست حين عرف الناس بخيانة الاوليغاركية للامبراطور الالمانى : - « انا اراهم ان الاوليغاركية لن تعمد مبررا . ولسوف تعتقد ، جريا على مألوف عاداتها ، انها قد سلكت السبيل الصحيح . »
وصح ما توقعه ارنست . فقد دافعت الاوليغاركية عن نفسها ، امام الراي العام ، زاعمة انها اتخذت ذلك الموقف من اجل الشعب الاميركي الذي تحرص هي على مصالحه . لقد اخرجت منافسها البغيض من الاسواق العالمية ومكنتنا من التخلص من فائض انتاجنا في تلك الاسواق . وكان تعليق ارنست على ذلك قوله :

- « ووجه الحماقة العاوية في هذا كله هو اننا من العجز وقلة الحيلة بحيث نجيز لمثل هؤلاء البلهاء ان يتولوا مقدراتنا ومصالحنا . لقد مكنونا من ان نبيع ، في ما وراء البحار ، مقدارا من انتاجنا اعظم ، وهذا يعني اننا سوف نضطر الى ان نستهلك ، في الوطن ، مقدارا منه اقل . »

الفصل الرابع عشر

بداية النهاية

لقد رأى ارنست ، منذ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ ، اتجاه الاشياء الصحيح ، ولكنه لم يستطع ان يحمل اخوانه الزعماء الاشتراكيين على رؤية الصورة التي ارسمت للعقب الحديدية في ذهنه . كانوا واثقين من انفسهم اكثر مما ينبغي . وكانت الاحداث تتعاقب في اندفاع متسارع نحو التكبد * . وتفصيل ذلك ان العالم واجه ازمة خطيرة . فقد هيمنت الاوليفاركية الاميركية ، عمليا ، على الاسواق العالمية ، وكانت عشرات من البلدان قد اخرجت من تلك الاسواق مثقلة بفوائض غير مستهلكة وغير مبيعة . ولم يبق امام تلك البلدان غير سبيل واحدة : ان تعيد تنظيم حياتها الاقتصادية . ذلك بانه لم يعد في امكانها ان تواصل طريققتها القديمة على انتاج الفوائض غير المستهلكة . كان النظام الرأسمالي ، بقدر ما يتعلق الامر بهم ، قد انهار انهيارا يائسا .

واتخذت اعادة تنظيم هذه البلدان شكل ثورة : كان عهد اضطراب وعنف . ففي كل مكان كانت المؤسسات والحكومات تتهاوى . وفي كل مكان ، ما خلا بلدين او ثلاثة ، قاتل الاقطاب الرأسماليون السابقون ، قتالا مريرا ، في سبيل الاحتفاظ بممتلكاتهم . ولكن البروليتاريا المناضلة انتزعت مقاليد الحكومات من ايديهم . واخيرا تحقق قول كارل ماركس المأثور : « ان جرس الموت ليقرر معلنا موت الملكية الرأسمالية

* التكبد : بلوغ قمة الشيء .

الخاصة • وإن نازعي الملكية لمتنزع ملكيتهم • وكلما انهارت حكومة رأسمالية نشأت محلها حكومة اشتراكية تعاونية •

« لماذا تتخلف الولايات المتحدة عن غيرها ؟ » ، « انشطوا ، ايها الثوريون الاميريكيون ! » ، « ماذا دهي اميركة ؟ » - تلك كانت الرسائل التي بعث بها الينا رفاقنا الظافرون في بلدان اخرى • ولكننا لم نستطع ان ندركهم ونلحق بهم • لقد اعترضت الاوليفاركية سبيلنا • ولقد سدت بجرمها الضخم طريقنا وكأنها غول جبار •

وأجبنا :

- « انتظروا حتى نتولى مهام الحكم في الربيع • وبعد ذلك ترون • » وانما كان سرنا كامنا خلف هذا • كنا قد استملنا حزب غراينج الينا ، وكان من المنتظر ان تنتقل الى ايديهم ، في الربيع ، مقاليد الحكم في اثنتي عشرة ولاية بفضل الانتخابات التي جرت في الخريف السالف • وبعد ذلك في الحال سوف تؤسس اثنتا عشرة ولاية اشتراكية تعاونية • ومن ثم يصبح كل شيء هينا يسيرا •

وتساءل ارنست :

- « واذا أخفق الغراينجيون في تولي مقاليد الحكم ؟ » وسخر رفاقه من تشاؤمه ودعوه « غراب البين » • ولكن هذا الاخفاق في تولي مقاليد الحكم لم يكن الخطر الرئيسي الذي تبدى لارنست • كان الذي تكهن به هو ارتداد اتحادات العمال الكبرى ونشوء نظام الطوائف ضمن الحركة العمالية •

وقال ارنست :

- « ان غانت Ghent قد علم الاوليفاركيين كيف يفعلون ذلك وأنا اراهن انهم جعلوا من كتابه « الاقطاعية الخيرة » ٨٣ كتاب تدريس •

٨٣ « اقطاعيتنا الخيرة » Our Benevolent Feudalism كتاب نشر عام ١٩٠٢ لمؤلفه وج. غانت W. J. Ghant • ولقد طامأ اكد الباحثون ان « غانت » هو الذي ادخل فكرة الاوليفاركية الى عقول الرأسماليين الكبار • وهذا الاعتقاد استمر راسخا في جميع المصادر التي ورثناها عن القرون الثلاثة التي تعتبر عهد العقب الحديدية ، بل استمر حتى في القرن الاول من عهد « الاخاء الانساني » • واليوم اصبحت معرفتنا اوسع واثق ، ولكن هذه المعرفة لا تزال عاجزة عن طمس الحقيقة التالية ، وهي ان « غانت » يظل الرجل البريء المفترى عليه باكثر مما افترى عن اي رجل في التاريخ كله •

ولن أنسى أبد الدهر تلك الليلة التي التفت ارنست فيها الي ، بعد مناقشة حامية مع نصف دزينة من زعماء العمال في هدوء :

- « هذا يحسم المسألة • لقد ربحت العقب الحديدية الجولة • ان في استطاعة المرء ان يرى النهاية القريبة • »

وكان هذا المؤتمر الصغير الذي عقد في بيتنا مؤتمرا غير رسمي • ولكن ارنست ، مثل سائر رفاقه ، كان يسعى لانتزاع توكيدات من الزعماء العماليين بأنهم سوف يعمدون الى دعوة رجالهم الى اطراح العمل في الاضراب العام التالي • وكان اوكونور O'Connor ، رئيس نقابة الميكانيكيين ، اشد الزعماء الستة الحاضرين اصرارا على رفض اعطاء التوكيد المطلوب ••

فقال ارنست في الحاح :

- « لقد رأيتم انكم هزمت هزيمة قاسية بسبب من طرائقكم القديمة في الاضراب والمقاطعة • »

فهز اوكونور وزملاؤه برؤوسهم •

وتابع ارنست مناقشته :

- « ورأيتم ما الذي يستطيع اضراب عام ان يفعله • لقد اوقفنا الحرب مع المانيا • ولم يعرف التاريخ قط من قبل مثلا على تضامن العمال وقوتهم أروع من ذلك المثل • ان في استطاعة العمال ان يحكموا العالم ، وسوف يفعلون • واذا ما صمدتم الى جانبنا فلا بد ان نضع حدا لحكم الرأسمالية • ذلك هو املكم الوحيد • واكثر من ذلك ، انتم تعرفون هذا ، ليس ثمة سبيل اخرى تسلكونها • ومهما ناضلتم ضمن نطاق اساليبكم العتيقة فهزيمتكم محتمة ، لسبب واحد على الاقل هو سيطرة السادة الرأسماليين على المحاكم ودور القضاء • ٨٤ »

٨٤ في ما يلي تقدم نموذجا لقرارات المحاكم المناهية لمصالح العمال • فقد كان تشغيل الاطفال في مناطق مناجم الفحم أمرا بغياضا كثير الشيوع • وفي عام ١٩٠٥ نجح العمال في حمل سلطات بنسلفانيا على اصدار قانون يقضي بان لا يستخدم ايما طفل ، منذ اليوم الا اذا بلغ سنا معينة وأنجز مرحلة ثقافية معينة • ولكن محكمة مقاطعة لوزيرين ما لبثت ان أعلنت عدم دستورية هذا القانون ، بحجة انطوائه على خرق للمادة الرابعة عشرة المعدلة من حيث تمييزه بين الافراد المنتسبين الى طبقة واحدة - وبكلمة اخرى ، بين الاطفال الذين تجاوزوا الرابعة عشرة

فأجاب أوكونور :

« أنت تسبق الاحداث اكثر مما ينبغي . ولكنك لا تعرف جميع السبل التي نستطيع سلوكها . ان ثمة سبيلا اخرى للخلاص . واننا نعلم ما نحن بسبيله . لقد سئمتنا الاضرابات ، بعد ان هزمونا فيها هزيمة منكرة . ولكني لا احسب اننا سوف نحتاج الى دعوة رجالنا الى اطراح العمل كرة اخرى . »

فسأله ارنست في فظاظه :

« وما هي سبيلكم للخلاص ؟ »

وهنا ضحك أوكونور وهز رأسه قائلاً :

« في استطاعتي ان اصرح لك بهذا القدر : اننا لم نكن مستسلمين للرقاد . ولسنا الان بحالين . »

فتحداه ارنست :

« ليس ثمة ما يخشى منه او يستحيا منه ، في ما أرجو . »

فكان الرد :

« اعتقد اننا نعرف مهمتنا احسن ما تكون المعرفة . »

فقال ارنست في غضب متعاضم :

« وانها مهمة مظلمة ، وهو ما يستطيع المرء ان يستنتجيه من الاسلوب الذي تصطنعونه لاختفائها . »

فجاءه الجواب :

« لقد دفعنا ثمن خبرتنا عرقا ودماء . ولقد استحققنا كل ما

والاطفال الذين لم يبلغوا هذا السن . ودعمت محكمة الولاية هذا القرار . وفي سنة ١٩٠٥ للميلاد اعلنت محكمة نيويورك عدم دستورية القانون الذي يحظر على القاصرين والنساء العمل. في المصانع بعد الساعة التاسعة ليلا ، بدعوى ان مثل هذا القانون ينطوي على تمييز طبقي . ليس هذا فحسب ، بل ان عمال الخابز كانوا يشغلون ، في تلك الايام ، حتى الارهاق . فأصدر مجلس ولاية نيويورك التشريعي قانونا يقضي بأن لا تزيد ساعات العمل في الخابز على عشر ساعات في اليوم . ولكن المحكمة الاتحادية العليا أصدرت حكمها ، عام ١٩٠٦ ، بأن هذا القانون غير دستوري . وقد جاء في ذلك الحكم قول القضاة : « ليس ثمة اساس منطقي يدعو الى تقييد حرية الاشخاص او حق التعاقد الحر من طريق تحديد ساعات العمل في الخابز . »

لم بنا • الاقربون اولى بالمعروف • »

فغلى الدم في عروق ارنست وقال :

– « اذا كنت تخشى انبائي بالسبيل التي تعتمزون سلوكها ، تطوعت
انا لابنائك بها • انكم تعتمزون الاسهام في السلب • لقد توصلتم الى
اتفاق مع العدو ، ذلك ما اقدمتم عليه • لقد بعتم قضية العمال ، قضية
العمال جميعا ، بثمن بخس دراهم معدودات • أنتم تفرون من ميدان
القتال كالجبنةاء • »

فأجابه اوكونور في نكد :

– « انا لا اقول ايما شيء • بيد اني أحسب اننا نعرف ما هو خير
لنا على نحو احسن بعض الشيء مما تعرفه انت • »
– « وانت لا تبالي مثقال ذرة بما هو خير لساائر العمال • انت
ترفسهم الى الهاوية • »

فأجابه اوكونور :

– « انا لا اقول ايما شيء ، ما خلا اني رئيس نقابة الميكانيكيين ،
وان من واجبي ان اراعي مصالح الرجال الذين امثلهم • هذا كل ما
هنالك • »

حتى اذا انصرف الزعماء العماليون رسم لي ارنست ، بمثل هدوء
الهزيمة ، الخطوط الكبرى لسياق الاحداث المقبلة • قال :

– « كان من دأب الاشتراكيين ان يتكهنوا ، في ابتهاج ، بذلك اليوم
الذي سيشهد انتقال الحركة العمالية ، بعد هزيمتها في الميدان الصناعي ،
الى الميدان السياسي • حسنا ، لقد هزمت العقبة الحديدية اتحادات
العمال في الميدان الصناعي ودفعت بها الى الميدان السياسي • وسيكون
ذلك مصدر حزن لنا بدلا من ان يكون داعية ابهاج • لقد أخذت العقبة
الحديدية من احداث الماضي عبءا بالغة • فنحن قد اريناها خلال الاضراب
العام ، مدى قوتنا • ولقد اتخذت الخطوات الضرورية للحؤول دون حدوث
اضراب عام جديد • »

فسأله :

– « ولكن كيف ؟ »

– « بمجرد تقديم المساعدات المالية الى الاتحادات الكبرى • ان هذه
الاتحادات لن تشارك في الاضراب العام التالي • واذا فلن يكون ثمة
اضراب عام • »

فاعترضت قائلثة :

« ولكن العقب الحديدية لن تقوى على الاستمرار في النهوض بمشروع كهذا ، باهظ النفقات ، الى الابد » .

« اوه انها لم تشتت بأموالها جميع الاتحادات » فذلك غير ضروري .
واليك ما سوف يحدث . ان اجور العمال ستزداد وساعات العمل ستخفص في اتحادات السكة الحديدية ، واتحادات عمال الحديد والفولاذ ، واتحادات المهندسين والميكانيكيين . ان احوالا اكثر ملائمة ستظل سائدة هذه الاتحادات ولسوف تصبح العضوية في هذه الاتحادات اشبه شيء بمقعد في الجنة . »
فاعترضت من جديد :

« انا لا ازال غير قادرة على الفهم . ما الذي سيحل بالاتحادات الاخرى ؟ ان الاتحادات غير الداخلة في هذه المجموعة اكثر بكثير من الاتحادات الداخلة فيها . »

« ان الاتحادات الاخرى سوف تسحق وتزال من الوجود - كلها من غير استثناء . ذلك بأن عمال السكة الحديدية والمهندسين والميكانيكيين وعمال الحديد والفولاذ ينهضون ، كما ترين ، بكامل العمل الاساسي الحيوي في حضارتنا الالية . حتى اذا اُمسّت العقب الحديدية على مثل اليقين من اخلاص هذه الاتحادات استطاعت ان تسخر من سائر الجماعات العمالية . ان الحديد والفولاذ والفحم الحجري والالات والمواصلات لتكون العمود الفقري للبنية الصناعية كلها . »
فسألته :

« ولكن الفحم الحجري ؟ ان ثمة نحواً من مليون عامل يشتغلون في مناجم الفحم الحجري » .
« انهم عمال لا تتطلب اعمالهم براعة خاصة . ومن اجل ذلك فانهم لن يقدموا أو يؤخروا . ان اجورهم سوف تتدنى ، وان ساعات عملهم سوف تزداد . انهم سوف يكونون عبيدا ارقاء مثلنا جميعا ، ولسوف يكون وضعهم من اكثر اوضاعنا « بهيمية » . سوف يكرهون على العمل ، كما يكره المزارعون على العمل ، اليوم ، في خدمة السادة الذين سلبوهم ارضهم ، سواء بسواء . والشئ نفسه سوف يصب الاتحادات الاخرى التي لا تنتظمها هذه المجموعة . راقبها تجدي انها تتمايل وتوشك ان تنهار ، وتجدي ان اعضاءها يكادون يصبحون عبيدا تجبرهم على الكدح معدهم الفارغة وقوانين البلاد . »
هل تعرفين ما الذي سيحل بفارلي وعصيته من مفسدي الاضرابات ؟

(٨٥) سوف أقول لك • ان « افساد الاضرابات » ، بوصفه مهنة ، سيزول من الوجود • اذ لن يبقى ثمة اضرابات البتة • ان ثورات العبيد سوف تحل محل الاضرابات • ولسوف يرقى فارلي وزبانيته فيعهد اليهم بمهمة سوق العبيد • اوه ، انهم لن يدعوها بهذا الاسم طبعاً ، سوف يدعونها مهمة تنفيذ قانون البلاد الذي يكره العمال على الشغل • ان خيانة الاتحادات الكبرى هذه لن تؤدي الا الى اطالة امد الصراع • والله وحده يعرف اين ومتى ستنتصر الثورة • »

– « ولكن اي حظ في النجاح يبقى للثورة اذا ما تعاونت الاوليفاركية مع الاتحادات الكبرى وازدادت بذلك قوة على قوة ؟ اليس من الجائز ان يستمر هذا التعاون الى الابد ؟ »
فهن رأسه وقال :

– « ان أحد احكامنا التعميمية ليقول بأن كل نظام مبني على أساس الطبقات الاجتماعية وعلى أساس من الطوائف المتحجرة المعزول بعضها عن بعض Castes يحمل في ذات نفسه بذور انحلاله • وحين يبني نظام ما على الطبقات كيف يمكن اجتناب نشوء الطوائف المتحجرة ؟ ان « العقب الحديدية » لن تستطيع الحؤول دون هذا النشوء ، وان نظام الطوائف المتحجرة سوف يقضي ، آخر الامر ، على « العقب الحديدية » • ان الاوليفاريين قد خلقوا بينهم طوائف مختلفات ، ولكن انتظري حتى تنشئ الاتحادات التي تحابها الاوليفاركية طوائف ضمن نطاقها هي • ان « العقب الحديدية » سوف تصطنع كل ما تملك من قوة وحول للحيلولة دون ذلك ، ولكنها مخففة لا محالة • » ان الاتحادات التي تحابها الاوليفاركية تنتظم زهرة العمال الاميركيين • انهم رجال اشداء اولو فعالية • وهم لم يصبحوا اعضاء في تلك الاتحادات الا من طريق التنافس الشديد على تلك المقاعد • وكل عامل كفء في الولايات المتحدة سوف يستبد به الطموح الى الفوز بعضوية الاتحادات المتمتعة بعطف الاوليفاركية • والاوليفاركية سوف تشجع مثل هذا الطموح

٨٥ جايمس فارلي Farley مفسد اضرابات شهير في ذلك العصر • كان رجلاً شجاعاً اكثر منه رجل اخلاق • وكان رجلاً ذا مقدرة لا سبيل الى انكارها • لقد لمع نجمه في ظل سلطان « العقب الحديدية » ، وأخيراً أمسى واحداً من ابناء الطبقة الاوليفاركية • ولقد اغتالته ، عام ١٩٣٢ ، سارة جينكينز التي كان زوجها قد قتل قبل ذلك بثلاثين سنة بأيدي مفسدي الاضرابات العاملين تحت امرة فارلي •

وما ينشأ عنه من منافسة • وهكذا يصبح هؤلاء الرجال الاشداء ، الذين كان خليقا بهم لولا هذا ان يعملوا في خدمة الثورة ، صنائع للرأسماليين ، وتسخر قوتهم لتدعيم الاوليفاركية •

« ومن ناحية ثانية فان اعضاء الاتحادات المتمتعة بعطف الرأسماليين سوف يناضلون لتحويل منظماتهم الى جماعات مقفلة • وسوف ينجحون في ذلك • ان عضوية هذا الاتحادات ستصبح وراثية ، يخلف الابناء فيها الآباء ، ولن تتدفق بعد قوة جديدة من معين القوة السرمدى : عامة الشعب • وسوف يعني هذا انحلال الطوائف العمالية المقفلة ، وذلك ما ينتهي بها اخر الامر الى الضعف فالضعف المتزايد • ولكنها سوف تصبح في الوقت نفسه – بوصفها مؤسسة من المؤسسات – ذات سلطان كلي ، ولكنه سلطان مؤقت على كل حال • انها سوف تصبح اشبه شيء بحرس القصر في رومة القديمة ، وسوف تحدث ثورات في القصر تستولي الطوائف العمالية المقفلة ، بواسطتها ، على مقاليد السلطة • وسوف يقوم الاوليفاركيون بثورات قصر مماثلة ، فتكون الغلبة سجالا بين الفريقين ، تكتب لهذا الفريق حيناً وتكتب لذلك الفريق حيناً • وخلال ذلك تستمر ضروب الضعف المحتومة في اصابة الطوائف العمالية المقفلة ، وهكذا تفوز عامة الشعب اخر الامر بما هو حق من حقوقها • ، هذا التكهّن بحدوث تطور اجتماعي بطيء انما اطلقه ارنست عندما حز في نفسه الالم ، اول ما حز ، بسبب من ارتداد الاتحادات الكبرى • ولم اقره انا على ذلك قط ، وانسي لاخلقه فيه الان – ان اكتب هذه السطور – أقوى مما خالفته في أيما وقت مضى • ذلك باننا حتى في يوم الناس هذا ، وعلى الرغم من ان الموت قد اختطف ارنست ، نقف على شفا الثورة التي ستذهب بالاوليفاركييات كلها • ومع هذا فقد نصصت ههنا على نبوءة ارنست لانها كانت نبوءته • وأيما ما كان فان ارنست ، برغم ايمانه بتلك النبوءة ، قاومها مقاومة مارد جبار وبذلك ساعد ، أكثر من أيما رجل اخر ، على جعل الثورة التي تنتظر حتى في هذه اللحظة اشارة الانفجار أمراً ممكناً • ٨٦

٨٦ كانت بصيرة ايفرهارد الاجتماعية رائعة • لقد رأى ، بمثل التوضوح الذي يتيحه ضوء الاحداث الخالية ، ارتداد الاتحادات المتمتعة بعطف الرأسماليين ، ونشوء الطوائف العمالية المقفلة وانحلالها البطيء ، والصراع بين الاوليفاركية المتسخفة والطوائف العمالية المقفلة من اجل السيطرة على الآلة الحكومية الكبرى •

وسألته تلك الليلة :

« ولكن اذا عمرت الاوليفاركية فما الذي سوف يحل بالفوائض الهائلة التي ستكون من نصيبها كل عام ؟ »

فأجابني :

« سوف يتعين على الاوليفاركية ان تنفق تلك الفوائض بطريقة ما . وثقي ان الاوليفاريين لن يعدموا هذه الطريقة . انهم سوف يشقون طرقا عريضة فخمة ، ولسوف تحقق انتصارات ضخمة في حقل العلم ، وتنجز - في حقل الفن بخاصة - منجزات ذات شأن . ان الاوليفاريين سوف يجدون ، بعد اخضاعهم الشعب اخضاعا كاملا ، متسعا من الوقت ينفقونه على الاشياء الاخرى . انهم سوف يصبحون من زمرة عابدي الجمال . سوف يصبحون من زمرة محبي الفن . وتحت ادارتهم ، وباغراء من مكافأتهم السخية ، سوف يكبح الفنانون . ولسوف تكون ثمرة هذا كله فنا عظيما . ذلك ان الفنانين لن يعمدوا بعد ، كشأنهم حتى أمس القريب ، الى دغدغة ذوق الطبقة الوسطى البورجوازي والتدبيث لها . انه سوف يكون فنا عظيما ، أقول لك ، ولسوف تنشأ مدن معجزة تتبدى امامها مدن العهود القديمة سمجة رخيصة . وفي هذه المدن سوف يقيم الاوليفاريون ويتعبدون للجمال ٨٧ . »

« وهكذا سينفق الفائض على نحو موصول ، بينا ينهض العمال بعبء العمل كله . وانشاء هذه المدن والمنجزات الضخمة سوف يمنح ملايين العمال العاديين جرايات لا تكاد تسد الرمق ، لان ضخامة الفائض سوف تقضي بأن يكون الانفاق ضخما هو الاخر ، ولسوف يبني الاوليفاريون لالف من السنين - استغفر الله ، لعشرة آلاف من السنين . انهم سوف يبنون كما لم يحلم المصريون والبابليون ان يبنوا . وما ان يتخطفهم الموت وتداول دولتهم حتى تبقى طرقهم العظيمة ومدنهم المعجزة لاخوية العمال يطأونها ويقيمون فيها ٨٨ . »

٨٧ ليس في استطاعتنا الا ان نعجب أعظم الاعجاب ببصيرة ايفرهارد . فقبل ان تخاطر فكرة انشاء المدن المعجزة ، كمدينة أريديس ومدينة ازغارد ، لعقول الاوليفاريين رأى ايفرهارد بعين بصيرته هذه المدن وادرك حتمية نشوئها .

٨٨ لقد انقضت ، منذ اطلاق هذه النبوءة ، قرون « العقب الحديدية » ، الثلاثة وقرون « الاخاء الانساني » الاربعة ، وما نحن اليوم نطأ الطرق التي شقها الاوليفاريون

« هذه الاشياء سوف يقوم بها الاوليفاركيون لانهم لن يجدوا معدى
عن القيام بها . ان هذه المنجزات العظيمة سوف تكون الشكل الذي سيبتذه
انفاقهم لفائضهم ، وبالطريقة نفسها التي انفقت بها الطبقات الحاكمة في
مصر القديمة الفائض الذي سلبته من الشعب على بناء الهياكل والاهرام .
في ظل الاوليفاركيين سوف تزدهر لا طبقة كهنوت ولكن طبقة فنانين . ومحل
طبقة البورجوازيين التجارية سوف تحل طوائف العمال المقفلة . وفي الدرك
الاسفل سوف تكون الهاوية * حيث ستتقيح عامة الشعب ، كثرة السكان
الكاثرة ، وتجوع وتبلى وتجدد نفسها ابد الدهر . وفي النهاية ، ومن يدري
متى ، تنطلق العامة من الهاوية ، وعندئذ تنهار الاوليفاركية وتنهار الطوائف
العمالية المقفلة ، وعندئذ يبرز اخر الامر ، بعد كدح تطاول اجيالاً وقروناً ،
عصر الناس البسطاء . لقد كنت احسب اني سوف اكحل الطرف برؤية ذلك
اليوم العظيم ، وأما الآن فقد ثبت عندي انني لن انعم برؤيته . »
وسكت لحظة ثم نظر الي وأضاف :

– « التطور الاجتماعي بطيء الى حد يثير الحنق . ليس كذلك يا
حبيبتي ؟ »

كانت ذراعاي تطوقانه ، وكان رأسه على صدري .
وغمغم :

– « غني لي اغنية انام على لحنها . لقد انكشفت لي رؤيا ، واني لا اريد
ان أنسى . »

ونقيم في المدن التي انشاوها . صحيح اننا نبني اليوم مدناً اشد روعة من تلك
المدن ، ولكن مدن الاوليفاركيين المعجزة لا تزال باقية ، وانا اكتب هذه السطور
في آرديس ، وهي واحدة من ابدعها على الاطلاق .

* يحسن بالقارئ ان يذكر ان « الهاوية » في الاصل ، من اسماء جهنم ومن اجل
ذلك اصطنعناها مقابل لفظة abyss (المغرب) .

الفصل الخامس عشر

الايام الاخيرة

ولم تعلن الاوليفاركية عن مسلكها الجديد نحو الاتحادات التي اثرتها بالمحابة الا في اواخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٢ . فقد نشرت الصحف انباء عن زيادة في الاجور وخفض لساعات العمل لم يسبق الى مثلهما من قبل ، زيادة وخفض يصيبان مستخدمي السكة الحديدية ، وعمال الحديد والفولاذ ، والمهندسين والميكانيكيين . ولكن هذه الصحف لم تقل الحقيقة كلها . ذلك بأن الاوليفاريين لم يجرأوا على اعلان الحقيقة كاملة . فالواقع ان الاجور كانت قد زيدت اكثر من ذلك بكثير ، وان الامتيازات التي منحها اولئك العمال كانت اعظم على نحو متناظر . وكان ذلك كله سرا من الاسرار ، ولكن الاسرار لا بد ان تشيع . فقد أنبا أعضاء تلك الاتحادات زوجاتهم ، واطلقت الزوجات السنتهن باللغو والثرثرة ، وسرعان ما أمسى العالم العمالي كله على علم بما قد حدث .

وكان ذلك مجرد تطور منطقي لما عرف في القرن التاسع عشر بتوزيع الاسلاب . ذلك ان الرأسماليين نزعوا ، في غمرة من الحرب الصناعية في ذلك العهد ، الى تجربة جديدة : اعطاء العمال حصة من الارباح . يعني إنهم بذلوا غاية جهدهم لتهدئة العمال باثارة اهتمامهم ماليا بعملهم . ولكن توزع الاسلاب ، كنظام ، كان شيئا مضحكا ومتعذرا . فلم يكن توزع الاسلاب لينجح الا في حالات معزولة وسط نظام قائم على الصراع الصناعي . ذلك بأنه لو ان العمال كلهم والرأسماليين كلهم تقاسموا الارباح اذن لسادت الاحوال نفسها التي كانت سائدة عندما لم يكن ثمة اقتسام ارباح .

وهكذا فمن فكرة اقتسام الارباح غير العملية نشأت فكرة توزيع الاسلاب العملية . « اعطونا اجورا أعلى وحملوا الجمهور فرق ذلك » ذلك كان شعار الاتحادات القوية . وهنا وهناك اقترنت هذه السياسة الانانية بالنجاح . انها بتحميلها الجمهور فرق الاجور انما أثقلت في الواقع كاهل العمال غير المنظمين ، وهم كثرة الشغيلة الكاشرة ، وكاهل العمال المنظمين تنظيما ضعيفا . ومن هنا كان هؤلاء العمال هم الذين دفعوا ، في الواقع ، الاجور المزيده التي نالها اخوانهم الاشد منهم بأسا ، اخوانهم الاعضاء في الاتحادات التي كانت احتكارات عمالية . والتضامن بين الاوليفاريكين والاتحادات المدللة كان ، كما قلت ، مجرد دفع لهذه الفكرة الى غايتها المنطقية ، على نطاق واسع ٨٩ .

وما ان ذاع سر ارتداد الاتحادات التي آثرها الاوليفاريكون بعطفهم حتى عمت العالم العمالي غمغمات وهمهمات . وبعد ذلك انسحبت هذه الاتحادات من المنظمات الدولية ، وقطعت كل ما بينها وبين الحركة العمالية من صلات . ثم كان الاضطراب والعنف . لقد وصم أعضاء الاتحادات المدللة بالخيانة ، وفي الصالونات والمواخير ، وفي الشوارع والمصانع ، وفي الواقع في كل مكان ، هوجموا في قسوة بالغة من جانب رفاقهم القديماء ، اولئك الرفاق الذين تخلى عنهم المرتدون في كثير من الغدر والخيانة .

وحطمت رؤوس لا حصر لها ، وصرع كثيرون . ان أحدا من أعضاء الاتحادات المدللة لم يستشعر الامن . كانوا يتجمعون زمرا زمرا لكي يتمكنوا من

٨٩ لقد شاركت في هذا التضامن مع الاوليفاريكين اتحادات السكة الحديدية كلها . ومن الطريف ان نلاحظ ان اول تطبيق واضح لسياسة توزيع الاسلاب انما قام به اتحاد من اتحادات السكة الحديدية في القرن التاسع عشر ، اعني « أخويصة مهندسي القاطرات » . وطوال عشرين سنة كان ب . م . آرثر P. M. Arthur هو الرئيس الاعلى لتلك الاخوية . فبعد الاضراب في سكة حديد بنسلفانيا عام ١٨٧٧ خطر له ان يقترح على مندوبي الشركة خطة جديدة تقضي بعقد تفاهم بين « مهندسي القاطرات » وبين الشركة يتخلى فيه المهندسون عن رفاقهم في اتحادات العمال الاخرى ويحصرهم بهم في تحسين أوضاعهم الخاصة . ونجحت هذه الخطة نجاحا باهرا ، ومنها نحتت لفظة « التورثر » arthurisation التي تعني اسهام الاتحادات العمالية في توزيع الاسلاب . لقد طالما حيرت لفظة الـ arthurisation علماء اللغة ، ولكنني ارجو ان يكون اشتقاقها قد أمسى الآن واضحا .

الذهاب الى العمل او الرجوع من العمل • وكانوا يمشون ابدا في وسط الشارع • ذلك بانهم لو مشوا على الارصفة اذن لكان من الراجح ان تسحق جماجمهم بوابل من الآجر والحصى كان ينصب عليهم من النوافذ والسطوح • واجازت لهم السلطات ان يحملوا السلاح ، وساعدتهم بكل وسيلة • وحكم على المعارضين لهم بالسجن اامادا طويلة وعوملوا في السجون في قضاظة وخشونة • على حين لم يجز لاي رجل غير منضم الى الاتحادات المدللة ان يحمل سلاحا ما • ولقد اعتبر كل خرق لهذا القانون جنحة عظمى تنزل بمرتكبها عقوبة تتكافأ وخطورة ما جنت يداه •

ولكن العمال المضطهدين واصلوا الاثثار من الخونة • وعلى نحو آلي تشكلت خطوط الطبقة الاجتماعية المقفلة ، فاذا بأبناء الخونة يقاسون الامرين من ابناء العمال الذين غدر بهم ، حتى لقد اصبح من المتعذر على الاولين ان يلعبوا في الشوارع او ان يذهبوا الى المدارس العامة • ليس هذا فحسب ، بل لقد نبذت زوجات الخونة واسرهم ، في حين قوطع بقال الزاوية الذي باعهم ما كانوا يحتاجون اليه من مؤن •

وهكذا حمل الخونة هم واسرهم على الانكماش على انفسهم والعيش على نحو عشائري • واذا وجدوا ان من المتعذر عليهم ان يقيموا في امن وسلام وسط البروليتاريا التي خانوها ، فقد انتقلوا الى احياء جديدة لا يقطن فيها احد غيرهم • وحاباهم الاوليفاركيون في ذلك • لقد شيدت لهم بيوت صالحة ، بيوت عصرية وصحية ، تحيط بها امنية عراض وتفصل ما بينها ههنا وههناك حدائق عامة وملاعب • واخذ اولادهم يتلقون العلم في مدارس انشئت خصيصا من أجلهم ، وكان المنهج التعليمي في هذه المدارس يضع التوكيد على التدريب اليدوي والعلم التطبيقي • وهكذا على نحو حتمي نشأت عن هذا العزل ، منذ اللحظة الاولى ، طبقة اجتماعية مقفلة • لقد أصبح اعضاء الاتحادات المدللة هم ارستوقراطية العمال • لقد عزلوا عن سائر العمال • كانت بيوتهم خيرا من بيوت سائر العمال ، وكانت ملابسهم احسن ، وتغذيتهم افضل ، والمعاملة التي يعاملون بها اطيب • كانوا يتوزعون الاسلاب مع الاوليفاركيين الى ابعد حد مستطاع •

وفي غضون ذلك عومل سائر العمال على نحو اقسى وأعنف • لقد انتزع منهم كثير من الامتيازات الصغيرة ، في حين هبطت اجورهم وهبط مستوى معيشتهم هبوطا موصولا • لقد فسدت مدارسهم ، مصادفة ، وشيئا بعد شيء لم يعد التعليم الزاميا • وكان تضخم ابناء الجيل الطالع الجاهلين

القراءة والكتابة شيئاً رهيباً يئذّر بخطر عظيم .
 وكان استيلاء الولايات المتحدة على الأسواق العالمية قد مزق بقية
 بلدان العالم تمزيقاً . ففي كل مكان كانت المؤسسات والحكومات تنهار
 أو تخلق خلقاً جديداً . كانت المانية وإيطالية وفرنسية وأسترالية
 وزيلندية الجديدة منهمكة في تشكيل جمهوريات تعاونية ، وكانت الإمبراطورية
 البريطانية تنفّس وتتنجّز . كانت انكلترا في شغل شاغل . ففي الهند كانت
 الثورة في أوج احتدامها . وكانت الصيحة في اسية كلها : « اسية للاسيويين ! »
 وخلف هذه الصيحة كانت اليابان ما تفتأ تحرض الشعوب الصفراء والسمراء
 وتساعدهم على البيض . وفيما كانت اليابان تحلم بانشاء امبراطورية قارية
 وتناضل لتحقيق هذا الحلم عمدت الى قمع ثورتها البروليتارية . كانت
 مجرد حرب طبقات مقفلة : الكولي * ضد الساموراي ** ولقد اعدم الاشراكيون
 الكوليون بعشرات الالوف . لقد قتل اربعون الفا في القتال الدائر في شوارع
 طوكيو وفي الهجوم الفاشل على قصر الميكادو . واستحالت « كوب » *** الى
 مجزرة . ولقد أصبح تقتيل عمال مصانع القطن بنيران البنادق الاوتوماتيكية
 حدثاً كلاسيكياً يعتبر افطع مجزرة قدر لاسلحة الحرب الحديثة ان تقوم بها .
 وكانت الاوليغاركية اليابانية التي نشأت آنذاك أكثر وحشية من الجميع .
 وسيطرت اليابان على الشرق ، واحتكرت كامل الجزء الاسيوي من السوق
 العالمية ، ما عدا الهند .

وتمكنت انكلترا من سحق ثورتها البروليتارية والاحتفاظ بالهند ، على الرغم
 من ان ذلك كان يستنفد قواها كلها . ليس هذا فحسب ، بل لقد اضطرت الى
 ان تدع مستعمراتها الكبيرة تنفصل عنها واحدة اثر اخرى . وهكذا وفق
 الاشتراكيون الى تحويل اوسترالية وزيلندا الجديدة الى جمهوريتين تعاونيتين .
 وانفصلت كندا عن الوطن الام بدافع من السبب نفسه . ولكن كندا سحقت
 ثورتها البروليتارية ، تؤيدها العقب الحديدية في ذلك . وفي الوقت نفسة ساعدت
 العقب الحديدية المكسيك وكوبا على قمع الثورة . فكان ثمرة هذا كله ان
 توطدت قدم العقب الحديدية في العالم الجديد . كانت قد صهرت اميركة

* Coolie جماعة العمال في الهند والصين واليابان (المغرب)

** Samurai في النظام الاقطاعي القديم في اليابان طبقة النبلاء والرجال

العسكريين (المغرب)

*** Kobe ميناء ياباني في خليج أوساكا (المغرب)

الشمالية برمتها ، من قناة بناما الى المحيط المتجمد الشمالي ، في كتلة سياسية متراسية .

ولم توفق انكلترة ، مضحية في ذلك بمستعمراتها الكبيرة ، الى الاحتفاظ بأكثر من الهند . ولكن هذا كان احتفاظا مؤقتا ليس غير . ذلك بأن الصراع مع اليابان وسائر أسية لانتزاع الهند كان قد أرجىء مجرد أرجاء . وكان مقدرا على انكلترة ان تخسر الهند وشيكا ، على حين لاح وراء هذا الحدث صراع جبار بين أسية موحدة وبين العالم .

وبينما كانت النزاعات تمزق العالم كله لم تكن نحن في الولايات المتحدة ننعم بالطمأنينة والامن . كان ارتداد الاتحادات الكبرى قد حال دون اندلاع ثورتنا البروليتارية ، ولكن العنف كان مهيمنا في كل مكان . وبالإضافة الى الاضطرابات العمالية والى استياء المزارعين والبقية الباقية من الطبقة الوسطى اندلعت نار احياء ديني . فقد لمع فجأة نجم فرع من فروع «الادفنتستز»* ليعلن نهاية العالم .

وصاح أرنست

« اضطراب مثلث اللعنات ! كيف نرجو أن نحقق وحدة الصف العمالي في غمرة من هذه النزاعات والاهداف المتعارضة كلها ؟ »

والحق ان الاحياء الديني ما لبث أن استفحل الى حد رهيب . كان الناس - بسبب من يؤسهم وخيبة أملهم في كل الاشياء الارضية - تواقين الى جنة سماوية لا يستطيع طغاة الصناعة دخولها الا بقدر ما يستطيع الجمل ان يلج في سم الخياط ، وكانوا مستعدين للسير وراء كل من يدعوهم الى الايمان بتلك الجنة . وهكذا انطلقت جيوش المبشرين تطوف في البلاد يعيرون متلفعة . ورغم تحريم السلطات المدنية لمعتقدات هذه الطائفة واضطهادها اتباعها بتهمة التمرد ، فان اجتماعات دينية لا تعد ولا تحصى استطاعت أن تذكي نيران الحبل الديني .

لقد زعموا اننا انتهينا الى الايام الاخيرة ، الى بدء نهاية العالم . كانت الرياح الاربعة قد اطلقت من عقاليها . وكان الله قد حرض الشعوب على النضال . ولقد كان العصر عصر رؤى ومعجزات ، في حين كان المتنبيون والمتنبئات كثيرا يتعذر احصاؤهم او يكاد . وكف الناس ، بمئات الالوف ، عن العمل وفروا بأنفسهم الى الجبال لينظروا هناك تجلي الله الوشيك وارتفاع

* Adventists طائفة دينية تقول بعردة المسيح الى الارض وتعلن ان نهاية العالم آتت وشيكة . (المغرب)

المنة والاربعة واربعين ألفا الى السماء * ولكن الله لم يتجل لهم ، وأملت
المجاعة حتى الموت بأعداد منهم كبيرة * حتى اذا استبد بهم اليأس ، اجتأحوا
المزارع التماسا للطعام ، فاذا بالشغب والفوضى اللذين سادا المناطق الريفية
أثر ذلك لا يزيدان المزارعين البائسين الذين نزعزعت عنهم ملكية أراضيهم الا
شقاء على شقاء *

والى هذا ، فقد كانت المزارع والمستودعات ملكا للعقب الحديدية أيضا .
لقد انزلت قوات من الجيش النظامي الى الميدان ، وأكره المتعصبون - برؤوس
الحراب - على العودة الى أعمالهم في المدن * وهناك تمردوا على نحو
موصول ولجأوا الى التظاهر والشغب * لقد أعدم زعمائهم بتهمة العصيان
أو حبسوا في مستشفيات المجاذيب * والحق ان أولئك الذين أعدموا واجهوا
الموت بابتهاج الشهداء كله * لقد كان عصر جنون * عصرا انتشر فيه القلق *
وفي المستنقعات والصحاري والقفار ، من فلوريدا الى الاسكا ، كان جماعات
الهنود الحمر الصغيرة ، التي استطاعت ان تبقى على قيد الحياة ، ترقص
رقصات شبحية * وتنتظر ظهور مسيح من أبناء جلدتها *

وخلال ذلك كله ، وفي هدوء وثقة مروعين ، واصلت الاوليفاركية ،
هولة العصور كلها ، تقدمها الصاعد * لقد هيمنت بيد حديدية وعقب حديدية
على الملايين الهائجة ، وأقامت النظام في غمرة من الاضطراب ، ومن العماء
Chaos نفسه صنعت اساسها وبنيته *

- « انتظروا حتى نتولى زمام الامر ! » كذلك قال الغراينجيون ...
كذلك قال لنا كالفين في بيتنا القائم في بيل ستريت * « انظروا الى الولايات
التي فزنا فيها بكثرة الاصوات * واذا ما ظاهرتونا ، ايها الاشتراكيون ،
فسنفرض عليهم ، عندما نتولى الحكم ، ان يتكلموا بلهجة ذليلة » *

وقال الاشتراكيون :

- « ان الملايين من الناقمين والمعوزين هم في جانبنا * فقد انضم اليينا
الغراينجيون ، والمزارعون ، والطبقة الوسطى ، والعمال * والنظام الرأسمالي
سوف ينهار * وبعد شهر واحد ليس غير سنبعث الى الكونغرس بخصميين
ناثبا * وبعد سنتين اثنتين ستكون المناصب كلها في ايدينا ، من رئاسة

* Ghost dance وهو ضرب من الرقص الديني عند هودو اميركة الشمالية الحمر
يراد به التضرع لتمكين الراقص من الاتصال بارواح اصدائه الراحلين * (المعرب)

الجمهورية حتى وظيفة « القابض على الكلاب » المحلية » •
وكان ارنست يهز برأسه لدى سماعه هذا كله ، ويقول :
- « كم بندقية تملكون ؟ هل تعرفون اين تستطيعون الحصول على مقدار
وافر من الرصاص ؟ وحين يبلغ الامر حد استعمال البارود صدقوني اذا قلت
لكم ان المزيج الكيميائي خير من المزيج الميكانيكي » •

الفصل السادس عشر

النهاية

وحين آن لي ولأرنست ان نشخص الى واشنطن لم يرافقنا ابي • كان قد أمسى مفتونا بالحياة البروليتارية • لقد نظر الى حيننا العمالي القدر نظرتة الى مختبر ضخم من مختبرات علم الاجتماع ، وكان قد باشر الانهماك في بحوث بدت وكأنها لا نهائية • لقد خادن العمال ، وكان يستقبل استقبال الصديق الحميم في عشرات من البيوت • ليس هذا فحصب ، بل لقد نهض بكثير من الاعمال الغريبة ، وكان العمل عنده لعبا بقدر ما كان استطلاعا علميا ، ذلك بأنه ابتهج به ، وكان يؤوب الى البيت ، دائما ، بملاحظات واسعة حول مغامراته الجديدة • لقد كان مثال العالم الكامل •

ولم يكن ثمة ايما حاجة لقيامه بعمل ما ، لان ارنست وفق الى ان يكسب من عمله في حقل الترجمة ما يكفي لاعالتنا ثلاثتنا • ولكن ابي اصر على ملاحقة طيفه الاثير لديه ، وانه لطيف كثير التقلب ، على ما يستدل من الاعمال التي انصرف اليها • ولن أنسى ما حييت ذلك المساء الذي حمل فيه الى البيت عدته الخاصة بالبيع المتطوف في الشوارع ، وهي مؤلفة من شريط حذاء وحماله بنطلون ، ولا ذلك اليوم الذي قصدت فيه الى البقالة الصغيرة القائمة عند الزاوية لاشترى بعض الحاجات فاذا بي اجدته هناك مستعدا لخدمتي • وبعد ذلك لم أعجب اذ رأيته يعمل ، طوال اسبوع ، ساقيا في حانة قائمة عبر الشارع • لقد اشتغل حارسا ليليا ، وباع البطاطا بالتطواف بها في الشارع ، والصق البطاقات في مستودع من مستودعات السرددين المقلب ،

وعمل في مصنع للورق المقوى ، وحمل الماء الى جماعة من العمال منهمكين في انشاء خط من خطوط النقل المشترك في أحد الشوارع ، بل لقد انضم الى نقابة غاسلي الصحنون قبل انحلالها بفترة يسيرة جدا .

واحسب ان المثل الذي ضربه الاسقف ، بقدر ما يتعلق الامر بارتداء الكساء العمالي ، قد فتن ابي فتونا ، ذلك باثه ارتدى قميص العمال القطني الرخيص والوزرة ذات الطوق الضيق عند الوركين . ومع ذلك فقد احتفظ بعادة واحدة من عادات حياته القديمة : كان يحرص على ارتداء ملابسه الرسمية كلما تناول طعام العشاء .

لقد كان في ميسوري ان انعم بالسعادة ما بقيت مع ارنست . وكانت سعادة ابي في ظروفنا المتغيرة تكمل لنا سعادتنا على خير وجه . وقال ابي :

« كنت في صباي شديد الفضول . لقد اردت ان اعرف لماذا كانت الاشياء وكيف اتفق لها ان تحدث . وهذا هو السبب الذي من اجله تخصصت في الفيزياء . ان الدماء التي تجري في عروقي اليوم لا تقل عما كانت عليه في صباي ، وان كون المرء فضوليا هو الذي يجعل الحياة جديرة بان تعاش » . وفي بعض الاحيان كان يغامر موجه وجهه شمالي « ماركت ستريت » الى منطقة المسارح والمحال التجارية حيث كان دأبه ان يبيع الصحف ، وان يشتري بعض الحاجات لحساب امرىء ما ، ويفتح ابواب عربات الاجرة . وذات يوم ، فيما كان يوصد هناك باب احدى العربات ، التقى بمستر ويكون . وفي طرب بالغ قص ابي ، تلك الليلة ، هذه الحادثة على مسامعنا فقال :

« لقد رمقني ويكسون بنظرة حادة عندما اوصدت باب العربة عليه وغمغم : « حسنا ، سوف تحل علي اللعنة ! » اجل ، هكذا نطق بها « حسنا ، سوف تحل علي اللعنة ! » وشاع الدم في وجهه ، وغلب عليه الاضطراب حتى لقد نسي ان ينقذني اي بقشيش . ولكنه استعاد رباطة جأشه على وجه السرعة ، من غير ريب ، اذ ما كانت العربة تجتاز مسافة خمسين قدما حتى استدارت وانقلبت على عقبها . وانحنى ويكسون مطلا من وراء الباب وقال : « انظر هنا ، ايها الاستاذ » هذا اكثر مما ينبغي . ما الذي استطيع ان اقدمه اليك من خدمة ؟ »

« فاجبته : لقد اوصدت باب العربة خلفك . وفي امكانك تبعا للعرف الشائع ان تعطيني عشر دولار » . فقال : دع هذا الهراء . انا اسالك اية خدمة ذات شان استطيع ان

أقدمها اليك ؟ » •

« كان جادا من غير ريب ، ولعل مرد ذلك الى وخز ضمير متعظم *
او شيء من هذا القبيل • وهكذا استغرقت لحظة في تفكير رزين •
« وكان وجهه طافحا بالتوقع عندما شرعت في الاجابة ، ولكن كان
عليكما ان ترياه عندما انتهيت •

« لقد قلت : في استطاعتك ان ترد الي بيتي ، واسهمي في مصانع سيرا »
وصمت أبي لحظة وسألته في لهفة :

« ماذا قال عندئذ ؟ »

« ما الذي كان في استطاعته ان يقول ؟ انه لم يقل شيئا • ولكنني قلت
له : « أرجو أن تكون سعيدا » • فنظر الي في فضول • فسألته : « قل لي ،
هل انت سعيد ؟ »

« فامر الحوذي بالانطلاق ، وراح يشتم ويسب على نحو رهيب • ولم
يعطني عشر الدولار ، بله البيت والاسهم • وهكذا ترين ، يا عزيزتي ، ان
مهنة أبيك البوهيمية تكتنفها خيبات أمل كثيرة » •

وهكذا أثر أبي ان يلزم بيتنا في بيل ستريت ، على حين مضيت انا
وارنست الى واشنطن • كانت الادارة القديمة قد اقصيت تقريبا ، وكان
اقصاؤها النهائي اقرب مما توهمت • وعلى نقض ما توقعنا فان اياما عقبات
لم تقم للحؤول دون احتلال النواب الاشتراكيين مقاعدهم في الكونغرس • كان
كل شيء يجري على نحو سلس ، ولقد سخرت من ارنست حين رأى في هذه
السلسلة نفسها نذيرا بسوء •

لقد ألفينا رفاقنا الاشتراكيين متفائلين واثقين من قوتهم ومن الاشياء
التي كانوا قادرين على انجازها • وزادنا قوة الى قوة عدد قليل من
الغراينجيين الذين فازوا بعضوية الكونغرس ، فاعددنا بالتعاون معهم برنامجا
مفصلا بما يتعين علينا ان نفعله • وشارك ارنست في ذلك كله باخلاص وعزم ،
على الرغم من انه لم يتمالك عن القول ، بين الغينة والغينة ، لا بصدد شيء
بخاصة : « حين يبلغ الامر حد استعمال البارود صدقوني اذا قلت لكم ان
المزيج الكيميائي خير من المزيج الميكانيكي » •

وكان الغراينجيون الذين وفقوا في الانتخابات الاخيرة الى انتزاع
الاغلبية في بعض الولايات هم اول من تعرض للبلاء • كان عدد هذه الولايات
اثنتي عشرة ، ولكن الغراينجيين المنتخبين لم يجز لهم ان يتولوا مناصبهم •

* Ossified أي متحول الى عظام ، كناية عن القسوة البالغة •

فقد أبى محتلو هذه المناصب ان يتخلوا عنها . وكان ذلك امرا هينا جدا . لقد زعموا ان الانتخابات لم تكن شرعية ليس غير ، وطوقوا الوضع كله برباط الروتين الرسمي ، هذا الرباط الطويل الذي ما يكاد ينتهي . واسقط في ايدي الغراينجيين . فلجأوا الى المحاكم ، بوصفها السهم الاخير . ولكن المحاكم كانت العوبة في يد أعدائهم .

تلك كانت لحظة الخطر . فلو أن النواب الغراينجيين المخدوعين فزعوا الى العنف اذن لفقدوا كل شيء . ولا تسل كم ناضلنا نحن الاشتراكيين من أجل كبح جماحهم ! فقد أتت علينا أيام وليال لم تعرف فيها عينا ارنست طعم الغمض قط . وبصر زعماء حزب غراينج الكبار بالخطر المحقق ، فوقفوا في صفنا وقفة رجل واحد . ولكن ذلك كله لم يجد نفعا . لقد ارادت الاوليغاركية العنف ، واوعزت الى عملائها المحرضين بأن ينشطوا . وليس من ريب في ان العملاء المحرضين agent-provocateurs هم الذين سببوا ثورة الفلاحين واندلعت نار الثورة في اثنتي عشرة ولاية . واستولى المزارعون الذين نزعت منهم ملكية اراضيهم على حكومات الولايات عنوة . وكان ذلك عملا غير دستوري طبعاً . وانزلت الحكومة الاتحادية جيوشها الى الميدان طبعاً . وفي كل مكان راح العملاء المحرضون يحضون الناس على التمرد والعصيان . ولقد تقنن جواسيس العقب الحديدية هؤلاء باقنعة مختلفة ، فهم حرفيون حيناً ، وعمال زراعيون حيناً آخر . وفي ساكرامينتو ، عاصمة كاليفورنيا ، كان الغراينجيون يندفعون الى توطيد النظام والامن . فاذا بالاف من العملاء السريين يندفعون الى المدينة الموالية ، ويؤلفون من انفسهم ليس غير شرائم غوغائية راحت تطلق النار على الابنية والمصانع وتتنهبها . ثم ان هؤلاء العملاء اخذوا يحرضون الناس على الفتنة حتى شاركهم في اعمال السلب والنهب . ووزعت الخمر بمقادير وافرة على سكان الاحياء العمالية القذرة لالهاب عقولهم . وبعد ذلك ، حين امسى كل شيء جاهزاً ، ظهر على مسرح الاحداث جنود الولايات المتحدة النظاميون ، الذين كانوا في الواقع جنود العقب الحديدية . فصرع احد عشر الف رجل وامرأة وطفل بنيران بنادقهم في شوارع ساكرامينتو او ذبحوا في بيوتهم . لقد وضعت الحكومة الاتحادية يدها على حكومة الولاية ، وانتهى كل شيء بالنسبة الى كاليفورنيا .

والرواية التي مثلت في كاليفورنيا مثلت في مواطن اخرى ايضا . لقد عصف العنف بكل ولاية من الولايات التي فاز فيها مرشحو حزب غراينج ففسلها الدم غسلاً . وكان العملاء السريون وجماعات « المئات السود » هم

الذين يفتعلون الاضطراب ، بادئ الامر ، لتدعى القوات النظامية الى اقرار النظام من بعد ذلك . وساد الشغب وحكم الغوغاء ارجاء الارياف كلها . وليل نهار كان دخان المزارع والمستودعات والمقرى والمدن المحروقة يرتفع فيسد منافذ السماء . وظهر الديناميت . ونسفت جسور السكك الحديدية وانفلقها ، ودمرت القطر . وصرع الفلاحون اللائسون وشنقوا باعداد كبيرة . وكان الاثثار مريرا ، فقتلت جمهرة من البلوتوقراطيين ومن ضباط الجيش . كانت الشهوة الى الدم والانتقام تغلي في عروق الناس . وقاتلت القوات النظامية المزارعين بمثل الوحشية التي كان خليقا بتلك القوات ان تقتلهم بها لو كانوا هنودا حمرا . وكان لدى القوات النظامية سبب مبرر . فقد ابيد الغان وثمانئة جندي منهم في سلسلة رهيبية من انفجارات الديناميت في اوريغون . وعلى نحو مماثل اتلف عدد من احمال القطر الحديدية في مواطن واثرمان متفاوتة . ومن اجل هذا كانت القوات النظامية تقاتل دفاعا عن ارواحها بقدر ما كان المزارعون يقاتلون دفاعا عن ارواحهم .

وضع قانون عام ١٩٠٣ الخاص بالميليشيا موضع التنفيذ ، واكره عمال كل من الولايات ، بعد ان هددوا بالموت اذا لم يفعلوا ، على ان يصرعوا بنيران البنادق رفاقهم العمال في الولايات الاخرى . وليس من ريب في ان قانون الميليشيا لقي بادئ الامر مقاومة عنيفة . فقد قتل كثير من ضباط الميليشيا واصدرت المحاكم العرفية الملتزمة في خط النار احكامها بالموت على كثير من رجال الميليشيا . وصدقت على نحو مذهل نبوءة ارنست في حالي مستر كيوالت ومستر آسمونسين . كان كل منهما صالحا للخدمة في صفوف الميليشيا ، ولقد اختير كل منهما للمشاركة في الحملة التاديبية التي جردت من كاليفورنيا ضد مزارعي ميسوري . وابسى مستر كيوالت ومستر آسمونسين المشاركة في تلك الحملة . ومنحا مهلة وجيزة . واخيرا سيقا الى المحكمة العرفية فاصدرت حكمها عليهما بالموت . ولقد أعدما رميا بالرصاص ، موليين ظهريهما الشرنمة التي اطلقت النار عليهما .

وفر كثير من الشباب الى الجبال تخلصا من الخدمة في صفوف الميليشيا . وهناك اصبحوا خوارج على القانون ، ولم تنزل عقوبتهم بهم الا بعد ان هدأت الاحوال بعض الشيء . وكان ذلك رهيبا . فقد اصدرت الحكومة بيانا دعت فيه جميع المواطنين الحريصين على اطاعة القانون الى مبارحة الجبال والاستسلام للسلطات في مدى ثلاثة اشهر . حتى اذا انتهى الاجل المضروب وجهت الى المناطق الجبلية في كل مكان قوات عسكرية تبلغ عدتها نصف مليون

رجل • ولم يكن ثمة تحقيق ، ولم يكن ثمة محاكمة • فما ان تلتقي القوات رجلا ما حتى تصوب اليه النار فترديه صريعا • ولقد عملت القوات على اساس من انه لم يبق في الجبال ايما رجل غير خارج على القانون • وقاتلت بعض العصابات ، المعتصمة في مراكز متينة ، قتالا باسلا ، ولكن جميع الابقين من الميليشيا لقوا حتفهم اخر الامر •

وخلفت العقوبة التي انزلت بميليشيا اثرا اشد وقعا في نفوس الناس واذهانهم • والواقع ان تمرد كانساس العظيم حدث في مستهل العمليات العسكرية ضد الغراينجيين • فقد تمرد ستة الاف من رجال الميليشيا على قادتهم • وكان النكد والامتياع قد غلب عليهم ، قبل ذلك ، طوال اسابيع متعددة • بيد ان تمردهم الصريح انما احده العمالء المحرضون ، فجة ، من غير ريب •

في ليل الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) اعلنوا العصيان واعملوا السيف في رقاب ضباطهم فلم تنج من هؤلاء غير قلة قليلة • وكان ذلك ابعد مما بيتته العقب الحديدية من مؤامرة ، ذلك بان العمالء المحرضين كانوا قد اجادوا اداء مهمتهم اكثر مما ينبغي • ولكن العقب الحديدية عرفت كيف تفيد من كل شيء • كانت قد استعدت لذلك التمرد ، فاذا بمصرع هذا العدد الضخم من الضباط يقدم اليها مبررا لما حدث بعد ذلك • لقد طوق اربعون الفا من رجال الجيش النظامي ، بمثل السحر ، المتمردين من قوات الميليشيا • كان ذلك شركا • ووجدت قوات الميليشيا البائسة ان بنادقها الاوتوماتيكية كان قد عبث بها ، وان الخراطيش المصادرة من مستودعات السلاح التي استولوا عليها لم تلائم بنادقهم • ورفعوا راية الاستسلام البيضاء ، ولكنها تجوهلت • لم يبق على قيد الحياة احد منهم ، لقد افني الآلاف الستة على بكرة ابيهم • لقد قذفوا من على مسافة يسيرة بالقنابل العادية وقنابل « شراينيل » ، حتى اذا هجموا - في ياسهم - على الخطوط التي كانت تطوقهم ، حصدوا بوابل من نيران البنادق الاوتوماتيكية • وتحدثت الى شاهد عيان فقال ان ادنى رجل من رجال الميليشيا الى البنادق الاوتوماتيكية كانت تفصله عنها مئة وخمسون ياردة • وفرشت الارض بجثث القتلى • ثم ان سلاح الفرسان حمل على المتمردين ، بحوافر خيله ومسدساته وسيفه ، حملة اخيرة سحقته الجرحى المنطرحين على سطح الارض •

وفيما كانت السلطات تضرب الغراينجيين هذه الضربة القاضية نشبت ثورة عمال مناجم الفحم الحجري • كانت تلك الثورة هي اخر جهد بذلته

الحركة العمالية المنظمة وهي على فراش الاحتضار . فقد أعلن الاضراب ثلاثة ارباع مليون عامل من عمال تلك المناجم . ولكنهم كانوا مشتتين فسي مختلف انحاء البلاد تشتتت أفقدهم القدرة على الافادة من قوتهم . لقد عزلوا في مناطقهم وكرهوا على الاستسلام . وكانت هذه أول عملية استرقاق ضخمة . وفي اثناها فاز بوكوك ٩٠ بشهرته كجلاد عبيد ، واكتسب مقت البروليتاريا الذي لا يموت . وجرت محاولات لا تحصى لاغتياله ، ولكنه بدأ وكان رقيقة كانت تصونه . لقد كان هو ، دون غيره ، المسؤول عن ادخال نظام الجواز الروسي الى دنيا المناجم والمسؤول عن حرمان عمالها حق الانتقال من جزء من اجزاء البلاد الى آخر .

وفي غضون ذلك صمد الاشتراكيون . فبينما كان الغراينجيون يتلاشون نفسا في نفس ، والحركة العمالية المنظمة تمزق ، تعلق الاشتراكيون بأهداب الامن والهدوء وانصرفوا الى تعزيز منظمتهم السرية واضفاء صفة الكمال عليها . وتضرع اليها الغراينجيون ، ولكن على غير طائل . فقد ذهبنا الى القول ، بحق ، ان ايما عصيان نقوم به نحن معناه انتحار الثورة كلها فعليا . ذلك ان العقب الحديدية - وكانت في بادئ الامر مرتابة في مقدرتها على مواجهة البروليتاريا برمتها في آن معا - ما لبثت ان وجدت المهمة ايسر مما توقعت ، فهي لا ترحب بشيء أكثر من ترحيبها بانتفاضة من جانبنا . ولكننا اجتنبنا ذلك على الرغم من ان العملاء المحرضين اندسوا وسطنا بأعداد

٩٠ البرت بوكوك Pocock ، وكان مفسدا آخر شهيرا من مفسدي الاضرابات في تلك الايام ، وقد وفق حتى آخر يوم من ايام حياته الى حمل عمال مناجم الفحم الحجري في الولايات المتحدة على ملازمة اعمالهم على نحو موصول . وقد خلفه في هذه المهمة ابنه لويس بوكوك ، وطوال خمسة اجيال عرفت هذه السلالة من جلادي العبيد كيف تسيطر على عمال الفحم الحجري . وقد وصف بوكوك الكبير، المعروف ببوكوك الاول ، بما يلي : « رأس طويل مهزول تحيط به على شكل نصف دائرة ، حاشية من شعر اسمر وأشيب ، ضخم عظم الوجنتين كثيف اللحية ... وجه شاحب ، وعينان رماديتان لا يريق فيهما ، وصوت معدني ، مترهل فاتر الهمة . » لقد ولد في اسرة متواضعة ، وبدأ حياته ساقيا في حانة . ثم انه أمسى شرطيا سرييا خصوصا عاملا في خدمة احدى شركات النقل بالاورتيبيسات ، ومن ثم تقدم في خطى وثيدة ليصبح مفسدا محترفا من مفسدي الاضرابات . أما بوكوك الخامس ، آخر السلالة ، فقد صرعه قنبلة خلال اضراب صغير أعلنه عمال المناجم في « المنطقة الهندية » . وقد حدث ذلك في عام ٢٠٧٣ ليلاد المسيح .

كبيرة . في تلك الايام المبكرة كان عملاء العقب الحديدية خرقا في طرائقهم وأساليبهم . كان عليهم ان يتعلموا اشياء كثيرة ، وفي غضون ذلك اعملت « زمرنا المقاتلة » يد التنخيل والغربة فيهم . كانت مهمة مريرة دامية ، ولكننا كنا ندافع عن حياتنا وعن الثورة ، وكان علينا ان نحارب العدو بأسلحته ذاتها . ومع ذلك فقد كنا عادلين . اننا لم نعدم أيما عميل من عملاء العقب الحديدية دون محاكمة . جائز ان نكون قد ارتكبنا اخطاء ، ولكن هذه الاخطاء - اذا صح اننا اقتترفناها - كانت نادرة جدا . لقد انضم اشجع رفاقنا واصبرهم على النضال واكثرهم تضحية بالنفس الى « الزمر المقاتلة » . وذات يوم ، بعد انقضاء عشر سنوات على هذه الاحداث ، أجرى ارنست حسابا بناه على اساس من الارقام التي زوده بها زعماء « الزمر المقاتلة » ، فالتى الى الاستنتاج ان متوسط عمر الرجل او المرأة بعد انتسابه (او انتسابها) الى تلك الزمر كان خمس سنوات ليس غير . كان رفاقنا المنضوبون تحت راية « الزمر المقاتلة » ابطالا كلهم . ووجه الغرابة فيهم انهم كانوا ضد القتل وازهاق الارواح . لقد خالفوا طبائعهم ذاتها ، ومع ذلك فقد أحبوا الحرية ، ولم يضمنوا على القضية بأيما تضحية مهما غلت ٩١ .

٩١ هذه « الزمر المقاتلة » نطعت الى حد ما على غرار « المنظمة المقاتلة » التي نشطت خلال الثورة الروسية . ورغم جهود « العقب الحديدية » ، الموصولة فقد عاشت هذه الزمر طوال القرون الثلاثة التي ساد فيها حكم العقب الحديدية . لقد تآلفت من رجال ونساء يجدهم غرض رفيع وجراة على الموت ، ومن هنا تمتعت بنفوذ هائل ، ولطفت من وحشية الحكام البربرية . ولم يكن عملهم مقصورا على محاربة عملاء الاوليغاركية السريين حربا خفية . فقد اكراه الاوليغاركيون انفسهم على الاصغاء الى قرارات « الزمر المقاتلة » ، وكثيرا ما كانت عقوبة الموت تنزل بهم اذا ما عصوا والشيء نفسه يصح في مروؤسي الاوليغاركيين ، في ضباط الجيش وزعماء الطوائف العمالية المقفلة .

كان هؤلاء المنتقمون المنظمون يحرصون على الحكم بالعدل ما جهدوا الى ذلك سبيلا . ولكن ازوع ما فيهم كان حرصهم على التقيد بالاجراءات القضائية في غير ما انفعال ولا ميل مع الهوى . لم تكن ثمة ، عندهم ، محاكمات ارتجالية . كانوا اذا ما لقي القبض على امرئ منحوه حق المثول امام محكمة عادلة وفرصة للدفاع عن نفسه . ولقد قضت الضورورات القاهرة بمحاكمة رجال كثيرين ثم بتنفيذ حكم الاعدام فيهم بالنيابة عن المحكمة . كالذي حدث للجنرال لامبتون Lampton . وكان ذلك عام ٢١٢٨ ليلاد المسيح . وكان لامبتون هذا اخبث

وكانت المهمة التي ندبنا لها أنفسنا ذات ثلاث شعب • أولا ، تطهير
أوساطنا من عملاء الاوليغاركية السريين الذين اندسوا فيها • ثانيا ، تنظيم
« الزمر المقاتلة » ومنظمة الثورة السرية العامة • ثالثا ، بث عملاتنا السريين
في كل شعبة من شعب الاوليغاركية - في الطوائف العمالية المغفلة ، وبخاصة
بين عمال البرق وأمناء السر وموظفي المكاتب ، وفي الجيش ، وفي أوساط
العملاء المحرضين وجلادي العبيد • كانت مهمة بطيئة وخطرة ، وكثيرا ما
كانت جهودنا تمنى باخفاق يكلفنا غالبا •

المرتزقة الذين قدر لهم ان يخدموا العقب الحديدية وأشدهم تعطشا للدماء ، وقد
أثباته « الزمر المقاتلة » بأننا قد حاكمته ، فوجدته مذنباً ، فحكمت عليه بالموت -
وذلك بعد ثلاثة اذارات وجهت اليه بضرورة الاقلاع عن الاساءة الى البروليتاريا
ومعاملتها معاملة شرسة • وبعد الحكم عليه بالموت أحاط نفسه بعدد لا نهاية
له من الوسائل الوقائية • وانقضت سنوات ، وعبثا كافحت « الزمر المقاتلة »
في سبيل تنفيذ الحكم الذي أصدرته • فإذا بالرفيق أثر الرفيق ، والرفيقة اثر
الرفيقة ، يخفقون في محاولاتهم ، فتنزل بهم الاوليغاركية عقوبة الاعدام في قسوة
بالغة • وقضية الجنرال لامبتون هي التي أحييت الصلب كطريقة شرعية في الاعدام •
ولكن لامبتون وجد آخر الامر جلاده في شخص فتاة نحيلة في السابعة عشرة من
العمر تدعى مادلين بروفانس • وقد ماتت في الحبس الانفرادي بعد تعذيب رهيب
متطاوّل ، ولكنها مخلدة اليوم في تمثال برونزي اقيم في « بانتيون الاخاء » في
مدينة سيرليس المعجزة •

ان علينا نحن الذين لا نعرف بالاختبار الشخصي شيئا عن اراقة الدماء ان
لا نقسو في حكمنا على أبطال « الزمر المقاتلة » • لقد باعوا ارواحهم في سبيل
الانسانية ، وما كانوا ليبخلوا عليها بأيما تضحية مهما تكن • والواقع ان
الضرورة التي لا ترحم هي التي اكرهتهم على تلويث أيديهم بالدم في عصر من عصور
الدم • وأن « الزمر المقاتلة » كانت شوكة في جنب « العقب الحديدية » لم تستطع
هذه الاخيرة نزعها البتة • ولقد كان ايفرهارد أبا هذا الجيش الحبيب ، وأن
منجزاته واستمراره الموفق طوال ثلاثمئة عام لتنهض دليلا على الحكمة التي اتسم
بها تنظيمه للحركة النضالية وعلى الاساس المكين الذي وضعه للأجيال التالية
لكي تشيد فوقه صرح الاشتراكية الحق • وأيما ما كان فان تنظيمه « للزمر المقاتلة »
يجب أن يعتبر من بعض النواحي ، وعلى الرغم من أثره العظمى في علمي
الاقتصاد والاجتماع ومن عمله كفائد عام في الثورة ، أعظم ماثرة قدر له القيام بها •

كانت العقبة الحديدية قد انتصرت في الحرب المكشوفة ، ولكننا صمدنا في الحرب الجديدة ، الحرب الغريبة الرهيبة السرية ، التي ابتدعناها . كان كل شيء غير منظور ، وكانت ثمة اشياء كثيرة مستغلقة على الفهم . لقد قاتل العميان العميان ، ومع ذلك فقد كانت العزيمة والنظام والضبط تنتظم هذا كله . لقد تخلصنا منظمة « العقبة الحديدية » كلها بعملنا السريين ، في حين تخلل عملاء « العقبة الحديدية » السريون منظمنا نحن . كانت حربا مظلمة ، ملتوية ، مفعمة بالمكائد والمؤامرات ، والدسائس ، المضادة . وراء ذلك كله كان الموت عنيفا رهيبا ، وكان متوعدا أبدا . لقد توارى الرجال والنساء عن الانظار ، توارى رفاقنا الادنون الاحب الى قلوبنا . كانوا اليوم معنا ، حتى اذا كان الغد مضوا الى سبيهم . ولم نرهم بعد ذلك البتة . وادركنا انهم كانوا قد قضوا نحبهم .

ولم يكن ثمة ثقة في ايما مكان . فقد كان من الجائز ، بقدر ما نعرف ، ان يكون الرجل المتآمر في جانبنا عميلا من عملاء العقبة الحديدية . لقد لغمنا منظمة العقبة الحديدية بعملنا السريين ، ولغمت العقبة الحديدية ، بعملائها السريين منظمتهما نفسها لغما معاكسا . والشيء نفسه حدث لمنظمتنا نحن . وبرغم انعدام الثقة كنا مضطرين ان نقيم جهودنا كلها على اساس من الثقة . ولقد خدعنا في احيان كثيرة . فقد كان الناس ضعاف النفوس . وكان في ميسور العقبة الحديدية ان تقدم اليهم المال ، والراحة ، والمباهج ، والمتع التي كانت تنتظرهم في المدن المعجزة . أما نحن فلم يكن في ميسورنا ان نقدم غير الارتياح المنبعث عن الوفاء لمثل أعلى نبيل . ليس هذا فحسب ، بل كانت أجور اولئك الذين اعتصموا بحبل الوفاء خطرا موصولا ، وتعذيبا سرمديا ، وموتاً .

كان الناس ضعاف النفوس، كما قلت ، وبسبب من ضعفهم هذا اضطررنا ان نقدم اليهم المكافأة الاخرى الوحيدة التي كانت في مستطاعنا . كانت هي مكافأة الموت . لقد اكرهتنا الضرورة القاهرة على معاقبة خونتنا . فكنا نطلق في اعقاب كل امرئ يخوننا منتقما مخلصا او اكثر ، وكثيرا ما كان عدد اولئك المنتقمين يبلغ دزينة كاملة . كنا نحتمل الاخفاق في تنفيذ احكام الموت التي نصدرها ضد اعدائنا من مثل آل بوكوك ، ولكن الشيء الوحيد الذي كنا نعجز عن احتماله هو الاخفاق في معاقبة الخونة من رفاقنا . فكان بعض الرفاق ينقلبون الى خونة ، بأننا منا وعلم ، لكي يتمكنوا من بلوغ المدن المعجزة حيث ينفذون ما اصدرناه من احكام الموت ضد الخونة

الحقيقيين • والواقع اننا اخذنا بأسباب الارهاب الى درجة جعلت خيانة المرء
ايانا احفل بالخطر من اقامته على الولاء لنا •
واتخذت الثورة صفة الدين الى حد بعيد ، لقد تعبدنا في هيكل
الثورة ، الذي كان هو هيكل الحرية • كانت الشرارة الالهية تومض في
نفوسنا • ولقد وقف الرجال والنساء حيواتهم في سبيل القضية • وكرس
المواليد الجدد لخدمتها كما كانوا في العصور السالفة يكرسون لخدمة الله •
كان حب الانسانية يعمر قلوبنا •

الفصل السابع عشر

القسوة القرمزية

ويتدمير الولايات الغراينجية اختفى اعضاء الكونغرس الغراينجيون
لقد حوكموا بتهمة الخيانة العظمى ، واستولى على مقاعدهم نفر من صنائع
العقب الحديدية • وكان الاشتراكيون قلة هزيلة تدعو الى الرثاء ، وكانوا
يعلمون أحسن العلم ان نهايتهم باتت قاب قوسين او ادنى • كان الكونغرس
ومجلس الشيوخ مظهرين فارغين - كانا مهزلة • وكانت القضايا العامة
تناقش في رصانة وتقر وفقا للتقاليد القديمة ، على حين ان كل ما صنعه اعضاء
ذلك المجلسين ، في الواقع ، هو اصفاء الصفة الدستورية على اوامر
الاوليغاركية •

وكان ارنست يخوض غمرة النضال في اشد مراحل حرجا عندما دنت
النهاية • وكان ذلك في المناقشة البرلمانية حول مشروع القانون القاضي بمد
يد المساعدة الى العاطلين عن العمل • كانت ازمة السنة الماضية قد هبطت
بجماهير كبيرة من البروليتاريا الى ما دون خط المجاعة ، وكان الاضطراب
الموصول البعيد المدى قد زادهم هبوطا على هبوط • كان ملايين من الناس
جائعين ، فيما كان الاوليغاركيون ومؤيدوهم متخمين بما لديهم من فائض ٩٢ •

٩٢ لقد سادت الاحوال نفسها بلاد الهند خلال القرن التاسع عشر للميلاد في ظل
الحكم البريطاني • كان الهنود يموتون جوعا بالملايين ، بينما كان حكامهم يسلبونهم
ثمرا كدحهم وينفقونها على المهرجانات الفخمة وأعمال السحر الفارغة • وايا

لقد دعونا أولئك الناس « أبناء الهاوية » ، ٩٣ وانما قدم الاشتراكيون مشروع قانون العاطلين عن العمل ابتغاء التخفيف من آلام « أبناء الهاوية » هؤلاء . ولكن ذلك لم يرق للعقب الحديدية . كانت العقب الحديدية تعد العدة ، على طريقها ، لتشغيل أولئك الملايين من العاطلين ، ولكن طريقها كانت غير طريقنا ، ومن أجل ذلك اصدرت اوامرها بضرورة العمل على رد مشروعنا . وأدرك أرنست ورفاقه ان جهدهم كان عبثا لا طائل تحته ، ولكنهم كانوا قد سمعوا الانتظار . كانوا يريدون ان يحدث شيء ما . ذلك بأنهم لم يوفقوا الى انجاز ايما عمل ، وكان خير ما يرجونه هو وضع حد للمهزلة التشريعية التي كانوا – برغمهم – بعض ممثلها . كانوا يجهلون ما قد يتكشف عنه ذلك من نتيجة ، ولكنهم لم يتوقعوا قط شيئا أسوأ ولا أحفل بالارزاء مما حدث فعلا .

وجلست ذلك اليوم في شرفة الكونغرس . كنا كلنا نعرف ان شيئا رهيبا يوشك ان يحدث . كان الناس يلفطون بذلك ، وكان في مرابطة القوات المسلحة صفوفها صفوفا في أروقة المجلس وفي تجمعهم الضباط عند مداخلة مصداق لما لفظ به الناس . كانت الاوليغاركية على وشك ان تضرب ضربتها . وكان أرنست يخطب . كان يصف ما يقاسيه العاطلون عن العمل من بلاء ، وكانما استحوذت عليه فكرة ضارية أطمعته بتحريك قلوبهم وضمائهم . ولكن اعضاء الكونغرس الجمهوريين والديموقراطيين سخروا منه وتهكموا عليه ، وعلا

ما كان ، فان في اعمال أسلافنا ما يجب ان يشيع الدم في وجوهنا نحن أبناء هذا العصر المستنير ، ان عزاءنا الوحيد هو عزاء فلسفي . ان علينا ان نعتبر المرحلة الرأسمالية في التطور الاجتماعي وكأنها متوازية والعصر الفردي الاقدم . لقد تعين على الانسان ان يجتاز هذه المراحل كلها في نهوضه من حماة الحياة العضوية الوضعية . وكان من المحتوم ان يعلق به شيء من ادران تلك الحماة وان لا تنزل الادران عنه في سهولة ويسر .

٩٣ The People of the abyss . هذه العبارة صاغتها عبقرية هـ . جـ . ويلز في أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد . لقد كان ويلز نبيا من أنبياء علم الاجتماع عاقلا سويا بقدر ما كان انسانا تعمر الحماسة فؤاده . لقد تحدثت الينا مقاطع كثيرة من آثاره ، على حين ان اثنين من أعظم مؤلفاته ، وهما Anticipations و Mankind in the Making قد انتهيا بنا كاملين غير منقرضين . فقبل الاوليغاركيين ، وقبل ايفرهارد ، حدس ويلز بنشوء المدن المعجزة ، ولكنه اطلق عليها في كتاباته اسم « مدن البهجة » .

الضجيج وسادت الفوضى . فما كان من ارنست الا ان غير لهجته فجأة ،
وشن هجومه من زاوية جديدة .

قال :

— « أنا أعلم انه ليس في استطاعة أيما شيء أقوله ان يعطف قلوبكم .
لسبب بسيط ، هو انكم بلا قلوب . انتم اشياء لا شوكية Spineless
مترهلة . انكم تدعون انفسكم ، في ابهة ومباهاة ، « جمهوريين »
و « ديموقراطيين » . ولكن ليس ثمة « حزب جمهوري » . وليس ثمة
« حزب ديموقراطي » . ليس ثمة لا « جمهوريون » ولا « ديموقراطيون » في
هذا المجلس . انتم الاطفاليون وقوادون ، ان انتم الا صنائع البلوتوقراطية .
انكم تتكلمون في كثير من اللغو وفي صيغ عتيقة بالية ، عن حاكم للحرية
وتلبسون في الوقت نفسه كسوة « العقب الحديدية القرمزية » .

وهنا طغى الصراخ وطفغ صيحات « نظام ! نظام ! » على صوته ،
فوقف في اذراء حتى خدمت الضوضاء بعض الشيء . ولوح بيده ليشملهم
جميعا والتفت الى رفاقه وقال :

— « اصغوا الى عواء البهائم المتخمة ! »

وانفجرت الضجة الضارية ككرة اخرى . وأعمل رئيس المجلس مطرقة
محاولاً اقرار النظام ، ونظر الى الضباط المحتشدين عند الابواب . وانطلقت
صيحات تقول « عصيان ! » وشرع نائب نيويورك بدين يصيح مشيراً الى
ارنست : « فوضوي ! » . ولم يكن مشهد ارنست بسائغ ولا عذب . وكان
كل وتر من اوتاره المقاتلة يرتعش وكان وجهه اشبه بوجه حيوان مقاتل ، رغم
انه كان رابط الجأش مالكا زمام نفسه .

وقال ، في صوت فرض على الاعضاء سماعه من فوق الضوضاء :

— « انكروا انكم كما تظهرون الرحمة الان للبروليتاريا فان هذه
البروليتاريا نفسها سوف تظهر لكم الرحمة في يوم من الايام . »

وتضاعفت صيحات : « عصيان ! » « وفوضوي ! »

وتابع ارنست كلامه :

— « أنا اعرف انكم لن تصوتوا مع مشروع هذا القانون . لقد تلقيتم
امرا من اسياذكم بأن تصوتوا ضده ، ومع ذلك تقولون اني فوضوي . انتم
الذين خربتم حكومة الشعب والذين تتباهون بعاركم القرمزي - في غير ما

خجل - في الاماكن العامة يقولون اني فوضوي • انا لا اؤمن بنار جهنم وكبريتها ، ولكنني اسف في ساعات مثل هذه لقلة ايماني • لا ، اني في ساعات مثل هذه لاؤمن أو أكاد • فالذي لا ريب فيه هو ان جهنم واجبة الوجود ، اذ ليس ممكنا ان تلقوا - في مكان اقل منها هولا - عقابا متكافئا مع جرائمكم • ان ثمة حاجة حيوية الى نار جهنم في هذا الكون ما دمت انتم على قيد الحياة • وسمعت حركة عند الابواب • والتفت ارنست ، ورئيس المجلس ، والاعضاء كلهم ليروا •

وتساءل ارنست :

- « لماذا لا تدعو جنودك ، يا حضرة الرئيس ، وتامرهم باداء مهمتهم ؟ ان عليهم ان ينفذوا خطتك على وجه السرعة » ، فكان الرد :

- هناك خطط مبيتة أخرى • هذا هو السبب الذي من اجله حشد الجند في المجلس •

فقال ارنست ساخرا :

- « تعني خططنا نحن ، على ما اظن • اغتيال ، او شي ، من هذا القبيل • »

وما ان نطق بلفظة « اغتيال » حتى انفجرت الجلبة من جديد • ولم يوفق ارنست الى اسماع المجلس صوته • ولكنه ظل واقفا ينتظر ان تخدم الجلبة • ثم حدث ما كان متوقعا • ومن مكاني في الشرفة لم اعد ارى غير وميض الانفجار • لقد اصم هديره انني ، ولقد رأيت ارنست يترنح وينهار في دوامة من دخان ، والجنود يندفعون خلال مماشي المجلس كلها • وهب رفاقه واقفين على اقدامهم ، وقد احالهم الغضب الى وحوش ضارية فهم قادرون على اصطناع ضروب العنف كلها • ولكن ارنست اثبت قدميه متماسكا ولوح بيديه داعيا الى الصمت • ورن صوته محذرا رفاقه :

- « انها مكيدة • لا تاتوا عملا ما والا دمرتم ! »

ثم انه هوى في اناة ، وانتهى الجند اليه • وفي اللحظة التالية كان الجند يجلون الناس عن الشرفات ، ولم اعد ارى شيئا •

وبرغم انه كان زوجي فانهم لم يجيزوا لي ان اقترب منه • وحين عرفتهم الى نفسي سارعوا الى اعتقالي • وفي الوقت نفسه اعتقل جميع اعضاء

الكونغرس الاشتراكيين في واشنطن ، وفي جملتهم سيمبسون السيء الحظ ، الذي كان صريح التيفويدي في فندقه .

وكانت المحاكمة عاجلة وموجزة . وحكم على المعتقلين بالهلاك قبل محاكمتهم . وكان اعجب ما في الامر ان القضاة لم يحكموا على ارنست بالاعدام . وكانت هذه غلطة ارتكبتها الاوليفاركية ، غلطة كلفتها غالبا . ولكن الاوليفاركية كانت واثقة بنفسها اكثر مما ينبغي ، في تلك الايام . كانت نشوى بالنصر ، ولم تحلم قط بأن تلك الحفنة الصغيرة من الابطال كانت تملك القوة على ان تزلزلها من اساسها . وغدا ، عندما تنفجر الثورة العظمى ويردد العالم صدى وقع الاقدام ، وقع اقدام الملايين ، ستدرك الاوليفاركية ، ولكن بعد فوات الاوان ، اي مبلغ من القوة بلغته عصابة الابطال تلك . ٩٤

وبوصفي ثورية ، وبوصفي وثيقة الصلة بالثوريين عارفة بأمالهم ومخاوفهم وخططهم السرية ، اراني مؤهلة لان اقدم - شأن قلة قليلة من

٩٤ اعتبرت ايفيس ايفرهارد ان قصتها هذه سوف تقرا في ايامها هي ، اعتبرت ذلك امرا مفروغا منه ، وهكذا اغفلت الاشارة الى نتيجة محاكمة الاشتراكيين بتهمة الخيانة العظمى . وسوف يلاحظ القارئ كثيرا من امثال هذا الاغفال المشوش في المخطوطة . لقد حوكم اثنان وخمسون من اعضاء الكونغرس الاشتراكيين ، ولقد وجبوا كلهم مذنبين . ومن الغرائب ان احدا منهم لم يحكم عليه بعقوبة الموت . لقد حكم على ايفرهارد واحد عشر اشتراكيا آخرين ، في جملتهم تيودور دونلسون وماتيو كنت ، بالسجن مدى الحياة . اما الاربعون الباقون فحكم عليهم بالسجن مددا تتراوح ما بين ثلاثين عاما وخمسة وأربعين عاما ، في حين لم يحكم على آرثر سيمبسون ، الذي ذكرت المخطوطة انه كان مصابا بحمى التيفويدي عندما حدث الانفجار ، الا بالسجن خمس عشرة سنة . وتذهب الروايات الى انه مات جوعا في محبسه الانفرادي ، وقد فسرت هذه المعاملة القاسية بأنها ناشئة عن عناده الذي لا هوادة فيه وعن بغضه المتقد المتهور لجميع الرجال الذين خدموا الاستبداد . لقد مات في « كابانا » في كوبا ، حيث حبس ثلاثة من رفاقه ايضا . وحبس اعضاء الكونغرس الاشتراكيين الاثنان والخمسون في قلاع عسكرية متناثرة في ارجاء الولايات المتحدة . وهكذا قذف بـ « دوباوا » و « وولز » في غياهب السجن في بورتوريكو ، على حين قذف بايفرهارد وميريواندر في الكاتراز Alcatraz ، وهي جزيرة في خليج سان فرانسيسكو كانت السلطات قد اتخذت منها ، منذ عهد بعيد ، سجنا عسكريا .

الرفاق - التهمة القائلة بأنهم هم الذين فجروا القنبلة في الكونغرس - وفسي ميسوري ان اقول في صراحة ، من غير ما تحفظ او شك مهما يكن نوعه ، ان الاشتراكيين داخل الكونغرس وخارجه لم تكن لهم يد في المسألة . اننا لا نعرف من الذي المى القنبلة ، ولكن الشيء الذي نعرفه معرفة اليقين هو اننا نحن لم نلقها .

ومن ناحية ثانية ، فثمة بيئة تفيد ان العقب الحديدية كانت مسؤولة عن الحادث . نحن لا نستطيع ان نثبت ذلك طبعاً ، واستنتاجنا هو استنتاج حدسي ليس غير . ولكن هي ذي بعض الحقائق التي نعرفها جيداً . لقد نمي الى رئيس المجلس ، على لسان عملاء الحكومة السريين ، ان اعضاء الكونغرس الاشتراكيين كانوا على وشك اللجوء الى اصطناع الاساليب الارهابية ، وانهم اتفقوا على اليوم الذي سيعمدون فيه الى وضع خططهم موضع التنفيذ . وكان ذلك اليوم هو الانفجار ذاته . وهذا هو السبب الذي من اجله ملئت ارجاء « الكابيتول » بالقوات المسلحة مقدماً . واذا كنا لا نعرف شيئاً عن القنبلة ، واذا كانت القنبلة قد فجرت فعلاً ، واذا كانت السلطات قد استعدت مقدماً للانفجار ، فليس من الظلم في شيء ان نستنتج بان العقب الحديدية كانت تعرف . فوق هذا ، فنحن نتهم العقب الحديدية بارتكاب العدوان ، وبانها بيتت ذلك العدوان واقترفته ابتغاء القاء وزر الجريمة على كواهلنا وابتغاء تحطيمنا والقضاء علينا .

ومن رئيس المجلس تسرب ذلك التحذير الى جميع الصنائع الاعضاء في الكونغرس ، الصنائع المرتدين الكسوة القرمزية . لقد عرفوا ، فيما كان ارنست يتكلم ، ان عملاً عنيفاً ما سوف يقترف . وانصافاً لهم اقول انهم اعتقدوا في اخلاص ان ذلك العمل العنفي سوف يقترفه الاشتراكيون . وفي المحكمة ، شهد جهمرة منهم ، في ايمان صادق ايضاً ، انهم رأوا ارنست يستعد لالقاء القنبلة ، وانها انفجرت قبل الاوان . انهم لم يروا شيئاً من ذلك طبعاً . لقد توهموا ، تحت وطأة الخوف وخيالاته المحمومة ، انهم رأوا ذلك . هذا كل ما هنالك .

وكما قال ارنست خلال المحاكمة : « هل يعقل ، لو كنت اعترزم القاء قنبلة ، ان اختار لهذا الغرض مفرقة صغيرة واهنة كتلك التي المقيت ؟ كان المقرر الكافي من البارود يعوزها . ولقد احدثت سحباً كثيفة من الدخان ، ولكنها لم تؤد احداً غيري . لقد انفجرت عند قدمي مباشرة ومع ذلك فانها

لم تقتلني • صدقوني اذا قلت لكم انه خليق بي ، لو عمدت الى القاء القنابل ، ان اوقع اذى كبيرا • اجل ، لو عمدت الى ذلك اذن لكان في قنابلي شيء اكثر من الدخان • »

ومقابل هذا ، ذهب الادعاء الى القول بان ضعف القنبلة كان غلطة اقتربها الاشتراكيون ، كما ان انفجارها قبل الاوان ، ذلك الانفجار الناشئ عن فقدان ارنست اعصابه واسقاطها على الارض ، كان غلطة ايضا سواء بسواء • واثبتا لهذه الدعوى تقدم عدد غير يسير من اعضاء الكونغرس فشهدوا انهم راوا ارنست يلمس القنبلة ويلقيها •

اما نحن فان احدا منا لم يدر كيف القيت القنبلة • لقد قال لي ارنست انه سمعها ورآها ، قبل لحظة من انفجارها ، ترتطم بالارض عند قدميه • لقد شهد بذلك اثناء المحاكمة ، ولكن احدا لم يصدقه • والى هذا فقد كانت المسألة كلها ، كما يعبر العامة ، ملفقة • كانت العقب الحديدية قد وطنت العزم على تدميرنا ، ولم يكن ثمة مجال للمقاومة •

هناك مثل يقول ان الحقيقة لا بد ان تدب • ولكنني انتهيت الان الى الشك في صحة هذا القول • لقد انسلخت تسع عشرة سنة ، ورغم جهودنا التي لا تعرف الكلل لم نوفق الى اكتشاف الرجل الذي القى القنبلة فعلا • لا ريب في انه كان عميلا من عملاء العقب الحديدية ، ولكنه استخفى عن اعين الباحثين عنه • اننا لم نهتد قط الى مفتاح يمكننا من معرفة هويته • والان ، وبعد هذه السنوات كلها ، لم يبق الا ان تأخذ المسألة مكانها بين الغاز التاريخ • ٩٥

٩٥ كان ينبغي لأيفيس ايفرهارد ان تعيش اجيالا عديدة قبل ان ترى الى هذا اللغز يحل ويجلى • فمنذ أقل من مئة عام ، وبعد أكثر من ستمئة سنة على وفاتها اكتشف اعتراف « برفايز » Pervaise في محفوظات الفاتيكان السرية • ولعل من الخير ان نتحدث هنا قليلا عن هذه الوثيقة الغامضة التي لا تهم ، في الجملة ، الا المؤرخ •

كان برفايز أميركيا من اصل فرنسي • وفي عام ١٩١٣ للميلاد كان نزيل سجن « تومز بريذون » في مدينة نيويورك ، ينتظر المحاكمة بتهمة القتل • ومن اعترافه نفهم انه لم يكن مجرما محترفا • كان رجلا انفعاليا حاد الطبع حار الدماء • وفي نوبة مجنونة من نوبات الغيرة قتل برفايز زوجته – وهو عمل كان مألوفيا في ذلك العصر • واستبد خوف الموت بـ « برفايز » ، كما ورد ، على نحو مفصل ، في

اعترافه . ولقد كان مستعدا ، في سبيل النجاة من حكم الموت ، لان يقدم على أيما عمل مهما يكن ، ولقد أعده رجال الشرطة السريون لذلك بأن اكادوا له ان المحكمة لا بد ستدينه بجريمة القتل العمد . وكان القتل العمد في تلك الايام جزاؤه الموت . فكان المذنب (أو المذنبة) يجلس على « كرسي موت » صنع خصيصا لهذا الغرض ، وتسلب منه الحياة ، بتيار كهربائي ، تحت اشراف اطباء اكفاء . وكان ذلك يدعى الاعدام الكهربائي electrocution ، وكان ذا شعبية واسعة في ذلك العهد . أما التخدير ، كوسيلة من وسائل الموت الالزامي ، فلم يصطنع الا في ما بعد .

هذا الرجل ، الذي كان طيبا في جوهره برغم البهيمية الضارية التي علت سطح وجوده ، والذي كان يقضي ساعاته الاخيرة وراء قضبان السجن غير متوقع أيما شيء اقل من الموت ، اقنعه عملاء العقب الحديدية بالقاء القنبلة في مجلس النواب . وقد نص في اعترافه ، نصا صريحا ، على انهم اخبروه ان القنبلة سوف تكون شيئا ضعيفا وانه لن ينشأ عنها اي خسارة في الارواح . وهذا ينسجم انسجاما تاما مع الحقيقة التي عرفها الناس انذاك وهي ان القنبلة كانت ضئيلة الشحنة وأن انفجارها عند قديمي ايفرهارد لم يكن مميتا .

وهرب برفايز الى احدى شرفات الكونغرس الموصدة ، ظاهريا ، لاجراء شيء من الترميم فيها . وكان عليه ان يختار بنفسه اللحظة المناسبة لالقاء القنبلة ، وهو يعترف في سذاجة انه كاد ينسى المهمة الموكولة اليه في غمرة من استمتاعه بالحيلة التي شنها ايفرهارد وبالفوضى الشاملة التي نشأت بسببها .

ولم تكف العقب الحديدية باطلاق سراحه من السجن مكافاة له على فعلته ، بل منحته فوق ذلك دخلا دائما مدى الحياة . ولكنه لم ينعم بذلك فترة طويلة . ففي ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ اصيب بروماتزم حادة في القلب لم تمهله غير ايام ثلاثة . وعندئذ استدعى الكاهن الكاثوليكي ، الاب بيتر دوربان ، وادلى اليه باعترافه . وبدأ الاعتراف ذا أهمية بالغة في نظر الكاهن فأثر أن يدونه تدوينا وأن يقسم المحتضر على صحته . أما ما حدث بعد ذلك فلسنا نعرفه الا بالحدس والظن . ولا ريب في أن وصول الوثيقة الى رومة يؤذن بأن القوم اعتبروها ذات خطورة بالغة . ولا ريب ايضا في أن قوى كثيرة حاولت أن تطمسها منذ ذلك الحين . وطوال قرون متواصلة ظل العالم في جهل مطبق من امرها . حتى اذا كان القرن الماضي عثر عليها العلامة الايطالي ، لوربيا ، مصادفة ، فيما كان يقوم بدراساته وتحقيقاته في الفاتيكان .

وليس ثمة ، اليوم ، أيما ريب البتة في أن العقب الحديدية كانت هي المسؤولة

عن القاء القنبلة التي انفجرت في مجلس النواب عام ١٩١٢ لميلاد المسيح . وحتى لو لم ير اعتراف برفايز النور قط فلا مجال لبقاء ايما شك معقول في مسؤوليتها هذه . ذلك بأن الفعلة التي نحن بصدها ، والتي قذفت باثنين وخمسين من رجال الكونغرس في غياهب السجن ، كانت شبيهة الى حد بعيد بفعلات اخرى لا تعد ولا تحصى ارتكبتها الاوليفاريكيون في ذلك العهد ، وارتكبتها الراسماليون قبل ذلك ايضا .

ومن الامثلة الكلاسيكية على ذلك مصرع تلك الفئة البريئة التي دعيت بقوضويي سوق التبغ في تشيكاغو - وكان مصرعا قضائيا ضاريا طائشا - في العقد قبل الاخير من القرن التاسع عشر للميلاد . أما احراق الممتلكات الراسمالية وتدميرها احراقا وتدميرا متعمدا من جانب الراسماليين انفسهم فينبغي اعتبارهما ضربا من الاجرام قائما بنفسه . وما اكثر ما عرّقب اناس ابرياء على مثل هذا الاحراق والتدمير . لقد كان القوم يتخلصون من اولئك الابرياء بارسالهم الى السجن بتهم زائفة أي كانوا - اذا اردنا أن نستعمل لغة ذلك العصر - « يشحنونهم » ظلما وعدوانا rail-roaded .

وفي الاضرابات العمالية التي نشبت في العقد الاول من القرن العشرين بين الراسماليين واتحاد عمال المناجم الغربي ، اصطنعت اساليب مماثلة ولكنها اكثر تعظشا للدم . فقد نسف عملاء الراسماليين محطة السكة الحديدية في اينديانانس فقتل ثلاثة عشر شخصا وجرح اكثر من ذلك بكثير . وعندئذ عمد الراسماليون - وكانوا يسيطرون على الاجهزة التشريعية والقضائية في ولاية كولورادو - الى اتهام عمال المناجم بهذه الجريمة وكادوا يوقعون الى ادانتهم . وتفصيل الامر ان رجلا اسمه رومائيز Romaines ، احد الالات التي سخرت في هذه القضية ، كان ملقى به - مثل برفايز - في سجن من سجون ولاية اخرى ، كانساس ، في انتظار المحاكمة ، عندما اتصل به عملاء الراسماليين السريون . ولكن اعتراف رومائيز - على عكس اعتراف برفايز - نشر على الملا في نفس العصر الذي عاش فيه .

ثم كانت ، خلال هذه الفترة نفسها ، قضية « مويار » و « هايبود » ، وكانا زعيمين قويين جريئين من زعماء العمال . كان احدهما رئيسا والآخر سكرتيرا لاتحاد عمال المناجم الغربي . وكان حاكم ايدها السابق قد صرع في ظروف غامضة . واتهم الاشتراكيون وعمال المناجم ، آنذاك ، اصحاب المناجم بهذه الجريمة اتهاما صريحا . ومع ذلك فقد تأمر حاكما ايدها وكولورادو وعملا

على اختطاف « مويار » و « هاييود » منتهكين بذلك دستور البلاد ودستوري الولايتين وقذفا بهما في السجن بتهمة القتل . وكانت هذه المناسبة هي التي دعت اوجين . ف . ديبس **Debs** ، زعيم الاشتراكيين الاميركيين في ذلك العصر ، الى القول : « ان الزعماء العماليين الذين يمتنعون على الرشوة والترهيب يجب ان تنصب لهم الكمائن ويصرعوا . ان جريمة « مويار » و « هاييود » الوحيدة هي انهما اخلصا لطبقتهما العمالية اخلاصا لا يعرف الميل او الانحراف . لقد سرق الراسماليون بلادنا ، وفسدوا سياستنا ، ولوثوا قضاءنا وعاملونا في غير ما شفقة ولا فهم ، وها هم الان يقترحون ان يقتلوا كل من لا يستسلم بدناءة لسيطرتهم الوحشية . ان حاكمي كولورادو وايداهو لم يزيدا على ان نفذا اوامر اسيادهما : البلوتوقراطيين . والقضية اليوم هي : « العمال ، ازاء البلوتوقراطية » . واذا ما اختارت البلوتوقراطية ان تضرب هي الضربة العنيفة الاولى ضربنا نحن الضربة الاخيرة . »

الفصل الثامن عشر

في ظل سونوما

اما في ما يتصل بي انا شخصيا ، خلال هذه الفترة ، فليس لدي شيء كثير اقلوه . لقد اقيت في السجن ستة اشهر ، برغم ان السلطة لم توجه الي ايما تهمة . لقد كنت مشتتة في أمري - وهو تعبير ترفيهي سرعان ما قدر لجميع الثوريين ان يعرفوه . ولكن جهازنا السري الناشئ كان قد بدأ نشاطه . ففي اواخر الشهر الثاني من شهور سجن عرمني احد السجناء الى نفسه بوصفه ثوريا متصلا بالمنظمة . وبعد اسابيع عدة عرفت في جوزيف باركهورست ، الذي اسند اليه قبيل اعتقالي منصب طبيب السجن ، عضواً في احدى « الزمر المقاتلة » .

وهكذا كانت منظمنا الخاصة قد اخذت تندس ، على نحو عنكبوتي متشعب ، في منظمة الاوليغاركية برمتها . وهكذا اقيت على علم بكل ما كان يحدث في العالم الخارجي . وفوق هذا ، فقد كان كل من زعمائنا المسجونين على اتصال مع رفاق شجعان متنكرين في كسوة « العقب الحديدية » . وعلى الرغم من ان ارنست كان نزيل سجن يقع على مبعدة ثلاثة الاف ميل ، على شاطئ المحيط الهادئ ، فقد كنت على اتصال به غير منقطع ، وكنا نتبادل الرسائل على نحو نظامي .

كان في ميسور الزعماء ، داخل السجن وخارجه ، ان يناقشوا الحملة ويوجهوها . لقد كان في امكاننا ، خلال بضعة اشهر ، ان ننقذ بعضهم من السجن ، ولكننا قررنا - بعد ان وجدنا ان السجن لا يعوق نشاطاتنا البتة -

ان نجتنب ايما عمل خطير • كان اثنان وخمسون من اعضاء الكونغرس في السجن ، وثلاثمئة اخرون من زعمائنا ايضا • ولقد استقر رأينا على ضرورة انقاذهم كلهم في آن معا • ان لو فر فريق منهم انن لاستثير حذر الاوليفاريين فعمدوا الى الحيلولة دون فرار سائرهم • ومن ناحية ثانية فقد ذهبنا الى الاعتقاد بان انقاذ زعمائنا من سجونهم المنتثرة في طول البلاد وعرضها انقاذا جماعيا متوافقا جدير بان يخلف في البروليتاريا اثر سيكولوجيا ضخما • لقد كان خليقا به ان يظهر مدى قوتنا وان يمنحنا الثقة بنفسنا •

وهكذا تم الاتفاق ، حين اطلق سراحي عند انقضاء الاشهر الستة ، على ان اتوارى عن الانظار واعد مخبأ امنا لارنست • ولم يكن التواري ، في ذات نفسه ، امرا هينا • فما ان نعمت بحريتي حتى راح عيون « العقب الحديدية » وجواسيسها يتعقبون خطواتي • وكان علي قبل كل شيء ان اضللهم ، وان اوفق الى بلوغ كاليفورنيا • وان الطريقة التي انجزت بها ذلك لتثير الضحك حقا •

وكانت السلطات قد شرعت في اصطناع نظام الجوازات ، المضروب على الغرار الروسي • ولم أجرؤ على اجتياز القارة بشخصيتي الحقيقية • فقد كان متحتما على ان اتنكر تنكرا كاملا اذا ما طمعت في رؤية ارنست من جديد لانه كان خليقا بعملاء السلطة ، من طريق تعقبني بعد فراره ، ان يلقوا عليه القبض كرة اخرى • والى هذا فلم يكن في ميسوري ان اتنكر كامراة بروليتارية وأمضي لسبيلي • فلم يبق الا ان اتنكر في زي عضو من اعضاء الاويفاريكية • فبينما كان الاوليفاريون الاقطاب مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، كان ثمة الاف مؤلفة من الاوليفاريين الصغار ، كمستر ويكسون مثلا – رجال يسوون بضعة ملايين من الدولارات ، رجال كانوا اتباعا للاوليفاريين الاقطاب • وكان عدد زوجات هؤلاء الاوليفاريين الصغار وبناتهم ضخما من غير ريب ، فاستقر الرأي على ضرورة تنكري في زي واحدة منهم • ولقد كان خليقا بهذا الصنيع ، لو قمت به بعد بضعة سنوات ، ان يكون متقدرا ، لان نظام الجوازات كان قد امسى محكما الى درجة لم يبق معها في البلاد كلها رجل واحد – بل لم تبق امرأة واحدة وطفل واحد – غير مسجل وغير خاضع في حركاته وسكناته لمراقبة دقيقة •

وعندما آن الاوان وفقت الى تضليل الجواسيس • وبعد ساعة ليس غير لم يكن لابغيس ايفرهارد وجود • في تلك اللحظة كانت امرأة تدعى فيليس فان

فيرديغان ، تصحبها خادمتان وكلب صغير وخادمة أخرى للكلب الصغير ٩٦
تدخل مقصورة من مقاصير « البولمان » ٩٧ ، وبعد بضعة دقائق كانت تنطلق
مسرعة في اتجاه الغرب .

وكانت الخادومات الثلاث اللواتي رافقنني ثوريات . اثنتان منهن كانتا
من « الزمر المقاتلة » ، والثالثة – غرايس هولبروك – انضمت الى واحدة من
تلك الزمر في السنة التي تلت ، وبعد ستة اشهر اعدمتها « العقب الحديدية » .
كانت هي التي تولت امر العناية بالكلب . ومن الاثنتين الاخرين اختفت « بيرتا
ستول » بعد اثنتي عشرة سنة ، بينما لا تزال أنا رويلستون تحيا ولا تزال تلعب
دورا ذا اهمية متعاضمة في الثورة . ٩٨

وفي غير ما مغامرة عبرنا الولايات المتحدة الى كاليفورنيا . وحين
توقف القطار في المحطة السادسة عشرة ، في اوكلاند ، ترجلنا ، وهناك اختفت
فيليس فان فيرديفهان ، مع خادمتيها وكلبيها الصغير وخادمة كلبيها الصغير .
اختفت الى الابد . لقد ابعدت الخادمتان ، يقودهما رفاق موثوقون ، عن

٩٦ هذه الصورة الساخرة تصور أحسن تصوير مسلك الاسياد الخالين من الرحمة .
فبينما كان الناس يتضرعون جوعا كان هؤلاء الاسياد يعهدون الى الخادومات في
العناية بأمر كلابهم الصغيرة . وكان هذا التنكر ، من جانب ايفيس ايفرهارد ،
تنكرا جديا . فقد كانت حياتها وحياة القضية الاشتراكية كلها معرضتين لاعظم
الخطر . ومن هنا يتعين علينا أن نقبل هذه الصورة بوصفها صورة صحيحة .
انها تقدم لنا شرحا رائعا لروح العصر .

٩٧ Pullman – علم يطلق على حافلات السكة الحديدية الاكثر اناقة في ذلك
العصر ، وقد عرفت بذلك على اسم مخترعها .

٩٨ رغم المخاطر الموصولة التي يكاد العقل يعجز عن تصويرها فقد عاشت أنا
رويلستون حتى سن الحادية والتسعين الملكية . وكما تحدى آل بيكوك جلادي
« الزمر المقاتلة » كذلك تحدث هي جلادي « العقب الحديدية » . كانت في برديها
« روح مسحورة » فهي قادرة على النجاة من دروب المخاطر على اختلافها .
وكانت هي نفسها جلادا من جلادي « الزمر المقاتلة » ، ولقد أصبحت – وهي
التي عرفت بالعذراء الحمراء – احدى شخصيات الثورة الملهمة . وحين أمست
امراة عجوزا في التاسعة والستين من عمرها صرعت بنارها هالكيف « الدموي » ،
وسط حاشيته المسلحة ولت فرارا من غير أن يمسه سوء . وفي النهاية ماتت
حتف انفها موت الشيخوخة في ملجأ سري من ملاجئ الثوار في جبال اوزارك .

الانظار . على حين تولى اخرون امر العناية بي . وما ان انقضت نصف ساعة على مغادرتي القطار . حتى كنت على متن زورق صيد صغير ينساب بي فوق مياه خليج سان فرانسيسكو . وهبت الرياح فعاقت سير الزورق ، فاذا بنا نهيم على وجهنا معظم ساعات الليل . ولكنني لححت اضواء الكاتراز حيث كان ارنست طريق السجن ، فوجدت عزاء في مجرد التفكير بانني امسيت على مقربة منه . ومع الضحى ، وبفضل تجذيف الصيادين ، انتهينا الى جزر ماريين Marin . وهنا بقينا متوارين عن الانظار طوال النهار ، وفي الليلة التالية ساقنا مد عارم ونسيم غليل فاجتزننا خليج سان بابلو في ساعتين اثنتين ، ورحنا نصعد في نهر « بيتالوما » الصغير .

وهنا كانت في انتظارنا خيول ورفيق اخر ، وفي غير ما تأخر انطلقنا تحت ضياء النجوم . والى الشمال كان في امكاني ان المح جبل سونوما الذي كانت خيلنا تعدو بنا نحوه . لقد تركنا بلدة سونوما القديمة عن يميننا وصعدنا في واد قائم بين اكتاف الجبل . وامست طريق العربات طريق غابات ، وامست طريق الغابات مجاز بقر ، وتضاءل مجاز البقر وانتهى عند المراعي القائمة في المرتفعات . وصعدنا قدما في جبل سونوما . لقد كانت هي اسلم الطرق وآمنها . ولم يكن ثمة من يلحظ مرورنا .

وادركنا الفجر فوق انف الجبل الشمالي . وفي غمرة من الضياء الاشهب هبطنا الدغل الى اودية « الشجر الاحمر » العبيقة الدافئة بنسيم الصيف المتقضي . وكانت تلك الديار وطنا قديما بالنسبة الي ، وطنا عرفته واحبيته ، وسرعان ما اصبحت انا دليل الرفاق . لقد اختبرت المخبأ بنفسني . وازلنا الحواجز ، وعبرنا مرجا مرتفعا . ثم اننا انطلقنا فوق سلسلة من الهضاب منخفضة مكسوة بشجرات السنديان ، وهبطنا نحو مرج اصفر . ثم اننا عدنا فارفقنا سلسلة من الهضاب ، منطلقين هذه المرة تحت شجرات المادرونيا الحمراء الثمار ، وشجرات المانزانيتا ذات الثمار الاشد حمرة . وتدفقت اشعة الشمس الاولى على ظهورنا فيما كنا نرتقي الهضاب . وداعب سرب من السماي اوتار الادغال . وعبر طريقنا ارنب بري ضخم كان يثب في رشاقة وصمت وكأنه ايل . ثم ان وعلا متعدد القرون تومض الشمس ذهبية حمراء من جيده وكففيه ، شق امامنا الطريق ، وسط الاشجار الملتفة عند اعلى الهضبة ، ومضى لسبيله .

وتبعنا اثاره . ثم هبطنا شعبا متعرجا ما لبث ان تنكبه متجها نحو مجموعة نبيلة من « الشجر الاحمر » قائمة حول بركة ماء داكنة بالمواد

المدينة من سفح الجبل . لقد عرفت كل انش من الطريق . فقد كان كاتب من اصدقائي يملك ذلك الرنش * في يوم من الايام ، ولكنه هو الآخر كان قد امسى ثائرا من الثوار ، وان يكن الرزء الذي اصابه من جراء ذلك اعظم من الرزء الذي اصابني ، ذلك بانه كان قد مات وانتهى ، من غير ان يعرف احد اين مات وكيف . وكان هو وحده ، في الايام التي عاشها ، يعرف سر المخبأ الذي كنت اقصد اليه . كان قد اشترى « الرنش » لروعة جماله ، ودفع مبلغا ضخما فيه ، اثار استنكار المزارعين المحليين . وكان من دأبه ان يتحدث واصفا في كثير من الحبور كيف كانوا يهزون برؤوسهم ، على نحو ماتمي ، حين يسمعون بالثمن لكي يجروا شيئا من الحساب الذهني وليقولوا بعد ذلك : « ولكنك لن تستطيع ان تكسب منها ريعا مقداره ستة في المئة » .

ولكنه كان قد مات الان ، من غير ان ينتقل « الرنش » الى اولاده . لقد امسى اليوم ملكا لستور ويكسون الذي يملك جميع المنحدرات الشرقية والشمالية من جبل سونوما ، الممتدة من اراضي « سبريكلز » الى هضبة وادي بينيت . وكان قد صنع من تلك المساحة الكبيرة حديقة رائعة للايائل حيث كان الايل يجري ، فوق الاف الغدادين من المنحدرات العذبة والودية والمجازات الخضراء وسط الغابات ، وكأنه في فلاة بدائية تقريبا . كان اصحاب الارض السابقون قد طردوا منها . وكان احد المصحات الرسمية المخصصة للمعتوهين قد هدم ايضا لكي يتسع المجال امام الايل فيروح ويجيء في حرية بالغة . وتويجا لهذا كله ، كان كوخ ويكسون الصيدي قائما على مبعدة ربع ميل من مخبأي . ولقد كان في هذا ، بدلا من ان يكون خطرا ، امن اضافي . والواقع اننا احتمينا خلف ترس احد الاوليغاركيين الصغار ، اجل خلف ترس احد الاوليغاركيين الصغار ، ومن هنا اطرح الارتياح جانبا بسبب من طبيعة الوضع . فقد كانت حديقة ويكسون الايائية هي اخر موطن في العالم يخطر لجواسيس العقب الحديدية ان يبحثوا فيه عني وعن ارنست حين يلتحق بي . وربطنا خيلنا الى جذوع « الشجر الاحمر » ، عند البركة . ومن مخبأ للمؤونة خلف قرمة خشب جوفاء مهترئه اخرج رفيقي جمهرة من الاشياء - كيس دقيق يزن خمسين رطلا انكليزيا ، واغذية معلبة من مختلف الصنوف ، وآنية طهو ، ويطائيات ، ومشمعات من الخيش وكتبا وادوات كتابة ، ورزمة كبيرة من الرسائل ، وصفيحة كيروسين تسع خمسة غالونات ، واخيرا - وهي

* ranch ارض واسعة تفرد لتربية الخيل والبقر في براري اميركة وغيرها .
(العرب)

اهمها جميعا - لغة كبيرة من حبال متينة • وكانت الاشياء المدخرة موفورة جدا ، حتى لقد كان خليقا بنقلها الى الملجأ ان يقتضيها عددا من الرحلات •

ولكن الملجأ كان دانيا جدا • واذا حملت لغة الحبال وسرت في المقدمة اجتزت ممرا تحف به العرائش والعليقات المتشابكة الممتدة بين اكمتين تكسوهما الاشجار • وانتهى المر ، على نحو مفاجيء ، عند ضفة جدول شديدة الانحدار • كان جدولا صغيرا تمده عيون وينابيع ، ولقد عجزت اشد فصول الصيف حرارة عن تجفيفه • والى اليمين والشمال كانت اكام سامقة مكسوة بالاشجار ، مجموعة من الاكام تخيل الى الناظر وكأنها انبتقت هناك من يد مارد لا مبال • لم يكن في تلك الاكام ايما اساس صخري • لقد ارتفعت من قواعدھا مئآت الاقدام ، وكانت تتألف من تربة بركانية حمراء ، من تربة سونوما الزميرية الشهيرة • وخلال تلك الاكام كان الجدول الضئيل قد شق مجراه العميق الشديد الانحدار •

كان علينا ان نهبط الى قاع الجدول حبوا ، حتى اذا بلغناه هبطنا الجدول نحوا من مئة قدم • ثم اننا انتهينا الى الجحر الكبير • لم يكن شمة ما يؤذن بوجود جحر ، لا ، ولم يكن ذلك الجحر جحرا بمعنى الكلمة المألوف • كان على المرء ان يزحف وسط العواسج والاغصان الملتفة ليجد نفسه فجأة عند الحافة نفسها يحرق من خلال ستار اخضر • كان طوله نحوا من مئتي قدم ، وكان عرضه مثل ذلك • أما عمقه فكان مئة قدم • واغلب الظن ان الجحر انما جوف باندفاع المياه طوا ان قرون وقرون بسبب من خطأ حدث عندما انبتقت الاكام ، وليس من ريب في ان تعرية شاذة ، او تاكلا شاذ ، قد ساعدت على ذلك • ولم تكن عين الناظر لتقع في ايما مكان على ارض خام • كانت كلها مكسوة بالخضرة ، ابتداء من « كزبرة البئر » الضئيلة والخنشار الذهبي الظهر الى « الشجر الاحمر » وشجرات التنوب الفضي الجبارة • بل لقد انبتقت هذه الشجرات الضخام من جدران الجحر نفسها وانحنى بعضها بحيث شكل زاوية عريضة لا تقل عن خمسة واربعين درجة بالرغم من ان كثرتها سمقت على نحو مستقيم من الجدران الترابية الناعمة شبه العمودية •

لقد كان مخبأ مثاليا • ان احدا لم يكن ليختلف قط الى هناك ، حتى صبيان قرية « غلين ألين » انفسهم • ولو قد كان هذا الجحر في قعر واد يبلغ طوله ميلا او عدة اميال اذن لعرفه الناس معرفتهم لشيء شهير • ولكنه

لم يكن في قعر واد . فمن أوله حتى آخره لم يكن طول الجدول ليزيد على خمسمئة ياردة . فعلى مسافة ثلاثمئة ياردة فوق الجحر انبثق الجدول ينبوعا من جوف مرج منبسط . وعلى مبعده مئة ياردة من الجحر جرى الجدول الى الارض الفضاء ، منضما الى الجدول الرئيسي ومتدفقا عبر بقعة معشوشبة ذات منحدرات رفيقة .

وشد رفيقي طرف الحبل حول شجرة من الاشجار ، وشد طرفه الاخر حولي ، فرحت اتدلى نحو القاع . وما هي الا فترة يسيرة حتى بلغته ، وحتى كان هو قد نقل جميع الاغراض من مخبأ المؤن ودلاها الي . ثم انسه سحب الحبل واخفاه ، وقبل ان يمضي لسبيله وجه الي كلمة وداع بهيجة .

واحب قبل المضي في سرد قصتي ان اقول كلمة في هذا الرفيق ، جون كارلسون ، وهو شخصية متواضعة من شخصيات الثورة ، واحد رجالها المغمورين المخلصين الذين كانوا يتمتعون على العد والاحصاء . والواقع اننا صعدنا في جبل سونوما ممططين جوادين من جياذ ويكسون . لقد سلخ ، جون كارلسون ، الان ، نحو من عشرين عاما وهو يتولى حراسة ذلك الملاجئ . ولست اشك في ان طيف الخيانة لم يراود ذهنه قط خلال هذه الفترة كلها . لقد كان التقصير في اداء المهمة التي وكلت اليه شيئا يعجز عن تصوره . كان بارد الطبع بليدا الى درجة تجعل المرء لا يتمالك عن التعجب كيف جاز ان يكون للثورة اي معنى عنده على الاطلاق . ومع ذلك فقد تأجج حب الحرية قاتما راسخا في روحه الغبشاء . والحق ان ايثاره الاناة وحاجته الى الخيال الواسع كانا ، من بعض النواحي ، شيئا حسنا . فهو لم يضع صوابه البتة ، ولقد كان قادرا على اطاعة الاوامر . انه لم يكن لا فضوليا ولا مهذارا . ولقد سألته ذات مرة كيف اتفق له ان أمسى رجلا ثائرا ، فأجاب :

— « كنت في صباي جنديا ، وكان ذلك في المانية . فهناك كان على جميع الشبان ان ينضوا تحت لواء الجيش . وهكذا انضويت انا . وهناك كان جندي اخر ، فتى في ريعان الشباب ايضا . كان ابوه من تلك الفئة التي يدعونها فئة المهيجين ، وكان ابوه هذا طريح السجى بتهمة العيب في الذات الملكية — ما تسمينه قول كلمة الحق في الامبراطور . وتحدث الي الفتى ، الابن ، كثيرا عن الشعب ، والعمل ، وكيف كان الرأسماليون يسرقون الشعب . لقد جعلني ارى الاشياء بطرائق جديدة ، فأصبحت اشتراكيا . كان حديثه صحيحا جدا وصالحا جدا ، واني لم انسه قط . وحين وفدت على الولايات المتحدة رحلت ابحت عن الاشتراكيين . واصبحت عضوا في احدى الشعب — كان ذلك ايام

كان الحزب يعرف بالـ (S.I.P.) وبعد ذلك ، حين حدث الانشقاق ، انضمت الى الشعبة المحلية من الحزب الاشتراكي (S.P.) . كنت آنذاك اعمل في اسبطل عمومي في سان فرانسيسكو . وكان ذلك قبل الزلزال . ولقد دفعت الرسوم المفروضة علي طوال اثنتين وعشرين سنة . وانا لا ازال عضوا الى اليوم ، ولا ازال ادفع رسومي ، على الرغم من ان نشاطي اُمسى الان سريرا جدا ، ولسوف ادفع هذه الرسوم ابد الدهر ، ولسوف تغمرنني السعادة حين تقوم الجمهورية التعاونية .

حتى اذا تركت وشائني شرعت اُعد طعام الصباح على الوجاق البترولي ، وارتب مئوي . وكثيرا ما كان كارلسون يهبط متسللا الى الملجأ ، وفي الصباح المبكر او بعد هبوط العتمة ، ويعمل طوال ساعتين اثنتين . وفي البدء كان المشمع هو مئوي . وفي ما بعد نصبت خيمة صغيرة . حتى اذا امسينا على ثقة من ان المكان آمن شيد بيت صغير . وكان هذا البيت محجوبا حجابا كاملا عن ايما عين « عابرة » قد تختلس النظر من حافة الجحر . وكانت النباتات الريا التي كست تلك الرقعة المظلمة تشكل مجنا طيعيا . وانا شيد البيت تلقاء الجدار العمودي . وفي الجدار نفسه ، المدعم بأخشاب قوية ، والمزود بأسباب التهوية وتصريف الماء على نحو حسن ، حفرنا غرفتين صغيرتين . اوه ، وصندوقني اذا قلت اننا نعمنا بأسباب رفه كثيرة . وحين اقبل ببدينباتش، الارهابي الالمانى ، واختبأ معي بعد ذلك بقليل اقمنا وسيلة مستنبطة لاستهلاك الدخان مكنتنا من الاصطلام بنار الحطب المطقطقة في ليالي الشتاء .

وهنا يتعين علي ان اقول كلمة طيبة في ذلك الارهابي الدمث النفس الذي اسيء فهمه الى حد رهيب أكثر مما اسيء فهم ايما رفيق من رفاقنا . ان الرفيق ببدينباتش لم يخن القضية . لا ، ولم يصدر الرفاق حكما عليه بالاعدام كما يتوهم الناس . تلك قرية روجها صنائع الاوليفاركية . لقد كان الرفيق ببدينباتش شارد اللب كثير النسيان . ولقد مات برصاص واحد من حرسنا عند « الملجأ - الكهف » في كارمل ، بسبب من نسيانه كلمة السر . كان ذلك مجرد غلطة محزنة . اما القول بأنه خان « زممرته المقاتلة » فكذبة بلقاء . والحق انه لم يخدم القضية رجل أكثر منه اخلاصا واصدق ولاء ٩٩ .

٩٩ لقد قمنا ببحث مضمّن عن حقيقة ببدينباتش هذا في جميع ما خلفته لنا تلك العهد من اثار مكتوبة فلم نهتد الى شيء . ان ذكره لم يرد في أي من تلك الآثار ، ما خلا مخطوطة ايفرهارد .

لقد انقضت الان تسع عشرة سنة والملجأ الذي اصطفيته أهل على نحو موصول تقريبا . وطوال هذه الفترة خلا مرة واحدة لم يكتشفه رجل غريب البتة . ومع ذلك فقد كان يقع على مبعدة ربع ميل ليس غير من كوخ ويكسون الصيدي ، وعلى مسافة ميل واحد من قرية غلين ألين . ولقد كان في ميسوري ، دائما ، ان اسمع قطر الصباح والمساء ، تروح وتجيء ، ولقد كان من دأبي ان اضبط ساعتني على الصفارة المنبعثة من الفناء الذي يصنع فيه الآجر ١٠٠ .

١٠٠ اذا ما انحطف الرحالة الطلعة جنوبا من قرية غلين ايلين فعندئذ يجد نفسه على جادة هي عين تلك الطريق الريفية القديمة التي امتدت هناك منذ سبعة قرون . فعلى ربع ميل من غلين ألين ، بعد أن يجتاز الجسر الثاني ، يلاحظ الى يمينه واديا ضيقا شديد الانحدار يمتد مثل ندبة عبر الارض المتموجة نحو سلسلة من الروابي المكسوة بالاشجار . وهذا الوادي الضيق هو موضع الطريق العامة القديمة التي كانت تجري ، في ايام الملكية الخاصة للاراضي ، عبر ممتلكات رجل يدعى شوفيه ، وهو رائد فرنسي من رواد كاليفورنيا وقد من وطنه الاول في عهود الذهب الاسطورية . والروابي المكسوة بالاشجار هي عين تلك الروابي التي اشارت اليها آيفيس ايفرهارد .

والواقع ان الزلزال العظيم الذي وقع عام ٢٣٦٨ للميلاد فصل سفح رابية من تلك الروابي والقي به في الجحر الذي اتخذت منه آيفيس ايفرهارد وزوجها ملجأ لهما . ومنذ العثور على المخطوطة أجريت حفريات واسعة اخرجت الى النور ذلك البيت - الغرفتين الكهفيتين - وكل ما تراكم ، اثر سكنى متطاولة ، من سقط المتاع . لقد عثر على كثير من الاثار النفيسة ، ومن بينها - وهو امر غريب - تلك الاداة المستهلكة للخان التي استنبطها بيدنيباتش وتحدثت عنها الرواية . وعلى الباحثين الذين يعنون بهذه الشؤون أن يطالعوا الكراسي التي وضعها آرنولد بينثام والتي ستشهر عما قريب .

واذا ما اجتاز المرء ميلا واحدا الى الشمال الغربي من الروابي المكسوة بالاشجار الملتفة انتهى الى موقع « وايك روبن لودج » عند ملتقى جدولي « وايلد روتر » و « سوتوما » . ويحسن بنا ان نلاحظ ، بين هالين ، ان جدول « وايلد روتر » كان يدعى في الاصل جدول غراهام (غراهام كريك) وانه سمي بهذا الاسم في الخرائط المحلية القديمة . ولكن الاسم المتأخر غلب على المكان . وفي

« وايك روبين لودج » عاشت آيفيس ايفرهارد ، بعد ذلك ، فترات قصيرة ، عندما
تمكنت ، متنكرة في زي « عميل محرض » من عملاء العقب الحديدية ، من ان تمثل
دورها ، في أمن وحصانة ، وسط الناس وأحداث الايام ٠ والاذن الرسمي باحتلال
« وايك روبين لودج » لا يزال محفوظا في السجلات ، وهو مذكور بتوقيع رجل بارز
هو ويكسون ، اوليفاركي المخطوطة الصغير ٠

الفصل التاسع عشر

تحول

كتب الي ارنست يقول : « يتعين عليك ان تخلقي نفسك خلقا آخر .
يجب ان تكفي عن ان تكوني ما انت . ان عليك ان تصبحي امرأة اخرى - لا
بالملايس التي ترتدينها فحسب ، بل في ما وراء جلدك الذي تحت ملايسك .
يجب ان تخلقي نفسك خلقا جديدا حتى يتعذر علي انا نفسي ان اعرفك -
صوتك ، واشاراتك ، وعاداتك ، ومسالكك ، وشجاعتك ، ومشيتك ، وكل
شيء » .

وأطعت امره هذا . رحلت ادرب نفسي ، كل يوم ، طوال ساعات
عديدة ، على دفن آيفيس ايفرهارد القديمة الى الابد تحت جلد امرأة ثانية
استطيع ان ادعوها نفسي الثانية . ولم يكن في الامكان تحقيق مثل هذه
النتائج الا بالمران الطويل . ففي تنعيم الصوت ، مثلا تمرنت على نحو
سرمدي تقريبا حتى اصبح صوت نفسي الجديدة ثابتا واوتوماتيكيا . وهذا
الانتحال الاوتوماتيكي لدور ما هو الذي كان يعتبر امرا الزاميا . كان علي ان
ابلغ في هذا الانتحال غاية تنتهي بي الى ان اخذع عن نفسي . وكان ذلك اشبه
بتعلم لغة جديدة ، تعلم الفرنسية مثلا . ففسي بادىء الامر يكون التكلم
بالفرنسية عملا واعيا ، مسألة ارادة . يفكر الطالب اولا ، بالانكليزية ثم
يترجم افكاره - ذهنيا - الى الفرنسية ، او يقرأ بالفرنسية ولكنه يترجم
الافكار - ذهنيا - الى الانكليزية قبل ان يوفق الى الفهم . حتى اذا تضلع
الطالب من اللغة ، وتمت له فيها سليقة صالحة استطاع ان يقرأ ، ويكتب ،
ويفكر بالفرنسية من غير ما استعانة بالانكليزية على الاطلاق .

وكذلك كان حالنا في تنكرنا • كان علينا ان نتمرن حتى تصبح ادوارنا المتحلة طبيعية ، لنتطلب العودة الى نفوسنا الاصلية تدريجا للارادة ساهرا قويا • وكان كثير من ذلك ، في بادئ الامر ، مجرد مران حافل بالاطغاء • فقد كنا نبتدع فنا جديدا ، وكان علينا ان نتعلم اشياء كثيرة ونكتشف اشياء كثيرة • ولكن العمل كان يجري قدما في كل مكان • كان المران قد شرع يخلق منا اساتذة في ذلك الفن ، وكانت ذخيرة من الحيل والوسائل تتجمع وتتراكم • وهذه الذخيرة امست شبه كتاب تدريسي يمرر الواحد منا الى الآخر ، او قل جزءا من منهج التعليم — اذا جاز التعبير — في مدرسة الثورة • ١٠١

وفي هذا الوقت بالذات اختفى والدي • لقد انقطعت عني رسائلي ، وكانت من قبل تردني على نحو نظامي • انه لم يعد يظهر في بيتنا بـ « بيل ستريت » • وبحث رفاقنا عنه في كل مكان • ومن طريق اجهزتنا السرية نقبنا عنه في كل مكان • ومن طريق اجهزتنا السرية نقبنا عنه في كل سجن من سجون البلاد تنقبيا • ولكنه اختفى اختفاء كليا ، فكان الارض قد ابتلعتة • وحتى يوم الناس هذا لم يكتشف ايما خيط يساعد على معرفة النهاية التي انتهى اليها • ١٠٢

لقد قضيت في الملجأ ستة اشهر موحشة ، ولكنها لم تكن اشهرا متبذلة • لقد اندفعت منظمنا قدما ، وكانت تنتظرنا دائما جبال من الاعمال المتراكمة

١٠١ الواقع ان التنكر امسى في تلك الحقبة فنا حقيقيا • فكان الثائرون ينشئون في جميع ملاجئهم مدارس للتمثيل • لقد ازبدوا اللهم المستعارة واللحي والحواسب الزائفة وغيرها من الاسباب واللوازم التي يستعين بها الممثلون المسرحيون • لقد كانت لعبة الثورة لعبة حياة أو موت ، وكانت الاسباب واللوازم وحدها اشراكا • كان على التنكر ان يكون أساسيا ، جوهريا ، وجزءا لا يتجزأ من كينونة المرء ، من طبيعته الثانية • وتقول المصادر ان « العذراء الحمراء » كانت واحدة من أبرع البارعين في هذا الفن ، والى هذه البراعة يجب ان يعزى عملها الطويل الناجح •

١٠٢ كان الاختفاء أحد أهوال العصر • وهو يظهر مصادفة وعلى نحو غير متوقع ، في الاغنية والقصة ، بوصفه دافعا من الدوافع • كان مصاحبا محتوما للحراب السرية التي دارت رحاها خلال تلك القرون الثلاثة • وكانت هذه الظاهرة فاشية في الطبقة الاوليغاركية وفي الطوائف العمالية المنغلقة فشوها في صفوف الثوار تقريبا • فمن غير انذار ، ومن غير اثر كان الرجال والنساء ، وحتى الاطفال ، يخفون فلا تقع عليهم — بعد — عين ، ويغلف الغموض نهاياتهم •

يجب اداؤها • وكان ارنست وزملاؤه القادة يقررون ، من وراء قضبان سجونهم ، ما الذي ينبغي ان يفعل ، وكان علينا نحن الذين كنا ما نزال متمتعين بنسيم الحرية ان تنفذ • كانت ثمة منظمة « الدعوة المشافهة » ومنظمة جهازنا التجسسي بمختلف فروعها وتشعباتها • وكان ثمة انشاء مطابعا السرية ، وانشاء سلكنا الحديدية السرية ، وهو امر كان يعني شد الآلاف المؤلفة من ملاحنا بعضها الى بعض ، واقامة ملاجئ جديدة حيث كانت حلقات مفقودة في السلاسل التي طوقنا بها البلاد كلها • وهكذا اقول ان العمل لم ينجز البتة • وفي نهاية الشهور الستة قطع علي وحدتي وصول رفيقين اثنين • كانا فتاتين صغيرتين ، روجين باسلتين ، ومحبتين متحمستين من محبي الحرية : « لورا بيترسون » التي اختفت عام ١٩٢٢ ، و « كايت بيرس » التي تزوجت في ما بعد من « دو بوا » ١٠٢ والتي لا تزال معنا مرفوعة العينين نحو شمس الغد التي تبشر باطلاة عصر جديد • ووصلت الفتاتان في غمرة من الاهتياج والخطر والموت المفاجئ • فقد كان بين ملاحي زورق الصيد الذي اقلهما عبر خليج سان بابلو جاسوس من صنائع العقب الحديدية تذكر على نحو ناجح في زي ثائر من الثوار ونفذ نقادا عميقا الى اسرار منظمتنا • ولا ريب في انه كان يتعقب اثارنا ، ذلك باننا علمنا منذ مدة غير يسيرة ان اختفائي كان مثار قلق عظيم عند جهاز الاوليغاركية الاستخباري السري • ومن حسن الطالع ، كما اثبتت النتائج ، انه لم يبح بمكتشفاته لامرئ ما • كان واضحا انه قد أرجأ وضع تقريره مؤثرا الانتظار حتى ينتهي بالاشياء الى خاتمة ناجحة باكتشاف مخبائي والقاء القبض علي • لقد ماتت معلوماته معه • وبعد ان هبطت الفتاتان اليابسة عند « بيتالوما كريك » وامتطتا متني فرسين اثنتين ، تذرع بذريعة ما وغادر الزورق • وبعد ان صعدوا في جبل سونوما فاجتازوا جزءا منه ترك جون كارلسون الفتاتين تتابعان سبيلهما ، وقاد هو فرسه وانقلب راجعا سيرا على قدميه • كانت ظنونه قد أثرت • ولقد القى القبض على الجاسوس ، واعطانا فكرة واضحة عما حدث بعد ذلك •

– « لقد قتلته » ، تلك كانت طريقة كارلسون المفتقرة الى نفحة من نفحات الخيال في وصف المسألة ، « لقد قتلته » ، هكذا كان يكرر وضياء قاتم يقد في عينيه ، ويداه الضخمتان المشوهتان بالكدح تنبسطان وتنقبضان في

١٠٣ ان « دو بوا » Du Bois ، قيم مكتبة أريديس الحالي ، متحدر من اصلااب هذين الثائرين اللذين جمع الزواج ما بينهما •

فصاحة • وانه لم يطلق ايما صوت • ولقد خباته ، وهذه الليلة سوف انقلب راجعا وأدفنه عميقا في جوف الارض » •

وكان من دأبي خلال تلك الفترة ان اعجب لتحولي ، metamorphosis • ولقد تعذر علي في بعض الاحيان ان اصدق اني قد عشت حياة وادعة آمنة في مدينة جامعية او أن اصدق اني قد اصبحت ثائرة متمرسة بمشاهد العنف والموت • ان واحدة من تينك الحياتين لا يمكن ان تكون • لا ريب في أن احداهما كانت حقيقية وان الاخرى كانت حلما ، ولكن ايهما الحقيقة وايهما الحلم ؟ هل كانت حياتي الحالية هذه ، حياة المرأة الثائرة المختبئة في جحر ، كابوسا ؟ ام هل كنت امرأة ثورية رأت في ما يرى النائم ، في مكان ما وبطريقة ما • انها عاشت - في وجود سابق - في بيركلي ولم تعرف قط في الحياة ما هو اعنف من حفلات الشاي والرقص ، ومن جمعيات الخطابة والمناظرات ، ومن قاعات المحاضرات ؟ ولكنني أحسب أن هذا كان شعورا عاما خبره كل امرئ منا نحن الذين انضوينا تحت راية الاخاء الانساني الحمراء •

وكثيرا ما تذكرت صورا من تلك الحياة الاخرى ، ومن عجب انها كانت تبرز وتختفي بين الفينة والفينة في حياتسي الجديدة • كان ثمة الاسقف مورهاوس • لقد بحثنا عنه ، على غير طائل ، بعد ان انشئت منظمنا ونمت • كان قد نقل من مصحة الى مصحة ، وتعقبنا آثاره من مستشفى الولاية الخاص بالمجانيب في « نابا » الى مستشفى المجانيب في ستوكتون ، ومن هناك الى المستشفى الذي في وادي سانتا كلارا والمسمى « آغنيوز » ، وهناك انقطع الاثر • ولم يكن ثمة ايما رواية تؤذن بوفاته • ويستفاد من هذا انه لا بد قد فر على نحو ما • ولم أحلم الا قليلا بالطريقة الرهيبة التي قدر لسي بعد أن اراد فيها من جديد - لمح لحا عابرا في اعصار مذبحه « كومون تشيكاغو » •

أما جاكسون الذي فقد ذراعه في مصانع سيرا والذي كان سبب انقلابي الى ثائرة فلم أره كرة اخرى قط ، ولكننا عرفنا جميعا ما الذي فعله قبل ان يموت • انه لم يلتحق بالثوريين قط • لقد حز في نفسه المصير الذي كتب عليه واستغرق في التفكير في الظلم الذي انزل به فأمسى فوضويا - لا فوضويا متفلسفا ولكن مجرد حيوان مسعور بالحقد والشهوة الى الانتقام • ولقد انتقم لنفسه احسن انتقام • لقد غافل الحرس ، في موهن من الليل ، لحظة كان القوم كلهم نياما ، ونسف قصر بيرتونوايث محيلا اياه الى ذرات • ان نفسا واحدة لم تنج ، حتى الحرس أنفسهم لم يوفقوا الى النجاة • وفي السجن ، بينما كان ينتظر المحاكمة ، خنق نفسه بين بطانياته •

وانتهى الدكتور هامرفيلد والدكتور بالينغفورد الى مصير مختلف جدا عن مصير جاكسون . لقد كانا وفيين لسادتهما ولقد جزيا جزاء وفاقا فمنحا قصيرين اكليركيين عاشا فيهما في سلام مع العالم . كلاهما كان منافحا عن الاوليفاركية ، وكلاهما كان قد غدا بدينا الى حد بعيد . « لقد وفق الدكتور هامرفيلد » - كما قال ارنست ذات مرة - « الى تعديل فلسفته الميتافيزيقية بحيث تنتزع موافقة الله على سياسة « العقب الحديدية » ، وبحيث تشمل ايضا على كثير من عبادة الجمال وعلى احالة الكائن الفقاري الغازي الذي وصفه هايكل الى طيف غير منظور . والفرق بين الدكتور هامرفيلد والدكتور بالينغفورد هو ان الاخير قد جعل رب الاوليفاركيين اكثر غازية بقليل وأقل فقارية بقليل » .

أما بيتر، دونيلي ملاحظ العمال في مصانع سبيرا ، وهو الوغد الذي قابلته يوم كنت أقوم باستطلاعي حول قضية جاكسون ، فكان مفاجأة لنا جميعا . ففي عام ١٩١٨ شهدت أحد اجتماعات الحمر السان فرانسيسكوويين . ومن بين « زمرنا المقاتلة » كلها كانت هذه الزمرة أفضعها وأكثرها ضراوة وأبعدها عن الرحمة . ولم تكن في الواقع جزءا من منظمتنا . كان أعضاؤها متعصبين ، مسعورين . ولم نجروا على تشجيع مثل هذه الروح . ومن ناحية ثانية ، فقد بقينا على صلات ودية معهم ، برغم انهم لم يكونوا منضوين تحت لواء منظمتنا . وكانت المسألة التي حملتني الى هناك ، تلك الليلة ، على جانب عظيم من الخطورة . وكنت أنا ، وسط عشرين من الرجال ، الشخص الوحيد غير المتقنع . وبعد أن أنجزت المهمة التي ساقنتني الى هناك عاد بي واحد منهم . وفي أحد المجازات المظلمة أشعل هذا الدليل عود ثقاب ، ثم انه رفعه على مقربة دائية من وجهه ، ورد قناعه الى الوراء . وحدثت لحظة الى أسرار وجه بيتر دونيلي المنفعل . ثم ان عود الثقاب انطفأ .

وقال بيتر في الظلام :

« كل ما أردته هو ان اعرفك أن لديك هو أنا . هل تذكرين دالاس ،

مدير المصنع ؟ »

وهزئت رأسي معلنة تذكيري مدير مصنع سبيرا ذا الوجه الشعليبي .

وقال دونيلي في اعتزاز :

« لقد قتلته أولا . وبعد ذلك انضمت الى الحمر . »

فسألته :

« ولكن كيف اتفق ان تكون هنا ؟ وزوجتك وأولادك ؟ »

فأجابني :

« ماتوا » .

ثم تابع متعجلا :

« هذا هو السبب » لا ، انه ليس على سبيل الثأر لهم . لقد قضاوا حثف أنوفهم في فرشهم - انه المرض ، كما ترين ، المرض الذي كان يلم بهم بين حين وحين . لقد كبلوا زراعي خلال حياتهم . والان وقد مضوا لسبيلهم أراني التمس الاثثار لرجولتي المحطمة . لقد كنت ذات يوم بيتر دونيلي ملاحظ العمال الوجد . أما هذه الليلة فأنا رقم ٢٧ من حمر سان فرانسيسكو . تعالي الان ، وسوف أخرجك من هذا المجاز المظلم » .

وسمعت عنه أشياء اضافية ، في ما بعد . كان قد نطق بالحقيقة ، على طريقته ، حين قال انهم ماتوا جميعا . ولكن واحدا منهم كان على قيد الحياة ، وكان هذا هو تيموثي ، ولقد اعتبره أبوه ميتا لانه انضم الى جماعة المرتزقة ١٠٤ العاملين في خدمة « العقب الحديدية » . وكان كل عضو من أعضاء « حمر سان فرانسيسكو » يأخذ على نفسه عهدا بأن يقوم بتنفيذ اثني عشر حكما من أحكام الموت كل سنة . حتى اذا ما أخفق عضو في الوفاء بعهده هذا عمد الى الانتحار . وأحكام الموت هذه لم تكن تصدر كيفما اتفق . فقد كانت هذه الزمرة من المسعورين تجتمع على نحو مكرور وتصدر أحكاما بالجملة على خدام الاوليفاركية والمذبذبين من أعضائها . وبعد ذلك كانت هذه الاحكام توزع ، بالقرعة ، على افراد الجماعة لينهضوا بعبء تنفيذها .

والواقع أن المهمة التي حملتني الى هناك ، ليلة قمت بزيارتي تلك ، كانت محاكمة من هذه المحاكمات . ذلك بأن « حمر سان فرانسيسكو » أهدروا دم رفيق لنا كان قد وفق الى تولي احدى الوظائف الكتابية في المكاتب المحلية لشعبة الاستخبارات التابعة للعقب الحديدية والاحتفاظ بها طوال سنين ، وكانوا قد شرعوا في محاكمته . ولم يكن هو حاضرا طبعاً ، ولم يدر قضاته - طبعاً أيضاً - انه كان واحداً من رجالنا . وكانت مهمتي أن أعرف القوم

١٠٤ بالإضافة الى الطوائف العمالية المنغلقة نشأت طائفة أخرى منغلقة هي الطائفة العسكرية . لقد انشئ جيش نظامي مؤلف من جنود محترفين ، يقوده ضباط اوليفاركيون ، ويعرف بجيش المرتزقة . وهذه المؤسسة حلت محل الميليشيا التي كانت قد اثبتت انها شيء غير عملي في ظل النظام الجديد . وخارج نطاق شعبة الاستخبارات النظامية الملحقه بالعقب الحديدية انشئت شعبة سرية أخرى قوامها المرتزقة ، وقد شكلت هذه الشعبة الاخيرة حلقة وصل بين الشرطة والجيش .

بهيوته وان اشهد امامهم على ولائه . وقد يتساءل القارئ كيف اتصل بنا
نبا المسألة . ولكن التفسير يسير . فقد كان الواجب يقتضينا ان نراقب
الصدق بقدر ما نراقب العدو ، وهذه الجماعة من المسعورين لم تكن من
المسألة والتفاهة بحيث تنجو من مراقبتنا .

ولكن فلنعد الان الى بيتر دونيلي وابنه . لقد جرى كل شيء على ما
يرام ، بالنسبة الى موريلي ، حتى وجد ، في العام التالي ، بين أحكام الموت
التي اصابته قرعتها اسم تيموثي دونيلي . وهنا اطلعت العصبية الاسرية
راسها ، وكانت عنيفة عنده الى حد استثنائي ، واكدت نفسها . ولكي ينقذ
ابنه خان رفاقه . وافسدت خطة خيانتة هذه جزئيا ، ولكن اثني عشر عضوا
من « حمر سان فرانسيسكو » لقوا في ذلك حتفهم ، وكاد ان يقضى على
الجماعة قضاء نهائيا . وانتقم الناجون من أفرادها لانفسهم ، فجرعوا دونيلي
الموت الذي استحقه بخيانتة .

ولم يعمر تيموثي دونيلي بعد ذلك طويلا . لقد اخذ « حمر سان
فرانسيسكو » على انفسهم عهدا بان يصرعوه . وبذلت الاوليفاركية قصارى
جهدا لانقاذه . لقد نقل من بقعة من بقاع البلاد الى اخرى . وفقد ثلاثة من
« الحمر » حياتهم في محاولات مخففة للقضاء عليه . وكانت الجماعة مؤلفة
من رجال فقط . وفي النهاية ، استعانوا امرأة . استعانوا احدى رفيقاتنا .
ولم تكن هذه المرأة غير آنا رويلستون . ومنعتها « حلقتنا الداخلية » عن
اداء هذه المهمة ، ولكنها كانت هي شديدة الرغبة في ذلك ، فازدردت النظام
وتمردت عليه . والى هذا ، فقد كانت امرأة عبقرية ومحبوبة ، ولم يكن في
ميسورنا ان « نضبطها » بحال . انها طبقة وحدها ، فليس في الامكان اخضاعها
لمقاييس الثوريين العادية .

وعلى الرغم من رفضنا أن نجيز لها اداء هذه المهمة مضت قدما في
سبيل تنفيذها . والواقع ان آنا رويلستون كانت امرأة فاتنة . ولم يكن الامر
يقتضيها اكثر من ايماءة تدعو بها رجلا من الرجال اليها . لقد حطمت
قلوب عشرات من رفاقنا الشبان ، وأسرت قلوب عشرات آخرين ، وبنشاط
قلوبهم قادت منظمنا كلها . ومع ذلك ، فقد ابت في عناد ان تتزوج . لقد
احبت الاطفال حبا جما ، ولكنها اعتقدت ان انجابها طفلا من الاطفال خليق
به ان يشغلها عن القضية الكبرى ، وانها انما وقفت حياتها على هذه القضية
ليس غير .

وكان اكتساب تيموثي دونيلي مهمة يسيرة على آنا رويلستون . ولم

يؤنبها ضميرها ، اذ حدثت في تلك الفترة بالذات « مذبحه ناشفيل » التي صرع فيها المرتزقة ، يقودها دونيلي ، ثمانمئة عامل من عمال النسيج في تلك المدينة . ولكنها لم تقتل دونيلي . لقد اسلمته أسيرا الى « حمر سان فرانسيسكو » . ولم يحدث هذا الا في العام الماضي ، وان اسما جديدا ليخلع عليها اليوم . لقد اخذ الثوريون في كل مكان يدعونها « العذراء الحمراء » ١٠٥ .

وكان الكولونيل اينغرام والكولونيل فان جيلبرت شخصيتين اخريين من معارفي قدر لي ان التقيهما بعد . ولقد لمع نجم الكولونيل اينغرام في سماء الاوليفاركية ، وامسى وزيرا مفوضا للولايات المتحدة في المانية . لقد ابغضته البروليتاريا في كل من البلدين بغضا نابعا من القلب . وانما التقية في برلين حيث استقبلني ، بوصفي جاسوسة دولية معتمدة من جاسوسات العقسب الحديدية ، وأسدى الي عونا عظيما . وبالمناسبة ، يحسن بي أن أنص على اني في دوري المزدوج حققت للثورة بعض الاشياء الهامة .

وأصبح الكولونيل فان جيلبرت معروفا بفان جيلبرت « النابج » . وقد لعب أعظم ادواره في وضع مسودة القانون الجديد بعد « كومون تشيكاغو » . ولكنه كان قبل ذلك قد استحق ، بوصفه قاضيا ، حكم الموت ، بسبب من لؤمه وحقه الابليسيين . وكنت أنا في جملة الذين حاكموه وقضوا باعدامه . وقد تولت أنا رويلستون تنفيذ الحكم .

وثمة صورة أخرى أيضا ترتفع من الحياة القديمة - صورة محامي جاكسون . واذا كنت قد توقعت اشياء فقد كان اجتماعي من جديد بهذا الرجل ، جوزيف هيرد ، هو اقل ما توقعته . كان اجتماعا غريبا . ففي ساعة متأخرة من الليل وصلت انا وارنست ، بعد انقضاء سنتين على « كومون تشيكاغو » الى ملجأ ثغر بينتون . وكان ذلك الملجأ في ميشيغان ، عبر البحيرة الواقعة وراء تشيكاغو . لقد وصلنا ومحاكمة احد الجواسيس على وشك ان تختتم . كان الحكم بالموت قد صدر ، وكان الجاسوس قد اقتيد ليلقى جزاءه . ذلك كان هو المشهد عندما وفدنا . وما هي الا لحظة حتى تملص الرجل المباحس

١٠٥ لم تنشط جماعة « حمر سان فرانسيسكو » وتزدهر من جديد الا بعد سحق « الثورة الثانية » . وطوال جيلين اثنين ازدهرت الجماعة . ثم ان احد عملاء « العقب الحديدية » احتال للدخول في الجماعة فنفذ الى اسرارها جميعا ، ومهد السبيل للقضاء عليها قضاء نهائيا . وانما حدث ذلك عام ٢٠٠٢ لليلاد . لقد أعدم الاعضاء واحدا اثر واحد في مدى ثلاثة اسابيع ، وعرضت جثثهم في حي العمال في سان فرانسيسكو .

من بين أيدي أسريه وانطرح على قدمي ، وقد طوقت ذراعاها ركبتي تطويقا مؤثرا يذكر بصنيع العثاق وراح يلتمس مني الرحمة في انفعال مسعور . حتى اذا رفع وجهه المتعاقب الي عرفت فيه جوزيف هيرد . وعلى كثرة ما شهدت من اشياء فظيعة لم يقدر لي أن افقد اعصابي بقدر ما فقدتها لدن رأيت الى هذا المخلوق الهائج المتضرع من أجل الابقاء على حياته . كان يحرص على الحياة في سعر . وكان ذلك مثيرا للشفقة . لقد رفض ان يفلتني ، رغم ايدي دزينة من الرفاق . حتى اذا جروه اخر الامر وهو يعول ويصرخ سقطت مغشيا علي . فلأن ترى البواسل يموتون اسهل بكثير من ان ترى جباننا يتضرع ، سائلا خصمه الابقاء على حياته ١٠٦ .

١٠٦ كان ملجأ ثغر بينتون قبوا يحتال للوصول اليه من طريق بئر من الآبار . ولقد حرق عليه بقدر من حسن الصيانة صالح . وفي استطاعة الزائر الفضولي ، اليوم ، ان يطوف في متاهاته حتى يصل الى قاعة الاجتماع حيث حدث ، من غير شك ، المشهد الذي وصفته آيفيس ايفرهارد . وابتعد بعض الشيء تقع الزنانات التي كان السجناء يحبسون فيها ، وغرفة الموت حيث كانت احكام الاعدام تنفذ . وعلى مسافة ما ، وراء ذلك ، كانت المقبرة ، وهي بمثابة دهاليز طويلة متعرجة منحوتة في الصخر الصلب تكتنفها من كلا جانبيها تجاويف يرقد فيها الثوار ، وقدتهم الاخيرة ، طبقات بعضها فوق بعض ، كما خلفهم رفاقهم منذ سنوات طوال .

الفصل العشرون

اوليفاركي ضائع

ولكنني في تذكري الحياة السالفة استبقت بعض الاحداث في حياتي الجديدة . فاستنقاذ رفاقنا من السجون ، زرافات زرافات ، لم يحدث الا بعد انقضاء بضعة اشهر من عام ١٩١٥ . صحيح انها كانت عملية معقدة ولكنها نفذت في غير ما توقع ، وأوقعت البهجة في نفوسنا بوصفها ماثرة حميدة . فمن كوبا الى كاليفورنيا ، وفي ليلة مفردة ، انقذنا من عشرات السجون والمعتقلات العسكرية والقلاع واحدا وخمسين نائبا من ممثلينا الاثني والخمسين في الكونغرس ، وانقذنا الى جانبهم ثلاثمئة ونيفا من الزعماء الآخرين . ولم تجهض العملية في أيما مكان . ولم يتنشق الزعماء نسيم الحرية فحسب ، بل لقد استطاع كل منهم ان يصل الى الملجأ المعين له . وكان النائب الوحيد الذي لم نوفق - من بين رفاقنا نواب الكونغرس - الى تحريره هو آرثر سيمبسون ، وكان قد مات قبل ذلك في كوبانا بعد تعذيب وحشي .

ولعل الاشهر الثمانية عشر التي تلت كانت اسعد فترة في حياتي مع ارنست . اننا لم نفترق قط طوال تلك الفترة . وفي ما بعد ، عندما رجعنا الى العالم ، فصل احدا عن الاخر فصلا كثيرا . والواقع اني لا انتظر لهيب ثورة الغد بفروغ صبر اشد من ذلك الذي انتظرت فيه مجيء ارنست تلك الليلة . كانت قد انقضت فترة طويلة لم اكحل خلالها عيني برويته ، وكان مجرد التفكير في ان خطا ممكنا في تنفيذ خططنا او تأخرا ممكنا في ذلك التنفيذ خليق به ان يبقيه في سجنه بالجزيرة . . . اقول كان في مجرد التفكير في ذلك ما افقدني صوابي أو كاد . لقد انقضت الساعات وكأنها اجيال . وكنت انما

وحيدة • كان بيدنباتش ، والشبان الثلاثة الذين كانوا قد أقاموا في الملجأ قد غادروه وانطلقوا الى الجبل مدججين بالسلاح مستعدين لكل طارئ •
ويخيل الي ان الملاجئ خلت كلها من الرفاق ، تلك الليلة •
وما ان شحب وجه السماء ايذاناً بوشك ارتفاع الضحى حتى سمعت الاشارة من عل واعطيت الجواب • وفي الظلام كدت أعانق بيدنباتش السذي هبط اولاً ، ولكن سرعان ما امسيت بين ذراعي ارنست • وفي تلك اللحظة كان تحولي كاملاً الى ابعد حد حتى لقد اكتشفت اني لم استطع ، الا بجهد من الارادة ، ان اكون أقيس ايفرهارد السابقة ، بعاداتي وابتساماتي القديمة ، وبعباراتي ونبرات صوتي القديمة ايضاً • ولم اوفق الا بجهد بالغ الى الاحتفاظ بهويتي القديمة • انا لم أجز لنفسي ان انسى لحظة واحدة ، فالى هذا الحد من الالتزامية الاوتوماتيكية كانت قد انتهت الشخصية الجديدة التي خلقتها •

ما ان امسيت داخل الكوخ الصغير حتى رأيت وجه ارنست في الضياء • وفي ما خلا شحوب السجن لم يطرأ عليه ايما تغير – او ايما تغير كبير على الأقل • كان هو عين حبيبي وزوجي وبطلبي الذي عهدته من قبل • ومع ذلك فقد كان ثمة شيء من التناول التقشفي في أسارير وجهه • ولكنه استطاع ان يحتمله في غير انزعاج ، اذ بدا وكأن ذلك يضيف شيئاً من نبل التهذيب الى تطرف حياته المشاغب الذي طبع ، دائماً ، قسماً وجهه • لعل امارات الصرامة كانت اغلب عليه بعض الشيء مما كانت في الايام السالفة ، ولكن وميض الضحك كان لا يزال في عينيه • كان وزنه قد نقص عشرين رطلا انكليزيا ، ولكنه كان في حال بدنية رائعة • لقد واصل تمريناته الرياضية طوال فترة سجنه ، فاذا بعضلاته تصبح كالحديد • وفي الحق انه كان في حال افضل من تلك التي كان عليها يوم دخل السجن ، وانقضت ساعات قبل ان يمس رأسه الوسادة ، وكنت قد هدهدته • لينام • اما انا فلم تعرف الغمض عيناى •
لقد كانت السعادة تغمرني ، ولم يكن نصب الهروب من السجن وامطاء صهوة الجواد من نصيبي •

وفيما استسلم ارنست للرقاد غيرت ملابسي ، وسرحت شعري على نحو مغاير وارتدت الى ذاتي الاوتوماتيكية الجديدة • حتى اذا افاق بيدنباتش والرفاق الآخرون نسجت بمعاونتهم مؤامرة صغيرة • كان كل شيء محضراً ، وكنا نحن في الحجرة الكهفية التي اتخذنا منها مطبخاً

* هدهد الصبي هذه لينام •

وحجرة طعام عندما فتح ارنست الباب ودخل . وفي تلك اللحظة خاطبني بدينباتش بقوله « يا ماري » فالتفت نحوه وأجبت . ثم انني رنوت الى ارنست في شوق فضولي كذلك الشوق الذي يجدر بكل رفيق ان يتكشف عنه اذ يرى للمرة الاولى زعيما من زعماء الثورة بارزا الى هذا الحد . ولم يعرفني ارنست ، وراح يجيل طرفه في ارجاء الغرفة ، في فروغ صبر ، بحثا عني . وفي اللحظة التالية قدمت اليه بوصفي ماري هولز .

واكمالا للخداع وضع على المائدة طبق اضافي . وحين جلسنا اليها ظل احد الكراسي شاغرا . ولقد كان خليقا بي ان اصرخ من البهجة عندما لاحظت قلق ارنست وفروغ صبره المتعاطفين . واخيرا لم يعد يستطيع الاحتمال اكثر مما فعل .

وتساءل في فظاظه :

« اين زوجتي ؟ »

فأجبت قائلة :

« انها لا تزال نائمة . »

كانت تلك هي اللحظة الحرجة . ولكن صوتي كان صوتا غريبا ، ولم يلحظ فيه اي شيء مألوف لديه . وواصلنا تناول الطعام . وتحدثت في اسراف ، وفي حماسة ، كما يتحدث مريد يعبد البطولة ، وكان واضحا انه كان هو بطلي . وسموت الى ذروة من الحماسة والتعبد ، وقبل ان يوفق الى اكتشاف ما عزمت عليه طوقت جيده بذراعي وطبعت على شفتيه قبله . ولكنه صدني حتى امسيت منه على مبعدة ذراع وانعم النظر في ما حوله في تيرم وارتيك . وابتدرة الرجال الاربعة بضحكات مدوية ، وقدمت اليه تفسيرات وشروح . وغلب عليه الك باديء الرأي . وتفحصني مدققا ، واقتنع نصف اقتناع . ثم انه هز رأسه وابى ان يصدق . ولم يتيقن اني زوجته حقا الا بعد ان امسيت ايفيس ايفرهارد القديمة وهمست في اذنه اسرارا لا يعرفها غيره وغير ايفيس ايفرهارد .

ولم يطوقني بذراعيه الا في ساعة متأخرة من النهار ، مظهر ارتباك كبيرا ، ومدعيا عواطف كمواطف الرجل الذي يجمع بين زوجتين او اكثر . لقد قال :

« أنت آيفسي الحبيبة ، وانت ايضا امرأة اخرى . انما امرأتان اثنتان ، واذن فأنتما « حريمي » my harem . وعلى اية حال فنحن آمنان الان . واذنا بنا المقام في الولايات المتحدة فلا داعي لان نجزع : لقد حققت

الشرط الذي يؤهلني للفوز بالمواطنة التركية ٠ ، ١٠٧

وامست حياتي في الملجأ سعيدة جدا ٠ صحيح اننا ارمقنا نفسينا في العمل ساعات طوالا ، ولكننا عملنا معا ٠ لقد فاز احدنا بالآخر طوال ثمانية عشر شهرا من انفس شهور الحياة ، ولم نكن لنستشعر الوحشة ، اذ كان يقد علينا دائما عدد غير يسير من الزعماء والرفاق - أصوات غريبة من عالم المؤامرة والثورة السري حاملية الينا حكايات كفاح وحرب من خط النار ليس أغرب منها ولا أعجب ٠ اننا لم نكن مجرد متآمرين كئيبين ٠ لقد كدحنا كدحا شاقا وقاسينا الاما كثيرة ، وملأنا الثغرات في صفوف اتباعنا ومضينا في سبيلنا قدما ، ومن خلال العمل الشاق كله واصطراع الحياة والموت وجدنا متسعا من الوقت لنضحك ونعشق ٠ كان بين ظهرائنا فنانون ، وعلماء ، وباحثون ، وموسيقيون ، وشعراء ، وفي ذلك الجحر الغائر في باطن الارض كانت الثقافة اسمى وارفع مما كانت في قصور الاوليغاركيين او في مدنهم المعجزة ٠ والحق ان كثيرا من رفاقنا كدحوا لاضفاء الجمال على هذه القصور والمدن المعجزة نفسها ٠ ١٠٨

ثم اننا لم نقض تلك الشهور ضمن جدران الملجأ الاربعة ٠ فكثيرا ما كنا نمتطي صهوات الخيل ، بعد ان تهبط العتمة ، وننتقل الى الجبال ابتغاء الرياضة ، ولقد كنا نركب خيل ويكسون ٠ ليته عرف كم ثوري حملته أفراسه! بل لقد قمنا بنزهات الى بقاع معزولة نعرفها ، حيث كنا نبقى طوال النهار : نذهب قبل طلوع الفجر ونرجع بعد هبوط الليل ٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد اصطنعنا قشدة ويكسون وزبدته ١٠٩ ٠ ولم يكن ارنست ليتورع عن اطلاق النار على سمانى ويكسون وأرانبه ، وفي بعض الاحيان على وعوله الصغيرة ايضا ٠

لقد كان ملجأ آمنا حقا ٠ ولقد قلت من قبل انه اكتشف مرة واحدة ليس غير ، وهذا يقودني الى كشف القناع عن سر اختفاء ويكسون الصغير ٠ اما وقد مات الان ، فقد اُسمى في طوقي ان اتكلم ٠ كانت في قعر الجحر الكبير

١٠٧ في ذلك العهد كان تعدد الزوجات لا يزال مألوفا في تركية ٠

١٠٨ ليس هذا تفاخرا من جانب أيفيس ايفرهارد ٠ فقد كانت زهرة فنانى العالم ومفكره من الثوريين ٠ وباستثناء قلة قليلة من الموسيقيين والمغنيين وقلة قليلة من الاوليغاركيين كان جميع عابرة ذلك العصر الذين وصلتنا اسمائهم قوما ثوريين ٠ ١٠٩ حتى في تلك الفترة المتأخرة من الزمان كانت القشدة والزبدة ما تزالان تستخرجان على نحو اخرق من لبن البقر ٠ فلم يكن اعداد الطعام في المختبرات قد بدأ بعد ٠

زاوية تنفذ اليها اشعة الشمس المشرقة ، زاوية محجوبة من فوق * الى هناك كنا قد نقلنا احمالا من حصى مجرى الجدول ، حتى لقد اصبحت تلك الزاوية موطننا عذبا ، جافا ، حارا ، نتمشى فيه ، وهناك غلبني النعاس ، ذات اصيل ، فاغفيت نصف اغفاء فوق نسخة من ديوان ماندينهول ١١٠ كنت في غمرة من الراحة والامن حتى لقد عجزت قصائده الغنائية الملتهية عن اثارتي *

ثم انني افقت على قطعة من طوب تسقط عند قدمي * وبعد ذلك سمعت من فوق صوت شيء يزحف * وما هي لحظة حتى ترجل عند قدمي ، منزلقا عن الجدار المتفتت ، فتى غض الالهاب * كان ذلك الفتى هو فيليب ويكسون ، على الرغم من اني لم اعرفه انذاك * لقد نظر الي في برود ، واطلق صغرة اندهاش خفيفة *

لقد قال :

« حسنا ! »

ثم اضاف بعد لحظة ، وقبعته في يده :

« التمس عفوك * انا لم اتوقع ان اجد احدا هنا » *

أما أنا فلم اكن باردة الى ذلك الحد * كنت لا ازال غرة جاهلة في ما يتصل بأمر السلوك في المواقف الحرجة * وفي ما بعد ، عندما أمسيت جاسوسة دولية ، لم اعد على مثل ذلك الخرق من غير ريب * وايا ما كان ، فقد رحت ازحف على الارض مطلقة صيحة الخطر *

وسألني ناظرا الي نظرات ثاقبة :

« لماذا فعلت هذا ؟ »

كان واضحا انه لم يكن يتوقع ، عند هبوطه ، ان نجدنا هناك * ولقد ادركت ذلك في ارتياح *

واجبته :

« ولاي غرض تحسبني فعلت ذلك ؟ »

لقد كنت خرقاء ، حقا ، في تلك الايام *

فقال وهو يهز برأسه :

« لست ادري * الا اذا كان حولك ههنا بعض الاصدقاء * وعلى أية

١١٠ في جميع ما بقي لنا من كتابات تلك الفترة ووثائقها نجد اشارات متواصلة الى قصائد رودولف ماندينهول * لقد دعاه رفاقه « اللهب » ومع ذلك فلم يصل الينا من شعره غير بعض الابيات الغريبة التي نقع عليها في ثنايا كتابات الآخرين *

لقد أعدمته « العقب الحديدية » في عام ١٩٢٨ للميلاد *

حال فلا ريب في ان لديك تفسيراً • ان وجودك هنا يمثل عدواناً على أملاك الناس • فهذه الارض هي ملك ابي ، و • • • ، ولكن ببدينباتش ، الكيس ابدأ اللطيف ابدأ ، قال في تلك اللحظة من ورائه ، وبصوت خافت :

– « ارفع يديك يا سيدي الشاب ! »
ورفع ويكسون الشاب يديه أولاً ، ثم استدار ليوأجه ببدينباتش الذي سدد اليه بندقية أوتوماتيكية من عيار ثلاثين بثلاثين • وكان ويكسون هادئاً رابط الجأش •
– « اوه ، هوه ! وكر جماعة من الثوريين ، بل انه ليبدو أشبه بوكسر دبابير كبار ! حسناً ، انكم لن تقيموا هنا طويلاً ، في استطاعتي ان اقول لكم ذلك » •

فقال ببدينباتش في هدوء :
– « ومن يدري ، لعلك أن تقيم هنا فترة كافية لحملك على اعادة النظر في حكمك هذا • وفي غضون ذلك يتعين علي أن أدعوك الى المضي معي الى الداخل » •

فدهش الفتى دهشاً عميقاً وتساءل :
– « الى الداخل ؟ أليكم سرداب أموات هناك ؟ لقد سمعت بأشياء مثل هذه » •

فأجابه ببدينباتش في نبرته الرائعة :
– « تعال وانظر ! »
فاحتج الفتى قائلاً :
– « ولكن هذا غير شرعي » •

فأجابه الثوري :
– « أجل ، في نظرة قانونكم • أما في قانوننا فصدقني اذا قلت لك انه عمل شرعي الى حد بعيد • يجب أن تألف هذه الحقيقة ، وهي انك في عالم آخر غير عالم الظلم والوحشية الذي عشت فيه من قبل » •
فغمغم ويكسون :

– « ان ثمة متسعاً للمناقشة » •
– « اذن ابق معنا حتى نتناقش » •
وضحك الفتى ولحق بأسره الى البيت • لقد اقتيد الى الحجرة الكهفية الداخلية ، حيث ترك أحد الرفاق الشبان لحراسته ، فيما رحلوا نحن ندرس

الرضع في المطبخ .
لقد ذهب بيدنباتش ، والدموع في عينيه ، الى القول بأن ويكسون يجب ان يموت ، ولقد تنفس الصعداء عندما رجحت اصواتنا صوته فخذل اقتراحه الرهيب . ومن ناحية ثانية ، فانه لم يكن في امكاننا ان ندع الاوليفاركي الشاب يمضي لسبيله .

وقال ارنست :

« سأقول لكم ما الذي يجب ان تفعلوه . سوف نبقيه بيننا ونثقفه » .

فصاح بيدنباتش :

« اذن ، فاننا اطلب ان امنح شرف تنويره في ميدان الشرع والقانون »

وهكذا توصلنا ، ضاحكين ، الى قرار . اننا سوف نحتفظ بفيليب ويكسون أسيرا ، ونثقفه وفقا لمفهومنا من علم الاخلاق وعلم الاجتماع . ولكن كان ثمة عمل يتعين علينا ادائه في غضون ذلك . يجب ان يطمس كل اثر من آثار الاوليفاركي الشاب . كانت ثمة تلك البصمات التي تركها وهو يهبط جدار الجحر المتفتت . وانما عهدنا بهذه المهمة الى بيدنباتش ، فراح يكح بقية النهار كلها ، متديلا من فوق بحبل من الحبال ، حتى ازال في براعة بالغة اخر اثر من آثاره . ومن فوهة الجحر ، ارتدادا الى اعلى الوادي ، ازيلت الاثار كلها ايضا . ثم ان جون كارلسون اقبل مع الغسق وسأله ان يسلمه نعليه .

وأبى الشاب ان يتخلى عن نعليه ، بل لقد ذهب الى حد التصريح باستعداده للقتال في سبيل الاحتفاظ بهما ، الى ان استشعر قوة نعال الافراس في يدي ارنست . ونص كارلسون بعد ذلك في تقرير له على ان صغر ذلك الحذاء قد أورثه قروحا عديدة وفقدانا كبيرا في الجلد ، ولكنه وفق الى ان ينجز به عملا ماجدا . فارتدادا من فوهة الجحر ، حيث انقطعت اثار قدمي الشاب المحوة ، انتعل كارلسون الحذاء ومضى لسبيله متجها نحو اليسار . لقد مشى أميالا وأميالا ، حول الروابي ، وفوق القمم ، وعبر الاودية ، وأخيرا أخفى آثار سيره هو بالخوض في مياه جدول متدفق . لقد نزع نعليه ههنا ، وبالف في اخفاء تلك الاثار بالسير مسافة اضافية على هذا النحو ثم عاود انتعل الحذاء اخر الامر . وبعد اسبوع استرد ويكسون حذاءه .

في تلك الليلة أطلقت الكلاب البوليسية من عقالها ، ولم يعرف نزلاء الملجأ الرقاد الا غرارا . وفي اليوم التالي هبطت الكلاب النابحة الوادي مرة ومرة . لقد اندفعت في اتجاه اليسار ، فوق الاثر الذي رسمه كارلسون لها ، فتاهت

على وجوهها في الاودية النائية الجاشمة عند قدمي الجبل . وطوال تلك الفترة راح رجالنا ينتظرون في الملجأ ، وأسلحتهم في ايديهم : - مسدسات وبنادق اوتوماتيكية ، اذا اردنا ان لا نقول شيئا عن نصف دزينة من اسلحة الفتك الجهنمية التي صنعها بيدنياتش بيديه . ان المرء لا يستطيع ان يتخيل وضعنا ادعى الى اذهال من كان يحاول انقاذ ويكسون انذاك من وضعنا الذي وصفت، هذا اذا ما خاطروا وهبطوا مخبأنا .

وبهذا اكون قد سردت القصة الحقيقية لاختفاء فيليب ويكسون ، الاوليفاركي في وقت مضى ، ورفيقنا في الثورة في ما بعد . ذلك باننا هربنا الى مذهبنا اخر الامر . كان عقله طريا لدنا ، وكان بطبيعته اخلاقيا الى ابعد الحدود . وبعد بضعة اشهر حملناه ، على صهوة فرس من افراس ابيه ، فوق جبل سونوما ، الى « بيتا لوما كريك » وأركبناه زورق صيد بخاريا صغيرا ، وشيئا بعد شيء هربناه في محاذاة خطنا الحديدي السري الى ملجأنا .

وهناك مكث ثمانية اشهر ابنى عند انقضائها ، ولسببين اثنين ، ان يفارقنا . اما الاول فلانه وقع في حب أنا رويلستون ، واما الثاني فلانه كان قد امسى واحدا منا . ولم ينزل عند رغبتنا ويرجع الى ابيه الا بعد ان قنط من حب رويلستون ومن اكتساب قلبها . صحيح انه استمسك ، سوريا ، بأوليفاركيته حتى أدركه الموت ، ولكنه كان في الواقع واحدا من أقوى عملائنا وأكثرهم قيمة وشأنا . ان « العقب الحديدية » كثيرا ما أذهلت باخفاق خططها وعملياتها ضدنا . ولكنها لو عرفت ان كثيرين من اعضائها كانوا عملاء لنا اذن لفهمت وقائع الحال ولزايها ذلك الذهول . لقد اخلص ويكسون للقضية ومحضها ولاءه الكامل . والحق ان تفانيه في اداء واجبه نحوها هو الذي أورده مورد الردي . ففي اعصار عام ١٩٢٧ العظيم ، بينا كان يشهد اجتماعا من اجتماعات زعمائنا ، أصيب بذات الرئة وقضى نحبه . ١١١

١١١ ان هذا الشاب الغض الاهاب لم يكن نسيج وحده من هذه الناحية . ذلك بأن عددا كبيرا من الشبان الاوليفاركيين اخلصوا للقضية العظمى - بدافع حس السلوك القويم أو بسبب من ان مجد الثورة استحوذ على مخيلاتهم - وضحوا بحياتهم ، تحدرهم حوافز اخلاقية او رومانتيكية ، من اجلها . وبالطريقة نفسها لعب كثير من أبناء طبقة النبلاء الروسية ادوارهم في المراحل الاولى والمتطاوله من الثورة التي اندلعت في ذلك البلد .

الفصل الحادي والعشرون

زئير وحش الهاوية

لقد أبقينا ، خلال مقامنا الطويل في الملجأ ، على اتصال وثيق بما كان يجري في العالم الخارجي ، وكنا نلمس لمس اليد قوة الاوليفاركية التي خضنا الحرب ضدها . كانت المؤسسات الجديدة تتشكل ، بعد تغيرات مرحلة الانتقال المتواصلة ، على نحو أكثر وضوحا وتتخذ مظهر السرمدية وصفاتها . وكان الاوليفاركيون قد وقفوا الى استنباط ماكينة حكومية ، بالغة التعقيد ، بالغة الضخامة ، وكانت تلك الماكينة قد نجحت ، وذلك على الرغم من جميع جهودنا لعرقلتها واعاققتها .

وكان هذا مفاجأة لكثير من الثوريين ، ذلك بأنهم كانوا قد تصوروه أمرا متعترا . ومع ذلك فقد كان العمل في البلاد قائما على قدم وساق . لقد كدح الرجال في المناجم والحقول - ولم يكونوا ، بالضرورة ، أكثر من عبيد أرقاء . أما في الصناعات الرئيسية فقد عم الازدهار كل شيء . كان أعضاء الطوائف العمالية المقلدة الكبرى راضين ، وكانوا يعملون في بشر وابتهاج . لقد عرفوا الامن الصناعي لأول مرة في حياتهم . ان الاضرابات واغلاق المصانع وفترات الكساد وبطاقات النقابة لم تعد تؤرق مضاجعهم . لقد عاشوا في بيوت أكثر رفها وفي مدن بهيجة خاصة بهم - بهيجة اذا قورنت بالاحياء القدرة التي كانوا يقيمون فيها من قبل . كان لديهم طعام أفضل ، وساعات عمل أقل ، وأيام تعطيل أكثر ، ومقدار من المتع والمباهج اعظم واشد تنوعا . ولم يبالوا البتة بأخوانهم وأخواتهم الاقل حظا منهم ، بالعمال المحرومين ، بآبناء الهاوية المسوقين الى العمل الشاق سوق العبيد . كان عصر من الانانية

يطل على الجنس البشري • ومع ذلك فليس هذا صحيحا مئة بالمئة • ذلك بأن عملاءنا تغلغلوا في الطوائف العمالية المقلدة تغلغلا بعيدا ، وكان أولئك العملاء رجالا بصرت أعينهم ، وراء حاجة البطن ، بصورة الحرية والاختاء المشرقة •

وكان المرتزقة يمثلون مؤسسة أخرى كبيرة كانت قد اتخذت شكلا سويا وأنشأت تعمل في سلاسة • وكانت هذه القوة قد نشأت ، على نحو تدريجي ، من الجيش النظامي القديم ، وانتهت الآن الى أن تنتظم مليون رجل ، هذا أن لم نذكر شيئا عن القوى الاستعمارية • وكان المرتزقة هؤلاء يؤلفون عرقا مستقلا بنفسه • لقد أقاموا في مدن خاصة بهم تمتعت ، أو كادت ، بحكم ذاتي، ولقد منحوا امتيازات كثيرة • والواقع أنهم ساعدوا على استهلاك جزء كبير من الفائض المربك • وكانوا قد شرعوا يفقدون كل اتصال وكل مشاركة وجدانية مع سائر افراد الشعب ، وكانوا في الحق قد اخذوا ينشئون اخلاقيتهم الطبقة الخاصة ووجدانهم الطبقي الخاص • ومع ذلك تغلغل في صفوفهم الاف من عملائنا وآلاف ١١٢ •

وكان الاوليفاريون انفسهم يجتازون ، كما ينبغي ان نعترف ، مرحلة تطور رائع وغير متوقع • لقد نظموا انفسهم ، بوصفهم طبقة ، تنظيما دقيقا الى أبعد الحدود • فأسند الى كل امرئ منهم عمل يؤديه في هذه الحياة ويؤديه على نحو الزامي • ولم يعد ثمة ، منذ اليوم ، شبان اثرياء متبطلون • فقد حشدت قوتهم لمنح الاوليفاركية قوة موحدة • ولقد خدموا كقادة للقوات المسلحة وكزعماء للصناعة • ليس هذا فحسب ، بل أنهم وجدوا الميدان متسما امامهم في العلم التطبيقي ، وكثير منهم أمسوا مهندسين كبارا • لقد نفذوا الى شعب الحكومة المتعددة ، وخدموا في مستعمرات الدولة ، وانضموا بعشرات الآلاف الى اجهزة الاستعلامات السرية على اختلافها ، واستطيع ان أزعم أنهم دربوا على النهوض بعبء العمل في حقول التربية ، والفن ، والكنيسة ، والعلم، والادب جميعا ، ولقد أدروا في تلك الحقول مهمة خطيرة ، هي مهمة توجيه عمليات الامة العقلية وجهة تمكن للاوليفاركية وترسخ جذورها في الارض • لقد علموا ، ثم عادوا هم بدورهم فعملوا ، ان ما كانوا يفعلونه حق •

١١٢ في الايام الاخيرة من عهد « العقب الحديدية » لعب المرتزقة دورا هاما • لقد أقاموا توازنا في القوى خلال الصراع الناشب بين طوائف العمال المنفلقة وبين الاوليفاريين فكانوا يدعمون بقوتهم هذا الفريق حينما وذاك الفريق حينما ، وقفا لمقتضيات الظروف ومقتضيات الكيد والتأمر •

ولقد تمثلوا الفكرة الارستوقراطية منذ اللحظة التي شرعوا فيها ، وهم بعد اطفال ، يتلقون انطباعاتهم عن العالم • لقد خالطت الفكرة الارستوقراطية نسيجهم العضري حتى أمت جزءا من لحمهم ومن عظمهم • وانما نظروا الى انفسهم كمروضي وحوش ضارية ، كحكام سباع كاسرة • فمن تحت اقدامهم كانت تنبعث ، دائما ، دمدومات الثورة السرية • كان الموت العنيف لا يفتا يمشي مرحا في وسطهم • وكانوا ينظرون الى القبلة والمدية والرصاصة نظرتهم الى أنياب متعددة لوحش الهاوية المزجر الذي يتعين عليهم أن يسيطروا عليه اذا ما كان للانسانية ان تبقى وتستمر • لقد كانوا منقذي الانسانية ، ولقد اعتبروا انفسهم عاملين من اجل الخير الاسمى ، عاملين ملء ابرادهم بطولة وفداء •

لقد آمنوا ، بوصفهم طبقة ، انهم وحدهم سناد الحضارة • وكانوا يعتقدون انه لو قدر لهم ان يهنوا ويضعفوا اذن لابتلعهم الوحش العظيم ولايتلع كل ما هو جميل ورائع وبهيج وخير ، ولقذف بهم الى كرشه الكهفي الراشح منه المخاط • ولولاهم لسادت الفوضى ولارتدت الانسانية الى الليل البدائي الذي لم تخرج منه الا بشق النفس • كانت صورة الفوضى الرهيبة ترفع دائما امام اعين اولادهم حتى لقد رفعوا هم بدورهم ، بعد ان استحوذ عليهم ذلك الخوف الذي نشئوا عليه ، صورة الفوضى امام اعين الاولاد الذين خلقوا من بعدهم • ذلك كان الوحش الذي يتعين على الناس ان يدوسوه بالاقدام ، والذي كان دوسه هذا أسمى واجب من واجبات الارستوقراطي • وبكلمة موجزة ، فانهم هم وحدهم ، بكدهم وتضحيتهم اللذين لا يفتقران ، كانوا يقفون سدا منيعا بين الانسانية الضعيفة وبين الوحش القادر على ان يلتهم كسل شيء • ولقد كانوا يؤمنون بذلك - كانوا يؤمنون بذلك ايمانا راسخا •

ولست في حاجة الى المبالغة في التوكيد على هذه الاخلاقية العالية التي تكشف عنها الطبقة الاوليفاركية كلها • فقد كانت تلك الاخلاقية هي سر قوة « العقب الحديدية » ، وما اكثر الرفاق الذين أبطأوا في ادراك هذه الواقعة أو أبوا ادراكها • ان كثيرا منهم قد عزوا قوة « العقب الحديدية » الى نظام الثواب والعقاب الذي تعتمد • وهذا خطأ • فالجنة والنار قد تكونان عاملي الحماسة الرئيسيين في المشاعر الدينية عند متعصب من المتعصبين ، ولكنهما ثانويتان - عند الكتلة العظمى من المتدينين - بالنسبة الى الحق والباطل • ان حب الحق ، والتوق الى الحق ، والابتئاس بكل ما هو دون الحق - وباختصار ، ان السلوك القويم هو العامل الرئيسي في الدين • والشيء نفسه

يصح في الاوليفاركيين ، فالسجون والنفي واسقاط الرتبة ، وضروب التشريف ، والقصور ، والمدن المعجزة كلها اشياء عرضية . ان القوة العظمى التي تحفز الاوليفاركيين هي ايمانهم بانهم مصيبون في ما يفعلون . ولندع جانباً مختلف الاستثناءات ، ولنضرب صفحاً عن الاضطهاد والظلم للذين جبلت « العقب الحديدية » من طينتهما . فانا اسلم بذلك كله . ولكن النقطة الاساسية هي ان قوة الاوليفاركية كامنة اليوم في اقتناعها هي بصلاح موقفها وصوابيته . ١١٣

وخلال هذه السنوات العشرين الرهيبة لم تكن قوة الثورة ، أيضاً ، الا في ايمانها بصوابيتها وعدالتها . والا فكيف نستطيع ان نفسر تضحياتنا ودماء شهدائنا ؟ ان ذلك هو السبب الوحيد الذي من اجله اُلهب رودولف ميندلهل روحه في سبيل القضية وانشد اغنيته الاخيرة الشرود في الليلة التي لقي فيها حتفه . وذلك هو السبب الذي من اجله مات هولبيرت تحت سياط التعذيب ، رافضاً حتى النهاية ان يخون رفاقه . ان هذا وحده هو الذي حمل آنا رولستون على رفض الامومة المباركة . وهو الذي جعل من جون كارلسون حارس ملجأ « غلين آلين » الامين المتطوع للخدمة بالمجان . وسواء اكان رفاق الثورة صغاراً او كباراً ، رجالاً ام نساء ، رفيعي المقام ام حقيرين ، عباقرة ام حمقى ، فانك واجد ان القوة المحركة لهم هي التوق الى الحق توقاً عارماً مقبلاً .

ولكنني ابتعدت عن قصتي . لقد أدركت انا وارنست احسن الادراك ، قبل مغادرتنا الملجأ ، كيف كانت قوة « العقب الحديدية » تتكون مع الايام كانت الطوائف العمالية المنغلقة ، والمرتزة ، وجيش العملاء السريين ورجال الشرطة على اختلاف انواعهم قد اخذوا على انفسهم ، جميعاً ، عهداً بأن يخلصوا في خدمة الاوليفاركية . ولقد كانوا على الجملة ، اذا تجاهلنا فقدانهم

١١٣ من تناقض الرأسمالية وتنافرها الاخلاقيين خرج الاوليفاركيون بأخلاقية جديدة ، اخلاقية متماسكة واضحة ، حادة قاسية كالفلواز ، اخلاقية لم تملك ايما طبقة طاغية في ايما يوم ما هو أسخف منها وابعد عن العلم وما هو في الوقت نفسه اشد فعالية واقرى . ولقد آمن الاوليفاركيون بأخلاقيتهم ، على الرغم من ان البيولوجيا والتطور evolution كانا يظهران كذيفاً وزيفاً . وبسبب من ايمانهم هذا تمكنوا ، طوال ثلاثة قرون من ان يصدوا مد التقدم البشري الجبار - وهو مشهد مهول يذهل الاخلاقي البيتافيزيقي ، ويوقع في نفس المادي كثيرًا من الشك واعادة النظر في الامور .

الحرية ، احسن حالا من ذي قبل . أما كثرة السكان الكبيرة البائسة ، أبناء الهاوية ، فكانوا يتردون في نقمة على الشقاء شرسة . وكلما أقام بعض البروليتاريين الأشداء دليلا لا يتهم على قوتهم وتأثيرهم البالغ في الجماهير انتزعهم الاولغاركيون من قلب الجماهير ، وأغدقت عليهم النعم بضمهم ما الى الطوائف العمالية المقتلة وأما الى جيش المرتزقة . وهكذا عملت السلطة على تسكين الاشياء وتلطيفها ، وسلبت البروليتاريا زعماءها الطبيعيين .

وكانت حال ابناء الهاوية تدعو الى الرثاء . كان التعليم الابتدائي ، بقدر ما يتعلق الامر بهم ، قد انتهى . لقد عاشوا كالبهاائم في احياء عمالية كبيرة قذرة ، متقيحين بالبؤس والاذلال . لقد ضاعت حرياتهم القديمة كلها . ولقد أمسوا عبيد العمل الارقاء . كانوا قد حرموا حق اختيار العمل ، وكانوا الى ذلك قد حرموا حق الانتقال من مكان الى مكان ، او حق حمل السلاح او حيازته . انهم لم يكونوا اقنان ارض كالفلّاحين . لقد كانوا اقنان ماكينات واقنان عمل . حتى اذا مسست الحاجة اليهم ، على نحو استثنائي ، لشق الطرق العظمى ، وانشاء الخطوط الجوية ، وحفر القنوات والانفاق ، والطرق تحت الارضية واقامة التحصينات ، فعندئذ كان اصحاب السلطة يعمدون الى مصادرتهم وينقلونهم الى مسرح العمليات . ان جماعات غفيرة منهم لتكدح الان في بناء مدينة آرديس ، وقد حشدت في ثكنات حقيرة حيث لا مجال للحياة العائلية البتة . وحيث حلت محل الحشمة بهيمية مطلوبة ، وهناك في الاحياء العمالية القذرة يربض الوحش المزمجر ، وحش الهاوية ، السذي يخافه الاولغاركيون وترتعد لذكره فرائصهم – ولكنهم هم خالقو ذلك الوحش . وهم لن يجيزوا للقرود وللنمر اللذين في جلد ذلك الوحش ان يموتا .

وفي هذه اللحظة ذاع في الناس ان الحكومة قد عمدت الى مصادرة العمال من جديد لانشاء أزغارد ، المدينة المعجزة التي كان في النية بناؤها ١١٤ لتبزن عند اكمالها مدينة آرديس ، وتتفوق عليها تفوقا بالغا . اننا نحن فتيان الثورة وفتياتها سوف نواصل هذا العمل العظيم ، ولكنه لن ينجز بأيدي الاقنان البائسين . ان اسوار هذه المدينة الغاتنة وابراجها وأعمدتها سوف ترفع على

١١٤ تم انشاء آرديس عام ١٩٤٢ للميلاد ، في حين ان ازغارد لم يتم بناؤها الا عام ١٩٨٤ للميلاد . لقد استغرق تشييدها اثنتين وخمسين سنة استخدم خلالها جيش دائم مؤلف من نصف مليون من الاقنان ، وكان هذا العدد يتضخم احيانا فينوف على مليون – هذا اذا أغفلنا مئات الالوف من اعضاء الطوائف العمالية المقتلة ومن اهل الفن .

انغام الغناء ، ولسوف ينسج مع خيوط جمالها وروعتها لا تزهدها وأتات وإكن
موسيقى وضحكات *

وكان ارنست ينتظر الخروج الى العالم الطلق في فروغ صبر ، وكان
الاعداد لثورتنا الاولى المشؤومة ، ثورتنا التي اجهضت في « كومون تشيكاغو »
ينضج في سرعة بالغة . ومع ذلك فقد تدرع بالصبر ، وخلال فترة تحرقه تلك ،
عندما خلقه هادلي الذي استقدم لهذا الغرض من ايلنويز خلقا اخر ١١٥ ، أدار
في رأسه خططا لتنظيم المثقفين من البروليتاريا ، وللاحتفاظ على الاقل بجرثومة
الثقافة عند ابناء الهاوية - كل ذلك ، طبعاً ، في حال اخفاق الثورة الاولى *

ولم نوفق الى مغادرة الملجأ الا في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٧ .
كان كل شيء قد رتب . واتخذنا مكاننا في الحال كعميلين محرضين *agents*
provocateurs نعمل ضمن مخططات العقب الحديدية . وكان مقروضاً في انا
أن أكون اخت ارنست . وساعدنا الاوليفاريكون ورفاقنا الذين تغلغلوا بينهم
ونعموا بنفوذ وسلطان عظيمين . . . أقول انهم ساعدونا على الفوز بمنزل
ناوي اليه . وقدمت الينا جميع الوثائق الضرورية ، وفسر ماضينا وبرر *

١١٥ كان بين رجال الثورة كثير من الجراحين ، وكانت قد تمت لهم براعة اعجوبية
في التشريع . ولقد نصت ايفيس ايفرهارد ، بالحرف الواحد ، على انه كان في
ميسورهم بالمعنى الحقيقي لا المجازي ، ان يخلقوا المرء خلقاً آخر ويجعلوا منه
انساناً جديداً . وكانت ازالة المندوب وضروب التشويه أيسر شيء عليهم . لقد
غيروا ملامح الوجه وأساريره في عناية ميكروسكوبية الى حد مكنهم من اخفاء
آثار صنييعهم اخفاء كاملاً ، وكان الانف هو العضو الذي فضلوا تطبيق فنهم
عليه ، وكان تطعيم *grafting* الجلد وازدراع الشعر *hair-transplanting*
بعضاً من وسائلهم الأكثر شيوعاً . ليس هذا فحسب ، بل ان التغييرات التي
وقفوا الى احداثها في سيماء الوجه أشبه بسحر السحرة . لقد عدلت الاعين ،
والحواجب ، والشفاة ، والافواه ، والاذان تعديلاً جذرياً . ومن طريق اجراء
العمليات الجراحية الباردة في اللسان ، والحنجرة ، والتجاويف الانفية
كان في الامكان تغيير نطق المرء كله وطريقته في الكلام . لقد اخرجتهم الايام
العصبية اليائسة الى اصطناع ضروب من المعالجة يائسة ، ولقد ارتفع جراحو
الثورة الى مستوى الحاجة والتحدي . وفوق هذا كله ، كان في امكانهم أن
يطيلوا قامة الانسان الراشد اربعة انشات او خمسة وان يقصروها انشاً او
انشين . ان ما وقفوا الى اجتراحه هو اليوم فن مفقود . اننا في غير ما حاجة اليه

ولم يكن هذا عزيزا على من ينعم بالمساعدة من داخل العقب الحديدية ، لان الهوية كانت في عالم اجهزة الاستخبارات الطيفي ذاك شيئا سديما • فمثل الاشباح كان العملاء يروحون ويجيئون ، ممثلين الاوامر ، مؤدين الواجبات ، متبعين الادلة ومفاتيح الاسرار ، مقدمين تقاريرهم في كثير من الاحيان الى رؤساء لم يروهم قط من قبل ، او متعاونين مع عملاء آخرين لم تقع عليهم اعينهم في الماضي ولن تقع عليهم ابد الدهر •

الفصل الثاني والعشرون

« كومون تشيكاغو »

وبوصفنا عميلين محرضين لم يكن في ميسورنا ان نكثر من الاسفار فحسب ، بل كان في ميسورنا ايضا ان نتصل ، بحكم عملنا ، بالبروليتاريا وبرفاقنا الثوريين . وهكذا كنا في المعسكرين كليهما في آن معا ، نخدم العقب الحديدية ظاهريا ، ونعمل بكل قوانا في سبيل القضية باطنيا . لقد كان كثير منا قد تسللوا الى مختلف اجهزة الاوليفاركية السرية . وعلى الرغم من ضروب الغريلة واعادة التنظيم التي اخضعت لها تلك الاجهزة السرية فانهم لم يوفقوا قط الى اقصاصنا كلنا عنها .

كان ارنست قد اوشك على انجاز تخطيط الثورة الاولى ، وكان احد ايام الربيع المبكرة من عام ١٩١٨ قد حدد موعدا لها . ففي خريف عام ١٩١٧ لم نكن على استعداد لاعلان الثورة ، كانت قد بقيت اشياء كثيرة يتعين علينا القيام بها ، وحين اندلعت قبل اوانها كان محتوما اخفاقها . كانت الخططة ، طبعا معقدة الى حد رهيب ، وكان أيماء شيء فطير قادرا على افسادها من غير ريب . وذلك ما ادركته العقب الحديدية ، فوضعت خططها وفقه .

وكنا قد عقدنا النية على تسديد ضربتنا الاولى الى جهاز الاوليفاركية العصبي . ذلك بأن الاوليفاركية كانت قد تذكرت الاضراب العام ، وكانت قد احترزت من ارتداد عمال التلغراف باقامة محطات لاسلكية يشرف عليها المرتزقة . وكنا نحن بدورنا قد قمنا بحركة معاكسة . فأوعزنا الى جمهرة من رفاقنا المتقانيين في خدمة القضية ان ينفروا ، حالما تعطى الاشارة ، من الملاحيء كلها في طول البلاد

وعرضها ، من المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والثكنات ، وينسفوا المحطات
اللاسلكية . وهكذا تسقط « العقب الحديدية » عند الصدمة الاولى ، وتنترح
على الارض مقطعة الاوصال .

وفي الوقت نفسه كان على عدد اخر من الرفاق ان ينسفوا الجسور
والانفاق وان يمزقوا شبكة السكك الحديدية كلها . وفوق هذا ، فقد كان على
مجموعات اخرى من الرفاق ان يلقوا القبض ، عند الاشارة ، على ضباط
الشرطة والمرتزة ، وعلى كل ذي كفاءة استثنائية من الاوليفاريكين وكل من
يحتس منهم مركزا تنفيذيا حساسا على السواء . وهكذا يقصى زعماء العدو
عن ميدان المعارك المحلية التي لا بد ان تدور رحاها في ارجاء البلاد كلها .

كان التدبير يقضي بأن تحدث اشياء كثيرة ، على نحو متواتر ، عندما
تعطي الاشارة بالثورة . فكان على الوطنيين الكنديين والمكسيكيين ، الذين
كانوا اقوى بكثير مما حلمت به العقب الحديدية ، ان يقوموا في بلادهم باعمال
هي نسخة طبق الاصل عن اعمالنا . ثم كان ثمة رفاق (او على الاصح
رفيقات ، لان الرجال سوف يكونون في شغل شاغل في مواطن اخرى) مكلفون
بحمل البيانات من مطابعتنا السرية الى دائرة البريد . وكان على رفاقنا الذين
احتلوا مناصب عالية في « العقب الحديدية » ان يسارعوا لتوهم الى اشاعة
الاختلاط والفوضى في جميع الدوائر والشعب . فقد كان في صفوف المرتزة
الاف من رفاقنا والاف . وكانت مهمتهم ان ينسفوا مخازن الذخيرة ويدمروا
ميكانيكية آلة الحرب الدقيقة كلها . وفي ممدن جيش المرتزة
والطوائف العمالية المغفلة كان التدبير يقضي بتنفيذ برامج تخريبية مماثلة .

وباختصار ، كانت ضربة هائلة صاعقة على وشك ان تسد . وعندئذ
تقضي الاوليفاريكية نحبها قبل ان توفى الى استعادة وعيها . وخلق بذلك
ان يعني اياما رهيبية وخسارة ضخمة في الارواح ، ولكن ايما امرئ ثوري
يتردد امام اشياء كهذه . والواقع اننا ذهبنا الى حد الاتكال اكثر مما ينبغي ،
في خطتنا ، على ابناء الهاوية غير المنظمين . ولقد كانت هذه الخطة تقضي
باطلاقهم على قصور السادة ومدنهم . ولا بأس اذا ما نشأ عن ذلك ازهاق
للارواح وتدمير للممتلكات . دع وحش الهاوية يزأر ، ودع الشرطة والمرتزة
يسفكون الدماء . فوحش الهاوية سوف يزأر على أية حال ، والشرطة
والمرتزة سوف يسفكون الدماء على أية حال . ان ذلك لن يعني اكثر من ان
ضربوا من الاخطار التي تهددنا كانت تصطرع ويدمر بعضها بعضا من غير
ان يصيبنا من اذائها شيء . وفي امكاننا خلال ذلك ان نؤدي عملنا ، غير

معترضين ولا معوقين الا قليلا ، ونفرض سيطرتنا على المجتمع كله .
تلك كانت خطتنا ، وقد رسمت خطوطها كلها في الكتمان ، حتى اذا اقترب
الموعد المضروب اطلعنا عليها عددا من رفاقنا اكثر فأكثر . وكانت هذه هي
نقطة الخطر : اتساع حلقة العارفين بالمؤامرة . ولكننا لم نبلغ نقطة الخطر
تلك ، البتة . فقد عرفت العقب الحديدية بنياً المؤامرة ، من طريق شبكتها -
التجسسية ، واستعدت لاعطائنا درساً جديداً من دروسها الدامية . وكانت
تشيكاغو هي المدينة التي اختيرت لاعطائنا ذلك الدرس . ولقد تعلمناه احسن
ما يكون للتعليم .

كانت تشيكاغو ١١٦ انضج المدن على الاطلاق - تشيكاغو التي كانت
في الايام السالفة مدينة الدم والتي كان عليها ان تستعيد شهرتها هذه من
جديد . هناك ، كانت الروح الثورية قوية عارمة . لقد قمع فيها ، خلال ايام
الرأسمالية ، عدد من الاضرابات المريرة اكثر واعنف من ان ينساه العمال او
يغفروها للقامعين . وحتى الطوائف العمالية المنغلقة في المدينة كانت تتحرق الى
الثورة . كانت قد حطمت في الاضراب السابق رؤوس كثيرة . وعلى الرغم
من محاباة الاوليفاريين لهم وما طرأ على احوالهم من تحسن فان حقدهم على
الطبقة السيدة لم يكن قد مات بعد . وكانت هذه الروح قد أعدت جماعسة
المرتزقة ، فاذا بثلاث كتائب منهم بخاصة ، على استعداد للانضمام اليها
جملة واحدة *all at once* .

وكانت تشيكاغو ، دائماً ، « مركز العاصفة » في الصراع بين العمال
ورأس المال . كانت دائماً ، مدينة معارك شوارعية وموت عنيف . وكان فيها
منظمة رأسمالية تعي طبقتها ، ومنظمة مالية تعي طبقتها ايضاً ، فاذا
بالمدرسين انفسهم ينخرطون ، في الايام الخالية ، في نقابات عمالية وينضمون
مع الطيانيين وبنائي البيوت الآجرية الى اتحاد العمال الاميركي . وهكذا

١١٦ كانت تشيكاغو هي جحيم القرن التاسع عشر الصناعي . وقد انتهت الينا
رواية غريبة عن جون بيرنز ، وكان زعيماً عظيماً من زعماء العمال الانكليز
وعضواً سابقاً في الوزارة البريطانية . وتفصيل الرواية ان صحافياً سأل في
تشيكاغو خلال زيارة قام بها للولايات المتحدة رايه في تلك المدينة ، فاجابه قائلاً :
« تشيكاغو نسخة شعبية عن الجحيم » ، *A pocket edition of hell* . وبعد
فترة يسيرة ، فيما كان يصعد الباخرة ليجر الى انكلترا تقدم اليه صحافي آخر
أراد ان يعرف هل غير رايه في تشيكاغو ام لا ، فكان جوابه : « اجل لقد غيرت
راي » . ان رايي الحالي هو ان الجحيم نسخة شعبية عن تشيكاغو ! ،

أمست تشيكاغو « مركز العاصفة » في الثورة الفطيرة الاولى .

وعمدت العقب الحديدية الى تعجيل البلاء . ولقد فعلت ذلك في براعة .
ذلك بأنها راحت تعامل افراد الشعب كلهم ، حتى الطوائف العمالية المغفلة
الحباية ، معاملة فاضحة شائنة . لقد نكلت بكل عهد ومزقت كل اتفاق ،
وانزلت اقصى العقوبات بالمذنبين والمخالفين مهما تكن ذنوبهم ومخالفاتهم
طفيفة . وهكذا اوقظ ابناء الهاوية ، بسياط التعذيب والتكليل ، من سباتهم
ولامبالاتهم . والحق ان العقب الحديدية كانت تعد العدة لأكراه الوحش -
وحش الهاوية - على الزئير والزمجرة . وجنبا الى جنب مع هذا كله عمدت
العقب الحديدية الى اغفال جميع التدابير الوقائية في تشيكاغو اغفالا لا يتصوره
عقل . وارخيت قبضة النظام الاخذة بخناق من بقي من المرتزقة ، في حين
سحبت كتاب عديدة وجهت الى اجزاء مختلفة من البلاد .

ولم يستغرق انفاذ هذا البرنامج فترة طويلة - بضعة اسابيع ليس غير .
وتناهت الينا ، نحن ابناء الثورة ، اشاعات غامضة عن حقيقة الحال ، ولكننا
لم نقع على شيء محدد يمكننا من فهم الموقف على نحو جلي . والواقع
اننا حسبنا ذلك روحا ثورية تلقائية ينبغي علينا ان نكبحها في عناية بالغة ،
ولم يخطر ببالنا قط انها مفتعلة عن عمد وتصميم - ولقد كانت ، في الحق ،
مفتعلة من جانب زعامة « العقب الحديدية » نفسها على نحو مغرق في السرية
الى درجة جعلتنا نعجز عن تكوين فكرة ضبابية عنها . لقد كانت المؤامرة
المعاكسة عملا بارعا ، ولقد نفذت في براعة ايضا .

وكننت في نيويورك عندما تلقيت الامر بالمضي ، في الحال ، الى تشيكاغو ،
وكان الرجل الذي اصدر الي الامر اوليغاركي من الاوليغاركيين - لقد استطعت
ان ادرك ذلك من كلامه ، برغم اني لم اعرف اسمه ولم ار وجهه . وكانت
تعليماته واضحة الى حد لا يبغي لي مجالاً للخطأ أو سوء الفهم . وفي وضوح
قرأت بين السطور ان مؤامرتنا قد اكتشفت ، وان مكيدة مضادة قد دبرت ضدنا
وكان الانفجار ينتظر شرارة تلم بالبارود ، ولقد كلف عدد لا يحصى من عملاء
العقب الحديدية ، وكننت انا منهم - سواء لزم اولئك العملاء مواطنهم ام
وجهوا الى هناك - بأن يوجدوا تلك الشرارة . واطهرت من براعة التمثيل
قدرا مكنني من الاحتفاظ برباطة جأشي تحت عين ذلك الاوليغاركي المشاغبة ،
ولكن قلبي كان يخفق خفقانا مسعورا . وكننت على وشك ان اصرخ وان
انقض بيدي العاريتين على حنجرته قبل ان ينهي اصدار تعليماته ، في كثير من
البرود ، الي ولكنني عرفت كيف اضبط اعصابي .

حتى اذا انصرفت من لدنه اجريت حسابا للوقت ، فاذا بي اجد انه لا يسمح لي - هذا اذا كنت حسنة الطالع - باكثر من بضع لحظات اتصل خلالها بزعم من الزعماء المحليين قبل ان ادرك القطار الحديدي المفروض فيه ان يقلني الى طيتي * وعلى جناح السرعة انطلقت ، محاذرة ان يقتفي احد اثري ، الى مستشفى الطوارئ ، وحالفني الحظ الحسن فادخلت في الحال على الرفيق غالفين ، كبير جراحي المستشفى * وشرعت في الادلاء ، لاهثة ، بما لدي من معلومات ، ولكنه صدني عن سبيلي *

لقد قال لي في سكينه ، برغم ان عينيه الايرلنديتين كانتا تقدحان شررا :

- « اعرف ذلك * لقد عرفت ما الذي اقبلت من اجله * لقد بلغني نبأ ذلك منذ خمس عشرة دقيقة ، وامررت به ايضا * اننا سوف نتخذ جميع الاجراءات الضرورية لحمل الرفاق على الاحتفاظ بهدوئهم * سوف يضحى بتشيكاجو ، ولكن ذلك لن يتكرر في أية مدينة اخرى * »

- « هل حاولت ان تبلغ تشيكاجو النبأ ؟ »

فهز براسه ، ثم قال :

- « ليس ثمة اتصال تلغرافي * لقد عزلت تشيكاجو * ان ابواب جهنم لتوشك ان تفتتح هناك * »

وتمهل لحظة * وبصرت بأصابع يده البيضاء تنطبق لتشكّل قبضة متلاحمة * ثم انفجر قائلا :

- « لشد ما اتمنى ، وحق الاله ، لو يقدر لي ان اكون هناك ! »

فقلت :

- « لا يزال ثمة مجال للحؤول دون الكارثة ، اذا لم يصب القطار الحديدي اذى ما ، واذا وصلت الى هناك في الوقت المناسب * او اذا ما وفق بعض رفاقنا الآخرين ، الذين يعملون في أجهزة الاستخبارات السرية والذين قدر لهم الاطلاع على الحقيقة ، الى الوصول الى هناك في الوقت المناسب * » وقال :

- « لقد اظهرت الاحداث انكم كنتم - انتم الذين تعملون للقضية الكبرى من داخل العقب الحديدي - مستسلمين للكرى هذه المرة * »

فهزرت براسي في ذلّة *

ثم قلت :

- « لقد اصطنعوا السرية التامة في ذلك * وما كان في ميسور احد غير

زعماء العقبة الحديدية انفسهم ان يعرفه ، حتى فجر هذا اليوم . اننا لما
ننفذ بعد الى قلب العقبة الحديدية النابض ، ومن هنا لم يكن لنا مندوحة عن
التخبط في ديجور الجهل . آه ، ليت ارنست كان هنا . لعله ان يكون في تشيكاغو
الان ، وعندئذ يمسي كل شيء على ما يرام . »

وهز الدكتور غالفين براسه وقال :

« اخر نبأ سمعته انه ارسل الى بوسطن او نيو هايفن . وهذا العمل
السري في خدمة العدو سوف يعوقه كثيرا ، ولكنه خير من الانكماش في ملجأ »
واستعددت للانصراف ، فضغط غالفين على يدي ، وودعني بهذه

الكلمات :

« اعتصمي بجراءة الفؤاد . وما ضرنا لو خسرنا الثورة الاولى ؟
سوف يكون ثمة ثورة ثانية ، وسوف نكون اعقل واكثر حكمة انذاك . وداعا ،
وحظا طيبا . انا لا ادري هل يقدر لي ان اراك بعد اليوم ام لا ؟ ان ابواب جهنم
سوف تفتح هناك ، ولكني مستعد لان اتنازل عن عشر سنوات من حياتي اذا
كان في ذلك ما يمكنك من الوصول في الوقت المناسب . »

وغادر « القرن العشرون » ١١٧ نيويورك في الساعة السادسة مساء ،
وكان مفروضا فيه ان يصل الى تشيكاغو في الساعة السابعة من صباح
اليوم التالي . ولكنه اضاع بعض الوقت تلك الليلة . كنا منطلقين خلف
قطار آخر . وبين المسافرين في القطار « البولمان » الذي اقلنسي كان الرفيق
هارتمان ، وكان يعمل مثلي في استخبارات « العقبة الحديدية » السرية . وكان
الرفيق هارتمان هو الذي حدثني حديث القطار الذي يتقدمنا مباشرة .
لقد كان نسخة طبق الاصل عن قطارنا ، برغم خلوه من الركاب . وكان
المрад به ان يتلقى هو الضربة اذا ما جرت محاولة الى نسف قطارنا ، « القرن
العشرين » . ومن اجل ذلك لم يكن على متن القطار غير قلة قليلة من الناس -
ففي حافلتنا نحن كان ثلاثة عشر شخصا ليس غير . وخلص هارتمان الى
القول :

« لا ريب في ان القطار يقل نفرا من ذوي الشأن والخطر . لقد
لاحظت ان في مؤخرته حافلة خصوصية . »

وكان الليل قد هبط عندما انتقلنا ، اول مرة ، الى قطار آخر ، ورحت
اتمشي على رصيف المحطة التماسا للهواء الطلق وابتغاء مشاهدة ما كان

١١٧ كان معروفا بأنه اسرع قطار في العالم ، في تلك الايام . وكان قطارا يتمتع
بشهرة عظيمة حقا .

في امكاني ان اشاهده . ومن خلال نوافذ الحافلة الخصوصية لمحت ثلاثة رجال لم يكونوا غرباء عني ، لقد عرفتهم . وكان هارتمان على صواب . فأحد اولئك الرجال كان الجنرال التندورف ، وكان الرجلان الاخران هما مايسون وفانديربولد ، دماغي شعبة الاستخبارات السرية الاوليغاركية المفكرين .

كانت ليلة قمراء ساجية ، ولكن القلق غلب علي فلم تفتضم عيني البتة . وفي الساعة الخامسة صباحا ، ارتديت ثيابي وغادرت السرير . وسألت الخادمة في حجرة الملابس والزينة كم ساعة تأخر القطار ، فقالت انه تأخر ساعتين اثنتين . كانت امرأة خلاسية ، ولقد لاحظت انها كانت شاحبة الوجه ترتسم تحت عينيها حلقات كبيرة ، على حين كانت عيناها نفساهما متسعيتين بضرب من الخوف ملازم مقلق .

وسألتها :

« ما المسألة ؟ »

فكان جوابها :

« لا شيء ، يا سيدتي . أحسب اني لم انعم بنصيب كاف من النوم . »
وامعنت النظر اليها ، وامتحنتها باحدى اشاراتنا . فاستجابت ، واستوثقت منها .

وقالت :

« ان شيئا فظيعا سوف يحدث في تشيكاغو . وهناك هذا القطار الزائف المنطلق امامنا . ان ذلك القطار والقطر التي تقل القوات هي التي اخترتنا هذا التأخير كله . »

فسألتها :

« القطار التي تقل القوات ؟ »

فهزت برأسها وقالت :

« الخط حافل بهذه القطر . ولقد كنا نجتاز بها طوال الليل . وهي كلها منطلقة الى تشيكاغو . وان في تسييرها على الخط المباشر ما يدل على ان ثمة شيئا يبيت . »

وصمتت لحظة ، ثم اضافت في لهجة اعتذارية :

« ان لي عشيقة في تشيكاغو . انه واحد منا ، وهو يعمل في جيش المرتزقة ، واني لخائفة عليه . »
يا لها من فتاة مسكينة ! لقد كان عشيقتها في احدى تلك الكتائب التي خانت عهد الاوليغاركية وانضمت الى صفوفنا .

وتناولت الفطور مع هارتمان في حجرة الطعام ، واكرهت نفسي على الاكل . كانت السحب قد حجبت السماء ، واندفع القطار مثل صاعقة متجهة عبر الحجاب الاشهب الذي كان يلف النهار المقرب . وكان الزنوج انفسهم ، الزنوج القائمون على خدمتنا ، يعرفون ان شيئاً فظيلاً على وشك ان يقع . كان ضيق الصدر قد ران عليهم ثقیل الوطاة . وكان مرجهم الطبيعى قد زایلهم . كانوا متوانين في الخدمة ذاهلين عن واجباتهم ، ولقد تهاوسوا باكتئاب في الطرف الاقصى من الحافلة المحاذية للمطبخ . وكان هارتمان شديد التشاؤم ، شبه يائس من الوضع .

وتساءل للمرة العشرین ، في هزة من الكتفين ترشح بالعجز :

« ما الذي نستطيع ان نفعله ؟ »

واشار الى النافذة ، و اضاف :

« انظري ، كل شيء جاهز . وفي استطاعتك ان تثقي انهم يحتجزونهم على هذا النحو ، على مبعده ثلاثين او اربعين ميلاً خارج المدينة ، عند كل طريق . »

كان يشير الى القطر الحاملة قوات من الجيش ، والواقفة عند حاشية المحطة . وكان الجنود يطهون فطورهم على نيران اضربت على الارض الى جانب حاشية المحطة ، ولقد رفعوا ابصارهم نحونا في فضول بينما كنا ننطلق راعين ، من غير ان نخفف شيئاً من سرعتنا المروعة .

كان كل شيء هادئاً عندما دخلنا تشيكاغو . وكان واضحاً ان ايما شيء لما يحدث بعد . وفي الضواحي جاءتنا صحف الصباح فطالعتها ونحن على متن القطار . لم يكن فيها شيء ، ومع ذلك فقد كان فيها اشياء كثيرة بالنسبة الى من برع في القراءة ما بين السطور ، اشياء قصد بها الى ان لا يتلوها القارئ العادي في المتن . كانت يد « العقب الحديدية » الرشيقة جلية في كل عمود من اعمدها . لقد المعت الماعات خفية الى ما يعتري سلاح الاولياغارية من وهن . طبعاً ، لم يكن ثمة شيء محدد واضح . فقد كان وفق الصحافيون الى النجاح في ذلك في كثير من البراعة . ان صحف الصباح الصادرة في اليوم السابع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) كانت ، من حيث ما حفلت به من روايات خيالية ، روائع يندر ان يجود الزمان بمثلها .

كانت تلك الصحف خلوا من الانباء المحلية . وكانت هذه في ذات نفسها « ضربة معلم » . لقد سربلت تشيكاغو بستار من الالغاز الغامضة ، وأوحت

الى القارئ التشيكاغوي العادي ان الاوليفاركية لم تجد في نفسها الجراءة على نشر الانباء المحلية . وحفلت تلك الصحف بتلميحات كاذبة طبعاً ، عن عصيان عم البلاد من اقصاها الى اقصاها ، تلميحات قنعت باشارات مغرورة الى اجراء انتقامية سوف تتخذ وكانت ثمة انباء تقول ان كثيراً من محطات الاسلكي قد نسفت ونص على ان مكافآت ضخمة سوف تقدم الى من يدل على الجناة . ان ايما محطة من محطات الاسلكي لم تنسف ، طبعاً . واوردت الصحف انباء عن كثير من الاعتداءات الماثلة انسجمت مع خطة الثوريين . وكانت الانطباعة المراد تركها في اذهان رفاقنا التشيكاغويين هي ان الثورة العامة قد اندلعت ، مع اشارات مشوشة الى اخفاقها في كثير من النقاط التفصيلية . ولقد كان من المتعذر على غير الملم بحقيقة الوضع ان لا يستشعر ، استشعاراً غامضاً ولكنه راهن ، ان البلاد كلها اُمسّت يانعة للثورة التي كانت قد انفجرت فعلاً .

واوردت الصحف ايضاً ان ردة المرتزقة في كاليفورنيا كانت قد امست من الخطورة بحيث ان نصف دزينة من الكتائب قد انحلت وتفسخت وان افرادها واسرهم قد اخرجوا من مدينتهم نفسها الى احياء العمال القذرة . هذا مع العلم ان مرتزقة كاليفورنيا كانوا في الواقع اكثر الناس ولاء لاسيادهم ! ولكن انى كان لتشيكاغو ، المعزولة عن سائر العالم ، ان تعرف ؟ ثم انه كان ثمة برقية مهلهلة الحواشي تصف انتفاضة قام بها سكان مدينة نيويورك واشتركت فيها الطوائف العمالية المقفلة . وقد ختمت تلك البرقية بنص يقول (بطريقة قصد بها الى ايها القارئ انها خدعة) ان قوات الحكومة تسيطر على الموقف .

وكما فعل الاوليفاريون بصحف الصباح كذلك فعلوا بالرف طريقاً اخرى . وهي طرائق عرفنا بها في ما بعد ، ومنها مثلاً رسائل الاوليفاريين السرية التي ارسلت ابتغاء غرض واحد : هو ان تتسرب ، عمداً ، الى اذان الثوريين التي اصاغت ، بين الفينة والفينة ، الى اسلاك البرق خلال الهزيع الاول من الليل .

ولاحظ هارتمان ، طارحاً الصحيفة التي كان يطالعها ، عندما تقدم للقطار نحو المستودع المركزي :

« لقد اخضاعوا وقتهم بارسالنا الى هنا . فقد نجحت خططهم ، من غير ريب ، نجاحاً فاق كل ما توقعوه . ان نيران جهنم سوف تندلع في أية لحظة . »

والثفت وأطل من القطار فيما كنا نترجل • وغمغم قائلاً :
« لقد توقعت ذلك • لقد فصلوا تلك الحافلة الخصوصية عن القطار
عندما تناهت الصحف الى متنه • »
كان هارتمان مكتئباً على نحو يائس • وحاولت ان ادخل شيئاً من
البهجة على قلبه . ولكنه تجاهل جهدي ، وفجأة شرع يتحدث في عجلة بالغة ،
وفي صوت خفيض ، فيما كنا نغادر المحطة • ولم استطع ان افهم ، في بادئ
الامر • كان يقول :

« انا لم اكن واثقاً ، ومن اجل ذلك لم ابلغ احدا • لقد سلخت اسابيع
في التفكير في هذه المسألة ولكنني عجزت عن الوصول الى شيء يقيني • احترسوا
من نولتون وراقبوه • انا ارتاب فيه • وهو يعرف اسرار عشرين من ملاجئنا •
ان حيوات مئات منا هي رهن يديه ، وانا احسب انه خائن • وهو مجرد شعور
باطني عندي اكثر منه اي شيء اخر • ولكنني اعتقد اني لاحظت تطوراً طرأ
عليه منذ فترة قصيرة • واخشى ما اخشاه ان يكون قد باعنا للعدو او ان يكون
معترضاً ان يبيعنا للعدو • انا على مثل اليقين من ذلك • اني لن اهمس بشكوكي
في اذن احد ، ولكن يخيّل الي بطريقة ما اني لن اغادر تشيكاغو حياً • افتحوا
اعينكم على نولتون • انصبوا له شركاً • ابحثوا واستطلعوا • انا لا اعرف
شيئاً اضافياً • انه مجرد حدس ، ولقد عجزت حتى الان عن العثور على
اضال دليل • »

وكنا الان قد وصلنا الى رصيف الشارع • وختم هارتمان كلامه في
حماسة :

« اذكرني ما قلته • افتحوا اعينكم على نولتون ! »
وكان هارتمان على صواب • فلم يكذب ينقضي شهر واحد حتى دفع
نولتون حياته ثمناً لخيانته • ولقد نفذ الرفاق حكم الموت به ، رسمياً ، في
ميلووكي •

كان كل شيء هادئاً في الشوارع — هادئاً اكثر مما ينبغي • كانت
تشيكاغو مسجاة على فراش الموت • فلم يكن ثمة لا هدير مواصلات ولا قرقرة
سيارات • بل لم يكن في الشوارع حتى عربات اجرة • وكانت القطر الحديدية
السطحية * والقطر الحديدية المعلقة * قد كفت عن الانطلاق • وبين الفينة
والفينة فحسب ، كنت ترى مشاة معدودين على الاصابع ، ولكن هؤلاء المشاة

* انتي تجري على سطح الارض •

** الجارية فوق الطرق والشوارع •

لم يكونوا يتولنون في السير البتة . لقد مضوا لطياتهم في عجلة واندفاع بالغين ، ومع ذلك فقد كان في حركاتهم قلق غريب ، وكأنهم كانوا يتوقعون ان تنهار الابنية على رؤوسهم او ان تسيخ الارصفة تحت اقدامهم او تتطاير في الفضاء . بيد ان بضعة نفر من المتشردين كانوا يتسكعون ههنا وههناك . وفي اعينهم تلفف مكبوح مترقبين ان تحدث اشياء رائعة ومثيرة .

ومن مكان ما ، بعيدا الى ناحية الجنوب ، تناهى الى اذاننا صدى انفجار خافت . ذلك كان كل شيء . ثم ران السكون من جديد ، برغم ان المتشردين كانوا قد اجفلوا واصاخوا للصوت كما تصيخ صفار الايائل . كانت مداخل الابنية كلها موصدة ، وكانت المحال التجارية كلها مغلقة . ولكن كان ثمة عدد كبير من العسس ورجال الشرطة . وبين الفينة والفينة كانت سيارة من سيارات المرتزقة تنهب الشارع نهباً .

وانعقد رأينا ، انا وهارتمان ، على ان من العبث الذي لا طائل تحته ان نمضي لاثبات وجودنا امام زعماء شعبة الاستخبارات المحليين . فقد عرفنا انهم خليقون بان يغفروا لنا مثل هذا التقصير على ضوء الاحداث التالية . وهكذا شخصنا الى حي العمال الكبير في « الجانب الجنوبي » (ساوث سايد) آمليين ان نتصل ببعض الرفاق . كان الاوان قد فات ، لقد عرفنا ذلك ، ولكنه لم يكن في ميسورنا ان نقف مكتوفي الايدي في تلك الشوارع الصامتة الشاحبة شحوب الموت . اين كان ارنست ؟ ذلك ما كنت اتساءل عنه . ما الذي كان يحدث في القلاع والحصون ؟

وانطلق ، وكأنه يجيبني عن تساؤلاتي ، هدير زاعق ضخم ، باهت بحكم البعد - هدير قطعه الانفجار اثر الانفجار .

فقال هارتمان :

« انها القلاع . فليرحم الله تلك الكتائب الثلاث ! »

وعند ملتقى من ملتقيات الطرق لاحظنا في اتجاه مرابط الماشية عمودا هائلا من دخان . وعند الملتقى التالي كانت اعمدة دخان اخرى مماثلة ترتفع نحو السماء في اتجاه « الجانب الجنوبي » (ساوث سايد) . فوق مدينة المرتزقة بصرنا بمنطاد حربي ضخم من النوع الذي يثبت في مكان ما بواسطة حبل او سلك . ولم تكد اعيننا تقع عليه حتى انفجر وسقط خطاما ملتصبا على سطح الارض . ولم نستطع ان نهتدي الى سر تلك الكارثة الجوية . ولقد عجزنا عن ان نعلم علم اليقين هل كان يحمل رجالا من الرفاق ام من الاعداء . وتناهى الى سمعنا صوت غامض ، اشبه ما يكون ببقيقة مرجل

هائل يغلي على مبعدة نائية ، وقال هارتمان انه صدى المدافع السريعة الطلقات والبنادق الاوتوماتيكية .

ومع ذلك ، واصلنا سيرنا في سكة مباشرة . ان شيئا لم يحدث حيث كنا . كل ما في الامر ان رجال الشرطة كانوا يطوفون ههنا وههناك ، وكذلك فعلت دوريات الامن في سياراتها المصفحة . وذات مرة رأينا دزينة من سيارات الاطفاء راجعة ، على نحو واضح ، من حريق ما . ووجه احد ضباط دوريات الامن ، من سيارته ، سؤالا الى رجال الاطفاء ، ولقد سمعنا احدهم يصيح مجيبا :

« لا ماء ! لقد نسفوا الانابيب الرئيسية ! »

وصاح هارتمان في احتياج ، موجها حديثه الي :

« لقد قطعنا المدد المائي . واذا كان في استطاعتنا ان نفعل ذلك كله في محاولة فطيرة ، معزولة ، عقيم ، فما الذي لا نستطيع ان نفعله في جهد ناضج ، متسق ينتظم البلاد كلها ؟ »
وانطلقت السيارة التي كان فيها الضابط الذي طرح السؤال على رجال الاطفاء . وفجأة دوى انفجار يصم الآذان . لقد ارتفعت السيارة ، بحملها البشري ، في الفضاء يكتنفها حجاب من دخان ، ثم سقطت على الارض كتلة من حطام وموت .

وغمر الابتهاج هارتمان ، وراح يكرر ، في همس ، مرة ومرة ومرة :

« رائع ! رائع ! ان البروليتاريا تتلقى اليوم درسا ، ولكنها في الوقت نفسه تلقي على الاوليفاركية درسا ايضا » .

كان رجال الشرطة يهرعون الى مكان الحادث . وهرعت دورية ميكانيكية اخرى الى ذلك المكان ايضا . اما انا فقد عصفت برأسي دوار . كانت فجائية هذا كله مذهلة صاعقة . كيف حدث ذلك ؟ انا لست ادري كيف ، ومع هذا فقد كنت ارى اليه مباشرة . وكان الدوار العاصف برأسي شديدا الى درجة كدت لا اعي معها ، لحظة من زمان ، ائنا وقعنا في أيدي الشرطة . وفجأة رأيت شرطيًا يسد مسدسه الى هارتمان . ولكن هارتمان كان رابط الجاش، وكان يدلي بكلمات السر . وبصرت بالمسدس المسد يتردد ، ثم يهز ، وسمعت نخرة الشرطي المشمزة . كان مغضبا الى ابعد حدود الغضب ، وكان يلعن شعبة الاستخبارات السرية كلها . لقد اكد ان هذه الشعبة كانت تعترض سبيلهم دائما ، فيما كان هارتمان يرد عليه ويشرح له ، في اعتزاز خليق بافراد شعبة الاستخبارات ، خرق رجال الشرطة ورعوتهم .

وفي اللحظة التالية عرفت كيف حدث ذلك • كان يحيط بحطام السيارة جمع غفير ، وكان رجلان اثنان يرفعان الضابط الجريح لحمله الى السيارة الاخرى • وعصف الذعر بهم كلهم ، وتناثروا في كل اتجاه ، راكضين في رعب أعمى ، مخلفين الضابط الجريح وراءهم وقد أسقط على الأرض بفظاظة • والشرطي المجدف من حولي أطلق ساقيه للريح أيضا ، وكذلك فعلت أنا وهارتمان ، من غير ان ندري لماذا ، وقد استبد بنا الرعب الاعمى نفسه ودفعنا الى الابتعاد عن تلك البقعة بالذات •

ولم يحدث آنذاك شيء ، فعلا ، ولكن كل شيء ما لبث ان اتضح • كان الهاربون يرجعون على استحياء ، ولكن أعينهم كانت ترنو أبدا ، وفي جزع ، الى البناية الشامخة ، المتعددة النوافذ ، التي ارتفعت مثل جدران واد من الاودية على جانبي الشارع • لقد أقيت القنبلة من واحدة من هذه النوافذ التي لا تحصى ، ولكن اي نافذة ؟ لم تكن ثمة قنبلة ثانية • لا ، كان ثمة خوف من قنبلة ثانية ليس غير •

ورحنا من ثم نرنو ، في جزع تأملي ، الى النوافذ • كانت كل منها تنطوي على موت محتمل • وكان من الجائز ان يكون في كل مبنى كمين • كانت هذه حربا تدور في ذلك الدغل الحديث - المدينة الكبيرة • كان كسل شارع واديا ، وكان كل مبنى جبلا • اننا لم نختلف كثيرا عن الانسان البدائي ، برغم السيارات الحربية التي كانت تدرع الشوارع •

واذ انعطفتنا عند زاوية ، التقينا بأحدى النساء • كانت منطرفة على الرصيف وسط بركة من دماء • وانحنى هارتمان فوقها وراح يفحصها • اما أنا فاستبد بي غثيان مهلك • لقد قدر علي ان أرى قتلى كثيرين ذلك اليوم ، ولكن تلك الاشلاء كلها لم تؤثر في نفسي بقدر ما أثرت تلك الجثة المهمل ، المطروحة عند قدمي على رصيف الشارع • وقال هارتمان : « لقد أصابها الرصاص في صدرها • » وبين يديها كانت تحتضن ، كما يحتضن طفل ، رزمة من مطبوعات • لقد بدا أنها كرهت ، حتى بعد الموت ، ان تنفصل عن تلك الرزمة التي كانت سببا في قتلها ، اذ ما ان وفق هارتمان الى سحب الرزمة حتى وجدنا أنها تتألف من أوراق كبيرة مطبوعة - من بيانات رجال الثورة •

وقلت :

« رفيقة من الرفاق » •

ولكن هارتمان اجتزا بلعن « العقب الحديدية » ، وتابعنا طريقنا • وأوقفنا رجال الشرطة والعسس مرات عديدة ولكن كلمات السر التي كنا ندلي

بها مكنتنا من مواصلة السير . ولم تسقط بعد أية قنابل من النوافذ ، وبدأ
وكان آخر فرد من المشاة قد توارى من الشوارع ، وأمسى هدوؤنا المفاجيء
أكثر عمقا ، على الرغم من أن الرجل الجبار واصل ببقيته في المدى البعيد ،
وتناهت إلينا من جميع الجهات اصدااء انفجارات خافتة ، فيما كانت أعمدة
الدخان تحلق في السماء على نحو أحفل بالشؤم .

الفصل الثالث والعشرون

أبناء الهاوية

وفجأة تغير وجه الاشياء • لقد سرى في الجو كله خدر احتياج • وولت السيارة مسرعة ، مثنى ، وثلاث ، ودزينة دزينة ، ومنها أرسلت البنا تحذيرات وتنبيهات • وانحرفت احداها انحرافا ضاريا ، في سرعة بالغة ، على مبعدة بضعة مبان متلاحقة ، فاذا بالرصيف الذي خلفته وراءها يمزقه ، بعد لحظات ، انفجار قبلية فيحيله الى حفرة ضخمة • وراينا رجال الشرطة يتوارون هابطين الشوارع المعترضة فرارا بانفسهم من الهلاك ، وعرفنا ان شيئا رهيبا يوشك ان يحدث • كان في ميسورنا ان نسمع هديره الصاعد • وقال هارتمان :

— « ان رفاقنا البواسل قادمون » •

نقد استطعنا ان نرى مقدمة كتيبتهم تملأ الشارع من البالوعة الى البالوعة ، بينا كانت اخر السيارات الحربية تنجو بنفسها • ووقفت السيارة لحظة ، ازاننا تماما • ووثب منها جندي ، حاملا بيديه شيئا ما في احتراس • وبالاحتراس نفسه وضع ذلك الشيء في البالوعة • ثم انه وثب مرتدا الى مقعده ، وانطلقت السيارة على جناح السرعة ، وانعطفت عند الزاوية متوالية عن العيان • وهرع هارتمان الى البالوعة وانحنى فوق ذلك الشيء الذي وضع فيها •

وحذرني قائلا :

— « ارتدي الى الوراء ! »

لقد استطعت ان ارى انه كان يعمل ، في سرعة ، بيديه الاثنتين • وحين

انقلب الي كان العرق يتصبب غزيرا من جبينه •
وقال :

« لقد عطلتها ، وكان ذلك في اخر لحظة • لقد كان الجندي أخرق •
وقد استهدف بها رفاقنا ، ولكنه لم يعطها وقتا كافيا • لقد كان خليقا بها
ان تنفجر قبل الاوان • أما الان فانها لن تنفجر ابد الدهر ! »
كان كل شيء يحدث الان في سرعة • وعبر الشارع ، على مبعدة بضعة
ميان فيه ، استطعت ان أرى رؤوسا تطل من أعلى أحد المباني • وما أن لفت
نظر هارتمان اليها حتى حجب ذلك الجزء من وجه المبنى ، حيث كانت الرؤوس
قد برزت ، حجاب غليظ من لهب ودخان ، وحتى زلزل الهواء بالانفجار • وفي
بعض المواطن كانت الطبقة الحجرية التي مزقت كاشفة عن الحديد الذي
كان من قبل محجوبا خلفها • وما هي غير لحظة حتى اكتنفت مقدمة المبنى
القائم تجاهه ، عبر الشارع ، حجب مماثلة من لهب ودخان • وبين الانفجار
والانفجار كان في ميسوري ان اسمع قعقة المسدسات والبنادق الاوتوماتيكية •
واستمرت هذه المعركة « الجوية » بضع دقائق ، ثم خمدت نارها • وكان
واضحا ان رفاقنا كانوا في مبنى ، وان المرتزة كانوا في اخر ، وانهم كانوا
يتقاتلون عبر الشارع • ولكننا لم نستطع ان نحزر في اي مبنى كان الرفاق ، وفي
اي مبنى كان المرتزة •

وفي هذه اللحظات كانت الكتيبة قد واجهتنا او كادت • وما ان حاذت
البناتين المتحاربتين حتى نشطتا كلتاها للعمل من جديد • وكانت احدى
البناتين تلقي القنابل في الشارع ، بعد ان هوجمت من عرضه فراحت تجيب
على الهجوم بهجوم مضاد • وهكذا عرفنا اي البناتين كان يحتلها رفاقنا ،
ولقد أبلرا في الحق بلاء حسنا منقذين اولئك الذين كانوا في الشارع من قنابل
العدو •

وامسك هارتمان بذراعي ، واقتادني الى مدخل عريض •
وصاح في أذني :
« انهم ليسوا رفاقنا • »

كانت ابواب المدخل الداخلية مقفلة مرتجة * بالحديد • ولم يكن في
ميسورنا ان نفر • وما هي الا لحظة حتى مرت الكتيبة بحذائنا • انها لم
تكن كتيبة ، ولكن جماعة من الغوغاء - نهرا رهيبا غمر الشارع ، أبناء
الهاوية وقد خبلتهم الخمرة والظلم ، وثاروا اخر الامر وزمجروا ظالمين الى

* ارتج الباب : اغلقه اغلاقا وثيقا •

دم أسيادهم • لقد رأيت أبناء الهاوية من قبل ، وطوفت في أحيائهم وحسبت اني عرفتهم ، ولكني وجدت الان اني كنت انظر اليهم للمرة الاولى • كان التلبذ الايكم قد تلاشى • لقد أمسوا الان مشهدا ديناميا ، بل مشهدا فائنا من الرعب • ولقد اصطحبوا تحت ناظري امواجاً من غيظ ، مدممين مزمجرين ، قرمين الى اللحم ، سكرى بالويسكي التي نهبوا من مخازنها ، سكرى بالبغض ، سكرى بالشهوة الى الدم - رجال ، ونساء ، وأطفال ، في أسمال بالية ، أرواح قائمة ضارية محي من أسايرها كل ما هو الهي ، وطبع عليها كل ما هو ابليسي ، قردة ، وثمورة ، ومصدرون مصابون بفقر الدم ، ووحوش ضخمة كثة الشعر من بهائم حمل الانقال ، ووجوه شاحبة امتص المجتمع السلاب نسغ الحياة منها ، وأشكال منتفخة متورمة بالجلافة الجسدية والفساد ، عجائز شمت ذابلات ، وجماجم وقورة ملتحية ككهان النصارى القدماء ، شباب متقيح ، وشيخوخة متقيحة ، وجوه عفاريت ، وهولات شائهة ممسوخة انبلتها غوائل المرض وجميع أهوال سوء التغذية الزمن - حثالة الحياة ونفايتها ••• قطع ، زاعق ، صائح ، ركه عفرت !

ولم لا ؟ ان أبناء الهاوية لم يكن لديهم ما يخسرونه غير الشقاء ومتاعب العيش • وما يربحونه ؟ لا شيء ، ما خلا تخمة نهائية رهيبة من انتقام • وفيما كنت اراقب ذلك كله خطر لي ان في سبيل الحمم البشرية المتدفق هذا رجالا ورفاقا وابطالا كانت رسالتهم اثاره وحش الهاوية وإبقاء العدو مشغولا بمصاولته ومقارعتة •

والم بي ، في تلك اللحظة ، شيء عجيب • لقد عرفت تحولا باطنيا غامرا • ان خوف الموت ، بالنسبة الي والنسبة الى الآخرين ، زایلني فجاءة • لقد عصفت بي احتياج غريب ، فاذا انا كائن جديد في حياة جديدة • لم يبق ثمة معنى او قيمة لايم شيء • وضاعت القضية الكبرى مؤقتا ، ولكن هذه القضية سوف تكون هنا غدا ، القضية نفسها ، وسوف تكون غصة ابدا ، متقدة ابدا • وفي ما بعد ، في غمرة الرعب الذي عصفت خلال الساعات التي تلت ، استطعت ان اتخذ موقف الاهتمام الهاديء • ان الموت لم يعد يعني شيئا ، وان الحياة لم تعد تعني شيئا • وكنت انا مراقبة بقطة للاحداث ، وفي بعض الاحيان الفيت نفسي ، وقد جرفني تيار الصراع ، مشاركة فضولية في المعركة • ذلك بأن عقلي كان قد وثب الى منزلة عالية من البرود ، واعاد النظر في القيم على نحو خلو من الانفعال • ولو انه لم يفعل ذلك ، اذن لماقيت حثفي من غير ريب •

كان نصف ميل من الغوغاء قد اجتاز بنا عندما اكتشف امرنا • لقد
لحتني ولحت هارتمان امرأة ترتدي اسمالا غريبة - امرأة ذات وجنتين
غائرتين على نحو كهفي ، وعينين ضيقين سوداوين مثل مثقبين ملتهبين •
لقد اطلقت صيحة حادة ، واقتربت منا • وانفصل فريق من الغوغاء عن
الحشد العارم ، واندفعوا نحونا • وفي ميسوري ان اراما الان ، وانا اكتب
هذه السطور ، وقد تطاير شعرها الاشيب خصلا رفيقة متداخلة ، وجرى الدم
على جبينها من جرح في رأسها ، وحملت في يدها اليمنى فأسا ، بينما كانت
يدها اليسرى - المهزولة المتفضنة ، الشبيهة بمخلب اصفر - تحاول ان
ان تقبض على الريح في تشنج • وثب هارتمان ليحميني بجسده • ولم يكن
المجال يتسع لاعطاء تفسيرات للموقف • لقد كنا حسني البزة ، وهذا وحده
كان كافيا • وسدد الى المرأة ، بجمع كفه ، لكمة اصابتها بين عينيها الملتهبتين •
فردتها الضربة الى الوراء ، ولكنها اصطدمت بجدار رفاقها الزاحفين ،
وارتدت طافرة الى امام ، كرة اخرى ، وقد عصف بها دوار ويأس في حين
سقطت الفأس ، التي كانت تلوح بها في يدها ، سقوطا واهنا على كتف
هارتمان •

ولم ادر ، بعد ذلك ، ما الذي كان يحدث • لقد سحقني الحشد سحقا •
وملىء المجال المطوق بالزعقات والصيحات واللعنات • كانت الضربات تنصب
علي • وكانت الايدي تمزق لحمي وملابسي • واستشعرت اني مزقت اربا
اربا • وخارت قواي ، واحسست بالاختناق • وامسكت يد بكففي ، وسط
الحشد ، وراحت تضغط علي في ضراوة • وبين الالم والضغط اغمي علي •
ولم يغادر هارتمان ذلك المدخل قط • كان قد جعل من جسده ترسا لي ، وتلقى
صدمة الهجوم الاولى • وكان هذا قد انقذني ، ذلك بان الزحام كان قد
امسى ، بسرعة ، كثيفا الى حد امتنع معه كل شيء ما خلا الامساك بالايدي
وتمزيقها على نحو مسعور •

وثبت الى رشدي وسط حركة ضارية • كان كل ما حولي هو تلك الحركة
نفسها • كنت اسيرة طوفان عارم كان يجرفني الى حيث لا ادري • وكان
الهواء الطلق يداعب وجنتي ، ويسع رثتي لسعا عذبا • واستشعرت استشعارا
ضبابيا ، وقد استبد بي الدوار والاغماء ، يدا قوية تطوقني من تحت ابطي ،
وترفعني نصف رفعة وتجرفني الى امام • وفي وهن ، كانت قدماي نفساهما
تساعداني • وتجاهي ، استطعت ان ارى الظهر المتحرك من سترة رجل •
كانت قد شقت من اعلاها الى ادناها عند الدرزة المركزية ، وكانت تخفق

خفقا ايقاعيا : ذلك بأن ظهر السترة المشقوق كان ينفرج وينغلق ، على نحو نظامي ، مع كل خطوة من خطوات اللابس . وفقتنني هذه الظاهرة برهة ، فيما كنت أثرب الى رشدي . وبعد ذلك أصبحت اعي لسعا في وجنتي وانفي ، واستطعت ان احس بالدم يجري على وجهي . كانت قبتي قد ضاعت . وكان شعري ينوس على جبيني ويتطاير في الهواء ، ومن اللسع الذي كان يعترني جلدة رأسي حاولت ان استحضر صورة يد كانت قد شدتني من شعري عندما احاط بي الحشد عند مدخل المبنى . كان صدري مرضوضا وكانت ذراعي مرضوضتين ، وكانت كلها تؤلني في نواح منها كثيرة .

وغدا ذهني اشد صفاء ، واستدرت وأنا اعدو ونظرت الى الرجل الذي كان يحملني . لقد كان هو الذي جرني وانقذني . ولاحظ حركتي فصاح في صوت أجش :

« لا بأس ! لقد عرفتك في الحال . »

ولم استطع ان اتبينه ، ولكنني دست - قبل ان اوفق الى الكلام - شيئا كان حيا وكان يتلوى تحت قدمي . وجرفني من كان خلفي ، ولم استطع ان اخفض بصري وارى ، ومع ذلك فقد عرفت اني كنت ادوس امرأة كانت قد سقطت على الارض وكانت آلاف الاقدام المتعاقبة قد داستها ودفعتها الى عرض الشارع .

وكرر قائلا :

« لا بأس . انا غارثوايت . »

كان ملتحيا ، شاحب الوجه ، قدرا ، ولكنني وفقت الى تذكره . لقد كان هو الشاب الباسل الذي كان قد قضى بضعة اشهر في ملجانا في « غلين آلين » قبل سنوات ثلاث . واعطاني كلمة السر الخاصة بشعبة استخبارات « العقب الحديدية » السرية دلالة على انه هو ، ايضا ، يعمل في خدمتها .

وطمأنني مؤكدا :

« سوف انقذك من هذا المكان حالما تسنح لي فرصة . ولكن اصطنعي

الاحتراس في خطوك . وحذار ان تتعثري وتقعني . »

لقد حدثت الاشياء كلها ، فجأة ، ذلك اليوم . وفي فجأة تثير الغثيان كبحت الغوغاء جماع نفسها وجمدت في مكانها . فارتطمت ارتطاما عنيفا بامرأة ضخمة كانت امامي (كان الرجل ذو السترة المشقوقة قد توارى) في حين ارتطم بي من كان خلفي . وسادت ضجة ضارية - زعقات ، لعنات ، وصيحات تهدد بالموت ، في حين غلبت على ذلك كلة قعقة المدافع الاليسية

السريعة الطلقات المضطربة اضطرابا عنيفا ، وطلقة البنادق • ولم استطع ،
بادئ الامر ، ان افهم شيئا • كان الناس يتساقطون من حولي يمين ويسرة •
وانتثرت المرأة التي امامي وانحنى انحناء شديدة منشبة اظفارها في بطنها
على نحو مسعور • كان احد الرجال يرتعد عند رجلي ارتعاد الاحتضار •

وخطر لي اننا كنا نقف في مقدمة الكتيبة • كان نصف ميل منها قد
اختفى - اما اين او كيف فذلك ما لم اعرفه قط • وحتى يوم الناس هذا لا
ادري ما الذي حل بنصف الميل من النفوس البشرية ذلك - هل محتة صاعقة
رهيبة من صواعق الحرب ، ام بدد واهلك شيئا بعد شيء ، ام لاذ بالفرار ؟
ولكن ها نحن هناك ، في مقدمة الكتيبة لا في وسطها ، وها ان سيلا من
الرصاص الزاعق ينتزع الحياة من صدورنا •

ولم يكد الموت يرقق حاشية الزحام حتى قاد غارثوايت ، وكان لا يزال
ممسكا بذراعي ، دفقا ممن كتبت لهم النجاة الى مدخل واسع لاحت المبانى
الحافلة بمكاتب الشركات واصحاب الاعمال • وهنا ، في المؤخرة ، زحمتنا
عند الابواب جمهرة من المخلوقات اللاهثة • وبقينا على هذه الحال ، فترة
من الزمان ، لم يطرا خلالها على وضعنا تغير ما •

وراح غارثوايت يندب في وجهي :

- « لقد وفقت الى ذلك على نحو رائع • لقد حملتك مباشرة الى شرك
من الاشراك • كان لنا في الشارع حظ في النجاة اشبه بحظ المقامر ، اما هنا
فليس لنا ايما حظ البتة • لقد انتهى كل شيء ما عدا الصباح • فلتحي
الثورة ! »

ثم بدا ما توقعناه • كانت قوات المرتزقة تسفك الدماء من غير هوادة •
وفي بادئ الامر كان السيل البشري الذي يزحمتنا ساحقا ولكن سفك الدماء
الموصول ما لبث ان خفف عنا الضغط • لقد خر الموتى والمحتضرون على
الارض مفسحين موطنا لقدم • ووضع غارثوايت فمه في اذني وصاح ، ولكن
الدندنة الرهيبة حالت بيني وبين النقاط اي كلمة مما قال • ولم ينتظر • لقد
امسك بي وطرحني ارضا • ثم انه سحب امرأة تلفظ انفاسها الاخيرة والقاهها
فوقي ، وبكثير من الضغط والدفع زحف الى جانبي وانطرح فوقي على نحو
جزئي • وفي الحال شرعت اكمة من الموتى والمحتضرين تتراكم فوقنا ، وفوق
تلك الاكمة ، دب اولئك الذين ظلوا على قيد الحياة منشبين اظفارهم فيها
مرسلين انات متوجعة • ولكن هؤلاء ، ايضا ، ما لبثوا ان همدوا وراى صمت
نصفي متقطع بانين الاختناق وزفراته واصدائه •

لقد كان خليقا بي ، لولا غارثاويت ، ان اسحق سحقا • ولقد بدا ، وانا على تلك الحال ، ان من المتعذر علي ان احتمل الثقل الذي رزحت تحته وان احتفظ بآخر نفس من أنفاس الحياة • ومع ذلك ، فقد كان الشعور الوحيد الذي استحوذ علي ، وبالإضافة الى الالم ، هو الفضول • على اي نحو سوف ينتهي ذلك ؟ وعلى اية صورة سيكون الموت ؟ وهكذا عمدت عمادتي الحمراء في تلك المذبحة التشيكاغوية • لقد كان الموت عندي ، قبل ذلك ، مجرد نظرية ليس غير • اما في الايام التي تلت فقد امسى الموت عندي ، ولا يزال ، واقعة بسيطة لا تقدم ولا تؤخر ، انه امر هين الى ابعد الحدود •

ولكن المرتزقة لم يقنعوا بما فعلوا • لقد غزوا مدخل المبنى ، مجهزين على الجرحى ، مقتشين عن امثالنا ممن لم يصابوا باذى وممن كانوا يتظاهرون بأنهم موتى • وأذكر انهم سحبوا من ركام بشري رجلا راح يتوسل اليهم في ضراعة حتى اكرهته طلقه مسدس على الايجاز • وكانت ثمة امرأة تشحن بندقيتها وسط احدى التلال البشرية ، وتزمجر وتطلق النار • لقد اطلقت ست رصاصات قبل ان يمسكوا بها ، برغم اننا لم نستطع ان نعرف اي اذى انزلته • كان في ميسورنا ان نتابع هذه المأساة من طريق الصوت ليس غير • وكانت حالة تخطيط مماثلة تحدث بين الفينة والفينة ، ثم تبلغ ذروتها بطلقة المسدس التي تضع لها حدا • وخلال الفترات استطعنا ان نسمع الجنود يتحدثون ويشتمون فيما هم يبحثون بين الجثث ، وقد استحثهم ضباطهم على الاسراع •

واخيرا ، اقبلوا للعمل في ركامنا البشري ، ولقد تمكنا من ان نستشعر الضغط يتناقص كلما سحبوا جثة ميت او جسد جريح • وشرع غارثاويت يطلق كلمات السر في صوت جهير • ولم يسمعه ، بادىء الامر ، احد ، وعندئذ رفع صوته •

وسمعنا احد الجنود يقول :

« اسمعوا ! اسمعوا ! »

وبعد ذلك تناهى الينا صوت ضابط حاد :

« تصبر قليلا ! وانتم ايها الجنود اصطنعوا الحذر ! »

اوه ، يا لانفاس الهواء الاولى التي ملأنا بها رئاتنا ونحن نسحب من تحت الاجساد والجثث ! وتولى غارثاويت الكلام بادىء الامر ، ولكنني اضطررت الى الخضوع لفحص وجيز لكي أثبت اني اعمل في خدمة « العقب الحديدية »

وخلص الضابط الى هذا الاستنتاج :

« آه ! من العملاء المحرضين ! لا بأس »

كان فتى أمد ، تلميذا من تلامذة المدارس العسكرية ينتسب الى احدى الاسر الاوليفاركية الكبيرة .

ودمدم غارثوايت متذمرا :

« يا لها من مهمة لعينة ! سوف احاول ان استقيل والتحق بصفوف الجيش . ان لكم يا رجال الجيش ، لنشاطا وحيوية ! »

فكان جواب الضابط الشاب :

« لقد استحققت ذلك . ان لي بعض النفوذ ، وسوف ارى ما اذا كان في الامكان تسوية امر الانتقال هذا . في استطاعتي ان اخبرهم كيف وجدتك » ،

ودون اسم غارثوايت ورقمه ، ثم التفت الي وقال :

« وانت ؟ »

فاجبته في مرج :

« اوه ، اني على وشك الزواج . عندئذ انسحب من هذا كله »

وهكذا تجاذبنا اطراف الحديث ، بينا كان قتل الجرحى قائما على قدم وساق . ان ذلك كله لا يعدو ان يكون ، حين أعود بالذاكرة اليه ، حلما من الاحلام ، ولكنه في تلك الاونة اكثر الاشياء طبيعية في العالم . واستغرق غارثوايت والضابط الفتى في حديث مسترح حول الفرق بين ما يدعى الحرب الحديثة وقتال الشوارع الحالي ومعارك ناطحات السحاب التي كانت دائرة الرحى في طول المدينة وعرضها . واصخت الى حديثهما في انتباه ، مسوية شعري في الوقت نفسه ، ومثبتة تنورتي الممزقة بالدبابيس . وطوال الوقت كان قتل الجرحى مستمرا . وكانت طلقات المسدس تطفئ ، في بعض الاحيان ، على صوتي غارثوايت والضابط ، فيضطران الى تكرير ما كانا يقولانه .

لقد عشت ثلاثة ايام من ايام كومون تشيكاغو ، وفي امكان المرء ان يتخيل اتساعها واتساع المذبحة اذا قلت اني ، طوال تلك الفترة لم اكد ارى شيئا غير قتل ابناء الهاوية وغير القتال الدائر ، فوق الارض ، بين ناطحات السحاب . والواقع اني لم ار شيئا من العمل البطولي الذي قام به الرفاق . كان في ميسوري ان اسمع انفجارات الغامهم وقتابلهم ، وان اشهد دخان حرائقهم ليس غير . وعلى اية حال فقد شهدت الجزء الفضائي من احدى المنائر ، وكان ذلك هو الهجمات المتطادية التي شنّها رفاقنا على القلاع . وانما كان هذا في اليوم الثاني . كانت الكتائب الثلاث غير الموالية قد أفنيت

في القلاع حتى الرجل الاخير . وكانت القلاع غاصة بالمرتزقة ، وهبت الريح في الاتجاه الصحيح ، والى أعلى ارتفعت مناطيدنا من احد مباني المكاتب في المدينة .

وكان بيدينباتش قد اخترع ، بعد مغادرته « غلين آين » ، متفجرة ليس أقوى منها – متفجرة دعاها « الطليقة » . وكان هذا هو السلاح الذي استعملته المناطيد . انها لم تكن غير مناطيد ملأى بالهواء الحار ، صنعت في خرق وعلى عجل ، ولكنها أدت العمل الموكول اليها . لقد رأيت ذلك كله من قمة مبنى من مباني المكاتب . وأخطأ المنطاد الاول تلك القلاع فلم يصب أيها منها ، واختفى في الفضاء ، ولكننا عرفنا بمصيره في ما بعد . كان بورتون « و اوساليفان » في المنطاد . وبينما كانا يهبطان وجدا نفسيهما مباشرة فوق قطار من قطر الجند مندفع بأقصى سرعته نحو تشيكاغو . فما كان منهما الا ان اسقطا كامل ذخيرتهما من المتفجرات على القاطرة . واعترض الركاب الناشئ عنها سبيل القطر البخارية اياما عدة . وخير ما في الامر ان المنطاد ، وقد حرر من ثقل المتفجرات ، اندفع في الهواء ولم يهبط الا بعد ان حلق ستة اميال في الفضاء ، وبذلك نجا البطلان لم يسهما اذى .

اما المنطاد الثاني فمضى بالاخفاق . لقد كان ارتفاعه في الفضاء ارتفاعا اعرج . لقد طفا على نحو ادنى مما ينبغي ولقد اصابه الرصاص فأحاله الى ثقب قبل ان يوفق الى بلوغ القلاع . وكان « هيرتفورد » و « غينيس » فيه ، ولقد مزقا اربا اربا ونسفا كما نسف الحقل الذي هبط عليه . واستبد اليأس ببيدينباتش – لقد سمعنا بهذا في ما بعد – فامتطى متن المنطاد الثالث منفردا . وقام هو ، ايضا ، بطيران خفيض ، ولكنه كان حسن الطالع ، اذ اخفق رصاصهم في خدش منطاده او ثقبه ولو في موضع واحد . ان في استطاعتي ان اراه الآن ، كما قد رأيته انذاك ، من قمة المبنى الشاهقة – ذلك الكيس المنتفخ بالهواء منساقا مع الهواء ، وذلك الرجل الضئيل كالذرة ملتصقا بقعره . انا لم استطع ان ارى القلعة ، ولكن اولئك الذين كانوا معي على السطح رأوا انه كان فوقها مباشرة . ولم استطع ان ارى المتفجرة تسقط عندما اطلقها ولكنني وفقت الى رؤية المنطاد يثب فجأة نحو السماء . وبعد ذلك ببرهة حلق عمود الانفجار الضخم في الفضاء ، ومن ثم سمعت تهدهاره . كان بيدينباتش اللطيف قد دك قلعة . وانطلق منطادان اخران على الاثر . ولكن احدهما انفجر اربا في الهواء بعد ان فجرت القذائق « الطليقة » التي فيه ، فمزق المنطاد الاخر الذي سقط سقوطا رائعا على القلعة الباقية . ان ذلك

ما كان يمكن ان يدبر على نحو افضل ، على الرغم من أن الرفيقيين اللذين كانا فيه ضحايا بحياتهما •

ولكن قلنعد الى ابناء الهاوية • فقد قصرت خبراتي عليهم • لقد اندفعوا هائجين معملين يد الفتك والتدمير في ارجاء المدينة الاصلية ، ثم اهلكوا بدورهم ، ولكنهم لم يوفقوا ولو مرة واحدة للوصول الى مدينة الاوليفاريكين القائمة في الجانب الغربي • كان الاوليفاريكيون قد وقوا انفسهم وقاية حسنة ، لقد عرفوا كيف ينجون هم ونسائهم من التدمير الذي احال قلب المدينة الى ركام • ولقد قيل لي ان اولادهم لعبوا في الحدائق العامة خلال تلك الايام الرهيبة ، وان لعبتهم المفضلة كانت محاكاة آبائهم في الدوس على اجساد البروليتاريا •

ولكن المرتزقة وجدوا من العسير عليهم ان يقفوا في وجه ابناء الهاوية وان يقاتلوا الرفاق في آن معا • وكانت تشيكاغو امينة لتقاليدها ، وعلى الرغم من ان جيلا من الثوريين كان قد محي فقد قضت في الوقت نفسه على ما يقارب جيلا بكامله من اعدائها • لقد كتمت « العقب الحديدية » ارقام الضحايا طبعاً ، ولكن مئة وثلاثين الفا من قوات المرتزقة لاقوا حتفهم على الاقل ، وفقاً لأكثر التقديرات اعتدالا • ولكن الرفاق كانوا في وضع يائس • فبدلاً من ان تهب البلاد كلها للثورة هبة رجل واحد الفى الرفاق انفسهم وحيدين وكان في امكان الاوليفاريكية ان توجه اليهم كامل قوتها اذا اقتضى الامر ذلك • وساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم كان المرتزقة يتدفقون على تشيكاغو في قطر لا نهاية لها ، وبمئات الآلاف •

وما كان أكثر أبناء الهاوية ! واذ سئم الجنود الفتك وسفك الدماء فقد استهلوا حركة « سوق الاطعان » ضخمة قصد بها دفع الغوغاء ، كقطعان الماشية ، نحو بحيرة ميتشيغان • وكانت هذه الحركة في مستهلها عندما التقيت أنا وغارثوايت بالضابط الفتى • والواقع ان حركة « سوق الاطعان » تلك اخفقت اخفاقاً كاملاً ، بفضل العمل الرائع الذي قام به الرفاق • فبدلاً من الحشود الهائلة التي منى المرتزقة نفوسهم بحشرها لم يوفقوا الا الى سوق اربعين الفا من اليؤساء ، ليس غير ، الى البحيرة • وبين الفينة والفينة كان رفاقنا يتصدون لالهاء المرتزقة وشغلهم كلما وفق هؤلاء الى دفع حشد من اليؤساء الى البحيرة ، فينجو ابناء الهاوية من خلال الثقب الذي أحدث في الشرك المطوق •

وشهدت أنا وغارثوايت مثلاً من ذلك بعيد التقائنا بالضابط الفتى •

وتفصيل ذلك ان الغوغائيين الذين كنا نؤلف جزءا منهم ، والذين ردوا على اعقابهم ، حيل بينهم وبين الفرار جنوبا او شرقا بحراب قوات شديدة البأس . كانت القوات التي طوقتنا قد صدتهم من ناحية الغرب وكان الشمال هو المنفذ الوحيد الباقي امامهم ، فاندفعوا نحو الشمال ، حيث البحيرة ، مسوقين من ناحية الشرق والغرب والجنوب جميعا بنار البنادق والمسدسات الالية السريعة الطلقات . ولكن الحشد الغوغائي ما لبث ان اندفع نحو شارع يؤدي ، على نحو مستعرض ، الى الغرب - ولست أدري اكان ذلك بسبب من ادراك القوم انهم يساقون الى البحيرة ، ام بسبب من تلوي الوحش تلاويا اعمى - وانعطف الى الشارع التالي ، وانقلب على اعقابهم مندفعا في اتجاه الجنوب نحو حي العمال الكبير .

وكننا أنا وغارثوايت نحاول ، انذاك ، ان نشق طريقنا غربا لكي ننجو بنفسينا من نطاق قتال الشوارع ، ولكننا ما لبثنا ان غرقنا في خضمه من جديد . وفيما كنا نتقدم الى الزاوية رأينا الغوغاء المزمجرين يندفعون نحونا . فأمسك غارثوايت بذراعي ، ولم نكد نشرع في العدو حتى ردني الى الوراء من امام دواليب نصف دزينة من السيارات الحربية المزودة بالرشاشات كانت تحت الخطى الى تلك البقعة . وخلف تلك السيارات اقبل الجند ببنادقهم الاوتوماتيكية . وما ان اتخذوا مواقعهم حتى كانت الغوغاء قد حملت عليهم وبدا وكان المد الشعبي الزاخر سوف يغمرهم قبل ان يوفقوا الى العمل .

وهنا وهناك كان جندي يطلق النار من بندقيته ، ولكن هذه النار المبعثرة عجزت عن صد الغوغاء . لقد اندفعت جموعها على الجند وهي تجار في حق ضار . ولقد بدا وكان من المتعذر حمل الرشاشات على الانطلاق . كانت السيارات التي نصت عليها تسد الشارع ، مكرهة الجند على البحث عن مواقع بين الارصفة او عليها . وتدفقت امداد من الجند جديدة ، وعجزنا في غمرة الزحام عن الفرار . وأمسك غارثوايت بي من ذراعي ، والصقنا جسدنا ، في احكام ، بواجهة احدى البنايات .

ولم يكد الغوغاء يصبحون على مبعدة خمسة وعشرين قدما حتى فتحت الرشاشات النار . ولكن ايما شيء ليس بقادر الاحتفاظ بالحياة تحت غطاء الموت المتهب هذا . وحث الغوغاء الخطى ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يتقدموا الى امام . لقد تكسب بعضهم فوق بعض ركاما ، بل رابية ، بل موجة عارمة متعاطمة من الموتى والمشرجين . وحثهم الذين خلفهم على التقدم ، وهرس الغوغاء بعضهم بعضا من البالوعة الى البالوعة . وتقيء الجرحى نساء

ورجالا ، فوق قمة تلك الموجة الرهيبة ، وتهاووا متولين من على وجهها حتى تقلبوا تقلب المحموم تحت السيارات وفوق أقدام الجند . وسدد هؤلاء حراهم الى صدور البؤساء المحترجين ، برغم اني رايت بائسا منهم يوفق الى النهوض على قدميه ويثب على حنجرة احد الجند يعضها بأسنانه . وهوى الرجلان كلاهما ، الجند والعبد ، في الخضم المتلاطم .

وتوقف اطلاق النار . فقد انجزت المهمة ، بعد ان احيطت المحاولة التي قام بها الرعاع لشق طريق لهم . وصدرت الاوامر بتحرير عجلات السيارات الحربية . ذلك بانه لم يكن في ميسورها ان تتقدم فوق تلك الموجة من الموتى ، وكان التدبير يقضي بدفعها الى الشارع المعترض . وكان الجند يسحبون الجثث عندما حدث ذلك . ولقد عرفنا في ما بعد كيف حدث . فعلى مبعدة بضعة مبان كان مئة من رفاقنا معتمسين في احد المباني . وعبر السطوح وخلال الابنية شقوا طريقهم وتقدموا ، حتى ألغوا انفسهم مطلين على الجند المتراصين . ومن ثم دارت مذبحه معاكسة .

ومن غير ما انذار هطل من أعلى المبنى وإبل من قنابل مزق السيارات اربا اربا ومزق معها كثيرا من الجند . وانقلبنا نحن على اعقابنا ، مع من كتبت لهم النجاة ، مرتدين ارتدادا مسعورا . وبعد ان اجتزنا بضعة مبان فتحت علينا النار من مبنى آخر . وكما سبق للجند ان غطوا الشارع ببساط من الارقاء الموتى عادوا هم بدورهم فأمسوا بساطا للشارع . أما انا وغارثوايت فكانت رقية ما تصون حياتنا . وكفعلنا من قبل التمسنا كرة اخرى ملجأ في مدخل ما . ولكن غارثوايت لم يجز لنفسه ان يؤخذ على حين غفلة منه ، هذه المرة . ولم يكد دوي القنابل يخفت حتى شرع يحرق وينعم النظر .

وناداني قائلا :

— « الغوغاء مقبلون من جديد ! يجب علينا ان نغادر هذا المكان ! »

وفررنا ، ويدي في يده ، هابطين الرصيف الدامي متعثرين منزلقين متقدمين نحو الزاوية . وعبر الشارع المعترض كان في ميسورنا ان نرى بضعة جنود ونحن ما زال نعدو . ان شيئا ما لم يكن يصيبهم انذاك . وكانت الطريق سالكة . وهكذا تمهلنا لحظة ، والتفتنا الى الوراء . واقبل الغوغاء في بطء . كانوا في شغل شاغل بالاستيلاء على بنادق القتلى وبالاجهزة على الجرحى . ورأينا نهاية الضابط الفتى الذي كان قد انقذنا . لقد رفع نفسه موجعا ، على مرفقه ، وأفلت مسدسه الاوتوماتيكي .

وضحك غارثوايت فيما كانت امرأة تهرع الى الجريح ملوحة بساطور
جزار ، وقال :

« لقد ضاع أُملي في الترقية ! هيا ! هذا هو الاتجاه الخاطئ ، ولكننا
سوف ننجو بطريقة ما »

وفزنا في اتجاه الشرق عبر الشوارع الساكنة ، مستعدين عند كل
شارع من الشوارع المعترضة لايماء شيء قد يحدث . والى الجنوب كان
حريق عملاق يملأ السماء ، وعرفنا ان حي العمال الكبير كان قد أمسى طعاما
للنار . وأخيرا ارتمت على الرصيف . كنت خائفة القوى ، ولم يعد فسي
ميسوري ان اخطو ايما خطوة الى امام . كان جسمي مرضوضا ، متقرحا ،
وكانت اوصالي كلها تؤلمني . ومع ذلك فلم اتمالك عن الابتسام لغارثوايت ،
الذي كان يلف سيكارة ويقول :

« انا أدري أنني اسأت انقاذك ، ولكني لا استطيع ان افهم من الوضع
شيئا ، انها رطة حقا . فكلما حاولنا الفرار حدث شيء ما ورددنا على
اعقابنا . فنحن ما زلنا الان على مبعدة بضعة مبان ليس غير المكان الذي
اخرجتك فيه من ذلك المدخل . لقد اختلط الاصدقاء والاعداء اختلاطا مشوشا .
انها اشبه بحالة اللائكون Chaos . وانك لا تستطيعين ان تحزري من في
تلك المباني اللعينة . حاولي ان تستطلعي حقيقة الوضع تنفض على رأسك
قنبلة . وحاولي ان تمضي لسبيلك بسلام تجدي نفسك في خضم من الغوغاء
وتلقي حتفك بنار الرشاشات ، او تجدي نفسك وسط قوات المرتزقة وتلقي
حتفك بنار رفاقك انفسهم من سطح مبنى ما . وفوق هذا كله ، يندفع الغوغاء
نحرك ويفتكون بك ايضا »

وهز رأسه في اكتئاب ، واشعل لفافته ، وقعد الى جانبي .
واضاف :

« واني لأكاد أموت جوعا . ان في ميسوري ان أكل حصباء الطريق! »
وما هي الا لحظة حتى انتصب على قدميه واندفع الى الشارع وراح
ييمن النظر الى حصاة من الحصى . ثم انه عاد بها واغار على نافذة
دكان خلفنا .

واوضح غارثوايت فيما هو يساعدني على ولوج الثقب الذي كان قد
احدسه :

« انه دور ارضي ، وليس هو بصالح . ولكن ذلك خير ما نستطيع
ان نفعله . خذي انت سنة من النوم ، ولسوف اذهب انا واستطلع حقيقة

الموقف • سوف اتم عملية الانقاذ هذه على خير وجه ، ولكنني احتاج الى وقت ، وقت ، الى كثير منه والى شيء أتبلغ به • »
وكان دكانا من دكاكين عدد الخيل ذلك الذي وجدنا نفسيينا فيه ، ووضعني في فراش من بطانيات في المكتب الخاص القائم في المؤخرة • وزاد في تعاستي ان صداعا قاسيا كان قد شرع يستبد بي ، فابتهجت ابتهاجا غامرا باغماض عيني وبمراودة النوم عن نفسه •
وودعني بهذه الكلمات :
- « سوف ارجع عما قريب • انا لا اتوقع ان آتيك بسيارة ، ولكنني سوف احمل اليك بعض الطعام من غير ريب • »
وكانت تلك هي اخر مرة رأيت فيها غارثوايت خلال ثلاث سنوات • فبدلا من ان يرجع الي ، حمل الى احد المستشفيات ، وقد اخترقت رثتيه رصاصة ، واخترقت اخرى الجزء اللحيم من عنقه •

الفصل الرابع والعشرون

كابوس

لم اكن قد اغمضت عيني ليلة البارحة على متن قطار « القرن العشرين » ،
وبسبب من ذلك وبسبب من الاجهاد الذي انهك قواي استسلمت لنوم عميق .
وحين افقت ، اول ما افقت ، كانت الدنيا ليلا . ولم يكن غارثوايت قد عاد .
وكنت قد فقدت ساعتى ، فليست لدي ايما فكرة عن الوقت . وفيما كنت
مضطجعة مغمضة العينين تناهى الي صدى الانفجارات البعيدة الخافت
نفسه . كانت نار جهنم لا تزال تتلظى . وزحفت خلال الدكان الى المقدمة .
فاذا بالحرائق الواسعة المنعكسة من السماء تسكب على الشارع ضياء
يكاد يضارع ضوء النهار . كان في ميسور المرء ان يقرأ أدق الحروف المطبوعة
في سهولة ويسر . ومن على مبعدة بضعة مبان اقبل دوي القنابل اليدوية
الصغيرة واصداء الرشاشات ، ومن على مدى امعن في البعد اقبلت سلسلة
من الانفجارات الثقيلة . ودبت عائدة على بطانيات الخيل واستسلمت للرقاد
من جديد .

وحين استيقظت كرة اخرى كان ضوء اصفر واهن يرشح الي . كان
ذلك هو فجر اليوم الثاني . ودبت الى مقدمة الدكان . فاذا بي اجد حجابا
من دخان يغطي السماء تتخلله ومضات قاتمة . وعلى الجانب المقابل من
الشارع ترنح عبد بائس . كان يضغط باحدى يديه على جنبه ضغطا محكما ،

وكان يخلف وراءه أثرا داميا • وهامت عيناه في كل مكان ، ولقد كانتا مفعمتين بالتوجس والذعر • وحقق الي ، ذات مرة ، تحديقا مباشرا ، وكان وجهه ينطق بمختلف الاشجان الخرساء التي تعصف بأسارير حيوان جريح مطارد • لقد بصر بي ، ولكن لم يكن بيننا اي نسب ، وبالنسبة اليه على الاقل لم يستشعر نحوي اية مشاركة وجدانية ، ذلك بأنه انحنى وراح يجر نفسه الى امام • انه كان في ميسورة ان يتوقع اية مساعدة من احد في ارض الله الواسعة كلها • كان عبدا رقيقا في حفلة صيد العبيد الارقاء التي كان الاسياد يحيونها • وكان كل ما في ميسورة ان يرجوه ، وكل ما التمسه وبحث عنه ، مجرد ثقب يستطيع ان يدب اليه ناجيا بنفسه مختبئا فيه مثل اي حيوان من الحيوان • وأجفل اذ سمع قعقة سيارة اسعاف مندفعة عند الزاوية • فسيارات الاسعاف لم تجعل لمثله • وبانة تضج بالالم طرح نفسه عند مدخل احد المباني وما هي الا دقيقة واحدة ، حتى انطلق الى الشارع من جديد وراح يعرج متقدما على نحو يائس •

ورجعت الى بطانيات الخيل التي كنت قد رقدت عليها ، وانتظرت غارثوايت طوال ساعة • ان الصداق لم يزايلني البتة • على العكس ، كان آخذا في الاسفحال • وبجهد من الارادة فحسب استطعت ان افتح عيني وان انظر الى الاشياء • ومع فتح العينين والنظر الى الاشياء الم بي عذاب لا سبيل الى احتماله • والى هذا ، فقد كان دماغى ينبض في قوة وعنف • وغادرت المكان ، واهنة مترنحة ، من خلال النافذة المكسورة وهبطت الشارع ، محاولة الفرار ، على نحو غرزي تلمسي ، من تلك المجزرة الرهيبة • وبعد ذلك رزحت تحت وطأة كابوس • والذي اذكره مما حدث في الساعات التي تلت هو ما يتذكره المرء من كابوس • وان كثيرا من الاحداث لتتبار * في ذهني • ولكن بين هذه الصور التي لا تمحى والتي احتفظ بها في ذاكرتي فترات من اللاوعي • اما ما حدث في تلك الفترات فذلك ما لا ادريه ، وما لن ادريه ابد الدهر •

واذكر اني تعثرت عند الزاوية بقدمي رجل • كان هو ذلك البائس المسكين

* تجتمع في بؤرة •

المطار الذي كان قد جر نفسه في محاذاة مخبائي . وما اوضح ما اذكر يديه السقيمتين الذابيتين المثيرتين للرثاء فيما كان منظرها هناك على حصباء الطريق - يدين كانتا الى الاظلاف والمخالب اقرب ، يدين شوهمها الكدح الموصول طوال العمر ، وقد علت راحتيهما طبقة قرنية من الجلد القاسي تبلغ سماكتها نصف انش . وفيما كنت انهض من كيوتي ، واتابع سيرتي نظرت الى وجه ذلك الشيء فرأيت انه لا يزال على قيد الحياة ، ذلك بأن عينيه ، الذكيتين في قتام ، كانتا تنظران الى وتريانني .

وبعد ذلك اقبل فراغ رؤوف . انا لم اعرف شيئا ، ولم ار شيئا ، لقد ترنحت التماسا للسلامة ليس غير . وكان الكابوس التالي الذي ناء بكله علي شارعا من الموتى ترين عليه السكينة . لقد انتهت اليه فجاءة ، كما ينتهي تائه في الريف الى جدول متدفق . مع فارق واحد ، هو ان الجدول الذي رنوت اليه لم يكن متدفقا . كان متجمدا بالموت . فمن شارع الى شارع ، وعلى طول الارصفة ومداها انطرح ثمة وامتد في استواء كامل ، لا يعترضه شيء البتة ما خلا كتلة او رابية من الاجساد ، قائمة ههنا وههنا . يا لابناء الهاوية المساكين ! يا للعبيد الارقاء المطاردين ! انهم منطرحون ثمة كالارانب فسي كاليفورنيا بعد مطاردة رهيبة . ١١٨ واجلت بصري في طول الشارع وعرضه . لم يكن هناك حركة او ركز . واطلت المباني الهادئة على المشهد من نوافذها العديدة . ومرة ، مرة واحدة ليس غير ، رأيت ذراعا تتحرك في ذلك الجدول الميت . واقسم اني رأيتها تتحرك ، في ألم احتضار ملتاع عجيب ، ومعها ارتفع رأس دام بضرب من الرعب لا سبيل الى وصفه ، رأس راح يتمتم موجها الخطاب الي ، ثم استلقى على الارض من جديد ولم يتحرك بعد ذلك قط .

١١٨ في تلك الايام كانت البلاد متناثرة السكان الى درجة جعلت من الحيوانات الضارية بلاء منغصا في كثير من الاحيان . وفي كاليفورنيا شاعت عادة مطاردة الارانب فكان من دأب الفلاحين في كل منطقة من المناطق ان يجتمعوا كلهم ، في يوم معلوم ، ويندفعوا عبر الريف في صفوف متقاربة ، دافعين الارانب بعشرات الالوف نحر حظيرة مهياة لهذا الغرض ، حيث ينهال عليها الرجال والصبيان بهراواتهم حتى الموت .

وانا اذكر شارعا اخر ، تكتنفه من جانبيه مبان هادئة ، والذعر الذي هزني حتى الوعي عندما بصرت بأبناء الهاوية كرة اخرى ، ولكن هذه المرة في جدول يجري ويتقدم الى امام . ثم اني لم اجد هناك شيئا اخافه . وجرى الجدول في ببطء ، بينما تصاعدت منه اناث ، وانتخابات ، ولعنات ، وهذيان خرف ، وهستيريا ، وجنون . ذلك بأن اولئك كانوا هم اصحاب الشباب النضر والطاعنون في السن ، والضعاف والمرضى ، والعاجزون والياشون حطام حي العمال القذر كله . كان احراق حي العمال الكبير في « ساوث سايد » قد ساقهم الى جحيم قتال الشوارع ، اما الى اين مضوا وما الذي حل بهم فذلك شيء لم اعرفه ولم يتصل بي نبأه البتة . ١١٩ .

اني لاحتفظ بذكريات باهتة عن كسري احدى النوافذ واختبائي في دكان من الدكاكين لكي انجو بنفسي من رهط من الرعاع كان الجند يطاردهم . وانفجرت ذات مرة ايضا ، على مقربة مني ، قنبلة في شارع يرين عليه السكون وبالرغم من اني رفعت بصري وخفضته على نحو مكرور فلم اوفق الى رؤية اي كائن بشري . ولكن اول ذكرى حادة من ذكرياتي التالية بدأت مع صلصلة بندقية ووعي مفاجيء بأن جنديا في سيارة قد اطلق النار علي . واخطائي الطلق الناري ، واذا بي في اللحظة التالية اعول واعطي كلمات السر . واني لاذكر على نحو ضبابي جدا امتطائي متن السيارة ، على الرغم من ان هذا الامتطاء انقطع ، بدوره ، بصورة من الصور النابضة بالحياة . ان صلصلة بندقية الجندي الجالس في جانبي جعلتني أفتح عيني ، فرأيت جورج ميلفورد ، الذي كنت عرفته في ايام « شارع بيل » يسقط في تودة على الرصيف . وحتى فيما هو يسقط ، اطلق الجندي النار من جديد ، وانطوى ميلفورد متثنيا ، ثم دفع جسده وخر على الارض محترجا . وضحك الجندي ، وانطلقت السيارة في سرعة .

وكان الشيء التالي الذي عرفته بعد ذلك هو اني اوقظت من نوم عميق

١١٩ اختلف الناس دهرا طويلا في حريق حي العمال في « ساوث سايد » هل كان ابن المصادفة أم كان من فعل المرتزقة . ولكن الرأي منعقد الآن ، نهائيا ، على ان موات المرتزقة هم الذين اضرمو النار في ذلك الحي تنفيذا لاوامر رؤسائهم .

على وقع قدمي رجل كان يذرع المكان ، على مقربة دانية مني ، جيئة وذهبوا •
كان وجهة مكفهر متوترا ، وكان العرق المتحدر من جبينه يقطر من ارنبة انفه •
كانت احدى يديه تثبت يده الاخرى على صدره في احكام ، وكان الدم يسيل
منه ، على الارض ، في اثناء مشيه • لقد ارتدى بزة المرتزقة الرسمية • ومن
خارج ، وكانما عبر جدران غليظة ، اقبل هدير القنابل المنفجرة المكظوم • لقد
كنت في مبنى ما ، وكان هذا المبنى يخوض معركة ضد مبنى اخر •

واقبل طبيب ليضمد جراح الجندي ، وعرفت ان الساعة كانت هي الثانية
بعد الظهر • وكان صداعي لا يزال على حاله من الشدة ، وانصرف الطبيب عن
عمله ليعطيني مخدرا قويا يخفف من نشاط القلب ويحمل الي فرجا •
واستسلمت للنوم من جديد ، وكان الشيء التالي الذي عرفته هو اني كنت
اراقب هجوم المناطيد على المعالق • وكان امرؤ ما قد طوقني ، وكنت ملتزة به
اشد التزاز • وخطر لي ، خطور الامر الراهن الذي لا ريب فيه ، انه كان
ارنست والقيت نفسي اتساءل كيف اجاز لشعره ولحاجبيه ان تكوى على هذا
النحو الزديء كله •

لقد اهتمدى احدنا الى الآخر ، في تلك المدينة الرهيبة ، بمجرد المصادفة
ليس غير • لم يكن لديه اقل علم بانني غادرت نيويورك ، وحين اجتاز بالغرفة
التي كنت ارقد فيها لم يستطع ان يصدق ، بادىء الامر ، ان عينيه انما تقعان
علي انا نفسي • وشاهدت طرفا اضافيا من « كومون تشيكاغو » • فبعد مراقبة
هجوم المناطيد هبط بي ارنست الى قلب المبنى ، حيث سلخت الاصيل والليل في
رقاد طويل وانفقنا اليوم الثالث في المبنى • وفي اليوم الرابع ، وكان ارنست
قد اخذ من قوات المرتزقة اجازة وسيارة ، غادرنا تشيكاغو •

كان صداعي قد زال ، ولكنني كنت مرهقة جدا ، جسدا وروحا •
واستندت في السيارة ، الى ارنست ، وبعينين لا مباليتين رحت اراقب الجنود
وهم يحاولون ان ينطلقوا بالسيارة الى خارج المدينة • كان القتال لا يزال
دائرا ، ولكن في مواقع منعزلة ليس غير • وكان الرفاق لا يزالون يسيطرون ،
ههناوهمهناك ، على مناطق كاملة ، ولكن هذه المناطق كانت تطوقها قوات
ضخمة • وهكذا حوصر رفاقنا في مئة او اكثر من الاشراك المعزولة ، بينا كانت

عملية اخضاعهم قائمة على قدم وساق . وكان الاخضاع يعني الموت ، اذ لم يكن في ذلك القتال هودة البتة ، ولقد قاتلوا في بطولة حتى الرجل الاخير . ١٢٠

وكنا كلما اقتربنا من مثل هذه المواقع ردنا الحرس على اعقابنا واعدادنا من حيث اقبلنا . وذات مرة ، كانت الطريق الوحيدة المؤدية الى موقعين منيعين من مواقع الرفاق تقتضينا اجتياز جزء من المدينة محروق واقع بينهما . ومن كلتا الناحيتين كان في استطاعتنا ان نسمع صلصلة الحرب وهديرها ، بينما كانت السيارة تتخذ سبيلها في احتراس عبر الخرائب الداخنة والجدران المتداعية للسقوط . وفي كثير من الاحيان كانت جبال من الانقاض تسد الشوارع على نحو اضطرنا الى العودة من حيث جئنا . كنا في تيه من خرائب . وكان تقدمنا بطيئا .

كانت مرابط الماشية (وحي العمال ، والمصنع ، وكل شيء) خرائب تحترق . وعلى مبعدة بعيدة الى اليمين كانت غشاوة هائلة من دخان تكدر وجه السماء . كانت تلك كما اخبرنا الجندي السائق ، هي مدينة « بولمان » ، او ما كان من قبل مدينة « بولمان » ، اذ كانت قد دمرت تدميرا كاملا . كان قد قاد السيارة الى هناك ، حاملا بعض الرسائل ، اصيل اليوم الثالث . وحديثنا قائلا ان معركة من اعنف المعارك دارت رحاها هناك ، فاذا بكثير من الشوارع يصبح غير سالك بسبب من اكاداس الموتى .

ولم تكد السيارة تنعطف حول جدران مبنى متهدم ، في منطقة مرابط

١٢٠ صمدت مبان كثيرة فترة تنوف على اسبوع ، في حين صمد واحد منها احد عشر يوما . كان لا بد من اقتحام كل مبنى وكأنه قلعة ، ولقد شق المرتزقة طريقهم الى ادوار المباني العليا طابقا طابقا . كان قتالا رهيبا ، فلا هودة تعطى ولا هودة تؤخذ . وفي المعركة كان للثوريين ميزة على اعدائهم : كانوا يحتلّون المواقع العليا . وعلى الرغم من ان الثوريين ماتوا حصدا فان الخسارة لم تكن وحيدة الطرف . لقد كانت بروليتاريا تشيكاغو الفخور على مستوى امجادها القديمة ، ان استطاعت ان تجندل من افراد العدر مثل العدد الضخم الذي جندله من رجالها .

الماشية ، حتى اعترضت سبيلها موجة من القتل . لقد كانت ، على وجه الضبط ، اشبه شيء بموجة يلفظها البحر . اما كيف نشأت فذلك ما لم يخف علينا . فبينما كان الغوغاء يهجمون مجتازين الزاوية حصدهم على زوايا مستقيمة وعلى مرمى افقي ، نيران الرشاشات المرسوفة عند الشارع المعترض . ولكن كارثة كانت قد حلت بالجند . فلا ريب في ان قنبلة كانت قد انفجرت بين ارجلهم ، ذلك ان الغوغاء الذين صد هجومهم حتى شكل قتلاهم ومحتضروهم تلك الموجة ، كانوا قد اندفعوا اندفاعا عارما وقذفوا بزبدتهم المؤلف من عبيد احياء مقاتلين . وهكذا جندل الجنود والعبيد معا ، مشوهين ممزقي الاوصال ، حول حطام السيارات والبنادق وفوقها .

ووثب ارنست فجأة . كانت عينه قد بصرت بكتفين مألوفتين يعلوهم قميمص قطني ويهداب شعر اشيب غير غريب عنه . ولم الملح انا احدا ، حتى اذا عاد الى جانبي وانطلقت بنا السيارة قال :

« كان ذلك الرجل هو الاسقف مورهاوس »

وسرعان ما بلغنا الريف الاخضر ، والقينا نظرة اخيرة على السماء الحافلة بالدخان . وعلى نحو واهن ناء اقبل دوي انفجار بطيء . ثم انسي ارحت وجهي على صدر ارنست وذرفت العبرات اسفا على القضية التي خسرتها . وكانت ذراع ارنست التي تطوقني بليغة بالحب .

لقد قال :

« خسرتها مؤقتا ، يا مهجتي الحبيبة . ولكن ليس الى الابد . لقد تعلمنا . وغدا سوف تنهض القضية الكبرى من كبوتها ، قوية بالحكمة والنظام »

وتقدمت بنا السيارة نحو محطة من محطات السكة الحديدية . وهناك كنا نتوقع ان ندرک قطارا يقلنا الى نيويورك . وفيما كنا ننتظر على المحطة اعدت قطر ثلاثة واجتازت بنا ، متجهة غربا الى تشيكاغو . كانت تغص بعمال في اسمال بالية ، عمال لا حظ لهم من البراعة الفنية - بآبناء الهاوية .

وقال ارنست :

– « عبید ارقاء جندوا لتعمير تشيكاغو • ذلك ان عبید تشيكاغو ارقاء ،
قد صرعوا كلهم كما تعلمين • »

الفصل الخامس والعشرون

الارهابيون

ولم اوفق انا وارنست الى فهم مدى الكارثة التي حلت بالقضية الكبرى فهما كاملا الا بعد ان رجعنا الى نيويورك . كان الوضع مريرا وداميا . وفي كثير من المواطن ، المتناثرة في طول البلاد وعرضها ، ثار الارقاء وسفكت دماؤهم . وتكاثر عدد الشهداء تكاثرا هائلا . وفي كل مكان تم اعدام اناس لا سبيل الى احصائهم . وغصت الجبال والقفار بطريدي العدالة وباللاجئين الذين طوردوا في غير رحمة . وملئت ملاجئنا الخاصة برفاق لنا كانت الحكومة قد جعلت لرأس كل منهم ثمنا . وغزا جنود « العقب الحديدية » عشرات من ملاجئنا بعد ان هادها اليها عيونها وجواسيسها .

واسقط في يد عدد من رفاقنا كبير ، وانتقموا لانفسهم بأساليب ارهابية . ان الخيبة التي منيت بها امالهم جعلتهم يستسلمون للياس والقنوط . وبرزت الى الوجود منظمات ارهابية عديدة غير منتسبة الينا ، فأورثتنا كثيرا من البلاء . ١٢١٠ ان هؤلاء القوم المضللين قد ضحوا بحياتهم في نزق وطمش ،

١٢١ ان حويات هذه الحقبة الرجيزة المفعمة بالياس دامية السطور والصفحات . كان الانتقام هو الحافز المهيمن ، وكان اعضاء المنظمات الارهابية غير مبالين بأرواحهم نفسها ، يأتسبن من المستقبل . كان الدانيون * Danites ، الذين استعدوا اسمهم من ملائكة الانتقام في الميثولوجيا المورمونية ، قد انبثقوا في جبال

وكثيرا ما افسدوا علينا خططنا ، وعاقوا تقدم منظماتنا .
 وخلال ذلك كله اندفعت « العقب الحديدية » حازمة عديمة الشفقة ،
 منزلزة تركيب البنية الاجتماعية كله في بحثها عن الرفاق ، منقبة عن المفقودين
 من المرتزقة ، والطوائف العمالية المغفلة ، وسائر شعبيها السرية ، منزلة
 العقاب في غير رحمة وفي غير حقد ، متحملة في صمت حملات الثار التي شنت

« الغرب الكبير » Great West وانتشروا في طول الشاطئ الباسيفيكي
 وعرضه ، من باناما الى الاسكا . أما « الفالكيرات » ** Valkyries فكان
 كلهن نساء ، ولقد كانت منظمتهن أظف هذه المنظمات على الإطلاق . ولم تكن
 ايما امرأة لتفوز بعضويتها الا اذا كانت ممن فقدن قريبا من اقربائها الاذنين على
 يدي الاولغاركية . ولقد اتهم افرادها بتعذيب اسراهن حتى الموت . وكانت ثمة
 منظمة نسائية اخرى شهيرة هي منظمة « ارسل الحرب » . أما جماعة
 « البيرسيركرز » *** Berserkers فكانت منظمة « شقيقة » لجماعة
 « الفالكيرات » . والواقع ان هؤلاء الرجال كانوا لا يبالون بأي خطر مهما عظم ،
 فكان حياتهم لا قيمة لها في نظرهم البتة . والواقع انهم هم الذين دمروا مدينة
 المرتزقة الكبرى ، وتدعى بيلونا Bellona ، تدميرا كاملا ، وفككوا بسكانها
 البالغ عددهم مئة الف نسمة ونيفا . أما جماعتا « الجانين » Bedlamites
 و « الجهنميين » Heudamites فكانتا منظمتين توأمين من منظمات العبيد
 الارقاء ، في حين ان تلك الفترة عرفت فرقة دينية جديدة لم تعمر طويلا ، وقد
 دعيت تلك الفرقة « غضب الله » . ومن الجماعات الاخرى التي برزت ايضا ،
 والتي نذكرها ههنا - اظهارا لجديتها المهلكة وأطوارها الغريبة - المنظمات التالية:
 « القلوب الدمية » ، « أبناء الصباح » ، « نجوم الصباح » ، « الدواسون » ،
 Flamingoes ، « الزوايا الثلاثية » ، « القضيبان الثلاثة » ، « الروبونيقيون » ،
 Rubonics ، و « المنتقمون » و « الكومانشيون » **** Comanches و
 « الاربيوسيون » ***** Erebustes

* نسبة الى دان Dan احد اولاد يعقوب الاثني عشر . وكان الدانيون هم
 أعضاء إحدى المنظمات المورمونية السرية التي يظن انها شكلت عام ١٨٢٧ (المغرب)
 ** كانت الفالكيرات Valkyries ، في الميثولوجيا السكندنافية ، خادسات
 لكبير الالهة « اودين » Odin . وكانت مهمتهن ان يركبن متن الهواء الى
 ساحات القتال ليختزن الابطال الذين قدر عليهم ان يسقطوا صرعى وليحصلن
 ارواحهم الى قاعة الخلود المسماة « فالهالا » Valhallo (المغرب)

عليها ، مائلة الثغرات في خط قتالها حال ظهورها . وفي الوقت نفسه كان
ارنست وبعض الزعماء الاخرين عاكفين على اعادة تنظيم قوى الثورة .
وفي استطاعة المرء ان يدرك عظم المهمة اذا ما ١٢٢

(انتهى)

*** البيرسيركر Berserker ، في الميثولوجيا السكندنافية ، احد المحاربين
النورديين القدماء الذين تميزوا بقوة وشجاعة عظيمتين والذين اشتهروا بالضراوة
البالغة في ميدان القتال . (العرب)
**** نسبة الى الـ Erebus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقية مكان ذو ظلمة
جحيمية تجتازه ظلال الموتى في طريقها الى سقر المعروفة عندهم بـ « Hades »
(العرب)

١٢٢ هذه هي خاتمة مخطوطة السيدة ايفرهارد . انها تنقطع على نحو فجائي عند
منتصف جملة . ولا ريب في انها تلقت تحذيرا بان قوات المرتزقة مقبلة ، بدليل
انها وجدت متسعا من الوقت لاختفاء المخطوطة قبل ان تفر أو يلقى عليها القبض .
ومن اسف انها لم تعش لتكمل قصتها ، ولو انها فعلت اذن لتبدد الغموض الذي
احاط ، طوال سبعة قرون ، بمصرع ارنست ايفرهارد .

الفهرس

٣	مقدمة بقلم أناتول فرانس
٧	١ . نسري
٢٣	٢ . تحديات
٤٠	٣ . ذراع جاكسون
٥٣	٤ . عبيد الآلة
٦٢	٥ . القيلوماثيون
٨٣	٦ . تلميحات
٩٢	٧ . رؤيا الاسقف
١٠٠	٨ . مدمرو الآلات
١١٧	٩ . رياضيات حلم
١٣٥	١٠ . الدردور ...
١٤٥	١١ . المغامرة الكبرى
١٥٤	١٢ . الاسقف ...
١٦٦	١٣ . الاضراب العام
١٧٦	١٤ . بداية النهاية
١٨٦	١٥ . الايام الاخيرة

١٩٣	١٦ . النهاية
٢٠٤	١٧ . القسوة القرمزية
٢١٤	١٨ . في ظل سونوما
٢٢٤	١٩ . تحول
٢٣٣	٢٠ . اوليغاركي ضائع
٢٤١	٢١ . زئير وحش الهاوية
٢٤٨	٢٢ . « كومون تشيكاغو »
٢٦٢	٢٣ . أبناء الهاوية
٢٧٦	٢٤ . كابوس
٢٨٤	٢٥ . الارهابيون

هذه الرواية

• هذه الرواية الفذة تعتبر اليوم انجيل الاشتراكية والاشتراكيين .
لقد وضعها جاك لندن . وهو كاتب اميركي مناضل ، عام ١٩٠٧
فصور فيها حتمية انتصار الاشتراكية وحتمية انهيار الرأسمالية .
والصراع الرهيب الذي لا بد أن يدور بين معسكري التقدمية
والرجعية ، والأساليب الجهنمية التي تلجأ اليها الرأسمالية في
صراعها من أجل البقاء ...

• وأطرف ما في هذه « الرواية - المعجزة » أن جاك لندن
وضعها على لسان زوجة البطل ، وتخيل أنه عثر عليها من طريق
المصادفة بوصفها مخطوطة كتبت في عهود الظلام ، ومن أجل
ذلك راح يضع لها الحواشي والشروح ، مفترضاً أنه يكتب تلك
الحواشي والشروح بعد بضعة قرون انقضت على بزوغ فجر
الاشتراكية ليصف بعض ظواهر الحياة الغربية في العهد القديم ...

• والأمة العربية اليوم في نضالها المظفر من أجل انشاء مجتمع
اشتراكي جديد أحوج ما نكون إلى الاطلاع على هذه الرواية
الفريدة لتزداد ايماناً بالمبادئ الاشتراكية ولتزداد يقظة واحتراساً
من مؤامرات « العقب الحديدية » ... وهو الاسم الذي أطلقه
جاك لندن على الرأسمالية الاحتكارية التي تنطلق إلى سحق الطبقات
الكادحة بالنار والحديد .

BTJ System AB

800 15 98 8722 D0



الثنى • ١ ل. ل. او ما

Internet orck : biblioteket
Stockholms stadsbibliotek

